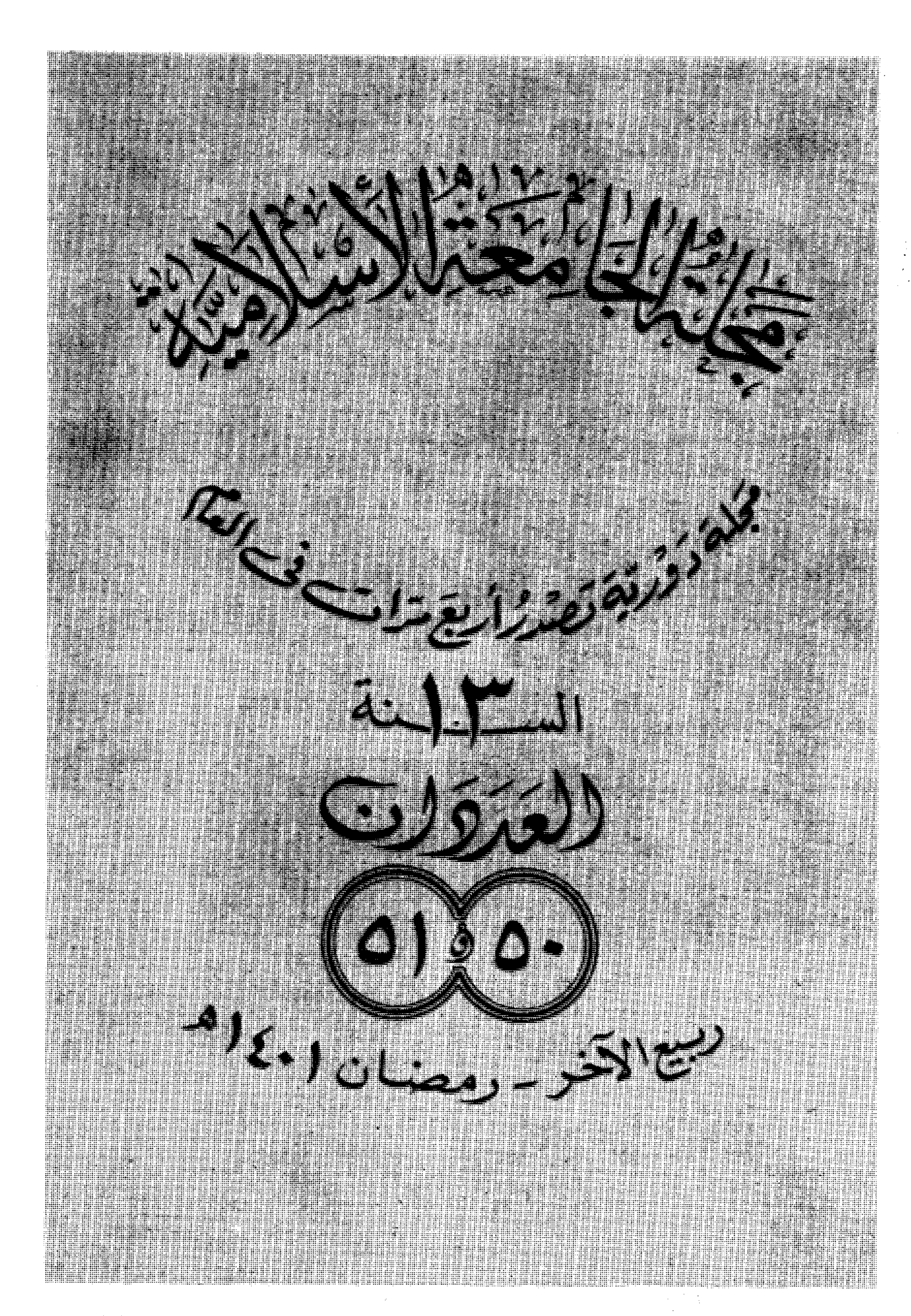
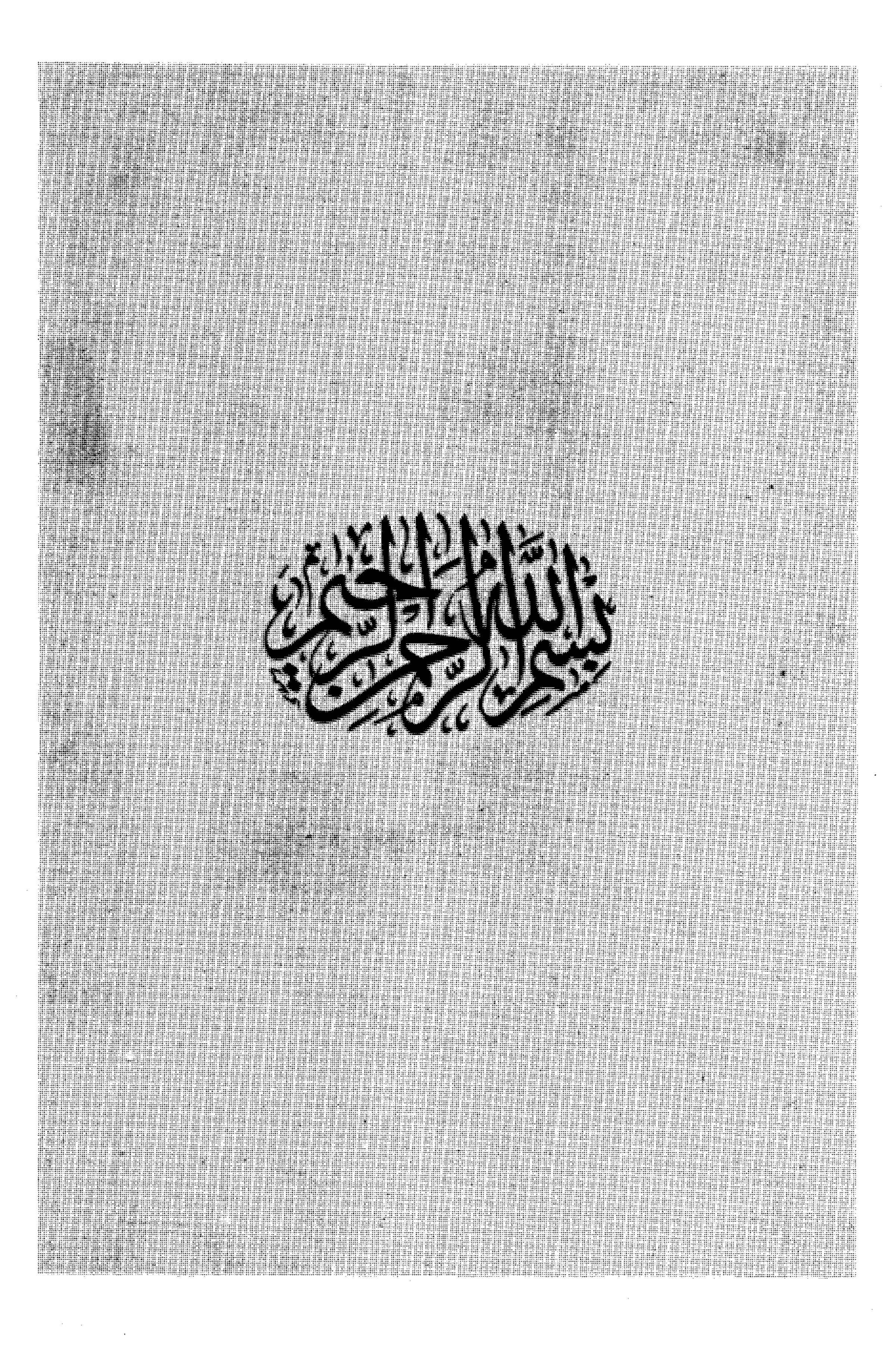
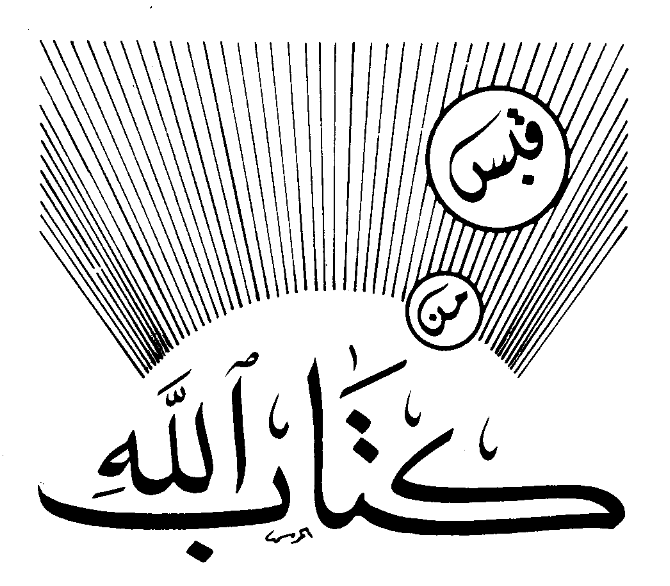

مجلة الجامعة الإسلامية
مجلة دورية تصدر أربع مرات في العام
السنة ١٣
العددان
٥٠ و ٥١
ربيع الآخر - رمضان ١٤٠١هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

هيئة التحرير

المراسلات:

ترسل باسم مدير التحرير. الجامعة الإسلامية. المدينة المنورة



قال الله تعالى :

« وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

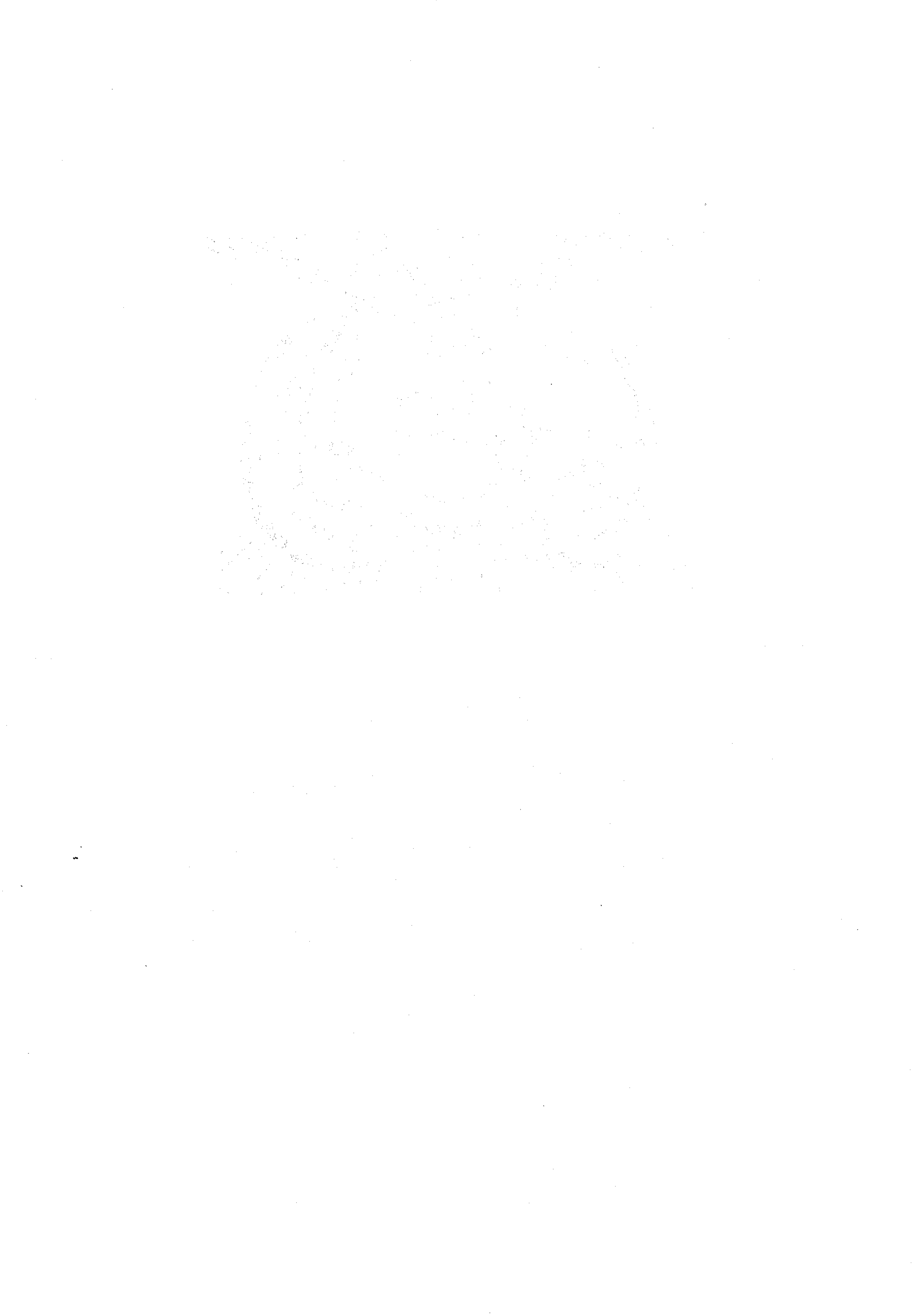
« سورة التوبة »

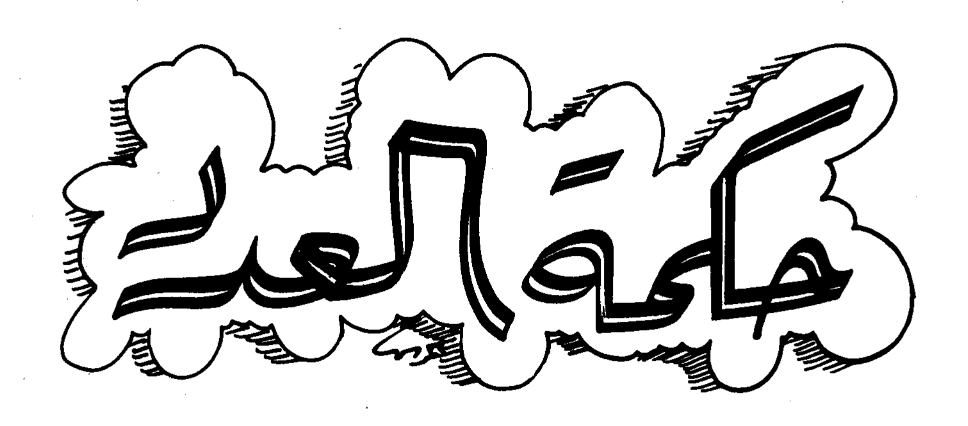


عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ
وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَنَافَسُوا
وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا
وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا.»

«رواه مسلم»

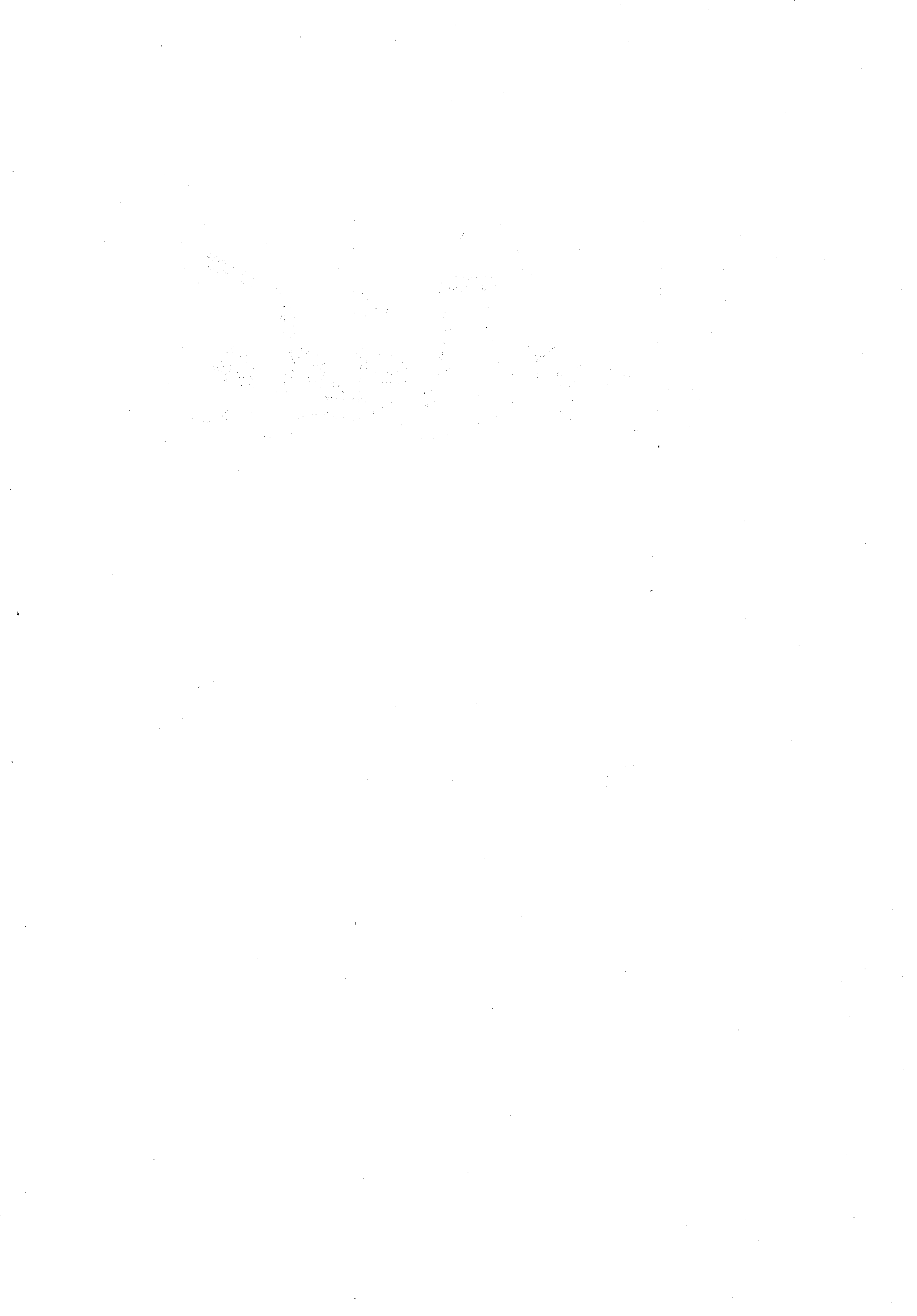




إِذا اللهُ لَمْ يحرُزْكَ مِمّا تخافُهُ

فَلا الدِّرعُ مَنّاعٌ وَلا السَّيفُ قاضِبُ

« أبو فراس الحمداني »





أمتنا المسلمة هى خير أمة أخرجت للناس ، كما يقول تعالى : « **كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله** » (آل عمران) . ذلك لأنها تميزت بصفات لم تبلغها أمة لم تنعم بنعمة الإسلام .

وأمتنا المسلمة ينضوى تحت لوائها أفراد يسيرون مساراً واحداً لا عوج فيه ، كما أمرهم ربهم سبحانه « **وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** » (الأنعام) ، وذلك ابتغاء بلوغ مرامهم الأسمى المشار إليه فى قوله تعالى : « **فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون** » (الأعراف) . وهؤلاء الأفراد المتجانسون يكونون مجتمعا له شخصيته الفريدة ، الفذة ، القوية ، العابدة ، المؤمنة ، التقيّة ، التى تجعله دائما فى صدارة المجتمعات .

يقول تعالى : « **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** » (الأنبياء) .

وأمتنا المسلمة تنتظم أفراداً كلٌّ منهم لبنةٌ فى صرحها الشامخ ، إذا صلحوا صلحت الأمة ، وإذا فسدوا فسدت الأمة .

والإسلام يجعل الإصلاح النفسى للفرد هو الدعامة الأولى لصلاحه واستقامة أمره فى الحياة الدنيا والآخرة . وهو فى سبيل تحقيق ذلك ينظر إلى الفرد من ناحيتين :

الناحية الأولى : أن فيه فطرة طيبة تميل إلى الخير ، وتفرح بإدراكه ، وتأسى للشر ، وتحزن بارتكابه .

والناحية الثانية : أن فيه نزغات طائشة ، وطبائع شريرة ، تنحرف به عن سواء السبيل ٠

ومصير الإنسان فى دنياه وآخرته مرتبط بالناحية التى تكون لها الغلبة عليه ٠

وإلى هذا يشير قوله تعالى : « **ونفسٍ وماسوَّاها ، فألهمها فجورَها وتقواها ، قد أفلح من زكَّاها ، وقد خاب من دسَّاها** » (الشمس) ٠

والإسلام يهتم بفطرة الإنسان اهتماما بالغا من جهة ، فيدعمها ، ويدعو إلى المحافظة على طهرها ونقائها ، وتخليصها مما عسى أن يكون قد لابسها من أخلاط وشوائب ، كما أمر تعالى : « **فَأَقِمْ وجهَك للدين حنيفاً ، فطرةَ الله التى فَطَرَ الناسَ عليها ، لا تبديلَ لخلقِ الله ، ذلك الدينُ القَيِّم ، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون** » (الروم) ٠

ومن جهة أخرى يحذر الإسلام من الاستسلام لنزغات الشياطين التى أشار إلى بعضها قوله تعالى : « **زُيِّنَ للناس حبُّ الشهواتِ من النساء ، والبنينَ ، والقناطيرِ المقنطرةِ من الذهبِ والفضةِ ، والخيلِ المُسَوَّمَةِ ، والأنعامِ والحرثِ ، ذلك متاعُ الحياةِ الدنيا ، والله عندهُ حُسْنُ المآبِ** » (آل عمران) ٠ وكما أشار قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (يشيبُ ابن آدم ويشيبُ معه خصلتان : الحرصُ ، وطول الأمل) (مسلم) ٠

والإسلام ــ فوق ذلك كله ــ يرى أن نزغات الشر تلح على النفوس إلحاحاً مستمراً لتوهن من عزماتها وتجذبها لتلقى بها فى ساحات الهوى ٠ وبؤر الضلال ، للاستمتاع الفانى ، والزاد الهباء ، وتزيين التشبث بهذه الحياة العاجلة ٠

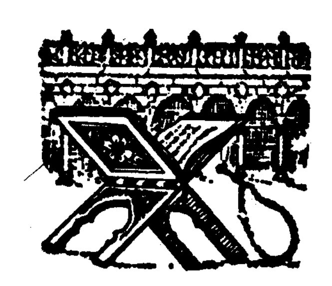
والإسلام ــ من أجل ذلك كله ــ ربط النفوس بعبادات من شأنها أن تتكرر بين أوقات قريبة متلاحقة لتكون صقلاً لها ، وغرساً لمبادىء البر فيها غرساً سليماً تثمر به ، وتؤتى أكلها طيبةً بإذن ربها ٠ وبهذا يكون الفرد المسلم شخصية مسلمةً حقاً لها قدرها ووزنها عند الله ، ثم عند الناس ، ومن ثم تصلح نواةً للأمة المسلمة التى فضلها الله تعالى على أمم العالمين ٠

من هذا المنطلق ، أدعو كل مسلم أن ينظر فى نفسه ، ويراجع أحوالها ، ليرى : هل يصلح بها أن يكون نواةً للأمَّةِ المسلمةِ ؟ فإن وجدها كذلك ، فليحمد الله تبارك وتعالى ،

وليسأله الثبات ، والمزيد من الخير ، وإن وجدها غير ذلك ، فَلْيَرْعَوِ ، ولْيَحْزِمْ أحوالها ، ولْيَسْتَقِمْ بها على أمر الله ، إذ أن المسلمين أشد ما يكونون اليوم حاجةً إلى لَبِناتٍ قوية صالحة ، تشيد بناء أمتهم ، وترسخ دعائمه ، وتعلى صرحه ، لتدكَّ معاقل أعداء الله : من صهاينة غادرين ، وصليبيين حاقدين ، وشيوعيين ملحدين ، واشتراكيين ماركسيين ، وأعوان هؤلاء وأولئك فى أى صورة ، وفى أى مكان ، حتى تقرّ أعيننا بأمتنا المسلمة الواحدة التى تكون لها الهيمنة والصدارة على مدى الزمان ٠

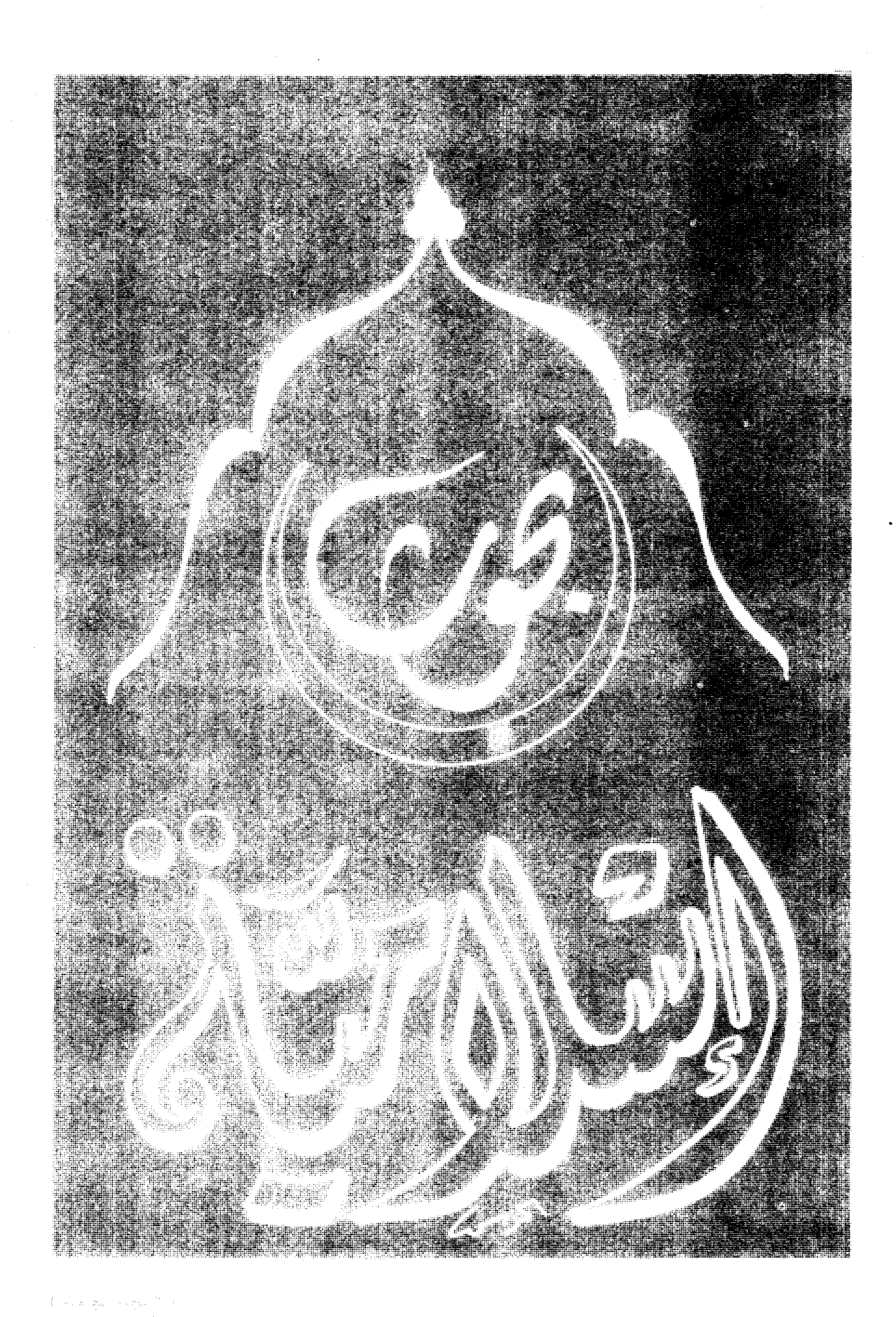
أسأل الله تعالى أن يعجل بتحقيق ذلك ، إن عليه وحده قصد السبيل ، وإن عليه وحده التكلان ٠ وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله الكريم محمد وعلى آله وصحبه ...

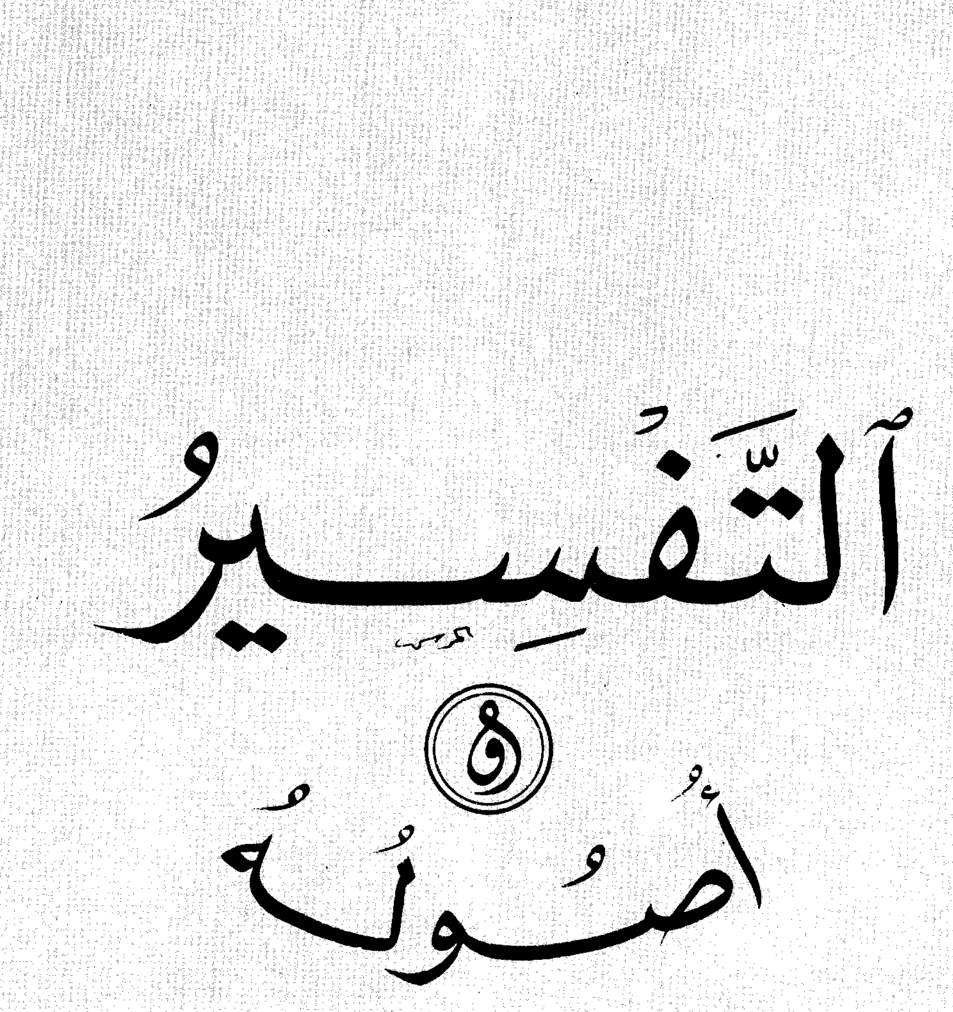
ســـــعد نـــدا



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ:
قَالَ رَسُولُ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
تَجِيءُ ٱلأَعْمَالُ يَوْمَ ٱلقِيَامَةِ، فَتَجِيءُ ٱلصَّلَاةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ أَنَا ٱلصَّلَاةُ، فَيَقُولُ: إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ ٱلصِّيَامُ فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ، ثُمَّ تَجِيءُ ٱلأَعْمَالُ عَلَى ذَلِكَ فَيَقُولُ: إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ ٱلإِسْلَامُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ ٱلسَّلَامُ وَأَنَا ٱلإِسْلَامُ فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ، بِكَ ٱلْيَوْمَ آخُذُ، وَبِكَ ٱلْيَوْمَ أُعْطِي.
قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

رواه أحمد




التفسير
و
أصوله



يقول الله تعالى : (**إنّ الله يأمرُكم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعمّا يعظكم به ، إنَّ الله كَانَ سَميعاً بصيراً**) « النساء الآية : ٥٨ » ·

مناسبة الآية لما قبلها :

كانت الآيات فى التنديد بأهل الكتاب وإظهار بعض مساوئهم ، والتعجيب من حالهم إذ هم أهل كتاب ، ثم هم يسفون إسفاف أهل الجهل والضلال ، حتى إنهم فضلوا أهل الوثنية - كفار قريش - على أهل الدين الحق والتوحيد الخالص - محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين - إذ قالوا لكفار قريش : أنتم أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، وذلك لما سألهُم بعض زعماء قريش عن أىّ الفريقين أهدى ...

ولو أدى أهل الكتاب الأمانة التى أؤتمنوا عليها وهى البيان للناس ، وعدم كتمان الحق ، لما جحدوا نبوّة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولما كفروا به وبالدين الحق الذى جاء به ، ولكن خانوا أمانتهم ، وجاروا فى حكمهم ، فكتموا نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحكموا بتفضيل الباطل على الحق ، والكفر على الإيمان ، والعياذ بالله تعالى ، فناسب أن يذكر الأمر بأداء الأمانات ، والحكم بالعدل · فقال تعالى : (**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات**) الآية · فكان وجه المناسبة واضحاً قويّاً بين الآيات ·

سبب نزول الآيــة :

ما هناك حاجة إلى ذكر سبب نزول الآية بعد بيان اتصال الآيات ببعضها واتحاد معناها . بيد أن أكثر أهل التفسير يذكرون هنا حادثة مفتاح الكعبة . وأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم له من عثمان بن طلحة ورده إليه بعد دخوله الكعبة وخروجه منها يوم فتح مكة المكرمة ، لأن سياق القصة يقول : خرج الرسول صلى الله عليه وسلم من البيت وهو يتلو آية : (**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها**) وأعطى المفتاح لعثمان ، وابن عمه شيبة وقال لهما (١) : خذاها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم . فظن أن الآية نزلت فى هذه الحادثة والرسول صلى الله عليه وسلم فى البيت فخرج يتلوها . غير أنه ليس لازماً أن تكون نزلت بالبيت ، لأن قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم لها بعد خروجه من الكعبة قد تكون من باب التمثل بالآية والاستشهاد بها على رد الأمانات ، وإن كانت الآية قد نزلت قبل فى سياق السورة الطويلة سورة النساء التى منها هذه الآية . كما أنه لا مانع أن تكون الآية قد نزلت فى هذه الحادثة أثناء وجود الرسول صلى الله عليه وسلم فى داخل الكعبة وخرج يتلوها بياناً لحكم رد المفتاح إلى عثمان وابن عمه وقد أخذه منهما على أساس أنه أمانة مؤداة كما جاء فى ألفاظ القصة ، ثم وضعت الآية فى الموضع الذى يناسبها من السورة .

ولعل القراء الكرام يودون سماع قصة المفتاح فنورد لهم بعض ألفاظها هنا فنقول : ذكر صاحب تفسير المنار رحمه الله تعالى : ان صاحب كتاب لباب النقول قال : أخرج ابن مردويه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة دعا عثمان بن أبى طلحة فلما أتاه قال : أرنى المفتاح ! فلما بسط يده إليه ، قام العباس فقال : يا رسول الله بأبى أنت وأمّ اجمعه لى مع السقاية ، فكفَّ عثمانُ يدَه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هاتِ المفتاح يا عثمان ، فقال هاك أمانة ، فقام ففتح الكعبة ، ثم خرج فطاف بالبيت ، ثم نزل عليه جبريل برد المفتاح ، فدعا عثمان ابن طلحة فأعطاه المفتاح ، ثم قال ، (**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها**)

---

(١) عثمن وشيبة بنء عم . إذ عثمان هو عثمان بن طلحة بن أبى طلحة العبدرى أسلم فى الهدنة مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص . وأما شيبة فهو ابن عثمان بن أبى طلحة . مات عثمان بن أبى طلحة فى غزوة أحد مشركا إذ كان حامل لواء المشركين فيها . وبقيت السدانة فى أولاد شيبة إلى يومنا هذا ..

حتى فرغ من الآية · وأخرج شعبة فى تفسيره عن حجاج عن ابن جريج قال نزلت هذه الآية فى عثمان بن أبى طلحة أخذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة فدخل به البيت يوم الفتح ، فخرج وهو يتلو هذه الآية ، فدعا عثمان فناوله المفتاح ، قال : وقال عمر ابن الخطاب ما سمعته يتلوها قبل ذلك · قلت ظاهر هذا أنها نزلت فى جوف الكعبة اهـ ·

مباحث الألفاظ :

إن : حرف **توكيد** ونصب ، توكيد يؤكد به الخبر الذى تضمنته الجملة التى دخل هو عليها · **ونَصْب** أى ينصب الاسم الذى بعده · **ويرفع** الخبر لفظاً ان كان مفرداً ، أو حكماً إن كان جملة كما هو هنا (يأمركم) ·

الله : هذا هو اسم الجلالة الأعظم ، وهو عَلَمٌ على ذات الربّ تبارك وتعالى ، فيُنادى به ويُدعى فيقال يا الله ، فيجيب سبحانه وتعالى ·

يأمركم : الأمر : الطلب على وجه الاستعلاء ، فالله تعالى هو الآمر ، والعباد هم المأمورون ، والله تعالى هو الغالب القاهر والعباد هم المغلوبون المقهورون ·

فلذا كان طلبه تعالى منهم أداء الأمانات والحكم بالعدل أمراً يجب أن يطاع فيه ·

أنْ : حرف مصدر ونصب · سميّت المصدريّة لأنها تسبك مع الفعل الذى دخلت عليه بمصدر فقوله : أن تؤدوا الأمانات ، يصح سبك أنْ والفعل بمصدر فيصبح الكلام : تأدية الأمانات ، أو أداء الأمانات · ونسبت إلى النصب لأنها تنصب المضارع بعدها فيُفْتَحُ إن كان مجرداً من ألف الاثنين ، أو واو الجماعة ، أو نون المخاطب ، وتحذف النون إن كان متصلًا به ما ذكر من ألف الاثنين ·· الخ ·· كما هو الآية : أن تؤدوا · فحذفت نون تؤدون وهى نون الرفع المتصلة بواو الجماعة · فأصبحت تؤدوا ·

تؤدوا : معناه : تعطوا ما ائْتُمِنْتُم عليه وتُقْضُوهُ صاحبه الذى أمنكم عليه ، وائتمنكم على حفظه ·

الأمانات : جمع أمانة .وهى كل ما أئتمن عليه الإنسان ليحفظه ويؤديه إلى من ائتمنه عليه وقت الطلب · ويدخل فى الأمانات كل ما تعهد العبد بأدائه لله تعالى من سائر التكاليف الشرعية حتى الغسل من الجنابة أمانة · وأحاديث تجرى فى المجلس أمانة وفى الخبر المجالس بالأمانات ·

إلى : حرف جر يجر الاسم ويخفضه نحو ذهبت إلى المسجدِ فالمسجد مجرور بمعنى مخفوض بالجرة التى هى الكسرة · ويقال فيها حرف جر وغاية لأن المجرور بها هو منتهى المطلوب وغايته ·
فغاية الذهاب المسجد · وغاية أداء الأمانات أهلوها ·

أهلها : أصحابها المستحقون لها استحقاقا شرعياً لأنها لهم وهم مالكوها · ولذا لم يقل أصحابها بل قال : أهلها ، لما فى معنى (أهل) من الأهلية التى هى الاستحقاق بجدارة وتأهيل وثبوت ·

وإذا : الواو حرف عطف ، إذ عطفت بها جملة الحكم بالعدل على جملة أداء الأمانات · و (إذا) شرطية ، وهى ظرف لما يستقبل من الزمان ، خافض لشرطه منصوب بجوابه ·

حكمتم : قضيتم بما يمنع أحد الخصمين من صاحبه ويكفه عنه ، ولا يتم ذلك إلا إذا كان القضاء بالحق ·

بين : ظرف بمعنى وسط منصوب على الظرفية ·

الناس : لفظ دال على جمع كلفظ قوم ورهط · وَاحِدُهُ من غير لفظه وهو إنسان ، ويجمع إنسان على أنَاسِيّ وهم البشر · خلاف الحيوان والجان والملائكة ·

أن تحكموا بالعدل :

أنْ : حرف تقدم معناه ·

تحكموا : تقدم معناه أيضا ·

بالعدل : الباء حرف جر ومعناها هنا الآلة بمعنى أن ما دخلت عليه فيه معنى الآلة التى يكون بها الشيء · فقولنا ذبحت بالسكين : السكين آلة الذبح ، وحكمت بالعدل : العدل آلة الحكم · والعدل ضد الميل والجور ، وهو إذاً الإنصاف والمساواة بإعطاء صاحب الحق حقه ، ومنع الآخرين من الجور والظلم ·

إنَّ : تقدم معناها ·

الله : تقدم معناه أيضا ·

نِعِمَّا : أصل الكلمة نِعْمَ · ما · فنعم كلمة مدح واستحسان ، مشتقة من النعمة التى هى الخير وما يحسن بالإنسان ولا يسوؤه · **ومــا** نكرة بمعنى شيء · ركبّت مع بعضها بعضا فأصبحت نِعِمَّا · ودخلها إعلال بتسكين الميم الأولى وإدغامها فى الثانية ، وكسر العين بعد تسكين الميم حتى لا يلتقى ساكنان ·

يعظكم : يأمركم · أى نعم شيء يأمركم الله به ؛ أداء الأمانات والحكم بالعدل ·

بــه : الباء حرف جر ؛ الضمير يعود على الشيء المأمور به وهو أداء الأمانات والعدل فى الحكم بين الناس ·

إنَّ : حرف تقدم معناه ·

الله : تقدم معناه أيضا ·

كان سميعاً بصيراً : كان فعل ماض ناقص يخبر به عن الماضى المنقطع ، والمستمر إلى زمن التكلم وما بعده · يرفع الاسم وينصب الخبر ، واسم كان هنا ضمير مقدر فيها تقديره هو ، يعود على الله تعالى ، وسميعا بصيراً خبران عن اسم كان · ومعنى السميع ذو السمع الكثير ، والبصير ذو الإبصار الكثير أيضا ، لأن صيغة فعيل المعدولة عن فاعل تكون للمبالغة فى الكثرة فهى أعظم من سامع ، ومبصر ·

معنى الآية الإجمالى :

يخبر تعالى أنه يأمر عباده المؤمنين بأداء الأمانات إلى أهلها الذين ائتمنوهم عليها ، وبالعدل فى أحكامهم إذا هم حكموا بين الناس فى كل شيء حكموا فيه · كما يخبرهم أن ما أمرهم به من أداء الأمانات ، والحكم بالعدل هو أمر حسن ، لهم فيه خير عظيم إذ عليه تتوقف سعادتهم وهناؤهم فى دنياهم وأخراهم · وحفزاً لهم على قبول أمره وامتثاله لما فيه من الخير الكثير أخبرهم أنه سبحانه وتعالى سميع لما يقولون بصير بما يعملون ، يعلم منهم أماناتهم ، وخياناتهم ، وعدلهم ، وجورهم · وسيرتب جزاءهم على كسبهم ، ويجزيهم به إن خيراً فخير وإن شرًّا فشر ·

خَطَرُ هــذه الآية :

إن هذه الآية الكريمة ؛ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الخ ··· ذات خطر عظيم

على الهيئة البَشرية كلها ؛ لأن قوام الحياة كلها على أداء الأمانة ، والحكم بالعدل ، ولذا قال بعضهم : هذه الآية والآية التى بعدها (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) عليهما قيام الدولة الإسلامية ، ولو لم ينزل فى القرآن غيرهما لكفتا ، ولما احتيج فى نظام الدولة إلى غيرهما ·

وبيان ذلك : أن الأمانة لفظها يشمل كل ما ائتمن الله تعالى عليه عباده المؤمنين من سائر التكاليف وهى **أعمال القلوب والألسن والجوارح** ، فإذا أدى كل فرد ما التزم به مما ائتمنه الله تعالى عليه استقامت الحياة للناس كلهم وسعدوا أجمعون · وبما أن الضعف فطرى فى الإنسان (وخلق الإنسان ضعيفاً) فإن وجود ظلم أو حيف من بعض الأفراد من أهل الأمانات ضرورى حسب طبيعة الحياة الإنسانية ، فإذا وجد الحكم العادل وكان خلقا لكل مؤمن ، فما يحكم أحدٌ فى شىء إلا تحرى العدل وحكم به ، تلافى المؤمنون ذلك الضعف فى حياتهم الإيمانية ، فكملوا وسعدوا · والكمال والسعادة فى الدنيا آية الكمال فى الآخرة والسعادة فيها · كما أن النقص والشقاء فى الدنيا علامة الشقاء والنقص فى الحياة الآخرة ·

عنايَة الشارع برعاية الأمانة والعدل :

لما كانت الحياة السعيدة وهى الآمنة المطمئنة لا تتوفر إلا فى أجواء الأمن والعدل الكاملين ، كانت عناية الشارع بهذين الخُلُقين كبيرةً جداً ، ففى القرآن الكريم ، تذكر الأمانة فى موضع منه ، وأنها عامة فى سائر التكاليف الشرعية ، فكل شىء فى حياة المؤمن أمانة يجب رعايتها « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » فالمؤمن مسئول عن قلبه لا يسمح للشيطان أن يحتله عليه فيفسده عليه ولا يخرج منه ، مسئول عن بدنه بكل حواسه لأنه الآلة التى بها يعبد ربه ، فإذا فرَّط فى جزء منه تعطلت المهمة التى خلق لها وهى العبادة · وموضع هذه الآية المفيدة لعموم الأمانة هى قوله تعالى من سورة الأحزاب : **(إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان · إنه كان ظلوما جهولا) ·**

كما تذكر الأمانة فى موضع آخر من القرآن وأنها أحد الأسباب القوية فى تطهير الروح وتزكية النفس من داء الشح ومرض الهلع · وذلك من سورة المعارج · كما ذكرت فى سورة المؤمنون وأنها أحد موجبات الجنة ومقتضيات دخولها والأسباب المورثة لها · وفى السنة النبوية تصريحات خطيرة فى شأن الأمانة ، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لا إيمان

لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » رواه أحمد وابن حبان وغيرهما وعلم عليه بالصحة فى الجامع الصغير · ومعناه ظاهر ، فإن الذي لا يحفل بالأمانة ولا يهتم برعايتها حتماً سيؤدى به ذلك شيئاً فشيئاً حتى يسلب الإيمان · والعياذ بالله تعالى ، لأن المعاصى بريد الكفر كما يقولون ، وهو الواقع ·· وكمضيع الأمانة ناكث العهد فإن نكث العهود والاستمرار على ذلك لم يبق للعبد ديناً يدين به لله تعالى ، وذلك لعدم احترامه لالتزاماته مع الله ومع الناس · وما دام لم يلتزم لله بطاعة ، ولا لعباده بحق ، فماذا بقى له من الدين ؟ وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » ·

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تَخُنْ من خانك » (١) · فإنه صلى الله عليه وسلم لم يأذن للمؤمن أن يعاقب من خانه بخيانة مثل خيانته ، وذلك خشية أن يؤدى استعمال الخيانة ولو مرة واحدة وقصاصا أيضا لا ابتداء ، خشية أن يؤدى إلى أن تصبح الخيانة خلقا للمؤمن فيسلب إيمانه ويهلك ·

هذا فى الأمانة · أما ما جاء فى العدل · فهو أعظم · فمن سورة الأنعام يقول تعالى فى الوصايا العشر : **(وإذا قلتم فاعدلوا)** فهو تعالى يأمر بالعدل فى القول ، وهو يتناول الأخبار ، فيلتزم المؤمن فى أخباره بالصدق المنافى للكذب ، ويتناول الشهادات ، فيلتزم المؤمن فيها بالعدل فيؤديها كما تحملها فلا يحرفها ولا ينقص فيها ولا يزيد ، كما لا يخفى شيئا ولا يكتم آخر منها · ويتناول الأحكام إذ من شأنها تصدر بالقول فيلتزم الحاكم العدل فى حكمه ولو حكم على نفسه أو أقرب الناس إليه ·

ومن سورة (ص) ينادى تعالى عبده داود ويذكره بما مَنَّ عليه به من نعمة الدولة والسلطان ويأمره بالعدل فى الحكم فيقول : **(يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله)** ·

---

(١) رواه أحمد وأهل السنن وهو صالح للاحتجاج ·

ومن سورة الحجرات يأمر الله تعالى المؤمنين بالعدل فى الصلح إذا أصلحوا بين المختصمين ويأمرهم بالعدل في الحكم ويرغبهم فيه بذكر حبه لأهله فيقول : **(وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بَغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) .**

ومن أجلّ ما ورد فى السنة فى شأن العدل وفضله وفضل أهله ـ جعلنى الله وإياكم من أهله ـ قوله صلى الله عليه وسلم : « إن المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين ، هم الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما وَلُوا » . رواه مسلم وأحمد والنسائى .

فأى ترغيب أعظم ، وأى شرف أجل وأكبر كما هو فى العدل وأهله . إن أهل الإقساط والعدل على منابر من نور ، وأين ؟ إنهم على يمين الرحمن ، فأى كرامة أكبر من هذه الكرامة ؟ !

وهذا وحده كافٍ فى الدلالة على أهمية العدل وشرفه وشرف أهله . ومن هنا قدمنا القول بأن جماع صلاح الدنيا والآخرة والسعادة فيهما ، هو فى أداء الأمانات ، والعدل فى الأحكام .

وأخيراً ، من الأحكام العملية فى هذا الباب أن من ائتمن على شىء ولم يفرط فيه بأىّ وجه من أوجه التفريط ، ثم ضاع منه بدون رضاه . فلا يلزمُهُ أداؤه شرعاً ولا أدباً . كما أن من اجتهد فى إصابة العدل والحق وكان من أهل الاجتهاد فعلا ، ثم لم يصب الحق والعدل فى قوله أو حكمه أو فعله بأن أخطأ فلا إثم عليه ، إذ لا يؤاخذ الله العبد إلا بفعله أو قوله الإرادى الاختيارى . وفى الحديث « من اجتهد فأخطأ فله أجر اجتهاده » ...

عرض القرآن الكريم لكثير من قضايا الدين والدنيا ، وسلك في عرضها أساليب مختلفة متنوعة ، وما عرض لقضية في صورة من الصور إلا أتى فيها بما يثلج الصدور ، ويروى الظماء ، وبما يقنع من يريد أن يقتنع ، ويهدى من يبحث عن جادة الطريق .

ولم يجنح بالضالين منذ عهد البعثة إلى يومنا هذا عن سواء السبيل إلا الجهل أو العناد ، أو هما معاً .

وأخطر أدواء الجهل هو الجمود على دين الآباء والأجداد ، وأخطر أدواء العناد هو الحقد على الدعوة ، وصاحبها ، ثم على الإسلام والمسلمين .

وقد عالج القرآن الكريم هذين الداءين بما يحسمهما ، لو اعتصم المارقون بالعقل ، وخلدوا الى الإنصاف ، وصنعوا لأنفسهم ، وبغوا لها الخير والصلاح في الدين والدنيا ، وربأوا بها عن الارتكاس في ظلمات الجهل ، والتردى في نيران الحقد .

عالج الجهل بالدعوة الى النظر في ملكوت السموات والأرض ، والى الاستماع لآيات الله وإمعان النظر فيها ، وبالأمر بسؤال أهل الذكر ، حين تستبهم المعالم ، وتضل الطريق ،

وتطبق الظلمات ، ثم بالزراية على التقليد الأعمى ، وبالتهوين من شأن من يقولون : « إنا وجدنا آباءَنا على أمَّة وإنَّا على آثارهم مُهتَدُون » (الزخرف /٢٢) .

وعالج العناد بالحجة الحاسمة ، والبرهان الدامغ ، الذى لا يجد المعاند معه ـ أن أحسن الى نفسه وعقله ـ طريقا إلى التنكر للحق ، والأصرار على الباطل .

ولكن كفار قريش ، ومعهم مشركو العرب ، والمنافقون من أهل المدينة ، والضالون من أهل الكتاب رضوا بالجهل حيناً ، وبالعناد في أحيان كثيرة ، حتى وصل العناد ، والتمادى فى الباطل بمشركى مكة أن يقولوا ـ كما حكى عنهم القرآن الكريم ـ « اللَّهُمَّ إن كان هذا هو الحقَّ مِنْ عندك فأمْطِر علينا حجارةً من السماء أو إئتنا بعذاب أليم » (الأنفال /٣٢) .

وصاروا ـ كما أخبر عنهم القرآن : « ولو نزَّلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوهُ بأيْديهم لقال الذين كَفَرُوا إنْ هذا إلاَّ سْحِرٌ مبين » (الأنعام /٧) وكما قال سبحانه : « ولو فتحنا عليهم بابا من السَّماء فظلُّوا فيه يَعْرُجون لقالوا إنما سَكرتْ أبصارنا بل نحن قوم مسْحورُون » (١) (الحجز /١٤ ، ١٥) .

وكما قال تعالى : « ولو أننا نزلنا عليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قُبُلًا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » (الأنعام /١١١)

بل اشترطوا لإيمانهم وخضوعهم شروطاً : « قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله » (الأنعام /١٢٤) .

وقد سبقهم بنو اسرائيل بمثل هذا العناد ، فخالفوا على نبيهم موسى ، وردوا دعوته : وقالوا « لَنْ نؤمن لك حتى نرى الله جَهْرة » (البقرة /٥٥) . « وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين » (الأعراف /١٣٢) .

وكان فعل اليهود هذا تسلية للنبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد قص عليه القرآن نبأهم حين ضاق النبى بتعنت قومه ، وطلبهم الآيات : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السَّماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرِنا الله جهرةً فأخذتهم الصاعقةُ

---

(١) ومعنى الآية ـ كما قال ابن عباس ـ : لو ظل المشركون يصعدون فى تلك المعارج ، وينظرون إلى ملكوت الله تعالى وقدرته وسلطانه ، وإلى عبادة الملائكة الذين هم من خشيته مشفقون لشكوا في تلك الرؤية ، وبقوا مصرين على كفرهم وعنادهم .
ومعنى (سكرت أبصارنا) لا تدرك الأمور عل حقائقها ، فكأنها منعت من النظر ، فحارت وسكنت عن النظر .

بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات » (النساء /١٥٣) ٠

وقد كان أهل الكتاب يعرفون محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما يعرفون أبناءهم ، ويعرفون ـ كما يعرف كفار مكة ـ أن القرآن حق ، وأنه من عند الله ، ولكنها الكبرياء والعناد والجهل ، عوائق تصدهم عن ذوق حلاوته ، وفيهم يصدق قول أبى الطيب المتنبى : ـ

ومن يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَريضٍ   يجــدُ مرًّا به الماءَ الزُّلالا

وقد عرض القرآن الكريم مختلف الأدلة والبراهين في كل قضية عرض لها ، وكان يسلك أسلوب البسط أحيانا ، وأسلوب الإيجاز أحيانا أخرى ، وفي كلتا الحالتين كان يصل إلى نهاية المدى في إبلاغ الحجة ، وإقامة الدليل ، مع القوة والوضوح ٠

كان يتناول القضية فيلم بجميع أطرافها حتى لا يترك فيها مقالا لقائل ، أو يتناولها فيكتفى بموضع الحجة ، ولكنها الحجة الحاسمة الدامغة ٠

ومن أروع ما في المحاجات القرآنية أنها لم تقتصر على خطاب العقل وحده كما هو الشأن في البراهين المنطقية ، ولا على مخاطبة الوجدان وحده ، كما هو الشأن في الخطابات ، والأخيلة الشعرية ٠ وإنما كان يشرك مع العقل الوجدان فيخاطبهما معاً ، وبذلك تبلغ الحجة من العقول والقلوب ما تريد ، من تثبيت الحق ، وازهاق الباطل ، واقناع ذوى الفطر السليمة ٠

ولم تكن حجج القرآن وبراهينه مغرقة في الفلسفة ، ولا موغلة في المنطق ، ولا بعيدة عن الفطرة ، بل اعتمد أكثرها على لفت النظر إلى المشاهد الحسية ، والبديهيات التى لا خلاف عليها ، وربما نظر بعضها إلى الاقناع المنطقى ، ولكنه لا يستدعى التفكير الطويل ، ولا يشوبه شىء من الغموض الذى يشوك طريق السالك إلى الحق : « لو كان فيهما آلهةٌ إلاَّ الله لفسدتا » (الأنبياء من الآية ٢٢) ٠ « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهْوَن عليه » (الروم من الآية ٢٧) (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يُحيى العظام وهي رميم قل يحييها الذى أنشأها أوَّلَ مَّرة وهو بكل خلق عليم » (يس الآيتان ٧٨ ـ ٧٩) ٠

وقد وجه القرآن الأنظار إلى كثير من آيات الله في خلق السموات والأرض ، وفي خلق الأنفس ، وسائر الكائنات ، وضَرَبَ الأمثالَ ، وصرَّفها على وجوه كثيرة ، وألزم المعرضين في كل ذلك الحجة على صحة ما وجههم اليه ٠

وربما استغرقت القضية ـ كما أشرت ـ العدد الكثير من الآيات ، بل ربما جاءت السورة بأكملها ـ مع طولها ـ لتشرح قضية من القضايا ، وتحتج لها ، وربما اكتُفي بالآية الواحدة ، بل بالجملة من الآية ، بل بالكلمة ، فتقام بذلك الحجة ، ويقنع به البرهان ٠

وسأكتفى في هذا البحث الموجز بالحجج القصيرة التى أغنت ـ مع إيجازها ـ عن كلام كثير ٠

لقد سيطر الجهل على عقول المشركين فزعموا ـ فيما زعموا من ترهاتهم وأباطيلهم ـ أن لله ولدا ، وقد حكى القرآن الكريم عنهم هذا الزعم في أكثر من آية : « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً » (مريم الآية ٨٨) وزعموا أن هذا الولد ليس من الذكور بل هو من الإناث : « ويجعلون لله ما يكرهون » (النحل من الآية ٦٢) ٠ « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا » (الاسراء الآية ٤٠) ٠ وهذه هى الفرية الثالثة أنهم جعلوا الملائكة بنات الله ٠

ثلاثة أباطيل أذاعوها ، وآمنوا بها : أن لله ولدا ، وأن هؤلاء الولد هم الملائكة ، وأن هؤلاء الملائكة إناث ٠

فماذا كان رد القرآن عليهم ؟

لقد جاء في بعض الآيات ردود قصيرة على مجرد اتخاذ الولد ، فهم يزعمون أن لله ولدا ولكنهم لا يقولون أن له زوجا ولدت الولد ، فحجهم القرآن : « وجعلوا لله شركاء الجنَّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون بديعُ السموات والأرض أنىَّ يكون له ولد ولم تكنْ له صاحبةٌ وخلق كلَّ شىء وهو بكل شىء عليم » (الأنعام ١٠١) ٠

« بغير علم » ٠ « أنىَّ يكون له ولد ولم تكن له صاحبة » ٠ حجتان مقنعتان لمن يريد أن يقتنع فدعواهم صادرة عن جهل لا عن علم ، فكيف تكون موضع يقين عندهم ؟ بل كيف تكون موضع شك ، أو وهم ؟ وهى دعوى لا تستند على أساس صحيح ، فكل من ولد كانت له زوج ، وأنتم مؤمنون بأنه لا زوج له ، فأين تذهب بكم أوهامكم ؟ !

ثم بين سبحانه في آية أخرى مصدر العلم الصحيح ، ونفاه عنهم في أوجز عبارة ، وأقوى حجة : « وجعلوا الملائكة الذين هم عبادُ الرحمن إناثا أشِهدوا خلقهم » (الزخرف من الآية ١٩) ٠

هكذا في ايجاز وحسم : « أشهدوا خلقهم » مع هذا الاستفهام الإنكارى التوبيخى الذى أدى ما يعجز الخبر التقريرى عن أدائه ٠

وقد جاء هذا الرد الحاسم في آية أخرى : « فاسْتَفْتِهم ألرِبك البناتُ ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون » (الصافات الآيتان ١٤٩ ـ ١٥٠) ٠

فالملائكة خلق من خلق الله ، لم يطَّلع أحد من البشر على حقيقة خلقهم ، فلا سبيل للحكم بنوع هؤلاء العباد ؛ لأن الحكم على شيء ما ، لا بد أن يكون عن طريق مشاهدته ، أو عن طريق خبر صادق عنه ، وهم - قطعا - لم يشهدوا خلقهم ، ولا ينكرون أنهم لم يشهدوا ، ولم يأت به خبر صادق ، لا من القرآن الكريم ، ولا من خبر الصادق الرسول الأمين ، فكما أنهم لم يشهدوا خلق الملائكة كما صرحت الآية الكريمة ، وكما هو أمر لا جدال فيه ، كذلك ليس عندهم علم عن طريق الأخبار الصادقة ، وبذلك تحداهم القرآن : « ألا إنَّهم من إفكهم ليقولون وَلَد الله وإنهم لكاذبون أصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون أفلا تذكرون أم لكم سلطانٌ مبينٌ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين » (الصافات الآيات ١٥١ - ١٥٧) . وأين هو الكتاب ؟ فقد انتفت عنهم المشاهدة ، وانتفى عنهم الخبر الصادق . فمن أين جاء لهؤلاء المفترين أن الملائكة إناث ، وأنهم بناتُ الله ؟ وكيف سمحت لهم عقولهم أن يدَّعوا دعوى لا يمكنهم اقامة الدليل عليها من مشاهدة عيان ، أو من خبر صادق ؟ .

ومشركوا مكة اتَّهموا رسول الله محمدا - عليه أفضل الصلاة والسلام - بالجنون ، ويبدو أن هذه كانت أول تهمة اتهموه بها ، فقد جاء ذكرها في سورة القلم ، وهى من السور الخمس الأوائل نزولا . ثم جاء ذكرها في آيات أخرى : « ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون » (القلم الآيتان ١ - ٢) . « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزِّقتم كل مُمزَّق أنكم لفى خلق جديد أفْترى على الله كذبا أم به جِنَّةٌ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد » (سبأ الآيتان ٧ - ٨) . « أم يقولون به جِنَّة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون » (المؤمنون الآية ٧٠) . « أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولَّوا عنه وقالوا مُعلَّم مجنون » . (الدخان ١٣ - ١٤) الى غير ذلك من الآيات .

فماذا كان ردُّ القرآن عليهم في نفي هذه التهمة عن رسوله المبين ؟

بأوجز كلمة . وأقواها دلالة ردَّ عليهم القرآن الكريم في ثانى آية نزلت بعد : « اقرأ باسم ربك » وهى آية القلم : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » .

قال الفخر الرازى في تفسير هذه الآية : « نفى الجنون عنه ، ثم إنه تعالى قرن بهذه الدعوى ما يكون كالدلالة القاطعة على صحتها ، وذلك لأن قوله : « بنعمة ربك » يدل على أن نعم الله تعالى كانت ظاهرة في حقه من الفصاحة التامة ، والعقل الكامل ، والسيرة المرضية ، والبراءة عن كل عيب ، والاتصاف بكل مكرمة ، وإذا كانت هذه النعم محسوسة ظاهرة فوجودها ينافى حصول الجنون ، فالله تعالى نبَّه على هذه الدقيقة لتكون جارية مجرى الدلالة اليقينية على كونهم كاذبين في قولهم إنه مجنون) .

ونلاحظ أن الكلمة جاءت في سياق الكلام ، ولم توضع موضع الرَّد ، ولا سيقت مساق الحجة على نفي التهمة ، وإنما قرنت بالآية ليتنبه لها الفطين ، ويدرك - كما أنهم ولا شك أدركوا أنها من أقوى الأدلة ، وقد جاءت الكلمة نفسها في آية أخرى : « فذكِّر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » · (الطور - ٢٩) (١) ·

ومثل ذلك يقال في كلمة : « مبين » التى وردت في آية (الدخان) فهم لا يجهلون أنه مبين بل لا يجهلون أنه من أبين أبينائهم ، فلا شك أن الكلمة لفتتهم لفتا قويا إلى مدى ما يرتكسون فيه من باطل حين يتهمون هذا الرسول المبين بما هو أبعد شيء عن الإبانة ، ذلك أن من أول ، بل من أقوى آلاتها العقل ، بل العقل الحصيف الواعى ·

وكذلك حجَّهم القرآن بكلمة واحدة في نفى ما بهتوا به الرسول من الجنون : وفي أول الدعوة - أيضا - ، فقد جاء في سورة (التكوير) ، وهى خامس سورة نزلت قوله تعالى : « وما صاحبكم بمجنون » (التكوير الآية ٢٢) · والمراد بصاحبهم في الآية رسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وقد كرَّر القرآنُ هذا الوصف فجاء في سورة (الأعراف) : « أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جِنَّةٍ إن هو إلا نذير مبين » (الأعراف الآية ١٨٤) ، وجاء في سورة (سبأ) : « قل إنما أعظكُم بواحدة أنْ تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جِنَّة إن هو إلا نذير لكم بين يَدَىْ عذاب شديد » (سبأ الآية ٤٦) ·

والذى يَلْفِتُ النظر في هذه الآيات هو تكرار كلمة (صاحب) ، واضافتها إلى كفار مكة ، وربطها بالفِرْية العظمى التى افتروها على الرسول ، وهى اتهامه بالجنون ·

فكيف وهو (صاحبهم) مرة بضمير الغيبة ، ومرة بضمير الخطاب ، وهو (صاحبكم) أيها المتهمون له بالجنون ؟ !! ·

نشأ بينكم ، وقضى طفولته وشبابه وكهولته بين ظهْرانيكم ، وأنتم تعرفونه حق المعرفة ، فهو صاحبكم ، تعرفونه ، ويؤكد بعضكم أنه لم يكذب قط ، بل تعرفون أنه لم ينحرف لحظة واحدة عما يقتضيه العقل والحكمة ، وحسن الروية ، وبعدُ النظر ·

أبعد أربعين سنة عاشها بينكم ، وهو من أوسطكم دارا ، وأشرفكم نسبا ، وأكرمكم أباً وأما ، يصدق في القول ، ويحفظ الأمانة ، ويحكم - حين تحكمونه - بأعدل حكم ، وأنتم في كل ذلك تصحبونه في غدوه ورواحه ، ومَنْشطه ومكرهه · وتلقبونه بالصادق الأمين دون أن

---

(١) وتلاحظ في آية (الطور) أن القرآن نفى عن الرسول الكهانة أيضا ، وهي مما اتهم به . ومن اليقين أن الكهانة لا تجتمع مع نعمة الله فى قلب إنسان ·

يطلب منكم أن تثنوا عليه : أو ترفعوا من قدره ، وإنما أنطقكم بذلك واقعه ·

أبعد كل هذا تتهمونه بما تعتقدون أنه منه براء ، وأنه إذا كانت هناك صفة أبعد ما تكون عن إنسان فهى صفة الجنون يوصف بها محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ؟ !!

وليس بعجيب أن يتخبط الكافرون المعاندون ، فقد جاء في القرآن الكريم : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون » (الذاريات :آية ٥٢) ·
فهى سنة الله تعالى مع أنبيائه ، ومع أقوامهم ·

ولكن كان على كفار مكة أن يتفكروا ، وأن يطيلوا التفكير قبل أن يلقوا هذه التهمة على أعقل العقلاء ، وأحكم الحكماء : « أفَلَم يدَّبروا القول أم جاءهم ما لَمْ يأتِ آباءَهم الأولين أمْ لَمْ يعرفوا رسولَهم فهم له منكرون » · (المؤمنون : آية ٦٨ ، ٦٩) ·

بلى : هم يعرفون رسولهم ، وإنما أنكروا وجحدوا وادَّعوا عِنادا وطغيانا ، وتكبرا ، وتجبرا ، كما أخبر سبحانه بآية كريمة واضحة بعد آيات (الذاريات) السابقة : « أتَوَاصَوا به بلْ هم قوم طاغون » · ليس التواصى هو سبب هذه الادعاءات الباطلة ، وإنما هو الطغيان بدليل (بـــل) الاضرابية ·

قال العلامة أبو السعود في تفسير هذه الآية : « بل هم قوم طاغون » · قال : (إضراب عن كون مدار اتفاقهم على الشرِّ تواصيهم بذلك ، وإثبات لكونه أمرا أقبح من التواصى ، وأشنع منه ، من الطغيان الشامل للكل الدال على صدور تلك الكلمة الشنيعة عن كل واحد منهم بمقتضى جبلَّته الخبيثة لا بموجب وصية من قبلهم بذلك من غير أن يكون ذلك مقتضى طباعهم) ·

فلولا هذه النفوس الخبيثة ، وهذه الطباع السيئة لكان أدنى تفكير في هذه الكلمة القرآنية الحاسمة : (صاحبكم) كفيلا بأن يردهم إلى الصواب ، وينطقهم بما هو أجدر بعقولهم ، ومكانتهم في قولهم وفي العرب فيرجعوا عن بهتانٍ هم أول من يعلم أنه بهتان ·

لو أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان من شعب آخر غير الشعب العربى ، أو لو أنه رُبِّى في بيئة أخرى غير بيئة مكة ، أو بين ظهرانى قومٍ غير قريش ، لو كان شىء من ذلك لكان لقولهم وجه ما ·

وقد زعم مشركوا مكة أن محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ تعلم القرآن من بشر · قال تعالى : « ولقد نعلم أنَّهم يقولون إنما يعلمه بشر » (النحل آية ١٠٣) ·

واختلفت نقول المفسرين في تعيين هذا البشر ، ولكن اتفقت كلمتهم ـ كما أكد القرآن الكريم ـ على أنه رجل ليس بعربى ٠

ومما قيل إنه كان غلاما روميا يصنع السيوف بمكة ، وأن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان ربما مرَّ به فجلس عنده ، وسمع منه كلاما ، فوجد المشركون في هذا اللقاء بين النبى والرومى متنفَّسا لأحقادهم ، فادَّعوا أن النبى أخذ القرآن من هذا الرومى ، وهم على يقين من أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يأخذ ، ولا يمكن أن يكون مثل هذا الغلام مصدراً للقرآن الذى أعجز العرب بفصاحته وبلاغته ، ولذلك كان الرد عليهم في غاية الوضوح والحسم ، وكان مخجلا لمن لاتزال عنده بقية من حياء ،؛ ومن اعتصام بالتعقل ، والتعالى عن سفاسف الأقوال : « لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » ٠

هل يحتاج هذا البرهان الحاسم الى أكثر من التذكير به ، بل الإشارة إليه ؟ وهل يسع عاقلا أن يقف في وجه هذا البرهان إلا إذا فقد الحياء من الناس ، ومن نفسه ، أو إلا إذا فقد عقله أو تجاهله ؟ ٠

الرجل معروف عندهم ، يرتضخ لكنة أعجمية ، ولا يكاد يبين عما في نفسه ، وهم يغدون عليه ويروحون ، ولا شك أن كثيرا منهم عامله وخاطبه ، واستمع إليه ، وعرف مدى علمه بالعربية ، ودرجة نطقه السليم بها ، والقرآن بين أيديهم ، يسمعونه ، ويعجبون بفصاحته وبلاغته ، فلا حاجة ـ اذاً ـ إلى اطالة الحجج ، وتنويع البراهين ، فمجرد الاشارة ـ كما قلت ـ إلى هذا التفاوت العظيم ، والبون البعيد بين لغة الرجل ولغة القرآن كافية في اقناع من يريد أن يقتنع ، بل أكاد أقول أنها كافية في التوبيخ والتقريع والتجهيل ، وبيان مدى مجافاتهم للحق ، وتنكرهم للواقع ، وتمسكهم بالأوهام والأباطيل ٠

ولا يخطىء الملاحظ هنا أمرين :

الأول : التعبير باللسان ، وكان يمكن أن يقال : (الَّذى يلحدون إليه أعجمى) ، ولكن التعبير باللسان هو لب هذا البرهان ، فلو عدل عنه إلى التعبير بالذى مثلا لكان للمشركين أن يقولوا : وما العجب في أن يأخذ محمد هذه المعانى من هذا الأعجمى ؟ ان المعانى شركة بين العجم والعرب ، أو يقولوا : إنه أعجمى ولكنه عالم بالعربية ، فأخذ عليهم القرآن الطريق ، وسدّ أمامهم منافذ الجدل ؛ لأنهم لا يستطيعون أن يقولوا إن صاحب اللسان الأعجمى يملى على العربى مثل هذا الكتاب ، وزاد هذا الافحام قوة وصف اللسان بأنه (مبين) بعد وصفه بأنه (عربى) وهم لا يمارون في أن هاتين الصفتين من أخص خصائص القرآن ٠

على أنهم حتى لو ادّعوا أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخذ معانى القرآن من هذا الغلام لكانوا مبطلين حتى عند أنفسهم ، فإنهم أعقل من أن يتوهموا ان هذه التشريعات والحكم والمواعظ ، وسائر المعانى الأخرى الرائعة تصدر عن غلام أو غلمان يقومون بالصناعة في بلد لم يعرف ـ آنذاك ـ بأنه بيئه علمية ·

ويا للعجب · لو كان القرآن من وحى هذا الأعجمى فكيف عجزوا هم عن أن يعارضوه بأقصر سورة من مثله ، وهم فرسان الكلام ، وأبطال اللَّسن والفصاحة ؟ ·

الثانى : التعبير ـ هنا ـ بالفعل (يُلحدون) ، ومعناه يميلون عن القصد ، يشيرون اشارة المائل الى الباطل ، الحائد عن الحق ·

وفيه لطيفتان :

(احداهما) : أنه مجرد ميْل واشارة ، كأنهم حين قالوا : إنما يعلمه بشر لم يكونوا يقصدون في واقع الأمر ما يقتضيه التعلم والتعليم من تردد المتعلم على المعلم ، ومن طول مكثه عنده ، ولم يكن في أذهانهم ـ حقيقة ـ ما يكون بين الطالب والأستاذ من وضع كل منهما في موضعه المعروف المتقرر ، وإنما هى إشارة ولاغير ، واشارة بعيدة عن الصواب مغرقة في الباطل ·

(ثانيتهما) : أن مادة هذا الفعل توقع في النفس معناها الأول ، وهو الإلحاد ، وإيحاؤه معروف ·

ومن العجب أنه لم يرد هذا الفعل بهذا المعنى المراد في هذه الآية في القرآن الكريم إلا هذه المرة ، وقد ورد بمعنى التجنِّى على أسماء الله ، وتحريفها عن حقائقها في قوله تعالى : « ولله الأسماء الحُسنى فادْعُوه بها وذَرُوا الذين يُلحدون في أسمائه » (الأعراف : الآية ١٨٠) ، وبمعنى الميل عن الحق في آيات الله ، وتكذيبها ، والطعن على ما فيها من أدلة وبراهين ، في قوله تعالى : « إن الذين يُلْحِدون في آياتنا لا يَخفَوْن علينا » (فصلت : الآية ٣٢) ·

وقد ورد مصدر هذا الفعل مقترنا بالظلم في قوله تعالى : « إنَّ الذينَ كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواءً العاكفُ فيه والباد ومن يُرد فيه بالحادٍ بِظَلم نُذِقه من عذاب أليم » (الحج : الآية ٢٥) ·

فلا غرو أن يكون في هذا الفعل الذى جاء فى سورة (النحل) مايوحى ـ مع أن المراد

به الاشارة - بأشنع أنواع الظلم ، وأخطر ألوان الميل عن الحق .

... ...

ويزعم اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن الله ينزلهم منه منازل الأبناء من آبائهم ، فلا يزيد القرآن الكريم في الرد عليهم عن عبارة واحدة فيها التكذيب المدعم بالدليل القاطع ، وفيها الإنكار والتوبيخ فى أوجز عبارة ، وأقوى مواجهة : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم » (المائدة : الآية ١٨) .

فالدعوى باطلة ، والزعم لا أساس له ، لأن من يكون بهذه المنزلة من الله تعالى يكون بمنأى عن أمرين عظيمين :

أولهما : لا يعصى الله ما أمره ، وهذا ما كان - ولا يزال - من الملائكة المقربين : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » (التحريم : الآية ٦) .

وأنتم أيها الزاعمون ببنوة الله ، وحبه لكم تذنبون ، وتقعون في الخطايا التى تستوجب العذاب ، وكأن هذه الإضافة تشير الى شدة التصاق الذنوب بهم ، وإلى أنها ذنوب عليها طابعهم : « ذنوبكم » .

ثانيهما : لقد زعمتم أيها اليهود أن النار تمسكم أياما معدودات ، وزعمتم فيما يروى الرواة أنها الأربعون التى عبدتم فيها العجل ، فإذا كنتم أبناء الله وأحباءه فلم يعذبكم ؟ إن الأب لا يعذب ابنه ، والحبيب لا يؤاخذ حبيبه على ما يقع فيه من أخطاء ، حتى في هذه الدعوى التى أشرت إليها يرد عليهم القرآن ردا موجز مفحما : « وقالوا لَنْ تمسنا النار إلاّ أياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهدا فلنْ يْخلف اللّه عهدَه أم تقولون على الله مالا تعلمون » . (البقرة : الآية ٨٠) .

لم يتخذوا عند الله عهدا ، وهم يعلمون ذلك ، ولو أنهم اتخذوا هذا العهد لفازوا ؛ فإن الله لا يخلف عهده ، هم متأكدون بأنه لاعهد بينهم وبين الله ، ومتأكدون كذلك أنهم يقولون مالا يعلمون ، فأى حجة ملزمة أقوى وأحسم من هذه الحجة ؟ .

ومزاعم اليهود والنصارى كثيرة ومتشعبة ، وردود القرآن على مزاعمهم دامغة .

ومما يضاف للمزاعم السابقة زعمهم بأن أحدا غيرهم لن يدخل الجنة : « وقالوا لن يدخل الجَّنة إلا منْ كان هَودا أو نصارى تلك أمانيُّهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (البقرة : الآية ١١١) .

اليهود قالوا لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا ، والنصارى قالوا لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا ، ولا يمكن أن يفهم من الآية إلا هذا ؛ لما هو معروف من العداوة بين الفريقين · ومن هنا أوجز القرآن غاية الايجاز في الرد عليهم : « قل هاتوا برهانكم » ، فليس هناك أبلغ في التكذيب والتبكيت ، وابطال زعم الزاعمين ، وتخرص الكاذبين من أن تطلب اليهم أن يجيئوا بالبرهان ، وأنت على يقين من أنه لا برهان عندهم ، فتطالبهم ببرهان لن يجيئوا به ، وتشكك في صدقهم ، فلما عجزوا عن اقامة البرهان على ما يزعمون تأكد كذبهم ، وبطل زعمهم ·

وقد سلك البوصيرى ـ رحمه الله ـ هذا النهج القرآنى فجاء بما تقره العقول الراجحة المنصفة ، وبما يقف الخصم أمامه حائرا مبهوتا :

خبِّرونا أهلَ الكتابَيْن من أيـ	ـن أتاكم تَثْليثكم والبَداء ؟
ما أتى بالعقيدتين كتابٌ	واعتقاد لا نصَّ فيه ادّعاء
والدَّعاوى ان لم تقيموا عليها	بيناتٍ أبناؤها أدْعياء

... ...

وقضية البعث · لعلها ظفرت من القرآن الكريم ـ بعد قضية الوحدانية ـ بأوفى نصيب ·

فقد : « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا » (التغابن الآية ٧) · « واقسموا بالله جَهد أيمانهم لا يبعث الله مَنْ يموت » (النحل : الآية ٣٨) وقالوا : « إن هى الا حياتنا الدنيا نموتُ ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » (الجاثية : الآية ٢٤) « وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » (الأنعام : الآية ٢٩) ·

واستبعدوا أن يعودوا للحياة بعد أن يصيروا عظاما ورفاتا وترابا : « أئذا مْتنا وكنّا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون » (الصافات : الآية ١٦) (وقالوا أئذا كنا عظاما ورُفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا » (الاسراء : الآية ٤٩) ··

وسخروا سخرية بالغة من الرسول الذى أكد لهم أمر البعث ، والعودة الى حياة أخرى بعد الموت : « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجلٍ يُنبِّئكم اِذا مُزِّقتم كل مُمزَّق إنكم لفى خلق جديد أفترى على الله كذبا أم به جنة » (سبأ : الآية ٧) ·

واذا كانوا ـ كما أخبرت عنهم هذه الآية ـ اتهموا الرسول بالافتراء على الله ، أو بأن به مسًّا من الجنون ، فإنهم في موقف آخر زعموا أن إخبارهم بالبعث سحر وأى سحر : « وَلئِنْ

قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولَنَّ الذين كفروا إن هـذا إلاَّ سِحْر مبين » (هـود : الآ يـة ٧) ٠

إلى أقوال ومزاعم أخرى أخبرنا بها القرآن الكريم عنهم ٠ فهم - إذًا - رفضوا قضية البعث رفضا باتاً ، وعبروا عن رفضهم هذا بأساليب مختلفة ، وركبوا في إنكارهم متن عشواء ، فكان لا بد أن يأتى القرآن بما يكشف الأغطية عن عيونهم ، ويرفع الأكنَّة عن قلوبهم ، ويزيل الحجب التى حالت بينهم وبين تصديق الرسول ، ويذيب الوقر الذى سدَّ آذانهم ، وكان هذا كله يقتضى من غير القرآن جدلا طويلا ، وحججا مسهبة ، وبراهين ما تكاد تنتهى حتى تبدأ ، ولكن القرآن - وهو المعجزة الخالدة - لم يزد في بعض الآ يات عن كلمة واحدة ، وإن كان في بعضها الآخر يذكر أكثر مِنْ حجة ، ولكنه لا يخرج عن حد الا يجاز المعجز ، ٠

وبهذا البيان الرائع ، والبراهين الدامغة الموجزة اهتدى من أراد الله هدايته ، وبقى على عماه وصممه واعراضه من أراد الله خذلانه ، وحق عليهم ما قالوه عن أنفسهم : « وقالوا قلوبنا في أكِنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقْر ومِنْ بيننا وبينك حجابٌ فاعمل إننا عاملون » (فصلت : الآ ية ٥) وما أخبر به سبحانه : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوةٌ ولهم عذاب عظيم » (البقرة : الآ ية ٧) ٠

وقد سلك القرآن في الرد عليهم مسلكين :

أحدهما : تأكيد أن البعث واقع ، وقوة هذا التوكيد ترجع إلى أن القرآن أعجزهم ، فثبت بذلك صدقه ، وأنه من عند الله ، فطبعى أن يكون صادقا في كل ما أخبر به ، وكان يخبر دون قسم تارة ، وبالقسم تارة أخرى ٠

فمن الأول قوله تعالى : « وقالوا إن هذا إلا سحر مبين أئذا متنا وكنا ترا با وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون قل نعم وأنتم داخرون » (الصافات : الآ يتان ١٥ ، ١٦) ، ومن الثانى قوله تعالى : « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن » ٠

ثانيهما : ايراد الحجج التى بلغ من قوتها ووضوحها أن تفضح من ينكرها ، وتدعه أحد رجلين إما إنسان مصاب في عقله ، وإما إنسان مكا بر ٠

وقد كثرت هذه الحجج في القرآن ، بل فاقت ما أورد من حجج في قضا يا أخرى لعلها أهم من قضية البعث ٠

قال الفخر الرازى عند تفسيره لقوله تعالى : « والنجم إذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى » ٠ قال الفخر : (إن الله أقسم كثيرا على وقوع البعث ، وقليلا على الوحدانية والنبوة ،

وذلك لأن دلائل الوحدانية كثيرة ، وشواهد النبوة كثيرة أيضا ، وأما الحشر فيمكن ثبوته بالفعل ، ولكن لا يمكن وقوعه إلا بالسمع ، فلذلك أكثر من القسم عليه ٠٠

ثم ان القرآن ربما أطال قليلا في ذكر بعض البراهين ، ولكن السمة الغالبة عليه أن براهينه في هذه القضية تتسم بالايجاز المعجز ٠

ونحن في هذا البحث نخص البراهين القصيرة ٠

ونرجع إلى آيتين أوردتهما في مطلع هذا البحث ، ففى كل منهما برهان دامغ يقذف بالحق على الباطل : « ونَسِى خلْقَه » ٠ « وهو أهونُ عليه » ٠

فليس هناك أدلّ عل امكان البعث من ظاهرة خلق الانسان : أوجده من عدم ، أوجده من تراب ، أوجده من نطفة ، تطورت النطفة فكان خلقا آخر : « فلينظر الانسان ممَّ خلق خُلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر » (الطارق : الآيتان ٥ ـ ٨) ٠ « يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخَلَّقة لنبين لكم ونُقَر في الأرحام ما نشاء الى أجل مُسَمَّى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يُتوفى ومنكم من يُرَّد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وَرَبتْ وأنبتت من كل زوْج بهيج » (الحج : الأيتان ٥ ، ٦) « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون (النحل : الآية ٧٨) ٠

وقد كانوا مقرِّين بأن الله هو الذى خلقهم ، فحين يحجهم بأنه خلقهم انما يحجهم بشىء لا ينكرونه ، ولا يجادلون فيه ، قال الله تعالى : « ولئن سألتهم من خَلَقهم ليقولُن الله فأنى يؤفكون » ٠ (الزخرف : الآية ٨٧) ٠

(نسى خلقه) كلمتان فيهما القول الفصل ، والبرهان القاطع ، وقد وضح القرآن بعض التوضيح هذه الحجة فى قوله تعالى : « ويقول الانسان أئذا مامت لسوف أخرج حيا أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » (مريم : الآيتان ٦٦ ، ٦٧) ٠

فهناك نسى (نسى خلقه) ، وهنا استفهام توبيخ وتقريع : « أو لا يذكر » ٠

ثم في هذه الآية الأخيرة اضافة جديدة ، وهى معلومة لهم ، ولا يحتاجون إلا لمجرد التذكر : « خلقناه من قبل ولم يك شيئا » ، فهو من عدم ، والذى ينشىء من العدم يقدر على الاعادة والمادة قائمة : « كما بدأكم تعودون » (الاعراف : الآية ٢٩) ٠

قال السيد رشيد رضا تعليقا على هذه الجملة القصيرة التى تضمنت برهانا قاطعا : « وهذه الجملة من أبلغ الكلام المعجز ، فإنها دعوى متضمنة للدليل بتشبيه الاعادة بالبدء ، فهو يقول : كما بدأكم ربكم خلقا وتكوينا بقدرته تعودون إليه يوم القيامة) .

وقد ذكر المفسرون فى قصة الآية الكريمة : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه » أن أبَى ابن خلف أو غيره من مشركى قريش قال : (ألا ترون إلى ما يقول محمد إن الله يبعث الأموات ، واللات والعزَّى لأصيرن إليه ولأخصمنه ، وأخذ عظما باليا فجعل يفتّه ، ويقول : يا محمد . أترى الله يحيى هذا بعد مارمَّ ؟!

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : نعم . يبعثك ، ويدخلك جهنم ، فنزلت) .

ومع هذه الحجة الحاسمة لفت القرآن أنظارهم بقوة إلى براهين أخرى ، يكفى النظر العابر للاقتناع بها ، وفى ايجاز ووضوح أيضا : « قل يحييها الذى أنشأها أوَّلَ مرَّة وهو بكل خلق عليم الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون » (يس : الآيتان ٧٩ ، ٨٠) حجتان واضحتان : « يحييها الذى أنشأها أول مرة » وهذه توضيح لما أجمل قوله : « ونسى خلقه » . فالذى ينشىء ـ وهم معترفون بذلك ـ قادر على الاعادة .

وهو : « الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً » ومن المعلوم أن الماء يضاد النار وأن الخضرة ـ بالبديهة ـ لا تجتمع مع اليبوسة ، قال العلامة النسفى : (فمن قدر على جمع الماء والنار في الشجر قدر على المعاقبة بين الموت والحياة في البشر ، واجراء أحد الضدين على الآخر بالتعقيب أسهل في العقل من الجمع بلا ترتيب) . وقال العلامة أبو السعود : (فمن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع مافيه من المائية المضادة لها بكيفيته كان أقدر على اعادة الغضاضة إلى ما كان غضا تطرأ عليه اليبوسة والبلى) .

ثم أعقب القرآن الكريم هاتين الحجتين بحجة جامعة مانعة : « أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادرٍ على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلَّاق العليم » .

هم مقرون بأن الله هو الذى خلق السموات والأرض : كما أخبر القرآن عنهم بذلك : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم » (الزخرف : الآيــة ٩) .

ومن تمام الحجة ، بل قوامها أن يكون من تحجه معترفا بالمقدمة التى تبنى عليها النتيجة . ثم من البدهى أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس في الحقيقة ، وفي مرأى العين عند التأمل كما قال تعالى : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (غافر : الآية ٥٧) .

ومن الرائع في هذه الحجة الثالثة صياغتها في أسلوب سؤال وجواب ٠

أما ما جاء في الآية الأخرى : « وهو أهون عليه » فهو منتهى الالزام للمعاند ؛ ذلك أن مجرد القدرة على الاعادة بعد النشأة الأولى حجة في ذاتها ، فإذا أضيف إليها أن العقول السليمة تدرك بالنظرة العابرة أن الاعادة أهون وأيسر من البدء ولله المثل الأعلى ٠

وقد ذكرت هذه الحجة في مواطن أخرى من القرآن الكريم : « أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير » (العنكبوت الآية ١٩) ٠

قال جار الله الزمخشرى : (« ذلك » يعود إلى ما رجع إليه « هو » في قوله : « وهو أهون عليه » من معنى « يعيد ») ٠

ومن ذلك قوله تعالى : « يوم تَشَقَّقُ الأرضُ عنهم سِراعا ذلك حشرٌ علينا يسير » (ق : الآية ٤٤)

ومما لفت القرآن الكريم الأنظار إليه في شأن البعث حال الأرض تكون يابسة جرداء فينزل عليها المطر فإذا هى يانعة خضراء ، وقد تكرر في القرآن ضرب هذا المثل ، وجاء واضحا في آية (الحج) التى احتجت للبعث بخلق الإنسان ، ومروره بأطوار مختلفة : « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور » ٠

والتشبيه صريح في آية الأعراف « وهو الذى يُرسل الرياح بُشرا بين يَدَىْ رحمته حتى إذا أقلّت سحابا ثِقالا سُقناه إلى بلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » (الأعراف : الآية ٥٧) ٠

وكذلك جاء صريحا ومباشرا فى آية فاطر : « والله الذى أرسل الريّاح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور » (فاطر : الآية ٩) ٠

وكذلك جاء في سورة (ق) ، فبعد أن ذكر الله سبحانه أنه نزل من السماء ماءً فأنبت به جنات ، وحب الحصيد ، والنخل باسقات ، وأنه أحيا به بلدة ميتا ، قال : « كذلك الخروج » (ق : الآية ١١) ٠

وبكل هذه البراهين الساطعة الدامغة مع ايجازها ووضوحها لم يعد هناك عذر لمنكرى البعث ، فإذا كان معها براهين أخرى ذكرها القرآن مطولة بعض الشىء كان انكار البعث

عنادا ، بل من أشنع ألوان العناد .

ولا يخفى على ذى بصيرة موضع الاعجاز فى ايراد هذه البراهين ، فإن كل برهان منها مع ما عرض فيه من وجازة ووضوح يغنى عن الكثير من الجدل والحجاج : « قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ان الله على كل شىء قدير » (العنكبوت : الآية ٢٠) .

وكل البراهين التى أوردتها فى القضايا المختلفة ، وغيرها مما لم أورده ، مما جاء ذكره في القرآن الكريم يغنى ويكفى ، بل هو فوق الاغناء والكفاية في البلاغ والاقناع والاعجاز .

ولكن الأمر كما قال عز وجل : « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » (يوسف : الآية ١٠٣) قال سبحانه : « « وان تطع أكثر من في الأرض يُضلوك عن سبيل الله إن يتبعون ألا الظن وإن هم الا يخرصون » (١) (الأنعام : الآية ١١٦) .

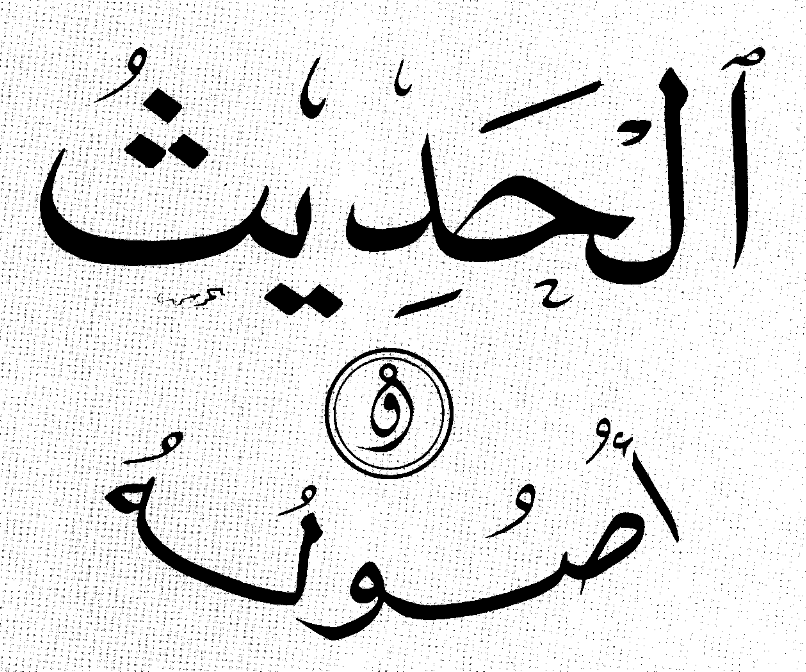
و « سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين » (الصافات : الآية : ١٨٠ _ ١٨٢) .

وانـــا لـه لحافظـــون

قالت صحيفة « الأهرام » ان النيران التى أحرقت احدى مكتبات القاهرة لم تمس ٥ آلاف مصحف شريف ، وأشارت الصحيفة أن شهود الحريق الذي وقع في مكتبة بشارع عابدين فوجئوا بعد اخماد النار بجميع المصاحف سالمة ولم تمس النيران سوى هوامش بعض المصاحف ولم تمس أبداً آيـــات الله الكريمة .

---

(١) ومعنى يخرصون : يكذبون . وأصل الخرص الحزر والتخمين . ويسمى الكذب خرصا لما يدخله من الظنون الكاذبة .


الحَدِيثُ
في
أُصُولُهُ





معنى الحديث

وأما معنى هذا الحديث فهو معنى واضح كما يظهر ذلك من ترجمة الباب التى عقدها الإمام النووى رحمه الله تعالى اذ قال : باب ابتداء الخلق ، وخلق آدم عليه السلام أى انه قصد رحمه الله تعالى من هذه الترجمة ان ابتداء الخلق كان يوم السبت كما فى هذا الحديث لا فى يوم الأحد كما زعمه من زعمه من بعض أهل التفسير والتاريخ وقد تكلم على هذا الموضوع الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه تاريخ الأمم والملوك وذهب إلى ان ابتداء الخلق كان يوم الأحد بناء عل سياقه تلك الاسانيد الضعيفة الواهية الآتية ثم رد عليه الإمام الفقيه المحدث والمؤرخ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبى الحسن الخثعمى السهيلى المولود بمدينة مالقة سنة ٥٠٨ هـ . والمتوفى بمصر سنة ٥٨١ هـ فى كتابه البارع النفيس الروض الأنف فى تفسير ما اشتمل عليه أحاديث السيرة النبوية للإمام عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ . وأنا أسوق تلك الاسانيد والمتون التى ساقها الإمام أبو جعفر ثم اعتمد عليها ولا يجوز الاعتماد عليها كما سوف يظهر لك جليا واضحا ان شاء الله تعالى اذ قال رحمه الله تعالى فى تاريخه (١) واختلف السلف فى اليوم الذى ابتدأ الله عز وجل فيه خلق السماوات والأرض ، فقال بعضهم : ابتدأ فى ذلك يوم الأحد ثم قال : ذكر من قال ذلك ثم ساق اسناده بقوله : حدثنا اسحاق بن شاهين ، حدثنا خالد بن عبد الله ، عن الشيبانى ، عن عون بن عبد الله بن عتبة ، عن أخيه عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : قال عبد الله بن سلام : ان الله تبارك وتعالى ابتدأ الخلق ، فخلق الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين .

(١) تاريخ الطبرى ٢٢ ـ ٢٤ / ١ .

قلت : رجال، هذا الاسناد كلهم ثقات ولكنه موقوف على عبد الله بن سلام رضى الله تعالى عنه وهو معروف رضى الله عنه بروايته عن أهل الكتاب وليس فى قوله هذا حجة وقد ثبت أنه روى هذا القول عن أهل الكتاب وليس هو بمرفوع كما سوف يأتى تفصيله قريبا ان شاء الله تعالى ، ثم ساق، أبو جعفر رحمه الله تعالى اسناده الثانى عن طريق أبى معشر السندى عن عبد الله بن سلام رضى الله تعالى عنه بنحو ما تقدم آنفا وهذا الاسناد لا يحتج به لكونه ضعيفا ولكن المعنى قد ثبت عن طريق الاسناد المتقدم ، ثم ساق اسناده الثالث عن طريق شيخه محمد بن حميد الرازى أبى حيان - وهو متهم بالكذب عن كعب الاحبار . وفيه ان الله بدأ بخلق السماوات والأرض يوم الأحد والاثنين وهذا الاسناد لو كان صحيحا لما كان فيه حجة لما قلت بمثله فى عبد الله بن سلام رضى الله عنه وكعب الاحبار رحمه الله تعالى ، أكثر رواية عن أهل الكتاب . وقد اجمع علماء التفسير على ذلك ولكن الاسناد ضعيف جدا لا يحتج بمثله .

ثم ساق الإمام أبو جعفر رحمه الله تعالى اسناده الرابع فى هذا الموضوع بقوله : حدثنى محمد بن أبى منصور الآملى ، حدثنا على بن الهيثم . - هكذا فى المطبوعة - والصحيح على بن الميثم بالميم - عن المسيب بن شريك ، عن أبى روق ، عن الضحاك فى قوله تعالى (وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام) قال من أيام الآخرة كل يوم مقداره الف سنة ابتدأ الخلق يوم الأحد أهـ .

قلت : هذا اسناد موضوع مكذوب مختلق على الإمام الضحاك بن المزاحم الهلالى أبى القاسم الخراسانى وهو من الطبقة الخامسة ، وكانت وفاته بعد المائة بمدة وفى اسناد هذا المتن المقطوع على بن الميثم العوفى احد الرافضة ، قال الحافظ فى لسان الميزان (١) حكى عنه النظام قال : كنا نكلمه فيذكر ما يذهب اليه ثم ذكر الحافظ بقية الكلام وفيه أثبت انه كان كذابا .

وفى هذا الاسناد رجل يسمى المسيب بن شريك قال الامام الذهبى فى الميزان : هو أبو سعيد التميمى الشقرى الكوفى ، عن الأعمش ، قال يحيى : ليس بشىء ، وقال أحمد : ترك الناس حديثه ، وقال البخارى سكتوا عنه ، وقال مسلم وجماعة : متروك ، وقال الدارقطنى : ضعيف ثم ذكر بقية الجرح .

قلت : لا يصلح للاعتبار والشواهد ، والمتابعات فضلا ان يكون حجة والله تعالى أعلم .

ثم ساق أبو جعفر رحمه الله تعالى اسناده الخامس بقوله : حدثنى المثنى ، حدثنا الحجاج ، حدثنا أبو عوانة ، عن أبى بشر ، عن مجاهد قال : بدأ الخلق يوم الأحد .

---

(١) لسان الميزان : ٢٦٥ / ٤ .

قلت : المثنى فى هذا الاسناد هو المثنى بن ابراهيم الآملى ولم اجد له ترجمة فى المراجع التى بين يدىّ والغالب على الظن أنه مجهول ولو كان الاسناد صحيحا لما كان فيه حجة لانه كلام مقطوع من قول مجاهد بن جبر المكى رحمه الله تعالى وقد خالف قوله هذا نص صحيح مرفوع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سوف يأتى قريبا .

وأثر مجاهد السابق أخرجه الامام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره (١) وهو برقم ١٤٧٧٣ وقال فى تفسيره بعد سياق الاسناد عن مجاهد رحمه الله تعالى بدأ خلق العرش والماء ، والهواء ، وخلقت الأرض من الماء ، وكان بدأ الخلق يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس ، وجميع الخلق فى يوم الجمعة وتهودت اليهود يوم السبت ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدون ثم استوى على العرش أهـ . هكذا ساق الاسناد والمتن فى التفسير عن مجاهد بن جبر المكى رحمه الله تعالى وكان من الواجب عليه رحمه الله تعالى ان يسوق الاسناد والمتن المرفوع الصحيح الذى ساقه فى تاريخه وهو اسناد صحيح ومتن مرفوع عن طريق شيخيه القاسم بن بشر بن معروف ، والحسين بن على الصدائى كما سوف يأتى قريبا وقد مضى فى تخريج الحديث سابقا .

والجواب عن هذا الاسناد الاخير مع صحة اسناده الى مجاهد بن جبر المكى رحمه الله تعالى بانه متن مقطوع ولو كان موقوفا صحيح الاسناد عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم تكن فيه حجة البتة لثبوت حديث صحيح أخرجه مسلم فى صحيحه والامام أحمد فى مسنده والبيهقى فى الاسماء والصفات والنسائى فى السنن الكبرى وابن مردويه فى تفسيره وابن جرير الطبرى فى تاريخه وهو ينص على أن ابتداء الخلق كان فى يوم السبت كما يأتى تفصيله ان شاء الله تعالى .

ثم قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى : وقال آخرون : اليوم الذى ابتدأ الله فيه فى ذلك يوم السبت ثم قال رحمه الله تعالى : ذكر من قال ذلك . ثم ساق اسناده بقوله : حدثنا ابن حميد ، قال حدثنا سلمة بن الفضل ، قال : حدثنى محمد بن اسحاق قال : يقول أهل التوراة : ابتدأ الخلق يوم الأحد وقال أهل الانجيل ابتدأ الله الخلق يوم الاثنين ونقول نحن المسلمون فيما انتهى الينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتدأ الله الخلق فى يوم السبت وقد مضى ذكرنا الخبرين ، غير انا نعيد من ذلك فى هذا الموضع بعض ما فيه من الدلالة على حجة قول كل فريق منهما .

---

(١) تفسير الطبرى : ٤٨٢ / ١٢ .

فأما الخبر عنه بتحقيق ما قال القائلون كان ابتدأ الخلق يوم الأحد فما حدثنا به هناد بن السرى ، قال ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن أبى سعد البقال عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال هناد ، وقرأت سائر الحديث ان اليهود أتت النبى صلى الله عليه وسلم فسألته عن خلق السماوات والأرض فقال ، خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين أهـ .

قلت ، الاسناد الأول الذى ساقه عن محمد بن اسحاق عن طريق محمد بن حميد الرازى أبى حيان وهو متهم بالكذب وقد مضى الكلام فيه ولا يثبت بمثل هذا الاسناد شىء الا انما اسند الى ابن اسحاق من قوله من ابتداء الخلق عند أهل التوراة وأهل الانجيل ، وأهل الاسلام فهو ثابت عنه رحمه الله تعالى وقد حذفه الامام العلامة ابن هشام المعافرى عند اختصاره سيرة ابن اسحاق وقد اثبته الامام المحدث الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن السهيلى فى الروض الأنف وهو شرحه لاحاديث سيرة ابن هشام المختصرة كما يأتى ذلك مفصلا ان شاء الله تعالى فى موضعه .

وأما سياق الاسناد الذى ساقه الامام أبو جعفر الطبرى عن طريق شيخه هناد بن السرى التميمى والذى فيه ان ابتداء الخلق كان يوم الأحد والاثنين فهو اسناد ضعيف جدا ولا يحتج بمثله ولا يصلح للاعتبار فضلا ان يكون حجة لأن فى اسناده راويين ضعيفين وهما أبو بكر بن عياش الكوفى المقرىء قال الامام الذهبى فى الميزان (١) قال أبو نعيم ، لم يكن فى شيوخنا احد أكثر غلطا منه ، وكان يحيى بن سعيد لا يعبأ به اذا ذكر عنده كلح وجهه ، وقال الامام أحمد ، كثير الغلط جدا وفى اسناد هذا الخبر أبو سعد البقال وهو سعيد ابن مرزبان العبسى مولاهم أبو سعد البقال الكوفي الأعور ضعيف مدلس ، قال الامام الذهبى فى الميزان (٢) ، كوفى مشهور تركه الفلاس ، وقال ابن معين ، لا يكتب حديثه ، وقال أبو زرعة ، صدوق مدلس ، وقال البخارى منكر الحديث .

قلت ، هذا الاسناد الذى ساقه الامام محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه لا يحتج به لو كان منفردا فكيف اذا عارضه حديث صحيح أخرجه مسلم والامام أحمد فى مسنده وابن جرير الطبرى فى تاريخة باسناد صحيح . ثم قال أبو جعفر ، واما الخبر عنه بتحقيق ما قاله القائلون من ان ابتداء الخلق كان يوم السبت فما حدثنى به القاسم بن بشر بن

---

(١) الميزان ، ٤٩٩ ـ ٥٠٣ / ٤ .

(٢) الميزان ، ١٥٧ ـ ١٥٨ / ٢ .

معروف ، والحسين بن على الصدائى قالا : حدثنا حجاج قال : ابن جريج اخبرنا اسماعيل بن امية عن ايوب بن خالد ، عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة ، عن أبى هريرة قال : اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى ثم ذكر الحديث الذى انا بصدد الكلام حوله ثم قال أبو جعفر رحمه الله تعالى فى نهاية هذا الحديث الصحيح اسنادا ومتنا ، وأولى القولين في ذلك عندى بالصواب قول من قال : اليوم الذى ابتدأ الله تعالى ذكره فيه خلق السماوات والأرض يوم الأحد لاجماع السلف من أهل العلم على ذلك ، فأما ما قال ابن اسحاق فى ذلك فانه انما استدل بزعمه على ان ذلك كذلك لأن الله عز ذكره فرغ من خلق جميع خلقه يوم الجمعة وذلك يوم السابع وفيه استوى على العرش وجعل ذلك اليوم عيدا للمسلمين ، ودليله على ما زعم انه استدل به على صحة قوله فيما حكينا عنه من ذلك هو الدليل على خطئه فيه وذلك ان الله تعالى اخبر عباده فى غير موضع من تنزيله انه خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم ذكر الامام أبو جعفر هذه الآيات القرآنية التى نصت على ان الله تعالى خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام اهـ .

قلت : وكان من الواجب على الامام أبى جعفر رحمه الله تعالى ان يقارن بين هذه الاسانيد التى ساقها فى ترجيح احد القولين فى ضوء صحة هذه الاسانيد ، والا لم يكن لسياقه هذا لتلك الاسانيد الكثيرة كبير فائدة ، مادام ذهب اخيرا الى تركها كليا لأن القرآن يعارضها وكان يكفى له رحمه الله تعالى فى أول القول انها معارضة بآيات القرآن الكريم كما فصل اخيرا دون ان ينظر نظرته العلمية فى ترجيح هذه الاسانيد صحة وضعفا ومن هنا قد تصدى له فى الرد عليه الامام العلامة الحافظ عبد الرحمن السهيلى فى الروض الأنف (١) اذ قال رحمه الله تعالى (قال المؤلف) أى ابن اسحاق : وكان اليهود انما اختاروا السبت لأنهم اعتقدوه اليوم السابع ثم زادوا فى كفرهم ، ان الله استراح فيه تعالى الله عن قولهم لأن بدأ الخلق عندهم الأحد ، وآخر الستة الأيام التى خلق الله فيها الخلق الجمعة وهو أيضا مذهب النصارى ، فاختاروا الأحد لأنه أول الأيام فى زعمهم وقد شهد الرسول صلى الله عليه وسلم للفريقين باضلال اليوم وقال فى صحيح مسلم : ان الله خلق التربة يوم السبت ، فبين ـ الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث ـ أن أول الأيام التى خلق الله فيها الخلق السبت ، وآخر الأيام الستة اذا الخميس وكذلك قال ابن اسحاق فيما ذكر عنه الطبرى اهـ .

---

(١) الروض الأنف : ٢٧٠ / ٢ .

قلت : هكذا رد العلامة السهيلى على القائلين بأن الأحد هو الأول من الأيام التى وقع فيه الخلق مستدلا من هذا الحديث الذى أنا بصدد الكلام حوله وعليه اعتمد ابن اسحاق فى قوله وغيره من أصحاب الحديث والتاريخ والسير . ثم قال العلامة السهيلي فى الروض (١) : فى تسمية هذه الأيام بالاثنين الى الخميس ما يشد قول من قال ان أول الاسبوع الأحد وسابعها السبت كما قال أهل الكتاب ليس الأمر كذلك لأنها تسمية طارئة وانما كانت اسماءها فى اللغة القديمة شيار ، داول ، واهون ، ذجبار ، ددبار ، ومونس ، والعروبة ، واسماءها بالسريانية قبل هذا ابوجا دهو ، زحطى الى آخرها ، ولو كان الله تعالى ذكرها فى القرآن بهذه الأسماء المشتقة من العدد لقلنا هى تسمية صادقة على المسمى به ، ولكنه لم يذكر فيها الا الجمعة والسبت وليسا من المشتقة من العدد ، ولم يسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأحد والاثنين الى سائرها الا حاكيا للغة قومه لا مبتدئا لتسميتها ولعل قومه ان يكونوا قد اخذوا معانى هذه الأسماء من أهل الكتاب المجاورين لهم ، فالفوا عليها هذه الأسماء اتباعا لهم ، والا فقد قدمنا ما ورد فى الصحيح من قوله عليه الصلاة والسلام ان الله خلق التربة يوم السبت ، والجبال يوم الأحد الحديث . والعجب من الطبرى على تبحره فى العلم كيف خالف مقتضى هذا الحديث ، واعنف فى الرد على ابن اسحاق وغيره ، ومال الى قول اليهود فى ان الأحد هو الأول ويوم الجمعة السادس لا وتر ، وانما الوتر فى قولهم يوم السبت مع ما ثبت من قوله عليه الصلاة والسلام أضلته اليهود والنصارى وهداكم الله اليه وما احتج به الطبرى من حديث آخر فليس فى الصحة كالذى قدمناه اهـ .

قلت : هكذا رد العلامة السهيلى على الامام أبى جعفر الطبرى مع تبحره فى العلم على ترجيحه بلا مرجح وذهابه الى قول اليهود والنصارى وتركه هذه السنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم التى ساق اسنادها عن طريق شيخيه القاسم بن بشر بن المعروف والحسين بن على بن يزيد الصدائى وكلاهما معروف بالعدالة والضبط . وأما تعارض هذا الحديث اعنى حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه بنص القرآن الكريم الوارد فى سبع مواضع فى كتاب الله تعالى فسوف يأتى الكلام حوله عند الكلام على معنى خلق آدم عليه الصلاة والسلام الذى ورد ذكره فى هذا الحديث الشريف وان خلقه قد تأخر عن خلق السماوات والأرض وما بينهما بآلاف السنين وليس هناك تعارض البتة كما يأتى مفصلا .

---

(١) الروض الأنف : ٢٧١ / ٢ .

وقال العلامة الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمى رحمه الله تعالى فى الأنوار الكاشفة (١) فى الرد على أبى رية :

أما الوجه الثالث فالآثار القائلة ان ابتداء الخلق يوم الأحد ما كان منها مرفوعا فهو أضعف من هذا الحديث بكثير ـ أى حديث أبى هريرة الذى أنا بصدد الكلام حوله والذى أخرجه مسلم وغيره ـ وأما غير المرفوع فعامته من قول عبد الله بن سلام ، وكعب ووهب ومن يأخذ عن الاسرائيليات اهـ ٠

قلت : وقد بحثت هذه الاسانيد التى اشار اليها العلامة المعلمى رحمه الله تعالى فان الأمر كما ذكر رحمه الله تعالى بل أشد وأعظم مما ذكر ثم قال رحمه الله تعالى : وتسمية الأيام كانت قبل الاسلام تقليدا لأهل الكتاب ، فجاء الاسلام وقد اشتهرت ، وانتشرت فلم ير ضرورة الى تغييرها ، لأن اقرار الأسماء التى قد عرفت واشتهرت ، وانتشرت لا يعد اعترافا بمناسبتها لما أخذت فيه أو بينت عليه ، اذ قد أصبحت لا تدل على ذلك ، وانما تدل على مسمياتها فحسب ولأن القضية ليست مما يجب اعتقاده أو يتعلق به نفسه حكم شرعى فلم تستحق ان يحتاط لها بتغيير ما اشتهر وانتشر من تسمية الأيام اهـ ٠

ثم قال رحمه الله تعالى : ان هذا ذكره السهيلى فى الروض الأنف وهو كما قال رحمه الله تعالى ، وكلامه كما ترى وجيه سديد ٠ وهنا اكتفى بالكلام حول الجزء الأول على معنى الحديث وقد ثبت بهذا ان ابتداء الخلق كان يوم السبت كما فى هذا الحديث الصحيح ٠

وأما الكلام حول الجزء الثانى من معنى هذا الحديث فهو خلق آدم عليه السلام ثم عدم ورود ذكر خلق السماوات فى الحديث لفظا فانى افرد الكلام حوله مبتدءً على خلق آدم عليه الصلاة والسلام وانه خلق متأخر عن خلق السموات والأرض بآلاف السنين ثم جمع فى هذا الحديث بين الخلقين المتقدم والمتأخر ومن هنا ظهر التعارض الظاهرى بين القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف الذى تكلم عليه تخريجا واسنادا ٠

والى هذا المعنى الواضح البين اشار الامام أبو عبد الله الحاكم فى مستدركه ٠

---

(١) الأنوار الكاشفة : ص ١٩١ ٠

أخرج الحاكم أبو عبد الله فى مستدركه (١) حديثا باسناده الصحيح اذ قال رحمه الله تعالى : اخبرنى عبد الله بن موسى الصيدلانى ، ثنا اسماعيل بن قتيبه ، ثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، ثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن بكر بن الاخنس ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لقد أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يدخلها أحد ، قال الله تعالى : (انى جاعل فى الأرض خليفة قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) وقد كان فيها قبل أن يخلق - آدم - بألفى عام الجن بنو الجان ، فأفسدوا فى الأرض ، وسفكوا الدماء ، فلما قال الله : (انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) يعنون الجن بنى الجان ، فلما افسدوا فى الأرض بعث عليهم جنودا من الملائكة فضربوهم حتى ألحقوهم بجزائر البحور ، قال : فقالت الملائكة : أتجعل فيها من يفسد فيها كما فعل أولئك الجن بنو الجان ؟ قال : فقال الله : (إنى أعلم ما لا تعلمون) ثم قال الحاكم مبينا درجه اسناد هذا الحديث : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه • وقال الامام الذهبى فى التلخيص : صحيح وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٢) الى الحاكم فى المستدرك وصححه ثم ذكر الحديث بطوله •

والشاهد فى هذا الحديث هو ان آدم عليه الصلاة والسلام لم يكن خلقه داخلا فى الأيام الستة المذكورة فى القرآن الكريم وان خلقه قد تأخر عن خلق السماوات والأرض مدة طويلة كما فى هذا الحديث الصحيح الذى أخرجه الحاكم فى المستدرك وصححه وابن أبى حاتم في تفسيره ونقله ابن كثير فى تفسيره (٣) باسناد ابن أبى حاتم وفيه خطأ فى اسناده فى النسخة المطبوعة وهو بعد ذكر الاسناد يقول عن مجاهد عن عبد الله بن عمر وهذا خطأ مطبعى وقع فى جميع نسخ ابن كثير المطبوعة والصحيح عن مجاهد عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما وان كان قد ثبت سماع مجاهد عن العبادلة الأربعة الا ان هذا الاسناد الذى ساقه ابن كثير عن تفسير ابن أبى حاتم وهو مخطوط لا يصح السماع عن طريقه عن

---

(١) المستدرك : ٢٦١ / ٢ •

(٢) الدر المنثور : ٤٤ ـ ٤٥ / ١ •

(٣) تفسير ابن كثير : ١٢٣ / ١ •

عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما والله أعلم بالصواب · ولهذا يقول العلامة الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمى فى الأنوار الكاشفة (١) · ويجاب عن الوجه الثانى بانه ليس فى هذا الحديث انه خلق فى اليوم السابع غير آدم ، وليس فى القرآن ما يدل ان خلق آدم كان فى الأيام الستة ولا فى القرآن ولا السنة ولا المعقول ان خالقية الله عز وجل وقفت بعد الأيام الستة ، بل هذا معلوم البطلان وفى آيات خلق آدم أوائل البقرة وبعض الآثار ما يؤخذ منه انه قد كان فى الأرض عمار قبل آدم عاشوا فيها دهرا فهذا يساعد القول بأن خلق آدم متأخر بمدة عن خلق السماوات والأرض · فتدّبر الآيات والحديث على ضوء هذا البيان يتضح لك ان شاء الله تعالى ان دعوة مخالفة هذا الحديث لظاهر القرآن قد اندفعت ولله الحمد اهـ ·

قلت : وقد نص القرآن الكريم على تأخير خلق آدم عليه الصلاة والسلام كما فى قوله تعالى في سورة البقرة : (واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى اعلم ما لا تعلمون) والشاهد فى هذه الآية الكريمة ان الله تعالى أخر خلق آدم عليه الصلاة والسلام عن خلق الملائكة كما فى حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما المتقدم والذى أخرجه الحاكم فى المستدرك وصححه وابن أبى حاتم فى تفسيره كما نقله الامام ابن كثير والى هذا المعنى يشير قوله جل وعلا فى سورة الرحمن (يسأله من فى السماوات والأرض كل يوم هو فى شان فبأى آلاء ربكما تكذبان) ·

قال العلامة الامام ابن جرير الطبرى فى تفسيره (٢) حدثنا أبو كريب قال ثنا عبيد الله بن موسى ، عن أبى حمزة الثمالى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ ان الله خلق لوحا محفوظا من درة بيضاء ، دفتاه ياقوتة حمراء ، قلمه نور ، وكتابه نور ، عرضه ما بين السماء والأرض ، ينظر فيه كل يوم ثلاث مائة وستين نظرة يخلق بكل نظرة ، ويحى ويميت ، ويعز ويذل ، ويفعل ما يشاء ·

وقد اورده الامام ابن كثير في تفسيره (٣) وسكت عن بيان درجة اسناده ·

---

(١) الأنوار الكاشفة : ١٩٠ ·

(٢) تفسير الطبرى : ١٣٥ / ج ٢٧ ·

(٣) تفسير ابن كثير : ٤٩١ / ٦ ·

قلت : وفى اسناده أبو حمزة الثمالى واسمه ثابت بن أبى صفية الثمالى بضم المثلثة ، قال الحافظ فى التقريب (١) : كوفى ضعيف رافضى من الخامسة مات فى خلافة أبى جعفر ورمز له بانه من رجال أبى داود فى السنن وابن ماجة ، والشاهد فى هذه الرواية الضعيفة التى هى تصلح للاستشهاد هو معنى كل يوم هو فى شأن أى يخلق ولهذه الرواية الموقوفة التى لها حكم الرفع لو صح اسنادها شاهد قوى أخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره وذلك من مرسل قتادة بن دعامة السدوسى اذ قال ابن جرير الطبرى حدثنا ابن بشار قال : ثنا مروان ، قال ثنا أبو العوام ، عن قتادة (يسأله من فى السماوات والأرض كل يوم هو فى شأن) قال : يخلق خلقا ، ويميت ميتا ، ويحدث أمرا ٠٠ هذا الاسناد رجاله كلهم ثقات يحتج بهم وقد ثبت بذلك هذا المعنى أى أنه يخلق كل يوم ويميت ويحدث الأمر ، ويوم السبت داخل فى الأيام التى يخلق فيها الرب سبحانه وتعالى خلقه فلو كان الأحد هو أول الأيام التى ابتدأ الله فيها الخلق لكان قول اليهود والنصارى صادقا كما سبق الرد عليه من قبل العلامة السهيلى على الطبرى ومع أن تلك الأسانيد التى ساقها الامام أبو جعفر وفيها أن الأحد هو أول الأيام الستة هى موضوعة ومنكرة كما مضى تحقيقه وبيانه فى الكلام على اسناد حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ٠

وأما قول الشيخ عبد القادر القرشى فى الجواهر المضية فى طبقات الحنفية (٢) وقد روى مسلم أيضا خلق الله التربة يوم السبت ، واتفق الناس على أن يوم السبت لم يقع فيه خلق وأن ابتداء الخلق يوم الأحد ٠

فقلت : لم أقف على هذا الاتفاق الذى أشار اليه العلامة القرشي رحمه الله تعالى وانما هو قول للعلامة أبي جعفر الطبرى في تاريخه ولم ينقل الاتفاق وكان يرد بذلك على الإمام محمد بن اسحاق صاحب السيرة القائل بأن ابتداء الخلق كان في يوم السبت وقد أيده العلامة السهيلى في الروض الأنف كما مضى ورد على ابن جرير الطبرى ردا علميا ونقله العلامة المعلمى في الأنوار الكاشفة وأيده بالأدلة العقلية والنقلية كما مضى آنفا ٠ وخالفهم الإمام العلامة الحافظ ابن القيم في المنار المنيف (٣) اذ قال رحمه الله تعالى : ويشبه هذا ما

---

(١) التقريب : ١١٦ / ١ ٠

(٢) جواهر المنية في طبقات الحنفية : ٤٢٩ / ٢ ٠

(٣) المنار المنيف : ص ٨٤ ؛ فصل ١٩ ٠

وقع فيه الغلط من حديث أبى هريرة ثم ذكر الحديث ثم قال وهو في صحيح مسلم ولكن وقع الغلط في رفعه ، وانما هو من قول كعب الأحبار كذلك قال إمام أهل الحديث محمد بن اسماعيل البخارى في تاريخه الكبير ٠ وقال غيره من علماء المسلمين أيضا وهو كما قالوا لأن الله أخبر أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وهذا الحديث يقتضى ان مدة التخليق سبعة أيام والله تعالى أعلم ٠ ا هـ ٠

وهكذا نقل الإمام ابن كثير في تفسيره ثم ذهب الى تضعيف الحديث ، وأمانة العلم تقتضى نقل كلام أهل العلم هنا في هذا الموضع وانى مع ضعف ادراكى وقلة بصيرتى وحيلتى أطمئن الى ما قاله الإمام البيهقي في الأسماء والصفات والعلامة ابن اسحاق صاحب السيرة والسهيلى في الروض الأنف وأخيرا العلامة عبد الرحيم بن يحي المعلمى في الأنوار الكاشفة وأزال التعارض الظاهرى الواقع بين الحديث ونص القرآن الكريم ٠ وما ذكره الشيخ عبد القادر القرشى من الاتفاق فغير موجود بل نص القرآن الكريم يخالف هذا الاتفاق ان وجد (كل يوم هو في شأن) كما سبق تفسيره عن ابن عباس وقتادة رضى الله تعالى عنهما ٠ وأما ما نقله الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن الإمام البخارى رحمه الله تعالى - عن أبي هريرة عن كعب وهو أصح -٠

قلت : وقد ثبت عن كعب الاحبار ان ابتداء الخلق كان يوم الأحد كما سبق بيانه وفى هذا الحديث الذى أخرجه مسلم لو كان ما ذكره الامام البخارى فى تاريخه صحيحا لكان التعارض واقعا بين قولى كعب الأحبار كما لا يخفى فما هو الراجح ٠

وقال الشيخ أحمد عبد الرحمن الساعاتى فى الفتح الربانى (١) بعد ايراده حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه : وقوله يوم السبت فيه رد زعم اليهود أنه ابتدأ فى خلق العالم يوم الأحد وفرغ يوم الجمعة ، واستراح السبت ، قالوا : ونحن نستريح فيه كما استراح الرب ٠ وهذا من جملة غباوتهم ، وجهلهم ، اذ التعب لا يتصور الا على حادث ٠ قال تعالى (انما أمرنا لشىء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون) ثم ذكر تخريج الحديث ٠ وأورد الحديث الساعاتى في نفس المجلد (٢) وأحال على الصفحة الثامنة من هذا المجلد ٠

---

(١) الفتح الربانى : ٨ / ٢٠ ٠

(٢) الفتح الربانى : ٢٨ / ٢٠ ٠

والمقصود من هذا النقل هو بيان ما وقعت فيه شبهة التعارض بين نص القرآن الكريم وبين حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه الذى صححه الحفاظ والنقاد كمسلم ، ويحيى ابن معين ، والدولابى ، والبيهقى ، والثقفى وابن مندة كما نقل هذا التصحيح فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الالبانى فى صحيح الجامع الصغير (١) ويقول أنه تكلم على هذا الحديث فى الأحاديث الصحيحة برقم ١٨٣٣ وهذا الجزء لم يطبع حتى الآن ، ولما جمع حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه فى متنه التخليقين فى وقتين متغايرين ظهر التعارض الظاهر والا فليس هناك تعارض البتة كما قيل ونقل آنفا ٠

لماذا لم يرد ذكر خلق السماوات فى الحديث

ولما لم يرد ذكر خلق السماوات فى حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه اثار الاشكال فى بعض الأذهان مع بقية التعارض الظاهرى ، قال الامام المناوى فى فيض القدير (٢) وقال بعضهم : هذا الحديث فى متنه غرابة شديدة ، فمن ذلك أنه ليس فيه ذكر خلق السماوات ثم ذكر بقية الكلام وهكذا نقل عنه الشيخ أحمد الساعاتى في الفتح الربانى (٣) أجاب عن هذا الاشكال العلامة المعلمى فى الأنوار الكاشفة (٤) اذ قال رحمه الله تعالى أما الوجه الأول فيجاب عنه بأن الحديث وان لم ينص على خلق السماء فقد اشار اليه بذكره فى اليوم الخامس النور ، وفى السادس الدواب ، وحياة الدواب محتاجة الى الحرارة ، والنور والحرارة مصدرهما الاجرام السماوية ٠ والذى فيه ان خلق الأرض نفسها كان فى أربعة أيام كما فى القرآن ، والقرآن اذ ذكر خلق الأرض فى أربعة أيام ، لم يذكر ما يدل ان من جملة ذلك خلق النور والدواب واذ ذكر خلق السماء فى يومين لم يذكر ما يدل انه فى اثناء ذلك لم يحدث فى الأرض شيئا ، والمعقول انها بعد تمام خلقها اخذت فى الخطور بما اودعه الله تعالى فيها ، والله سبحانه وتعالى لا يشغله شأن عن شأن اهـ ٠

---

(١) صحيح الجامع الصغير : ١١٣ / ٣ ٠

(٢) فيض القدير : ٤٤٨ / ٣ ٠

(٣) الفتح الربانى : ٨ / ٢٠ ٠

(٤) الأنوار الكاشفة : ١٩٠ ٠

قلت : هذا الذى ذكره لم يعزه الى النقل الصحيح من الكتاب والسنة أو اجماع الأمة أو الى مصادر أخرى ينبغى الاعتماد عليها وانى قد سألت عن هذا الموضوع بعض من يدرس العلوم الكيماوية والجولوجية فقال : ان الأمر لصحيح مائة فى المائة وقد تكلم على هذا الموضوع كلاما طويلا ولكن البحث فى حاجة الى التدقيق والتحقيق العلمى والله تعالى اعلم بالصواب ٠

خلق آدم فى يوم الجمعة

ثم تعرض حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه فى آخر الفاظه لخلق آدم عليه الصلاة والسلام كما قال الامام النووى عند عقده الباب على هذا الحديث فى شرحه على مسلم اذ قال رحمه الله تعالى : باب ابتداء الخلق ، وخلق آدم عليه السلام وجاء فى هذا الحديث ان آدم خلقه الله تعالى يوم الجمعة فى آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر الى الليل وفى هذا اللفظ اشارة واضحة الى تأخير خلق آدم عليه الصلاة والسلام عن خلق السماوات والأرض ـ فى آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات الجمعة كما فى حديث ابن عباس الذى أخرجه الحاكم فى المستدرك وصححه وكذا ابن أبى حاتم فى تفسيره واشار الى هذا المعنى الواضح نص القرآن الكريم فى سورة البقرة كما مضى بيانه وايضاحه وتحقيقه ، ولهذا المعنى الوارد فى حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه شواهد كثيرة وهى صحيحة وإنى أحب ايرادها فى هذا المقام لكى يتضح المعنى ويرفع الغبار وينجلى الشك ٠

فقد أخرج مسلم فى الصحيح وأبو داود فى السنن ، وابن أبى حاتم وابن مردويه فى تفسيريهماوكذا ابن المنذر كلهم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق الله آدم ، وفيه ادخل الجنة ، وفيه أهبط عنها ، وفيه مات ، وفيه تيب عليه ، وفيه تقوم الساعة ، وقد تعرض لهذا الموضوع الحافظ فى الفتح (١) : واثبت خلق آدم عليه الصلاة والسلام يوم الجمعة بروايات عديدة ، وآثار كثيرة وأخرجه ابن جرير الطبرى فى تاريخه (٢) باسناد صحيح ، وقد أخرج

---

(١) فتح البارى : ٣٥٦ / ٢ ٠

(٢) تاريخ الطبرى : ٥٨ / ١ ٠

الامام أحمد فى مسنده هذا المعنى باسناد صحيح فى مواضع عديدة (١) وذلك فى مسند أبى ريـة رضى الله تعالى عنه وقد أخرج هذا المعنى أيضا الامام أحمد فى مسنده (٢) باسناد حسن وذلك فى مسند أبى لبابة بن المنذر البدرى رضى الله تعالى عنه اذ قال رحمه الله تعالى : حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو ، قال : ثنا زهير يعنى ابن محمد ، عن عبد الله ابن محمد بن عقيل ، عن عبد الرحمن بن يزيد الأنصارى ، عن أبى لبابة البدرى بن المنذر ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سيد الأيام يوم الجمعة ، وأعظمها عنده وأعظم عند الله عز وجل من يوم الفطر ، ويوم الأضحى ، وفيه خمس خلال ، خلق الله فيه آدم وأهبط الله فيه آدم الى الأرض ، ثم ذكر الحديث بطوله ، وأخرجه ابن جرير الطبرى فى تاريخه من هذا الوجه (٣) ، وأخرج أيضا هذا المعنى باسناد صحيح (٤) وذلك فى مسند اوس ابن أبى اوس الثقفى وهو اوس بن حذيفة رضى الله تعالى عنه ، وفيه ان من افضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة فأكثروا علّى من الصلاة ، وقد عزا الامام السيوطى فى الدر المنثور (٥) هذا الحديث الى ابن أبى شيبة ، وأحمد ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجة والدارمى ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، والحاكم فى المستدرك ٠

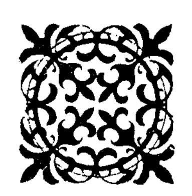
قلت : وأخرجه أيضا القاضى الامام اسماعيل بن اسحاق المتوفى سنة ٢٨٢ هـ فى رسالته فضل الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم (٦) حديث رقم ٢٢ وهذه هى الشواهد الكثيرة التى فيها ان الله خلق آدم عليه الصلاة والسلام يوم الجمعة وهى تؤيد معنى حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه الذى انا بصدد الكلام حوله والدفاع عن صحة اسناده والرد على الشيخ أبى رية وغيره من أهل العصر الذين يتكلمون فى مثل هذه المواضيع بدون علم ولا فقه ثم يطعنون فى السنة النبوية كلها مع بعدهم عن حقائق هذه الدراسة الاسنادية

---

(١) مسند الامام أحمد بن حنبل : ٤١٨ / ٢ ، ٤٨٦ / ٢ ، ٥٠٤ / ٢ ، ٥١٢ / ٢ ، ٥٤٠ / ٢ ٠
(٢) مسند الامام أحمد بن حنبل : ٤٣٠ / ٣ ٠
(٣) تاريخ الطبرى : ٥٦ / ١ ٠
(٤) تاريخ الطبرى : ٨٥ / ٤ ٠
(٥) الدر المنثور : ٢٢٦ / ٦ ٠
(٦) فضل الصلاة على النبى : ص ١١ ٠

والتخريجية ومن هنا كان كلامه واتهامه لأبى هريرة رضى الله تعالى عنه فى وضع هذا الحديث من تلقاء نفسه دون ان يكون هناك صدق مما أخبر به الله تعالى عنه فى زعم أبى هريرة ولذا يقول العلامة المعلمى رادا عليه في هذا الاتهام : أقول : لم يقع شيخنا رضى الله تعالى عنه فى هوة ولا قال احد من أهل العلم انه وقع فيها ، أما اذا بنينا على صحة الحديث عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الحق ان شاء الله تعالى فواضح ٠ وأما على ما زعمه ابن المدينى فلم يصح عن أبى هريرة ولا عمن روى عنه ولا عن الثالث شىء من هذا ، قوله أخذ رسول الله بيدى فقال : ولا قوله « خلق الله التربة » ، وأما على حدس البخارى ، فحاصله ان ايوب غلط ، وقع له عن أبى هريرة خبران أحدهما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى فقال : : فذكر حديثا صحيحا غير هذا والثانى قال كعب : خلق الله التربة يوم السبت فالتبس المقولان على أيوب فجعل مقول كعب موضع مقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تقدم اهـ ٠

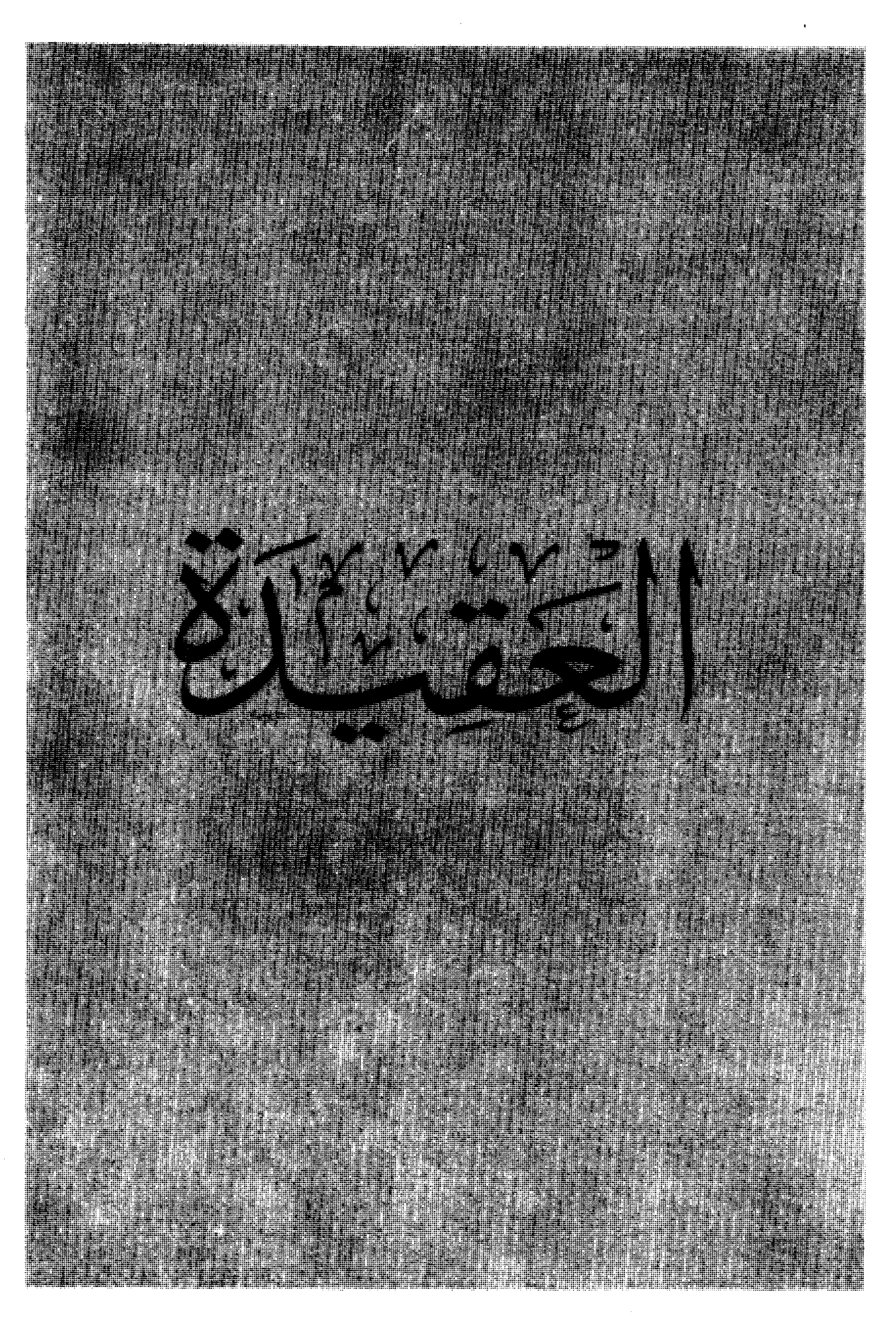
قلت : هكذا العلم والتحقيق وأما اتهامكم أبى هريرة رضى الله تعالى عنه بالكذب قبل دراسة أحوال الرواة وظروفهم فهذا الشىء ينبىء عن عداوة شنيعية قبيحة فى القلب ، والله تعالى اعلم بها ، وأما الجهل بحقيقة الحال أو وجود كلا الأمرين فى الرجل ، فالله تعالى اعلم به ، وانى مع هذه النقول الكثيرة وقلة الاطلاع على ما قاله السلف فى هذا الموضوع لا ادعى الصواب فيما نقلته واعتقدته من صحة هذا الحديث اسنادا ومتنا ، وواقعة ولى حق ان أطمئن الى احد الطرفين فى ضوء الحجة فانى ادين الله تعالى بما ذهب اليه جملة كبيرة من أهل التحقيق والعلم من صحة هذا الاسناد والله تعالى اعلم بالصواب وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه اجمعين ٠



ان الفصل بين الواقع الانسانى والمثل العليا ، مهد للعلم المنشق عن الدين أن يزعم أنه يتعامل مع الوجود المادي الملموس ، أي أنه لا يتعامل مع غايات الحياة وأهدافها ومقاصدها الرفيعة ٠ وهكذا نجد أن كل نقد يوجه للدين الجزئي يمكن أن يوجه للعلم الجزئي كذلك ، فالدين الذى يتجاهل الواقع البشري ويتعامى عن مشكلاته يتطابق مع العلم الذي يتعامىَ عن العقائد والمثل العليا ويفصلها عن الحياة ٠ فإذا كان الأول يتجاهل الحياة الواقعية القائمة ويتجاهل خبرات الانسان نفسها ، فإن العلم القاصر عن المثل العليا يهبط إلى المادي الملموس والمسموع والمنظور ، مجرداً من القيم الانسانية ، ويصبح سلعة تكنولوجيا يمكن لأي شخص أن يشتريها لأي غرض ، ويصبح العلماء مرتزقة يتكسبون بالعلم في أي مكان كما حدث لعلماء الايمان الذي عملوا للأهداف النازية والشيوعية والأمريكية ٠

لقد علمتنا العقود الأخيرة القليلة بأن العلم قد يصبح خطراً يهدد مقاصد الانسان العليا ، وأن العلماء قد يصبحون وحوشا طالما أن العلم أصبح كلعبة الشطرنج ، متعسفاً لا هدف له ، غايته الوحيدة اكتشاف الوجود المحسوس ٠ وبذلك ارتكب العلم الخطأ الفادح المصيري الذي يقصي أسمىَ الخبرات الذاتية من ميدان الوجود القابل للاكتشاف ٠

المجلة الإسلامية المغربية


العقيدة

مسلك القرآن الكريم

في إثبات البعث

د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي
عميد شئون المكتبات بالجامعة

تمهيـــــد :

خلق الله العباد لطاعته ، وكلفهم بعبادته ، كما قال تعالى : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) (سورة الذاريات آية ٥٦) ، وقد رسم لهم سبيل الخير ، كما بين لهم طرق الشر ، ولما كانت الطبيعة البشرية فيها الاستعداد لقبول الخير والشر ، كما قال تعالى (ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها) (سورة الشمس آية ٧ ـ ٨) فقد يطغى جانب الشر أحيانا على جانب الخير ، استجابة لداعى الشهوة ، الموجودة في الطبيعة البشرية ، فهى غالبا ما تجمح بصاحبها إلى تعدى الحدود التى يتحتم على المرء ألا يتجاوزها ، فيوقع الظلم على الآخرين .

وواقع الحال يبين لنا أن كثيرا ممن ارتكبوا تلك الجرائم في حق غيرهم ، وأوقعوا الظلم بالآخرين قد غادروا هذه الحياة الدنيا ، ولم ينل المظلوم حقه منهم ، مع العلم بأن كل ذلك واقع بعلم الله القوى القادر السميع البصير ، الذى يمهل ولا يهمل ، والذى حرم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرما .

ولما كان الظالم والمظلوم قد غادرا هذه الحياة الدنيا ، ولم يأخذ المظلوم حقه من ظالمه ولما كانت عدالة الله تعالى تقتضى القصاص وأن يأخذ المظلوم حقه من الظالم كان لا بد من حياة أخرى ، غير هذه الحياة ، يتم فيها تقاضى الحقوق بين العباد ويقتص فيها للمظلوم من

الظالم ، هذه الحياة هى التى تكون في الآخرة ، حين يبعث الله الناس من قبورهم ، (يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون) (المعارج آية ٤٣) ولذا كان من المحتم على المرء الاعتقاد ، بوقوعه وتحققه · وهذا أمر يرشد اليه العقل ، ويحتمه المنطق ، وتدل عليه النصوص الدينية ، قال تعالى : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون) (المؤمنون آية ١١٥) ·

وقال تعالى : (أيحسب الانسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى · فجعل منه الزوجين الذكر والانثى · أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) (القيامة الآ يات من ٣٦ ـ ٤٠) ·

لكن كثيرا من الناس قد ضلوا في هذا الباب ، فقصرت عقولهم عن ادراك هذا المعنى فأنكروا البعث بعد الموت ، بلا دليل ، سوى أنهم استبعدوا وقوعه بعد تفتت الأجساد وتمزقها ·

قضيـــــة البعث :

ولما كانت قضية البعث والحساب ، واعادة الحياة الى الموتى بعد تفتت تلك الأجساد ، واختلاطها بأجزاء الأرض ، من معضلات العقيدة ، شأنها في ذلك شأن قضية الوحدانية ، في الغرابة والاستبعاد ، وقد اقتضى هذا الاستبعاد تعجب المنكرين للبعث ووقوعه ، ممن يقولون به ، ويؤمنون بوقوعه قال تعالى مبينا وموضحا تعجب هؤلاء المنكرين : (ق والقرآن المجيد · بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب · أءذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) (ق آية ١ ـ ٣) ·

لذلك فقد سلك القرآن الكريم لاثباتها مسالك مختلفة في طريقة العرض والاستدلال ، فتارة يذكر الشبهة ثم يرد عليها ، وأخرى يذكر الدليل أولا وبعد استقامته يورد القضية ، وحيناً يخبر عن وقوع ذلك البعث والحساب خبرا قاطعا ، مع طي الدليل لوضوحه ·

وقد تجلى مسلك القرآن الكريم في عرضه للقضية بأسلوبه الفطرى السهل الواضح لأنه خطاب للفطرة البشرية بما هو في متناول ادراكها · وقد عنى القرآن الكريم بقضية البعث عنايته بقضية الوحدانية ، فكما تعددت الآ يات الدالة على اثبات الوجود الالهى ووحدانيته ، فقد كثرت الآ يات التى تقرر البعث · وتؤكد وقوعه ·

وأعظم حجة لدى المنكرين للبعث ، والأحرى أن نسميها أعظم شبهة لديهم هى : استبعاد اعادة الأجسام بعد تمزقها ، وتفتتها ، ثم اختلاطها بأجزاء الأرض ، اذ تصبح متصورة

بصورة التراب ، فكيف يمكن اعادتها الى حالتها التى كانت عليها من قبل ؟؟

هذا أمر غريب على عقول المنكرين ، وعجيب في نفس الوقت عندهم ، والحديث عنه خرافة ، والمتحدث به ، إما مفتر على الله الكذب ، وإما مجنون سلب عقله ، فخيل له جنونه ذلك الحديث وأجراه على لسانه ٠

وقد عبر شاعرهم عن ذلك الانكار ، مبينا أن الحديث عنه خرافة بقوله :

حياة ثم موت ثم نشر حديث خرافة يا أم عمرو

أيوعدنى ابن كبشه أن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام (١)

ويقول الحق جل شأنه ، مخبرا عن ذلك الجحود العنيد والانكار الشديد ، ونسبتهم الى قائله الجنون ، أو الكذب والافتراء على الله : (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مُزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ٠ أفترى على الله كذبا أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ٠ أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء ان في ذلك لآية لكل عبد منيب) (سبأ آية ٧ ـ ٩) ٠

فقد عجب كفار قريش من هذا الحديث الذى لم تستوعبه عقولهم ، فظنوا أن هذا الايجاد عبث لأن الحديث عن بعث هذه الأجسام لمجازاتها على أعمالها في حياتها الدنيا حديث خرافة ، أو حديث كذب وافتراء على الله ، أو مس من جنون أصاب قائله ، فأجرى على لسانه هذا الحديث العجيب الغريب ، ولذا فقد انطلقوا يخاطب بعضهم بعضا ، بهذا القول الذى حكاه الله عنهم ، قائلين (هل ندلكم على رجل ينبئكم) أى يحدثكم أو يخبركم بما تتعجبون منه لغرابته ، وهو إنكم إذا مزقتم كل ممزق ، فتفرقت أجسامكم ، واختلطت بأجزاء الأرض ، فأصبحتم ترابا ، (انكم بعد ذلك كله (لفى خلق جديد) أى ستخلقون خلقا جديدا فتعودون كما كنتم ٠ ثم قالوا بعد ذلك التعجب والاستغراب أن هذا الحديث الصادر من هذا الرجل ، ما هو الا افتراء على الله وكذب عليه ، (أفترى على الله كذبا) أو أن قائله مسلوب العقل فجنونه يوهمه ذلك الأمر ويلقيه على لسانه (أم به جنة) ٠

وقد بين الله سبحانه وتعالى ، أن الأمر ليس كما ذكروا ، فليس الرسول صلى الله عليه وسلم مفتريا على الله ، كما أنه لم يمسه جنون ، وانما الأمر راجع اليهم هم ، فعدم ايمانهم بالآخرة المترتب على عدم الايمان بقدرة الله ، هو اختلال في العقل ، وغاية الضلال عن الفهم والادراك ، لقدرة الخالق وجلال حكمته ٠

---

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام ص ١٢٦ ج ٦ ٠

لا سيما وأدلة القدرة على ذلك مشهودة ومعاينة ، ثم ذكرهم بتلك الأدلة فقال : (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء إن في ذلك لآية) الآية أى دلالة واضحة على قدرة الله ، فكيف يستبعد عليه اعادة تلك الأجسام الضعيفة بعد تفرقها ، وهو القادر على خلق هذه الآيات العظيمة ، من السماء والأرض ، ذلك هو دليل البعث ، لأنه يدل على كمال القدرة ، ومن المقدور عليه اعادة خلق الانسان وايجاده مرة أخرى ، وقد قرن هذا الدليل بالتهديد حيث قال : (إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء) ، ثم بين تعالى أن المنتفع بتلك الآيات كل من يرجع الى ربه ويتوب اليه لا من يتمادى في عناده وتعصبه ، فقال تعالى : (إن في ذلك لآية لكل عبد منيب) .

مسالك القرآن الكريم :

ذكرنا في التمهيد أن القرآن الكريم في معالجته لقضية البعث والجزاء ، تارة يعرض شبهة المنكرين ثم يرد عليها ، وأخرى يذكر الدليل على البعث أولا وبعد أن يتقرر ويتضح يورد القضية ، وحينا يخبر عن وقوع البعث والجزاء خبرا قاطعا مع طى الدليل لوضوحه .

ولما كان القرآن الكريم قد استوعب عددا كثيرا من الآيات التى تعالج هذا الموضوع فسنعرض نماذج منها تحت المسالك المشار اليها ، إذ لا سبيل إلى استيعاب تلك الآيات كلها في هذا البحث .

المسلك الأول : عرض الشبهة ثم الرد عليها :

أشرنا في التمهيد الى أن أعظم شبهة عند المنكرين للبعث ، هى شبهة الاستبعاد ، فقد قالوا : كيف يمكن اعادة الأجسام الى حالتها الطبيعية التى كانت عليها ، بعد أن صارت ترابا ؟؟ ذلك أمر غير معقول عندهم .

وفي النموذج التالى عرض لهذه الشبهة ، وبيان لانكارهم وتعجبهم ممن يؤمنون بالبعث ، ثم دحض لتلك الشبهة ، وبيان لزيفها بالأدلة الواضحة البينة المشهودة .

يقول الله تعالى حاكيا عن المشركين استبعادهم وقوع البعث بعد الموت وعدم امكانه وتعجبهم من شأنه وشأن القائل به .

(ق ، والقرآن المجيد) .

(بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب) .

(أءذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) (ق ٠ آية ١ ـ ٣) ٠

يقسم تبارك وتعالى بالقرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذى هو تنزيل من حكيم حميد ، وجواب القسم هو مضمون الكلام الآتى بعد القسم ، وهو اثبات النبوة ، واثبات المعاد وتقريره وتحقيقه (١) ، ثم يحكى تعجب المشركين من أن يأتيهم منذر منهم ، أى بشر من جنسهم ، ولم لا يكون من جنس آخر كالملائكة مثلا ؟

ثم يتبع ذلك بما هو أعجب عندهم من دعوى النبوة ، وهو اخبار الرسول لهم ، بأن بعد هذه الحياة الدنيا ، حياة أخرى ، وهى بعثهم من قبورهم أحياء ، مرة ثانية ، للحساب والجزاء على الأعمال الكائنة منهم في تلك الحياة الماضية ، اذ كيف يمكن وقوع ذلك الحساب بعد ما تمزقت الأجسام وتفرقت بحيث أصبحت ترابا ؟؟

ان القول برجعة تلك الأجسام مرة أخرى أمر مستبعد ، ومستحيل في اعتقادهم ، (أءذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) ٠

لكن هذه الاستحالة وذلك الاستبعاد الذى يعبرون عنه بالنسبة لمن ؟؟

هل يكون بالنسبة للقدرة الالهية التى اذا أرادت الشىء قالت له كن فيكون في نفس اللحظة من غير توقف على شىء آخر أصلا ؟؟
أو يكون بالنسبة لقُدَرهم العاجزة ؟؟

الواقع أنهم يعبرون بذلك عن أنفسهم ، ويستبعدون البعث ووقوعه ظنا منهم أن قدرة الله تشبه قدرتهم ، فقاسوا قدرة الله على قدرتهم وقياس الغائب على الشاهد باطل في نظر العقلاء ، ولذلك صور الله عز وجل هذا الظن الخاطىء في قوله تعالى : (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم) (يس آية ـ ٧٨) ولذا فقد استعظمت عقولهم هذا الأمر وجعلته في حكم المستحيل ، والا فلو نظروا بغير هذه النظرة القاصرة ، وتأملوا في أنفسهم في مبدأ خلقهم ، وفيما بين أيديهم من الآيات الدالة على القدرة الالهية التى لا يعجزها شىء متى ما أرادته لما صدر منهم هذا القول المنكر ٠

وبعد ذكره تعالى للشبهة التى يتكئون عليها يبدأ في الرد عليهم فيقول :

(قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ٠)
(بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج ٠)

---

(١) ابن كثير . التفسير ج ٤ ص ٢٢١ ٠

(أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ٠)
(والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ٠)
(تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ٠)
(ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ٠)
(والنخل باسقات لها طلع نضيد ٠)
(رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج) (ق الآيات من ٤ ـ ١١) ٠

فنراه تبارك وتعالى يحشد في هذه الآيات عددا من الأدلة ، **المعنوية منها والحسية المشاهدة** ، التى تخاطب العقل وتستثير الوجدان ٠

أ ـ الأدلة المعنويـة (العقليـــة) :

بين سبحانه وتعالى في الآية الأولى ، أنه لا مكان لهذا الجحد ، ولا وجه لذلك الاستبعاد ، فاعادة الأجسام الى ما كانت عليه أولا ، بعد تمزقها واختلاطها بأجزاء الأرض من الأمور اليسيرة على القدرة الالهية ، ذلك أن اعادة الشيء المتفرق أجزاء ، أو المستحيل عن صورته الى صورة أخرى ، كتحول الجسم البشري الى صورة التراب مثلا ، يتوقف على أمرين ٠

أحـدهما : العلم بتلك الأجزاء المتفرقة ، أو بتلك الصورة المستحيلة عن صورتها الأصلية ٠

ثانيهمـــا : القدرة على اعادة تلك الأجزاء ـ أو تلك الصورة الى حالتها السابقة وقد أوضحت الآية الكريمة أن علم الله شامل ومحيط ، فهو تعالى يعلم أين ذهبت تلك الأجزاء وكيف تفرقت فقد عم علمه جميع الكائنات صغيرها وكبيرها حتى انتهى الى حيث علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكل من لحومهم وعظامهم ، فاذا كان ذلك معلوما لله تعالى ، ومكتوبا ومحفوظا ، كما قال تعالى (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ) فكيف يستبعد عليه اعادتهم بعد حالتهم تلك أحياء كما كانوا ؟ !

وفي صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ما بين النفختين أربعون ، قالوا : يا أبا هريرة ، أربعون يوما ؟ قال : أبيت ٠ قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبيت ٠ قالوا : أربعون شهرا ؟ قال : أبيت ٠ ويبلى كل شيء من الانسان

الا عجب ذنبه فيه يركب الخلق (١) ٠

فدل الحديث على نقص جسم الإنسان وتحلله ، وذهابه في الأرض ، إلا ذلك الجزء وهو عجب الذنب ، الذى قيل أنه كحبة الخردل (٢) ، وفيه يركب الانسان ، فيبقى بعينه ٠ والحديث على ظاهره عند جمهور العلماء ٠ وقد خالف المزنى فقال : إنّ « الا » بمعنى الواو ، أى وعجب الذنب أيضا يبلى ٠ ورد ٠ قوله هذا بما جاء مصرحا به في رواية مسلم من أن الأرض لا تأكله أبدا ٠ ونص الرواية في صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنّ في الانسان عظما لا تأكله الأرض أبدا فيه يركب يوم القيامة » قالوا : أى عظم هو ؟ يارسول الله قال : « عجب الذنب » (٣) ٠
ذاك دليل العلم ٠

أما دليل القدرة على الاعادة ، فقد بينته الآيات التالية لهذه الآية ، وهى الآيات المشتملة على الأدلة الحسية المشاهدة ، كخلق السماء ، والأرض ، فالقادر على خلقهما مع عظمهما ، قادر على اعادة الانسان الضعيف من باب أولى ، ثم ان الاعادة للمعدوم الممكن ، من الأمور الممكنة عقلا ٠

فالعقل لا يمنع من أن من قدر على ايجاد الشيء أولاً ، قادر على اعادته بعد عدمه ، ثانيا فإن ذلك من الأمور الممكنة التي لا يستطيع العقل السليم انكارها ٠
وبعد أن بين الله لهم شمول علمه واحاطته بالجزئيات والكليات إذ أن العالم بجزئيات الأشياء لا تخفى عليه كلياتها ٠ بين لهم سبب اضطرابهم في أمر البعث ، وأنه تكذيبهم للحق الذى جاءهم من خالقهم ، إذ الأخبار عنه حق ، والمخبر به صادق قال تعالى (بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج) أى مضطرب غير مستقر ٠

---

(١) محمد بن اسماعيل البخارى . صحيح البخارى كتاب التفسير باب : ونفخ في الصور ···· رقم الحديث ٤٨١٤ من فتح البارى ج ٨ ص ٥٥١ ٠

وقول أبى هريرة « أبيت » معناه أبيت أن أجزم بأن المراد أربعون يوما ··· الخ بل الذى أجزم به أنها أربعون مجملة . وذلك الذى سمعت ٠

وقد روى هذا الحديث الامام مسلم في صحيحه في / كتاب الفتن / باب ٢٨ ما بين النفختين / رقم الحديث ١٤١ ج ٤ ص ٢٢٧ ، ترقيم عبد الباقى ، وفيه « ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل » وبهذه الزيادة رواه البخارى أيضا في كتاب التفسير / باب يوم ينفخ في الصور - ج ٨ ص ٦٨٩ في فتح البارى رقم الحديث ٤٩٣٥ ٠

(٢) جاء ذلك في حديث أبى سعيد عند الحاكم وأبى يعلى . قيل يارسول الله ما عجب الذنب ؟ قال : مثل حبة خردل والعجب . بفتح المهملة وسكون الجيم بعدها موحدة ويقال له « عجم » بالميم أيضا عوض الباء . وهو عظم لطيف في أصل الصلب . وهو رأس العصعص . وهو مكان رأس الذنب من ذوات الأربع . فتح البارى ج ٨ ص ٥٥٢ ٠

(٣) مسلم : صحيح مسلم / كتاب الفتن وأشراط الساعة / باب ما بين النفختين / رقم الحديث ١٤٣ ج ٤ ص ٢٢٧١ ترقيم عبد الباقى ٠

ب ـ الأدلة الحسيـــة : وبعد ذكره تعالى ، لشمول علمه واحاطته ، ثم بيانه لسبب اضطرابهم في أمر البعث ٠

اتجه الى نوع آخر من الأدلة ، وهى الأدلة الحسية المشاهدة ، الدالة على كمال قدرته سبحانه وتعالى ، فقال تعالى منكرا عليهم عدم اعتبارهم بهذه الأدلة المشهودة على القدرة الالهية : (أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج) فهذه السماء التى يدرجون تحتها أفلا ينظرون الى ابداعها وحسنها ، واحكام بنائها ، وما زينت به من كواكب ثابتة وسيارة ، ألم يأخذوا منها دليلا على القدرة المبدعة التى لا يعجزها شيء ٠

وهذه الأرض التى يسعون عليها ، أفلا ينظرون إليها ، كيف مدت لهم وأرسيت بالجبال لئلا تضطرب بهم ، وما أنبتنا فيها من الأنواع المختلفة الطعوم والأشكال رزقا للعباد قال تعالى (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) ثم بين تعالى أن هذه الآيات الكونية جميعها أوجدها تبارك وتعالى (تبصرة وذكرى) أى تبصيرا وتذكيرا (لكل عبد منيب) راجع الى ربه متفكر في بدائع صنعه ٠

ثم تابع الأدلة الحسية على البعث ، فضرب لهم مثلا باحياء الأرض بعد موتها فقال : (ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ٠ والنخل باسقات لها طلع نضيد ٠ رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج) ٠

فهذا مثل ضربه الله لمنكرى البعث بما يشاهدونه من حال الأرض قبل نزول المطر عليها وهى جدباء مقفرة ، فحين ينزل عليها الماء تهتز وتربو فتنبت من كل زوج بهيج أى حسن المنظر ، وذلك بعد ما كانت يابسة لانبات فيها ، فأصبحت تهتز خضراء (١) ٠

فهذا مثال للبعث والاحياء بعد الموت والهلاك ، ولذلك يقول جل شأنه (كذلك الخروج) يقول جل شأنه أي مثل ذلك الاخراج للنبات من الأرض ، يحيى الله الموتى فيخرجهم من قبورهم أحياء للحساب والثواب والعقاب ٠

فهذا المشاهد بالاحساس من آثار قدرته تعالى أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث كخلق السماء والأرض قال تعالى (أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ، بلى انه على كل شيء قدير) (الأحقاف آية ٣٣) واحياء الأرض بعد موتها كما قال تعالى (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى انه على كل شيء قدير) (فصلت آية ٣٩) ٠

---

(١) ابن كثير ، التفسير ٤ ص ٢٢٢ ٠

وكما رأينا في هذا العرض لبراهين القرآن الكريم على اثبات البعث ، تلك البراهين التى لا تدع مجالا للشك عند العقل الفطرى السليم في إمكان وقوعه وعدم استبعاده ٠

فبالمقابل ، ليست لدى المنكرين لوقوعه ، حجة يستندون اليها في انكارهم الا الاستبعاد المستند الى الوهم والظن ، كما قال تعالى (وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا) (الجن آية ٧) اذ ليس هناك علم يقينى بامتناع البعث بعد الموت وعدم امكانه ، وانما هناك ظن ووهم ناتج عن تكذيبهم بالحق الذى جاءهم من الله تبارك وتعالى ، فالله هو الحق وقوله الحق ، وليس بعد الحق الا الضلال المبين ، ولذلك فان المكذب بالحق مضطرب ليس لديه أساس متين يستند اليه قال تعالى (بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج) أى مضطرب غير مستقر ٠

النموذج الثانى ـ من المسلك الأول :

وقد أوضحت الآيات التالية من سورة ، يس ، ذلك الانكار الشديد المستند الى شبهة استبعاد اعادة الأجساد الى حالتها الأولى بعد أن أصبحت عظاما رميماً تذروها الرياح ٠

يقول تعالى :

(أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين) ٠

(وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم) ٠

(قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) ٠

(الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون) ٠

(أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) ٠

(إنما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) ٠

(فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون) (يس الآيات من ٧٧ ـ ٨٣) ٠

سبب نزول الآيـــات :

ذكر المفسرون لهذه الآيات ، أن أبى بن خلف أتى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده عظم رميم يفته ويذروه في الهواء ، وهو يقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟؟ فقال رسول الله : « نعم يميتك الله تعالى ، ثم يبعثك ثم يحشرك الى النار ٠ فنزلت الآيات من آخر سورة يس ٠

وفي رواية أن العاص بن وائل السهيمى ، أتى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل ففته بين يديه ، فقال : يا محمد أيبعث الله هذا حيا بعد ما أرم ؟؟

قال : نعم يبعث الله هذا ، ثم يميتك ثم يحييك ، ثم يدخلك نار جهنم » فنزلت الآيات (١) فقد تبين لنا من أسباب النزول اعتراض بعض المشركين على الرسول صلى الله عليه

وسلم في تقريره البعث ، وقد أكدوا انكارهم ذلك بما ضربوه من المثل لله تعالى ، فكان ضروريا أن يرد عليهم انكارهم ، وأن يبطل لهم مثلهم ، والآيات وان كان سبب نزولها خاصا ، فهى عامة في كل منكر للبعث ، لما هو مقرر في الأصول من أن العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب ، والألف واللام في قوله (أو لم ير الانسان) للجنس فيعم كل منكر ٠

بينت الآيات أن استبعاد الاعادة للأجسام بعد الموت آت من انسان لم ينظر في مبدأ خلقه أولا ، إذ لو نظر في نشأته الأولى نظر تبصر واعتبار ، لكفاه خلقه من نطفة ، ضعيفة حقيرة ، دليلا على اعادته بعد موته ، فنسيانه لمبدأ خلقه من تلك النطفة هو الذى دعاه لهذا الانكار ، ثم ضربه المثل لله القادر ، بقدرة الانسان العاجز (أو لم ير الانسان) نشأته ، أى ألم يعلم (أنا خلقناه) أى ابتدأنا خلقه وايجاده (من نطفة) من منى يمنى وما أضعف النطفة وأعجزها (فاذا هو) بعد العجز والضعف انسان قوى ناطق (خصيم مبين) أى بعد تلك الأطوار الضعيفة أصبح يخاصم ويجادل أبين جدال وأبلغ خصام ؛ ومن ذلك خصامه وجداله في أمر البعث والجزاء ، ينكر قدرة خالقه الذى أنشأه أول مرة ، ويدعى عدم قدرته على اعادته ثانيا ، (وضرب لنا مثلا) أى صفة غريبة عجيبة يعارض بها قدرتنا الثابتة بالدليل القاطع على اعادته ، فجعل لنا مثلا ونظيرا من الخلق وقاس قدرتنا على قدرتهم ثم بين تعالى ، أن سبب ذلك هو ذهوله وعدم التفاته إلى خلقه الأول فقال : (ونسى خلقه) وكان من حقه ألا ينسى فيستدل به على امكان عوده كما بدأه ، ولو تأمل في ذلك لعلم أن القدرة التى سوته أولا لا يعجزها بأى حال اعادته ثانيا بعد أن صار كما يرى عظما رميما مفتتاً ، وأن تلك الرجعة ليست بعيدة على القوى القادر ، وقد قدم قوله (ونسى خلقه) على ضرب مثله تنبيهاً على جهله وغبائه وغفلته ، عما في نفسه وبين يديه من الأدلة ، وماذا قال في مثله الذى يعتمد عليه في تأييد دعواه ؟؟ (قال : من يحيى العظام وهى رميم) بالية متفتتة ٠ فقد أتى ذلك المنكر للبعث المستبعد لوقوعه الى النبى صلى الله عليه وسلم آخذا بيده عظما رميما يفته ويذروه في الهواء ، قائلا للنبى صلى الله عليه وسلم : أترى يحيى الله هذا العظم بعد ما أرم ؟؟

---

(١) محمد بن جرير الطبرى ، التفسير ج ٢٣ ص ٣٠ ، ٣١ ، الطبعة الثانية سنة ١٣٧٣ هـ وابن كثير التفسير ج ٣ ص ٥٨١ ١٩٥٤ م مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ٠

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : نعم ويدخلك النار . وقد دفع سبحانه وتعالى هذه الشبهة بقوله (قل) أمر للنبى صلى الله عليه وسلم أى ذكر هذا الناسى لفطرته الدالة على حقيقة الأمر وكمال القدرة (يحييها) أى يخلق الحياة فيها (الذى أنشأها) أوجدها من العدم (أول مرة) في بدء الخلق والنشأة ، فهو الذى أنشأ هذا العظم الذى تفته بيدك من نطفة ماء - لاعظم فيه ، فالقادر على انشائه أولا ، ثم احلال الحياة فيه لا يعجزه اعادته مرة أخرى ، كما قال تعالى : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ..)

يقول الفخر الرازى : (ومنهم - أى المنكرين - من ذكر شبهة وان كانت في آخرها تعود الى مجرد الاستبعاد وهى على وجهين أحدهما أنه بعد العدم لم يبق شيئا فكيف يصح على العدم الحكم بالوجود ؟ (وثانيها) أن من تفرقت أجزاؤه في مشارق العالم ومغاربه وصار بعضه في أبدان السباع وبعضه في جدران الرباع كيف يجمع ؟ بل لو أكل انسان انسانا آخر فكيف الاعادة ؟ وقد رد على الشبهة الأولى بقوله (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) يعنى كما خلق الانسان ولم يكن شيئا مذكورا ، كذلك يعيده وإن لم يبق شيئا مذكورا .

أما الشبهة الثانية فقد أبطلها بقوله (وهو بكل خلق عليم) ثم ذكر الأجزاء الأصلية في الانسان ، والأجزاء الفضيلة ، والله عالم بكل ذلك فهو يعيد كل جزء الى صاحبه ثم يعيد فيه الحياة) (١) .

فعلم الله شامل بتفاصيل كيفيات الخلق والايجاد - انشاء واعادة محيط بجميع الأجزاء المتفتتة المتبددة لكل شخص من الأشخاص أصولها وفروعها ، كما قال تعالى : (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ) قادر على اعادتها على النمط السابق الذى كانت عليه كما قال تعالى : (بلى قادرين على أن نسوى بنانه) والبنان أدق شىء في الانسان وأصغره .

ثم أتبع ذلك بالأدلة المحسوسة الدالة على كمال القدرة الالهية مبينا لهم أنه لا وجه لهذا الاستبعاد ، إذ كيف يكون ذلك وبين أيديهم من الآيات الكونية الدالة على أن الخالق لا يعجزه شىء ما يكفيهم لو نظروا فيه بعين البصيرة والتأمل .

فقال تعالى (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون) .

فهذه آية عظيمة دالة على كمال القدرة الالهية التى توجد الضد من ضده فهذا الشجر

---

(١) الفخر الرازى . التفسير الكبير ج ٢٦ ص ١٠٩ الطبعة الثانية . الناشر دار الكتب العلمية طهران .

الغض الذي يقطر ماء ، أحدث منه الخالق القادر هذه النار المضادة له ، وهذا أمر أعجب وأغرب من اعادة الغضاضة الى ما كان غضا فطرأت عليه اليبوسة والبلى ٠

كما أن هذه الآية متضمنة للرد على شبهة يوردها المنكر لاعادة الحياة بعد الموت ذلك أن الموت بارد يابس ، والحياة طبعها الرطوبة والحرارة ، فاذا حل الموت لم يكن أن تحل فيه الحياة بعد ذلك لما بينها من التضاد ٠

والحقيقة أن الشبهة واهية وغير واردة على موضوع البعث أصلا ، ذلك أن الممتنع هو الجمع بين الضدين في آن واحد ، أى بأن يكون الجسم حيا وميتا في وقت واحد والبعث بعد الموت ليس من هذا الباب ، لأنه حياة بعد موت ، لا مع موت ، فحين ما حل بالجسم الموت ارتفعت الحياة فبقى ميتا إلى حين وقت البعث ، فلما عادت اليه الحياة مرة ثانية ارتفع الموت ، فليس هناك جمع بين ضدين ٠

وقد تابع أدلة الرد على المنكرين للبعث والحساب منكرا على الانسان استبعاد وقوع البعث الجسمانى وامكانه قائلا : (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) ومتى قدر على ذلك فهو قادر على اعادة أعيانهم - ولو اتجه الانسان مع فطرته الصحيحة التى فطره الله عليها ، لأجاب بقوله (بلى) أى هو قادر على ذلك لأن هذه الاجابة هى مقتضى ما يعترفون به ولا ينكرونه (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون) (سورة العنكبوت آية ٦١) ٠

ولأنه تعالى (هو الخلاق العليم) أى كثير الخلق ، وكثرة الخلق ناشىء عن كمال القدرة ، وهو (العليم) الذى لا يخفى عليه شىء ، فعلمه شامل بجزئيات الأشياء وكلياتها ، كما قال تعالى (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين) (سورة سبأ آية ٣) ٠

وقال تعالى (فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين) (سورة الأعراف آية ٧)

ثم دل على كمال قدرته ونفاذ مشيئته فقال (إنما أمره) أى شأنه ، (إذا أراد شيئا من الأشياء (أن يقول له كن فيكون) أى فيحدث ما أراده من غير توقف على شىء آخر فكيف يصعب على من هذه قدرته اعادة هذا الانسان بعد بلاه وتمزقه ٠

روى البخارى في صحيحه عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ذكر رجلا فيمن سلف أو فيمن كان قبلكم ـ قال كلمة (١) يعنى أعطاه الله مالا وولدا ، فلما حضرت الوفاة قال لبنيه : أيّ أبٍ كنت لكم ؟ قالوا : خير أب · قال : فانه لم يبتئر (٢) ـ أو لم يبتئر عند الله خيرا وان يقدر الله عليه يعذبه ، فانظروا اذا مت فأحرقونى حتى اذا صرت فحما فاسحقونى ـ أو قال فاسحكونى ـ فإذا كان يوم ريح عاصف فأذرونى فيها · فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم : فأخذ مواثيقهم على ذلك وربى ، ففعلوا ثم أذروه في يوم عاصف ، فقال الله عز وجل ، كن · فإذا هو رجل قائم · قال الله : أى عبدى ما حملك على أن فعلت ما فعلت ؟ قال : مخافتك ـ أو فرق منك ـ قال : فما تلافاه أن رحمه عندها ، وقال مرة أخرى : فما تلافاه غيرها فحدثت به أبا عثمان فقال : سمعت هذا من سلمان غير أنه زاد فيه : أذرونى في البحر أو كما حدث » (٣) ·

فقد دل هذا الحديث على كمال القدرة التى لا يعجزها شىء فكل ما أراده الله عز وجل متوقف على قوله له (كن) فاذا هو كائن كما أراد ·

وقد أورد ابن كثير في تفسير قوله تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) حديثا رواه الإمام أحمد عن أبى ذر رضى الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى يقول يا عبادى كلكم مذنب إلا من عافيت فاستغفرونى أغفر لكم ، وكلكم فقير الا من أغنيت ، انى جواد ماجد واجد أفعل ما أشاء عطائى كلام وعذابى كلام إذا أردت شيئا فإنما أقول له كن فيكون » (٤) ثم نزه نفسه عما ينسبه اليه الكافرون من العجز فقال (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء واليه ترجعون) فبيده مقاليد السموات والأرض واليه يرجع الأمر كله ، واليه ترجع العباد في يوم المعاد فيجازى كل عامل بعمله ·

النموذج الثالث ـ من المسلك الأول :

وفي سورة الاسراء يذكر الله عز وجل تلك المحاورة بين منكرى البعث والرسول صلى الله عليه وسلم فيقول تعالى :

---

(١) قوله قال كلمة ـ فسرها بقوله أعطاه الله مالا وولدا أى الكلمة التى قالها قبل ذكر القصة ·

(٢) لم يبتئر ـ فسره قتاده لم يدخر ·

(٣) محمد بن اسماعيل البخارى : صحيح البخارى . كتاب التوحيد / باب ٣٥ قول الله تعالى (يريدون أن يبدلوا كلام الله) من فتح البارى ج ١٣ ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧ رقم الحديث ٧٥٠٨ · ورواه في كتاب الرقاق / باب ٢٥ الخوف من الله / من فتح البارى ج ١١ ص ٣١٢ ، ٣١٣ رقم الحديث ٦٤٨١ · ورواه مسلم في كتاب التوبة / باب ٤ في « سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه . رقم الحديث ٢٥ · ورواه الامام أحمد في السند ج ٥ ص ٢٦٩ ·

(٤) ابن كثير التفسير ج ٣ ص ٥٨٢ ·

(وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا · قل كونوا حجارة أو حديدا ·)

(أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا) ·

(يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الا قليلا) (الاسراء آية ٤٩ ـ ٥٢) ·

فقد حكى شبهة منكرى البعث في الآية الأولى ، تلك الشبهة هى استبعاد وقوع المعاد فإن عقولهم لم تتصور إمكان الاعادة ووقوعها ، بعد تمزق الأجساد وتفرقها ، وقد بين لهم عز وجل أنه لامكان لهذا الاستبعاد ، ولا مجال له مع القدرة الالهية ، ولهذا وبخهم بهذا الأسلوب التعجيزى ، فأمر نبيه صلى الله عليه وسلم ، أن يجيبهم بقوله : (قل) يامحمد مجيبا هؤلاء المنكرين لقدرتنا ، على اعادة أجسامهم الضعيفة الى حالتها الأولى التى أوجدناها عليها ، (كونوا حجارة أو حديدا) أو أى نوع يعظم عندكم عن قبول الحياة ، لكمال المباينة ، والمنافاة بينهما وبينه ، فانكم مبعوثون ، ومعادون للمجازاة على أعمالكم لا محالة ، ولكنهم بعد ما سمعوا ، أمعنوا في جحودهم ، فقالوا : إذا كنا كذلك من حجارة أو حديد ، (من يعيدنا) ؟ فجاءهم الجواب بما هو مسلم عندهم لو عقلوا (قل الذى فطركم أول مرة) · أى هو الذى أنشأكم أولا ، ولم تكونوا شيئا مذكورا ، هو القادر على اعادتكم ثانيا ، وأنتم تعترفون بأنه خالقكم ، ومنشئكم (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ··) (الزخرف آية ٨٧) فكيف تستبعد عليه الاعادة ؟؟

غير أنهم لم يعيروا هذا الدليل اهتماما ، ولذا فهم يحركون رؤسهم استهزاء وسخرية قائلين استبعادا لوقوعه (متى هو ؟) أى متى سيكون هذا الأمر الغريب الذى تعدنا به فبين لهم سبحانه أنه قريب ، ذلك لأنه آت ، وكل آت قريب ، (قل عسى أن يكون قريبا) وذلك يوم يدعو الله الخلائق فيستجيبون لتلك الدعوة · قال تعالى : (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) (الروم آية ٢٥) أى إذا أمركم بالخروج منها ، فانه لا يخالف أمره ولا يمانع ، (وتظنون ان لبثتم الا قليلا) حين ترون ما وعدتم به ، كقوله تعالى (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) (النازعات آية ٤٦) ومثل هذه الآيات في السورة نفسها قوله تعالى : (··· ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا · ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا : أإذا كنا عظاما ورفاتا إإنا لمبعوثون خلقا جديدا · أو لم يروا أن

الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلًا لا ريب فيه فأبى الظالمون الا كفورا) (الاسراء آية ٩٧ ـ ٩٩) ٠

فقد أخبر تعالى في الآية الأولى عن حشر المنكرين للبعث على أقبح صورة جزاء لهم على كفرهم به تعالى ، وانكارهم لآياته وتكذيبهم لأنبيائه ، ولما استعظموا اعادتهم خلقا جديدا بعد أن صاروا رفاتا ، أى مفتتة أجسادهم ، أجابهم بما يقرون به وهو خلق السموات والأرض وهى أعظم من خلقهم ، فالقادر على ايجادها قادر على اعادتهم من باب أولى ، إذ القادر على خلق الأكبر ، لا يعجزه خلق أو ايجاد ما هو أصغر منه في بدائه العقول (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) (غافر آية ٥٧) فقال (أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ...) ومتى قدر على خلق مثلهم فهو قادر على اعادة أعيانهم ، كما قال تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ...) (الروم آية ٢٧) ٠

المسلك الثانى : تقديم الدليل ، ثم ايراد القضية بعد استقامته ووضوحه :

النموذج الأول :

يقول الله تعالى ، من سورة المؤمنون : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ٠ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ٠ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ٠ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ٠ ثم انكم يوم القيامة تبعثون) (المؤمنون آية ١٢ ـ ١٦) ٠

في هذه الآيات قدم الله سبحانه وتعالى ، الاستدلال على امكان البعث والجزاء يوم القيامة ، بخلق الإنسان في أطواره المتعددة حيث خلقه من طين ، والمراد به آدم عليه السلام ، ثم جعل نسله ، أى ولده من بعده من ماء مهين ، كما قال تعالى في سورة السجدة : (الذى أحسن كل شيء خَلَقه وبدأ خلق الانسان من طين ٠ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) (السجدة آية ٧ ـ ٨) ٠

وقيل المراد بالانسان ، الجنس في ضمن خلق آدم ٠

ثم شرع يبين تلك الأطوار المتعددة التى مر بها خلق الإنسان الى أن أصبح بشرا سويا ، عاقلا ناطقا ، فقال (ثم جعلناه نطفة) ماء ، وهو المنى المهين أى الممتهن (في قرار مكين) أى مستقر وهو الرحم ، ثم بين تحول هذه النطفة من حالة الى أخرى خلقها علقة ، أى دما جامدا ، ثم خلق العلقة مضغة لحم لا تمايز فيها ، ثم خلق تلك المضغة عظاما ٠ بأن جعلها عمودا للبدن على هيئات وأوضاع مخصوصة تقتضيها الحكمة الالهية ، ثم كسوة تلك

العظام لحما على مقدار ما يناسب كل عضو ، ويليق بهيئته حتى يكون خلق الانسان في أحسن تقويم وأجمله ، كل ذلك التحول من حالة الى أخرى يتم في ذلك المكان المظلم الضيق ، بقدرة العليم الحكيم (يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ..) (الزمر آية ٦) .

ثم تحويله إلى خلق آخر مباين للخلق الأول ، مباينة ما أبعدها ، فقد أصبح إنسانا حيا ، سميعا بصيرا ، متكلما ، عاقلا ، بعدما كان جمادا ، نقلة هائلة بين النطفة الضعيفة الميتة ، وبين الإنسان الحى الناطق ، فلا علاقة عقلية ، ولا تلازم بينهما اللهم إلا القدرة الالهية ، التى تقول للشىء كن فيكون ؟ (يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) (الروم آية ١٩) .

ولما كانت هذه الأطوار لخلق الانسان ، من أعظم الدلائل على القدرة الالهية والحكمة الربانية ، فقد أثنى سبحانه وتعالى على نفسه بقوله (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

هكذا يعرض الله تبارك وتعالى ، هذا الدليل على المخاطبين ، بحيث لا يمكنهم انكاره لأنه من مشاهداتهم ، فمن منهم لا يعرف عن كيفية خلق الانسان شيئا ، كل واحد منهم يعلم من نفسه أنه وجد على هذه الأطوار التى ذكرها القرآن الكريم ، كما يعلم ذلك عن طريق مشاهداته ، لوجود أبنائه ، وأبناء جنسه .

وهكذا بعد أن اتضح الدليل واستقر ، وهو أنه تعالى ، قادر على الانشاء والايجاد من العدم ، أورد قضية البعث بعد الموت في يوم القيامة ، فقال : (ثم انكم بعد ذلك لميتون) أى بعد تمام خلقكم . ثم خروجكم من بطون أمهاتكم ، واستيفائكم آجالكم (ثم انكم يوم القيامة تبعثون) أحياء من قبوركم ، فتحاسبون على أعمالكم ، وتنالون جزاءكم ، قال تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) (الأنبياء آية ٤٧) .

٢ ـ النموذج الثانى : من المسلك الثانى :

يقول تعالى من سورة السجدة : (الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون .

وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفى خلق جديد ، بل هم بلقاء ربهم كافرون . قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون . ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا

رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون) (السجدة الآيات ٧ ـ ١٢) يخبر تعالى أنه أحسن الأشياء التى خلقها فأتقنها وأحكمها ، كما قال تعالى (صنع الله الذى أتقن كل شيء) ومن تلك الأشياء المخلوقة المتجلية فيها بدائع الصنعة خلق الإنسان ، ثم شرع في بيان بدء خلقه فقال (وبدأ خلق الانسان من طين) ٠

ويعني به خلق آدم عليه السلام كما قال تعالى (إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين) ثم جعل نسله ، أى قدر خلق ذريته من تلك النطفة التى تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة ٠ مذكرا لهم بنعمه التى منحهم اياها من السمع والبصر والعقول ، كل تلك القوى التى قل شكرهم لله عليها أنشأها من تلك النطفة التى عبر عنها بالشيء المتهن لحقارته ، وبعد ذكره تعالى لنشأتهم الأولى المتمثلة في خَلق أبيهم آدم ، ثم بيانه لكيفية تناسلهم من بعده ـ وما أنعم به عليهم من القوى الظاهرة والباطنة مما يدلهم على قدرته وحكمته ، أورد قضية البعث ، إذ لا يعقل ـ إن كانوا يعقلون ـ أن يخلقهم الله ويعدهم هذا الإعداد عبثا ، ذلك ظن الذين كفروا ٠

فقال : (وقالوا أإذا ضللنا في الأرض) أى اختلطت أجسامنا بعد تمزقها وتفتتها بأجزاء الأرض ، من قولهم ـ ضل السمن في الطعام ـ أى اختلط به ، (أإنا لفى خلق جديد) أى أإنا لنعود بعد تلك الحال إلى حالتنا السابقة ، استبعادا منهم لذلك الأمر ، وهذا الاستبعاد الذى يعبرون عنه ، هو بالنسبة لقدرهم العاجزة ، إذ قصرت عقولهم فظنوا أن قدرة الخالق كقدرهم كما قال تعالى حكاية عنهم (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ٠٠) (يس آية ٧٨) ٠

ـ وضارب المثل بعضهم لكنهم متفقون على ذلك ـ فسبب الانكار المستند إلى شبهة الاستبعاد ناشيء عن نسيان الخلق الأول ولذا فالمولى عز وجل يذكرهم بتلك النشأة قال تعالى حكاية عنهم (ويقول الإنسان أإذا مامت لسوف أخرج حيا أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا) (مريم آية ٦٦ ـ ٦٧) ٠

ولو أنهم التفتوا إلى مبدأ خلقهم لعلموا أن القدرة التى أنشأتهم أولا لا يعجزها اعادتهم ثانيا ٠

ولما كان استبعادهم لاعادتهم للحياة مرة أخرى بعدما شاهدوا من الأدلة لا مكان له ، أتبعه بالإخبار القاطع بوقوعها فقال : (قل) أمر للنبى صلى الله عليه وسلم أى قل يا محمد مخبرا ومنذرا منكرى البعث (يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) فهو إخبار قاطع بتلك الاعادة ، مستند إلى الدليل السابق ، وهو النشأة الأولى ، مؤكد بتلك الحالة التى يكونون عليها بعد رجوعهم الى ربهم ، في حالة كونهم معترفين بذنبهم ، طالبين الرجوع

الى الحياة الدنيا مرة أخرى ، ليصلحوا أعمالهم ، بعد أن رأوا الخبر اليقين ، قال تعالى حاكيا تلك الحالة عنهم وما يقولونه (ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم) قائلين (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون) والله يعلم أنهم لكاذبون في دعواهم اصلاح أعمالهم اذا رجعوا للحياة مرة أخرى · قال تعالى (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون) (الأنعام آية ٢٧ ـ ٢٨) ·

٣ ـ النموذج الثالث : من المسلك الثانى :

وفي مطلع سورة الرعد نموذج يهز المشاعر ويستثير الوجدان ، إذ يحتوى على آيات الله الكونية التى يعترف المخاطبون بأنها أنشئت بقدرة الله القوى العزيز ·

يقول تعالى :

(الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ·)

وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ·

وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون ·

وان تعجب فعجب قولهم أإذا كنا ترابا أإنا لفى خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (الرعد الآيات من ٢ ـ ٥) ·

تبدأ الآيات الكريمة برسم المشاهد الكونية الدالة عل القدرة الالهية ، السماء وما شملت من أفلاك ، والأرض وما حوت من أنهار وجبال ، وما أخرجت من ثمار ، ثم التعجب من حال من ينكر البعث والحياة مرة أخرى بعد أن شاهد هذه الآيات المعروضة على العقول والأبصار ، يقول تعالى : (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها) وهو إخبار منه تعالى عن كمال القدرة وعظيم السلطان ، فبأمره رفع السموات عن الأرض ، هذه السموات التى لا يحيط بها البصر ادراكا ، ولا يعلم مقدار سعتها وعظمتها ، الا خالقها رفعها بأمره ، ويمسكها بقدرته أن تزول ، مستشهدا على ذلك برؤية المخاطبين لها مرفوعة بغير عمد تسندها ، محكمة البناء لا شقوق فيها ولا تصدع ، فنحن نكرر النظر اليها مرات ومرات ، فترجع أبصارنا كآلة من غير أن تدرك شيئا مخلا ، في هذا البناء الهائل والسقف المرفوع ، وانما تدرك فيه الابداع والاتقان .

المنبئين عن الحكمة والتدبير · (ثم استوى على العرش) والعرش من الأمور المغيبة عنا ، والله هو وحده العالم بسعته وعظمته وقد استوى عليه استواء يليق بجلاله كما أخبر · وتنقلنا الآيات من مشهد السماء المرفوعة بغير عمد ، الى مشهد التسخير والتقدير (وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى) فقد خلقهما بقدرته وسخرهما بارادته يجريان دائبين لا يفتران ، إلى أجلهما المسمى وقد خص كلا منهما بخاصته فجعل الشمس سراجا وهاجا ، وجعل القمر نورا ، كلاهما ترتبط بها حياة الانسان في نفسه ، وفي جميع شئون حياته اليومية والشهرية والسنوية ، أمور تلمس القلوب وتخاطب المشاعر بما يحسه الانسان ويدركه كجزء من حياته ·

(يدبر الأمر) كله ، فله الخلق والأمر ، فمن تدبيره خلق السموات وحفظها ، ومن تدبيره وتقديره ، خلق الشمس والقمر ، وتسخيرهما يجريان الى أجلهما المسمى ·

(يفصل الآيات) الكونية المشاهدة الدالة على عظيم القدرة ونفاذها ، والآيات الدينية المبينة للطريق السوي الذى يلزم المكلف سلوكه والحقائق الغيبية التى لا بد من الايمان بها ، واعتقادها · (لعلكم بلقاء ربكم توقنون) ·

(لعلكم) حين رؤيتكم لآياته الكونية المفصلة ، وإدراككم لما فيها من اتقان واحكام ، دالين على قدرة من فصلها وبينها (توقنون) بأن وراء هذا التدبير المحكم مدبرا حكيما ، وأن لهذا التفصيل والتوضيح ، مفصلا عليما حكيما لا بد من لقائه ، في الحياة الأخرى ، لمجازاتكم على أعمالكم ، فذلك اللقاء ، وتلك المجازاة ، مما يوحى به ذلك التدبير والتفصيل ، فالخلق يكون عبثا إن لم تكن هناك مجازاة على الاحسان والاساءة ، قال تعالى : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون) ·

تلك مشاهد العلو الكونية ، عرضت على المخاطبين ، ذلك العرض الموحى بالقدرة المبدعة من ورائها ، ليأخذ منها الإنسان المنكر للبعث ، أن خالقها ، وحافظها ، قادر على اعادته بعد موته ·

ثم تأخذ الآيات القرآنية بيد المخاطب ، إلى هذه الأرض التى يعيش عليها ، قائلة ، إذا لم تكتف أيها المرتاب في قدرة خالقك ، بما تشاهده ببصرك من فوقك ، فالتفت إلى ما تحت قدميك ، وما هو مبسوط أمام عينيك ، من هذه الأرض التى مدت ، فوسعت ، وأرسيت فاستقرت ، وشقت بالأنهار الجارية ، وأنبتت من كل الثمرات ، ثم تعاقب الليل والنهار المستمر لما فيه سعادتك وقوام حياتك ، كل هذه آيات تدعو الانسان للتفكير فيها وفيما توحي به

(إن في ذلك) المتقدم ذكره من رفع السماء بلا عمد وتسخير الشمس والقمر ، وخلق الأرض ، ومدها وحفظها ، وشق أنهارها ، واخراج زروعها وثمارها ، (لآيات لقوم يتفكرون) ٠

وتمضى الآيات القرآنية ، في توضيحها لآيات الله الكونية ، فبعد عرضها الاجمالى لما تنبته الأرض ، من أزواج الثمار المختلفة ٠

تعود إلى توضيح جزئية منها ، لتضع المنكر للبعث ، أمام القدرة الالهية ، تلك الجزئية التى يشاهدها الانسان ببصره ، ويمارس عمليتها بيده ، ويتذوق ثمارها بفمه ، فهو دليل تبصره العين ، وتلمسه اليد ، ويذوقه الفم ، فأى دليل أقرب وأمس بحياة الانسان ، من هذا الدليل الذى يلمسه الإنسان بنفسه ، فيقول تعالى موضحا ذلك : (وفي الأرض قطع متجاورات) بعضها لاصق في بعض لا يفصل بينهما جنس غريب من غير جنسهما ، (وجنات) تشمل أنواعا من الأشجار المختلفة ، ففيها الأعناب ، والزروع ، والنخيل الصنوان وغير الصنوان ، هذه الأنواع كلها (تسقى بماء واحد) إما من السماء كماء المطر - أو المستخرج من الأرض ، كماء الآبار ، والعيون وتنبت في تربة واحدة ، وصلة الأحوال الطبيعية بها ، كالحرارة ، والبرودة ، واحدة ، ومع ذلك ، تأتى ثمارها مختلفة الطعوم ، وألوانها مختلفة الأشكال ، فمن أين جاء لها ذلك الاختلاف في اللون والشكل ، وتفضيل بعضها على بعض في الطعم والذوق مع أن كل الأسباب الظاهرة واحدة ؟؟

ليس من جواب على هذا السؤال ، الا أن ذلك من فعل الخالق العليم ، والمدبر الحكيم ، (ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) لآيات ، أى دلالات واضحات على كمال القدرة المبدعة ، لمن أعمل فكره وعقله ، في مخلوقات الله تعالى ٠

هذه الآيات الكونية ، العلوية منها والسفلية ، تهدى المتفكر فيها ، المستعمل لعقله الفطرى ، الذى فطره عليه خالقه ، على أنها قد أوجدت ، وأحكمت ، ونظمت بتدبير حكيم عليم ، قادر ، تقتضى حكمته رجوع الخلائق اليه ، وملاقاتهم له ، وتدل دلالة واضحة على أن من طلب دليلا غير هذه الأدلة ، على قدرة الله لاعادته للحياة مرة أخرى أنه ممن يعجب من قوله ، ويستهزأ من طلبه ، وهكذا نرى أن الله تبارك وتعالى ، بعد أن عرض هذه الأدلة على المخاطبين المنكرين للبعث ، وبعد أن اتضح الدليل لديهم بما لا يدع مجالا للشك في قدرة الخالق على اعادتهم ، أورد قضية البعث معجبا رسوله صلى الله عليه وسلم من الجاحدين لقدرته تعالى ، على اعادتهم خلقا جديدا ، بعد أن تفتت أجسامهم فصارت ترابا ، فيقول جل شأنه ، (وان تعجب) يامحمد (فعجب قولهم أإذا كنا ترابا أإنا لفى خلق جديد ، ولم يكن هذا الانكار الصادر منهم ، لعدم الدليل على البعث ، وانما كان بسبب كفرهم ، المتأصل في نفوسهم ،

فاستحقوا أن يحكم الله عليهم ، بعد أن أقام عليهم الحجة البالغة ، بالأغلال في أعناقهم ، والسلاسل يسحبون بها في النار المصاحبة لهم ، المستمرة معهم ، (أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) فيخلدون فيها جزاء لهم على كفرهم وعنادهم ، كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ·

قال تعالى : (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما) (النساء آية ٥٦) ·

النموذج الرابع : من المسلك الثانى :

يقول تعالى من سورة الحج :

(يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام مانشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج · ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير · وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) · (الحج آية ٥ ـ ٧)

إن اسلوب القرآن في مخاطبة الناس لاقامة حججه وبراهينه لا يختص بفئة من الناس ذات صفات معينة ، ذلك لأنه يخاطب الفطرة البشرية في عموم أفرادها ، وكل فرد منهم يستطيع أن يأخذ من ذلك الخطاب الموجه بقدر ما أوتى من ذكاء وفطنة ·

وهذه الآية الكريمة من سورة الحج تمثل هذا الأسلوب القرآنى الواضح فهى تقوم على مقدمات صادقة ، ترتبت عليها نتائج قطعية ، مع ما تمتاز به من السهولة والوضوح في ادراك ما تضمنته من معان من غير كد ذهنى أو إجهاد فكرى ، وذلك لبعدها عن أقيسة المناطقة ، وتعقيدات الفلاسفة ·

يقول تعالى موجها خطابه للناس جميعا ، والمقصود الذين يتشككون في أمر البعث فيستبعدون وقوعه ، بعد أن تفرقت الأجسام وتلاشت فذهبت في الأرض ، وصارت ترابا ، يقول لهؤلاء (إن كنتم في ريب) أى في شك من قدرتنا على اعادة هذه الأجسام ، المختلطة بالتراب ، استبعادا لامكان ذلك وشكا في وقوعه ، فانظروا في بدء خلقكم الأول فانا خلقناكم من تراب · وذلك في ضمن خلق أبيكم آدم عليه السلام ثم جعلنا خلقكم بعده في صورة أغرب من خلق الانسان من تراب ، فقد خلقناكم من نطفة ماء ثم أخذت تلك النطفة أطوارها

المتعددة وصورها المختلفة . فقد كان هذا الانسان الجاحد لاعادته مرة أخرى ، نطفة ماء ، ثم تحولت تلك النطفة الى علقة أى دم جامد ثم تحولت الى مضغة لحم ، مخلقة ، أى متبينة الخلق مصورة ، وغير مخلقة لم يبين خلقها وصورتها ، تلك أطوار النطفة التى تمر بها في رحلتها الى أن تصبح جنينا يتحرك في ذلك القرار المكين (من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم) قدرتنا على الخلق والاعادة ، (ونقر في الأرحام) من تلك النطف بعد تمام الخلق (ما نشاء الى أجل مسمى) وهو وقت الوضع (ثم نخرجكم طفلا) أى أطفالا تتنسمون الحياة ، مزودين بجميع الوسائل اللازمة لمواجهة الحياة الجديدة على هذه الأرض من رئة يتنفس بها ويسمع ويبصر وأيد يبطش بها ، وأرجل يمشى بها .. الخ ما هنالك من صفات وأعضاء وضعها الخالق العظيم في الإنسان مما يدل دلالة قطعية على أن هذا الإنسان قد أعد اعداده هذا عن علم وحكمة ، وبعد خروجه لهذه الحياة رباه خالقه بنعمه الى أن أصبح شخصا قويا ، (ثم لتبلغوا أشدكم) .

(ومنكم من يتوفى) أى فيخترم الله بالوفاة في أجله المعلوم من يشاء ، ويعمر من يعمر منكم حتى يبلغ من العمر أرذله ، فيرتد عقله وتصوراته ومشاعره الى حالة الطفولة الأولى ، فيجهل بعد العلم ، ويضعف بعد القوة (ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا) ، تماماً مثل يوم خلق وبرز وجوده لهذه الحياة طفلا فالآية الكريمة تخاطب المنكر للبعث ، قائلة له : إن من كانت هذه قدرته في خلقك وانشائك ، في حياتك الأولى ، وفي أطوارها المتعددة التى مرت بها أيعجزها إحياؤك بعد موتك ، واعادتك بعد فنائك ؟؟
كيف يكون ذلك وهو القادر على كل شيء وهو الخلاق العليم .

وبعد أن استكملت الآية الاستدلال بالعالم الانسانى في نشأته الأولى ، وكيفية تنقله في أطوار خلقه المتعددة .

أتبعه باستدلال آخر يكثر ضربه في القرآن استدلالاً به على البعث ذلك هو احياء الأرض بعد موتها .

فقال تعالى : (وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) .

فهمود الأرض ، عبارة عن يبسها واقفارها من النبات بمنزلة الذات المسلوبة الحياة ، فهى ميتة يابسة ، لا نبات لها .

واهتزازها وربوها وتحركها بالنبات بعد نزول المطر عليها ، بمنزلة الحياة تسرى في الموات ، فتنبت من كل زوج بهيج ، وذلك بمنزلة خروج الأموات من قبورهم .

وبعد أن يتقرر الدليل ويتضح لدى المخاطبين بما لا يدع مجالا للشك في قبول النتيجة يورد القضية المستدل عليها فيقول (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير) فالله هو الموجود بذاته لذاته ومن شأنه احياء الموتى ، فهو الذى خلق الموت والحياة ، وهو القادر على الخلق بدءاً واعادة ، لأنه على كل شيء قدير (وأن الساعة) وهى موعد الحياة الثانية · (آتية لاريب فيها) لوضوح دلائلها ، ثم ختمت الآية بالنتيجة المطلوبة ، وهى القضية التى يرتاب فيها المنكرون للبعث ، فقال تعالى (وأن الله يبعث من في القبور) · تلك القبور التى تحتوى على أجساد الموتى ، التى تفتت ، ورمت ، واختلطت بغيرها ، ذلك أن الله تعالى قادر على إعادتها ، ليوفيها الحساب على عملها في الحياة الدنيا ·

المسلك الثالث : هو إخبار الله تعالى بوقوع البعث من غير أن يذكر الدليل على ذلك ·

ذكرنا في أول هذا المبحث ، أن أعظم شبهة يستند اليها منكروا البعث هى استبعادهم اعادة الأجسام الى ما كانت عليه بعد أن صارت ترابا ، واختلط بعضها ببعض : وعرفنا مسلك القرآن الكريم لعلاج تلك الشبهة ودحضها في المسلكين السابقين · وهما : إما أن يورد الشبهة أولا ثم يبين بطلانها بالدليل ·

واما أن يذكر الدليل على البعث والاعادة أولا ، وبعد وضوحه وتقريره يورد القضية · وهناك مسلك ثالث سلكه القرآن الكريم في قضية البعث ، وهو أنه يذكر رأى المنكرين للبعث من غير أن يذكر شبهتهم ؛ بل يذكر دعواهم مجردة عن الدليل ، ثم ينكر القرآن على هذه الدعوى بالرفض والابطال ويبين أن البعث واقع لا محالة ، ويؤيد هذا الوقوع بالقسم منه جل وعلا ، ولعله لم يذكر الدليل في هذه الآيات ، بل طواه ، نظرا لأنه ذكره أكثر من مرة في آيات متعددة ، وليس بلازم أن يذكر الدليل عند كل مناسبة ، فان القرآن يفسر بعضه بعضاً ·

وسأذكر هنا نماذج لهذا المسلك في القرآن الكريم ·

أولا : أقسام المنكرين للبعث بأن الله لا يبعث من يموت ·

يقول تعالى في سورة النحل :

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون · ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين · انما قولنا لشيء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون) (النحل الآيات من ٣٧ ـ ٤٠) ·

فالآية الأولى تصور لنا هذا الانكار الشديد المؤكد بالأيمان المغلظة بأن الله لا يبعث من يموت أبدا ، فنراهم يجزمون بعدم وقوع البعث ، بعد الموت وينفونه نفيا قاطعا بلا شك عندهم ولا تردد ، من غير أن يرد في كلامهم ما يتضمن شبهة لذلك النفى ، قال تعالى : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) .

ولعل هذا الانكار الصادر منهم مستند الى الشبهة الأولى ، وهى شبهة استبعاد أن يعيد الله الموتى مرة ثانية ولكنها لم تذكر هنا لظهورها واستقرارها عند المنكرين .

ولما كان قولهم هذا يتضمن الطعن في الحكمة الالهية ، ونسبة العبث الى الله في خلقه العباد وتركهم سدى ، إذ يقتضى ذلك التسوية بين المحسن والمسىء وبين الخير والشر ، وهما لا يستويان عند الله ، كما قال تعالى : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) (الجاثية آية ٢١) وقال تعالى : (وما يستوى الأعمى والبصير ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء قليلا ما تذكرون) (غافر آية ٥٨) وقال تعالى : (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون) (السجدة آية ١٨) .

لذلك فقد رد الله عليهم شبهتهم هذه وأكد لهم أن البعث أمر محتم ، لا بد من وقوعه ، فهو وعد عليه حقا ، لا بد من انجازه ، ذلك لأن الله تعالى قد وعد به ، ووعده حق ثابت لا بد من وقوعه ، قال تعالى (بلى وعدا عليه حقا)

وانما كان البعث حقا وواقعا ، لأن هذه الحياة الدنيا ، ليست هى النهاية بل هى وسيلة الى حياة أخرى ، ومعبر يعبر عليه الانسان الى الحياة الباقية ، كى يجازى فيها على ما عمله في هذه الحياة (ولكن أكثر الناس) وهم المنكرون للبعث لجهلهم بالله تعالى (لا يعلمون) ما يتضمنه البعث من العدل بين العباد .

ثم بين لهم حكمته في المعاد ، فقال تعالى : ليبين لهم الذي يختلفون فيه) ففى ذلك اليوم يظهر لكل مخالف في شيء (ما) الحق فيما خالف فيه ، ويجازى فيه كل عامل على عمله ، كما قال تعالى (... ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) (النجم آية ٣١) .

(وليعلم) في ذلك اليوم (الذين كفروا) بالله وكذبوا رسله فيما أخبروهم به من البعث والجزاء على الأعمال ، (أنهم كانوا كاذبين) في أيمانهم تلك التى أكدوا بها انكارهم للبعث بعد الموت ، وأن البعث واقع ، والجزاء حق وعدل .

ثم أخبر تعالى عن قدرته على ذلك ؛ وأنه لا يخرج على مشيئته وارادته فقال : (انما قولنا لشيء) في الأرض أو في السماء (اذا أردناه أن نقول له كن فيكون) ومن ذلك المعاد ، فاذا أراد الله وقوعه فانما يأمر به مرة واحدة اذ لا يحتاج أمره بالشيء الى تكرار ، كما قال تعالى (وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر) وقال مخبرا عن تلك القدرة (ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة)وقال الشاعر :

اذا ما أراد الله أمراً فانما يقول له كن قولة فيكون (١)

ثانياً : نفيهم مجيء الساعة ، وزعمهم عدم وقوع البعث :

يقول تعالى من سورة سبأ ·

وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة · قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين ·

ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم ·

والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم (سبأ آية ٣ ـ ٥) ·

ويقول تعالى من سورة التغابن :

(زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير (التغابن آية ٧) ·

يخبر تبارك وتعالى ، عن إنكار الكفار للآخرة . ذلك الانكار الناشيء عن عدم إدراكهم لحكمة الله تعالى وتقديره ، فحكمته لا تترك الناس سدى ، يحسن من يشاء منهم أن يحسن ، ويسيء من يشاء ذلك ، ثم لا يجازي أحداً منهم على عمله ·

ولذلك فهم ينكرون مجيء الساعة التي وعد الله بمجيئها ، والتي ينال فيها كل انسان جزاء عمله ، فيقولون : (لا تأتين الساعة) ينفون مجيئها نفيا جازما بدون دليل ، مع أن مجيء الساعة ، ووقتها من الأمور الغيبية وهم لا يعلمون من الغيب شيئا ·

فيرد الله عليهم انكارهم هذا ردا مؤكدا جازما ، فيأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقسم بربه على إتيانها ووقوعها قسما مؤكدا فيقول : (قل) يا محمد مخاطبا هؤلاء الجاحدين للساعة النافين لمجيئها (بلى وربي لتأتينكم) فهو إخبار مؤكد بوقوعها من عالم الغيب ، وقد اتبع ذلك بما لله عز وجل من صفة العلم المحيطة والشاملة لما في هذا الكون كله كبيره وصغيره (عالم الغيب لا يعزب) أي لا يغيب (عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا

---

(١) ابن كثير ، التفسير ج ٣ ص ٥٦٩ ·

أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين) فمن كان عمله محيطا بدقائق الأمور بحيث لا يخفى عليه شيء منها ، كيف يعجزه إعادة الخلق إلى ما كانوا عليه مرة أخرى ؟؟

ثم بين الحكمة من البعث وقيام الساعة فقال : (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك) المؤمنون العاملون (لهم مغفرة) لما بدر منهم ، (ورزق كريم) لا منّ فيه ولا تعب ·

كما يجازى الله الكافرين به والمكذبين لرسله الساعين للصد عن سبيله بالعذاب المهين (والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم) والرجز سوء العذاب كما قال قتادة (١) ·

وفي آية التغابن ، يحكى الله تبارك وتعالى ، انكار الكفار للبعث بعد الموت وقد عبر عن ذلك الانكار بالزعم ، فقال (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا) أى المنكرين منهم للبعث . والزعم يشعر بعدم التأكد والجزم من القائل بما يقوله لعدم علمه من أن قوله هذا يوافق الحق والصواب . ولذلك كان الزعم كنية الكذب . كما يقوله ابن عمر (٢) رضى الله عنه ·

وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، أن يرد على ذلك الزعم الباطل ، ويؤكد نفيه بالقسم بربه على تحقق البعث ووقوعه ، ويبين لهم ما يترتب على ذلك البعث من جزاء وهو أنهم سينبؤون بما عملوا ، ثم يجازون على أعمالهم التى عملوها فى الدنيا ، قال تعالى : (قل) يامحمد (بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) ·

ويقول ابن كثير في تفسير هذه الآية (··· قل بلى وربى لتأتينكم) ما نصه :
(هذه احدى الآيات الثلاث التى لا رابع لهن ، مما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقسم بربه العظيم · على وقوع المعاد لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد ، فاحداهن في سورة يونس عليه السلام وهى قوله تعالى : (ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى أنه لحق وما أنتم بمعجزين) ·

والثانية هذه (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قي بلى وربى لتأتينكم) ·

والثالثة في سورة التغابن وهى قوله تعالى : (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) (التغابن آية ٧) ·

---

(١) أبو السعود بن محمد العمادى الحنفى . التفسير ج٤ ص٢٤٣ ·
(٢) ابن جرير الطبرى . التفسير ج ٢٨ ص ١٣١ ·

ثالثا : الإخبار بقيامهم من قبورهم :

يقول تعالى من سورة يس :

(ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون · قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون · إن كانت الا صيحة واحدة فاذا هم جميع لدينا محضرون · فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون الا ما كنتم تعملون (يس الآيات من ٥١ ـ ٥٤) ·

تصور لنا هذه الآيات هذا المشهد العظيم من مشاهد يوم القيامة ، وذلك حين النفخ في الصور المؤذن بانتشار الناس من القبور (ونفخ في الصور فاذا هم من الأجداث) هى القبور (الى ربهم ينسلون) أى يمشون مسرعين كما قال تعالى : في سورة المعارج (يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون) (المعارج آية ٤٣) قائلين بعد خروجهم من قبورهم (يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا) أى من قبورنا ، التى كنا نرقد فيها ، ونعتقد أننا سوف لا نخرج منها أحياء مرة أخرى أبدا ، فلما ظهر صدق ما كذبوا به ، قالوا : يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟ ثم قال الله تعالى : (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) وهذا القول ··· الخ · إما حكاية عن المنكرين للبعث ، إذ علموا عند المعاينة أن ما أخبرتهم به الرسل صدق وحق · وإما من قول المؤمنين لهم ذلك ، وهذا ما اختاره ابن جرير في تفسيره الآية (١) ·

ثم بين تعالى ان جمع الخلائق جميعا في ذلك اليوم من الأمور اليسيرة على القدرة الالهية فما هى الا صيحة واحدة توجه اليهم ، فاذا هم في اللحظة محضرون عند خالقهم (ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم جميعا لدينا محضرون) كما قال تعالى (وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر) (القمر آية ٥٠) في ذلك اليوم يقام ميزان العدل بين العباد فلا تظلم نفس شيئا ، وانما تجازى على عملها الذى أسلفته في حياتها الدنيا ، (فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) · هذا مسلك القرآن في اثبات البعث ، وسنتبعه بآراء العلماء في ذلك لا للمقارنة ، وانما ليتبين للقارىء سهولة أسلوب القرآن الكريم في مخاطبته البشرية على اختلاف مستوياتهم ، لقول القائل : فبضدها تتبين الأشياء ·

آراء العلماء في البعث

سأتناول هذا الموضوع بالدراسة من ناحيتين :

أ ـ الأولى : ذكر آراء العلماء في حقيقة البعث ، هل هو جسمانى فقط ، أو روحانى فقط ، أو روحانى وجسمانى ·

---

(١) ابن جرير الطبرى . التفسير . ج ٢٣ ص ١٧ ·

ب ـ الثانية : بيان كيفية البعث (الاعادة) عند من يقول باعادة الأجسام ٠

أولا : آراء العلماء في حقيقة البعث :

بعد أن عرضنا مسلك القرآن الكريم في إثبات البعث ، وهو المقصود من هذا البحث ، فقد رأينا من المناسب أن نذكر أقوال العلماء في هذا الموضوع باختصار ، لنرى مدى موافقة هذه الأقوال ، أو مخالفتها لما جاء في القرآن الكريم في موضوع البعث ، فأقول وبالله التوفيق :

إن الأقوال الواردة في البعث ، والمذكورة في كتب العقائد الاسلامية خمسة أقوال :

الأول : ثبوت المعاد الروحانى فقط ٠

الثانى : ثبوت المعاد الروحانى والجسمانى ٠

الثالث : ثبوت المعاد الجسمانى فقط ٠

الرابع : عدم ثبوت شيء من ذلك ٠

الخامس : التوقف في هذه الأقسام جميعا ٠ (١) ٠

أما القول الأول : وهو ثبوت المعاد الروحانى فقط ، فهو قول الفلاسفة الالهيين ، وذلك لأن البعث عندهم ، عبارة عن مفارقة النفس لبدنها ، واتصالها بالعالم العقلى ، الذى هو عالم المجردات ، وسعادتها ، وشقاوتها ، إنما تكون بفضائلها النفسانية ورذائلها (٢) ٠

يقول ابن سينا في كتابه : الاشارات والتنبيهات ، النمط الثامن :

والعارفون المتنزهون اذا وضع عنهم درن مقارفة البدن ، وانفكوا عن الشواغل ، خلصوا الى عالم القدس والسعادة ، وانشغلوا بالكمال الأعلى ، وحصلت لهم اللذة العليا ٠ وقد عرفتها ٠

وأما البله فإنهم إذا تنزهوا خلصوا من البدن الى سعادة تليق بهم ، ولعلهم لا يستغنون فيها عن معاونة جسم يكون موضوعا لتخيلات لهم ، ولا يمنع أن يكون ذلك جسما سماويا ، أو ما يشبهه ، ولعل ذلك يفضي بهم آخر الأمر إلى الاستعداد للاتصال المسعد الذي للعارفين) (٣) ٠

وأما القول الثانى : وهو ثبوت المعاد الروحانى والجسمانى معاً ، فهو قول منسوب الى الحليمى ، والغزالى ، والراغب ، وأبي زيد الدبوسى ، ومعمر من قدماء المعتزلة ، وجمهور

---

(١) الايجى ، شرح المواقف ج٨ ص ٢٩٧ ، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧ م مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر ٠

(٢) الايجى ، شرح المواقف ج ٨ ص ٢٩٧ ٠

(٣) ابن سينا ، الاشارات والتنبيهات ، النمط الثامن ص ٧٧٤ ـ ٧٧٨ تحقيق د ٠ سليمان دنيا / ملتزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر ١٩٦٠ م ٠

من متأخرى الإمامية ، وكثير من الصوفية ، فإنهم قالوا : إن الإنسان بالحقيقة هو النفس الناطقة ، وهى المكلف ، والمطيع والعاصى ، والمثاب ، والمعاقب ، والبدن يجرى منها مجرى الآلة ، والنفس باقية بعد فساد البدن ، فإذا أراد الله تعالى حشر الخلائق ، خلق لكل واحد من الأرواح بدنا يتعلق به ، ويتصرف فيه كما كان في الدنيا · (١) ·

وأما القول الثالث : وهو ثبوت المعاد الجسمانى فقط ، فهذا القول منسوب لأكثر المتكلمين النافين للنفس الناطقة · وهو قول أهل السنة ·

وأما القول الرابع : وهو انكار المعاد الروحانى والجسمانى جميعا ، فهو قول القدماء من الفلاسفة الطبيعيين ·

والقول الخامس : وهو التوقف في هذه الأقسام كلها ، فهو المنقول عن جالينوس ، فإنه قال : لم يتبين لى أن النفس هل هي المزاج ، فينعدم عند الموت فيستحيل اعادتها ، أو هى جوهر باق بعد فساد البنية ، فيمكن المعاد حينئذ ·

هذه هي أقوال العلماء المحكية عنهم في حقيقة البعث ، فما مدى موافقتها أو مخالفتها لما جاء به القرآن الكريم في ذلك ؟

نقول ومن الله التوفيق :

إن القول الرابع - وهو انكار البعث مطلقا ، والقول الخامس وهو الشك في وقوعه ، فسنضرب صفحا عن الرد عليهما ومناقشتهما وذلك لأن مسلك القرآن الكريم الذى سبق أن عرضناه ، فيه الكفاية ، لدحض شبه المنكرين لامكان البعث ، والمتشككين في وقوعه ، لأن انكار البعث حلقة متصلة اعتنقها المكذبون لأنبيائهم من كل أمة كما قال تعالى حكاية عنهم ، (بل قالوا مثل ما قال الأولون · قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون · لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين) (المؤمنون : آية ٨١ - ٨٣) ·

فالشبهة واحدة ورد القرآن على طائفة واحدة ، هو رد على كل طائفة منكرة للبعث ، أو متشككة في وقوعه ، فلو ناقشنا هذين القولين وبينا فسادهما ، ووجه الرد عليهما ، لاعتبر ذلك تكرارا لما سبق · وإنما الذى سنناقشه هنا ، هى الأقوال الثلاثة الأخرى ، القائلة بالبعث ، فهى التى يمكن أن ننظر في مدى موافقتها ، أو مخالفتها لما جاء به القرآن الكريم في موضوع البعث ، وسنبدأ برأى الفلاسفة حسب ترتيبنا لهذه الأقوال ·

---

(١) الايجى ، شرح المواقف جـ ٨ ص ٢٩٧ ·

أولا : رأى الفلاسفة :

أما قول الفلاسفة الالهيين ، إن البعث روحانى فقط ، وانكارهم للمعاد الجسمانى فلا شك في مصادمته للنصوص الشرعية الواردة في الكتاب العزيز ، والثابتة في السنة النبوية ، فالمنكرون للبعث الذين رد عليهم القرآن الكريم ، لم ينكروا إلا اعادة هذه الأجسام بعد استحالتها ترابا . وأوردوا شبههم استبعادا لتلك الاعادة ، فرد عليهم القرآن الكريم وبين لهم زيف شبهتهم ، ووضح أن الاعادة ممكنة .

ثم إن كلامهم هذا يتضمن انكار كل شيء محسوس ، كالجنة والنار ، والصراط والميزان ، وكل الحقائق الأخروية التي أخبر الشارع عنها ، ولذلك كفرهم العلماء .

وأما قول القائلين : بأن المعاد روحانى وجسمانى فإنه مبنى على القول بأن الروح جوهر مجرد ليس بجسم ، ولا قوة حالة بالجسم ، وإنما تتعلق بالجسم تعلق التدبير والتصرف ، وأنها لا تفنى بفناء البدن ، وعليه فالمعاد شيئان ، جسم ـ وروح تعاد اليه ، ولكن هل الجسم المعاد هو عين الأول أو غيره ؟

الكلام الذى نقلناه عن شرح المواقف والذى نسبه إلى الحليمى ، والراغب والغزالى وآخرين يوحى بأن الجسم المعاد غير الأول ، نأخذ ذلك من قوله حكاية عنهم أو نسبة اليهم : (فإذا أراد الله تعالى حشر الخلائق خلق لكل واحد من الأرواح بدنا يتعلق ويتصرف فيه كما كان في الدنيا) .

وهذا القول ، وإن كانت نسبته لا تصح الى الإمام الغزالى ، كما يأتى توضيح ذلك . ولا نعلم مدى صحة نسبته إلى الآخرين لعدم المراجع المتوفرة بأيدينا حاليا ، فإنه قول قد قيل ومتداول في كتب العقائد ، ولذلك فإننا سنبحث الموضوع من حيث هو ، لنبين مدى موافقته أو مخالفته لما جاء به القرآن الكريم ، بغض النظر عن نسبته إلى قائله ، فنقول وبالله التوفيق : إن مشكلة البعث التى عالجها القرآن بطرقه المختلفة ، مع المنكرين له المستبعدين لوقوعه ، هى إعادة هذه الأجسام بعينها مرة أخرى بعد أن أصبحت عظاما بالية مفتتة مختلطة اختلاطا كليا بأجزاء الأرض ، كما قال تعالى حكاية عنهم :

(١) أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد . (ق : آية ٣) .

(٢) وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفى خلق جديد . (السجدة : ١٠) .

(٣) وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبؤكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد . (سبأ : آية ٧)

فالآيات تحكى أقوالهم الصادرة منهم في انكارهم للبعث ، واعادة الحياة بعد الموت مرة أخرى لهذه الأجسام المتفتتة ، فلم تتسع عقولهم ومداركهم ، لاعادة هذه العظام خلقا جديدا ، بعد أن صارت ترابا ، فمنهم من لم ينكروا على الله عز وجل قدرته على ايجاد خلق جديد وانشاؤه لأنهم يعلمون أنه خالق السموات والأرض ، وخالقهم ، وهم يشاهدون مخلوقاته تحدث باستمرار أمام أعينهم ، قال تعالى : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله). فالخلق والايجاد مستمر ، وإنما أنكروا الاعادة لعظام تفتت ، كما قال تعالى حكاية عنهم : (وضرب لنا مثلا ونسي خلقه ، قال : من يحيي العظام وهى رميم) . وقد أشرنا في سبب نزولها ، أن أبي بن خلف جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده عظم رميم وهو يفته ويذروه في الهواء وهو يقول : يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك الى النار) .

هذا ما أنكروه على الرسول صلى الله عليه وسلم واستبعدوا وقوعه ، حينما دعاهم الى الايمان بالبعث والجزاء في اليوم الآخر ، ولذلك فقد ردّ الله على شبههم تلك ـ فقال ردا على قولهم من يحيى العظام وهي رميم ؟ (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) .

وقال تعالى ردا على قولهم : أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد بقوله : (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ) .

وقال تعالى : (أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه . بلى قادرين على أن نسوى بنانه) (القيامة : آية ٣ ، ٤) . وقال تعالى في سورة الحج : (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من في القبور) (الحج : آية ٦ ، ٧) وفي القبور تلك العظام المفتتة ، فهو القادر على اعادتها .

ومما يؤكد ذلك ويزيده وضوحا ، من أن المعاد هو عين الأول ، لامثله ، قوله تعالى : (ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون)(فصلت : آية ١٩ ـ ٢٢) .

فهذه الآيات تدل صراحة ، على أن أعضاء الانسان وجوارحه التى كانت في الدنيا هي نفسها التى تبعث فتشهد عليه يوم القيامة بما اقترف من سيئات متسترا عن أعين الناس ، ظنا منه أن الله لا يعلم عمله ذلك ، ولم يدر بخلده أن أعضاءه ستشهد عليه يوم القيامة ، بكل ما اقترف في الحياة الدنيا ، (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) . ومن رحمة الله وعدله أن لا يؤاخذ عباده الا ببينة تشهد عليهم بما عملوا وان كان هو يعلم السر وأخفى ، ولذا فقد جعل مع كل إنسان من يدون عليه حركاته وسكناته ، قال تعالى : (ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد) (ق : آية ١٨) .

وقال الله تعالى : (كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) (الإنفطار : آية ١١ - ١٢) .
وشرط الشهادة ، أن يكون الشاهد حاضرا ومطلعا على ما يشهد به . فدل ذلك على أن هذه الأعضاء التى تشهد على الإنسان ، هى الأعضاء الموجودة في الدنيا حين اقترف تلك الجريمة ، لا أعضاء جديدة وجدت ، وإلا لقال صاحبها ، لخالقه : إن هذه الأعضاء لم تكن حاضرة معى في الدنيا حتى تشهد على .

أما نسبة القول - بخلق أجسام جديدة غير التى كانت في الدنيا - إلى من أشار إليهم شارح المواقف ، ومنهم الغزالى ، فالذى يبدو إن نسبة هذا القول للغزالى خطأ ، ذلك أن قوله صريح في أن المعاد هو عين الأول لا مثله ، وما نقل عنه من القول باعادة بدن جديد تتعلق به الروح . كما هو مذكور في كتابه : تهافت الفلاسفة - فقد صرح في كتابه - الاقتصاد في الاعتقاد - أن ذلك على سبيل الالزام منه للفلاسفة بما يعتقدون ، لا أنه هو المذهب الحق الذى يعتقده ، ولكون الغزالى متهما في هذه المسألة حتى من اتباعه ، فسننقل عنه ما ذكره في كتابه المشار اليه وان طال لبيان الحقيقة - يقول تحت فصل - فى بيان قضاء العقل بما جاء الشرع به من الحشر والنشر .

(أما الحشر فيعنى به اعادة الخلق ، وقد دلت عليه القواطع الشرعية ، وهو ممكن بدليل الابتداء فإن الاعادة خلق ثان ، ولافرق بينه وبين الابتداء وانما يسمى اعادة بالإضافة إلى الابتداء السابق والقادر على الانشاء والابتداء قادر على الاعادة ، وهو المعنى بقوله : (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) فان قيل فما تقولون ؟ أتعدم الجواهر والأعراض ثم يعادان جميعا ، أو تعدم الأعراض دون الجواهر ، وإنما تعاد الأعراض ؟

قلنا كل ذلك ممكن وليس في الشرع دليل قاطع عل تعيين أحد هذه الممكنات ، **وأحد الوجهين** أن تعدم الأعراض ويبقى جسم الإنسان متصورا بصورة التراب مثلا فتكون قد زالت منه الحياة واللون والرطوبة والتركيب والهيئة . وجملة من الأعراض ، ويكون معنى

اعادتها أن تعاد اليها تلك الأعراض بعينها أو تعاد اليها أمثالها . فإن العرض عندنا لا يبقى . والحياة عرض . والموجود عندنا في كل ساعة عرض آخر . والإنسان هو ذلك الإنسان باعتبار جسمه . فإنه واحد . لا باعتبار أعراضه . فإن كل عرض يتجدد هو غير الآخر . فليس من شرط الاعادة فرض اعادة الأعراض . وإنما ذكرنا هذا المصير بعض الأصحاب إلى استحالة اعادة الأعراض . وذلك باطل : ولكن القول في ابطاله يطول ·

والوجه الآخر : أن تعدم الأجسام أيضا . ثم تعاد الأجسام بأن تخترع مرة ثانية . فان قيل فبم يتميز المعاد عن مثل الأول ؟ وما معنى قولكم إن المعاد هو عين الأول . ولم يبق للمعدوم عين حتى تعاد ؟؟

قلنا المعدوم منقسم في علم الله إلى ما سبق له وجود . والى ما لم يسبق له وجود . كما أن العدم في الأزل ينقسم إلى ما سيكون له وجود وإلى ما علم الله تعالى أنه لا يوجد . فهذا الانقسام في علم الله لا سبيل إلى انكاره والعلم شامل والقدرة واسعة . فمعنى الاعادة أن نبدل بالوجود العدم الذى سبق له وجود . ومعنى المثل أن يخترع الوجود لعدم لم يسبق له وجود . فهذا معنى الاعادة . ومهما قدر الجسم باقيا ورد الأمر الى تجديد أعراض تماثل الأول حصل تصديق الشرع ووقع الخلاص عن اشكال الاعادة وتمييز المعاد عن المثل . وقد أطنبنا في هذه المسألة في كتابنا التهافت ومسلكنا في ابطال مذهبهم تقرير بقاء النفس التى هي غير متحيز عندهم . وتقدير عود تدبيرها الى البدن سواء كان ذلك البدن هو عين جسم الانسان أو غيره . وذلك الزام لا يوافق ما نعتقده . فإن ذلك الكتاب مصنف لابطال مذهبهم . لا لإثبات المذهب الحق (١) · وقد أشار إلى هذا المعنى في كتاب الاحياء ج ٤ ص ٢١٣ ·

وأما القول الثالث : وهو أن المعاد الجسمانى . فقط . فهو مبنى على القول بأن الروح جسم لطيف سار في البدن . فالمعاد وهو كل من الروح والبدن جسم . فيكون المعاد جسمانيا فقط . ودليل أن الروح جسم قوله صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم : (إن الروح اذا قبض تبعه البصر) · وفي رواية أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ألم تروا الانسان اذا مات شخص بصره . قالوا : بلى · قال : فذلك حين يتبع بصره (٢) نفسه) · وقوله تعالى : (فادخلى في عبادى) (الفجر : آية ٢٩) ·

---

(١) محمد أبى حامد الغزالى . كتاب الاقتصاد في الاعتقاد ص ٩٦ . الطبعة الأولى سنة ١٣٢٠ هـ تصحيح مصطفى القبانى الدمشقى ·

(٢) مسلم . صحيح مسلم . كتاب الجنائز / باب / في اغماض الميت والدعاء له اذ حضر . و / باب / في شخوص بصر الميت يتبع نفسه . رقم الحديثين ٩٢٠ . ٩٢١ . جـ ٢ ص ٦٣٢ . ٦٣٥ . ترقيم محمد فؤاد عبد الباقى ·

فدل ذلك على أن الروح جسم يرى بالعين · كما أن الدخول في الأبدان ينافى التجرد ، لأن المجرد يكون داخلا في البدن ـ لا بكونه جزء منه ولاقوة حالة فيه ، وإنما هو عبارة عما ليس بجسم ، ولاقوة حالة بالجسم ، بل المجرد لا مكانى فلا يقبل إشارة حسية) (١) ·

وهذا القول الذى هو اعادة الجسم بعينه ثم حلول الروح فيه هو الذى دل عليه القرآن ، وبين أنه واقع لا محالة ، وذلك لأنه هو الذى استبعد المنكرون للبعث امكانه ·

الناحية الثانية : هل الاعادة عند القائلين باعادة الجسم ، عن عدم محض ، أو عن تفريق ؟

للعلماء فى كيفية الاعادة بعد الموت مذهبان :

المذهب الأول : أن تنعدم أجزاء البدن انعداما كليا ، بحيث لا يبقى لها أثر أصلا ، ثم ان الله تبارك وتعالى يعيد تلك الأجزاء بعينها بعد فنائها ، ويوجدها ايجادا ثانيا ، كما كانت أولا ، ذلك أن الايجاد الثانى للبدن بعد عدمه الطارىء عليه ، كالايجاد الأول ، من حيث إنه ليس ممتنعا لذاته ، ولا لشيء من لوازم ذاته ، قال تعالى : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده) · فالموجود ثانيا ، هو الموجود أولا أعيد بعينه ، على وفق علمه تعالى ، فهو بكل خلق عليم ، وقد استدل القائلون بهذا الرأى بآيات من القرآن الكريم ، كقوله تعالى : (كل شيء هالك الا وجهه) ·

وقوله تعالى : (كل من عليها فان) ·

على معنى أن الهلاك والفناء ـ اعدام عين الشيء وزواله ، لاتغير صورته التى كان عليها في الدنيا الى صورة أخرى مباينة لتلك الصورة ·

المذهب الثانى : أن الأجزاء التى يتألف منها البدن ، لاتنعدم ، وإنما تتفرق فتكون متصورة بصورة التراب مثلا ، وإنما الذى يزول عنها الحياة ، واللون ، والهيئة والتركيب ·

فإذا جاء يوم المعاد ، جمع الله سبحانه وتعالى بقدرته تلك الأجزاء المتفرقة وألفها ثم أعادها كما كانت في الدنيا ، وذلك أن الأجزاء قابلة للجمع ، والله سبحانه وتعالى عالم بجميع الأجزاء لأى بدن من الأبدان · لعموم علمه واحاطته بكل شيء علما ، قال تعالى : (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) وقال تعالى : (وهو بكل خلق عليم) (٢) ·

---

(١) كمال الدين محمد بن محمد بن أبى شرف القدسى ، شرح المسايره ص ٢٦٣ ·

(٢) الايجى ، شرح المواقف جـ ٨ ص ٢٩٥ · الغزالى ، الاقتصاد في علم الاعتقاد ص ٩٦ ·

وقد استدل القائلون بهذا .. القول من القرآن الكريم بقصة ابراهيم عليه السلام ، في إحياء الطير إذ كان جمعا لأجزائها بعد تفرقها . فإن إبراهيم عليه السلام قطع تلك الطيور أجزاء ، كما أمره الله تبارك وتعالى ، وخلط بعضها مع بعض ، ثم فرقها على رؤوس الجبال المجاورة له ، ثم دعاها ، فاجتمع كل جزء إلى الجزء الآخر وتألفت تلك الأجزاء طيورا ، كما كانت أولا ، ثم جاءته حية تسعى .

موقف القرآن :

إذا نظرنا في كتاب الله الكريم ، نجد آيات كثيرة تدل على القول بتفرق الأبدان ثم اعادتها إلى حالتها التى كانت عليها ، فمن تلك الآيات قصة إبراهيم عليه السلام في إحياء الطير ، السابق ذكرها ونص الآية كما يقول تعالى : (واذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحي الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى ، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم) (البقرة : آية ٢٦٠) فدلت الآية على أن احياء هذه الطير واعادة أجسامها كان بجمع أجزائها المتفرقة ، وضم بعضها الى بعض ، فإن واهب الحياة أمر إبراهيم أن يدعو تلك الطيور ، فاجتمع كل جزء مع الجزء الآخر ، ثم جاءته حية تسعى .

ثانيا : قصة ـ الذى مر على القرية الخاوية على عروشها ، وقد استبعد اعادتها إلى ما كانت عليه بعد مشاهدته لما حل بها ، إذ قال : (أنى يحيى هذه الله بعد موتها) . وقد أراه الله تعالى آياته الدالة على قدرته رؤية عيان ومشاهدة ، فأماته مائة عام ثم بعثه ، وأراه كيف يجمع العظام بعضها إلى بعض وهى أجزاء حماره المتفرقة عنه يمينا وشمالا ، ثم كسوتها لحما بعد اجتماعها ، واعادة الحياة إليها ، يقول تعالى مخبرا عن تلك الواقعة :

(أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير) (البقرة : آية ٢٥٩) .

وهناك آيات تحكى عن المنكرين للبعث ، وصفهم للحالة التى يصيرون اليها ، كتمزق أبدانهم قطعا ، وتحلل أجزائها واختلاطها بأجزاء الأرض ، وصيرورتهم عظاما مفتتة ، وأخرى تصف تصورهم بصورة التراب .

ومن تلك الآيات قوله تعالى :

١ ـ (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد) (سبأ : آية ٧) .

٢ ـ (وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفى خلق جديد . بل هم بلقاء ربهم كافرون) (السجدة : آية ١٠) .

٣ ـ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ؛ قال من يحيى العظام وهى رميم) (يس : آية ٧٨) .

٤ ـ (أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) (ق : آية ٣) .

فهذه الآيات جميعا تحكى عن الجاحدين استبعادهم لاعادتهم بعد تفرق أبدانهم وتحولها عن هيئتها وتركيبها . وزوال صورتها الأصلية البشرية الى الحالة التى وصلت اليها إذ أصبحت أجزاء مختلطة بغيرها . وأبلغ تغير هو تحولها إلى صورة التراب بحيث لا يستطيع الإنسان تمييز أجزائها من أجزائه . وليس ! في هذا دليل على الاعدام النهائى المطلق . وإنما هو دليل على التغير الكامل . لأنهم صاروا ترابا والتراب شيء موجود . وهو أصلهم الذى أنشئوا منه . ثم أعيدوا إليه . وأخيرا يخرجون منه تارة أخرى . يقول تعالى : (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) (طه : آية ٥٥) .

وهناك آيات أخرى هى نص صريح في موضوع الجمع . من الله تبارك وتعالى . يقول تعالى في سورة الحج . بعد ذكره دليل الاعادة :

(ذلك بأن الله هو الحق . وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من في القبور) .

ومعلوم أن الذى في القبور أجزاء الموتى بعد أن تفتت . واختلطت بأجزاء الأرض فالله قادر على تمييزها . ثم تأليفها وإعادتها إلى حالتها الأولى .

وفي سورة القيامة آيتان صريحتان في جمع أجزاء الانسان المتفرقة . بل إنهما أقوى دليل على ذلك . وأبلغ دليل في تصوير القدرة الالهية . يقول تعالى : (أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوى بنانه) (القيامة آية ٣) .

فقد صرحت الآية بجمع عظام الانسان المتفرقة . كما نصت على تسمية بنانه . وقد كشفت العلوم الحديثة عن هذا السر . اذ تبين أن البشرية بأسرها . قد ميز الله العليم القادر بين جميع أفرادها . بميزة لا يمكن أن يشترك فيها اثنان منهم . حتى الأب مع ابنه . تلك

الميزة هى اختلاف البنان ، تلك الخطوط الدقيقة في أنامل كل انسان ، فقد ثبت علميا اختلاف بصمات أفراد البشرية في هذا العالم كله ـ أى اختلاف بنانهم ·

واذا كان الأمر كذلك ، وقد أخبر تعالى (أنه قادر على جمع عظام الانسان واعادة بنان كل فرد بهيئته وشكله وصورته ، فكيف يستبعد الجاحد على من هذه قدرته ، اعادته الى الحياة مرة أخرى ·

وبالتالى فالآية نص صريح في جمع الأجزاء المتفرقة حتى أصغر جزء منها ، ودليل على أن بدن الانسان يتفرق ولا ينعدم ·

الراجح من القولين :

وبعد عرض هذه الآيات من القرآن الكريم ، يتبين لنا أن الأولى بالترجيح هو القول بتفرق بدن الإنسان ، لا اعدامه ، ذلك التفرق الذى تذهب معه الصورة الأصلية لأجزاء بدن الإنسان وتتغير تغيرا كليا ، بحيث تصبح متصورة بصورة التراب ، وهذا ليس معناه عدما فان التراب موجود ، وهو أصل مادة الانسان ، فمنه وجد ، واليه يعاد ، ومنه يخرج مرة أخرى ، قال تعالى : (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) (طه : الآية ٥٥) الا ما نصت السنة الصحيحة على بقائه بعينه ، وعدم تحوله عن صورته ·

أولا : عجب الذنب : الذى منه يركب خلق الانسان ، فقد ثبت فى الصحيحين بقاؤه بعينه وأن الأرض لا تأكله أبدا · ففى صحيح البخارى · عن أبى هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما بين النفختين أربعون · قالوا : أربعون يوما ؟ قال : أبيت · قالوا : أربعون شهرا ؟ قال : أبيت · قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبيت · ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ، ليس من الانسان شيء الا يبلى ، الا عظماً واحدا وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة) (١) ·

وفي رواية مسلم من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن في الانسان عظما لا تأكله الأرض أبدا · فيه يركب يوم القيامة · قالوا : أى عظم هو ؟ يارسول الله ، قال : « عجب الذنب ») (٢) ·

---

(١) محمد بن اسماعيل البخارى ·

(٢) صحيح البخارى ، كتاب التفسير ، باب يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا ، رقم الحديث ٤٩٣٥ ، من فتح البارى جـ ٨ ص ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ومسلم في كتاب الفتن / باب ما بين النفختين ، رقم الحديث ١٤١ جـ ٤ ص ٢٢٧١ ـ ترقيم عبد الباقى ·

ثانيـــا : ـ أجساد الأنبياء فقد حرم الله على الأرض أن تأكلها ٠

فقد روى النسائى وأبو داود من حديث أوس بن أوس رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم عليه السلام ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا على من الصلاة فان صلاتكم معروضة علىّ ٠ قالوا : يارسول الله ، وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ أى يقولون قد بليت ٠ قال : ان الله عز وجل ٠٠ قد حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم السلام) (١) ٠

ويقول ابن القيم في مفتاح دار السعادة ما ملخصه :

« ما خلقه الله سبحانه وتعالى فقد أوجده لحكمة في ايجاده ، فإذا اقتضت حكمته اعدامه جملة واحدة ، أو تغييره وتحويله من صورة الى صورة بدله وغيره وحوله ، ولم يعدمه جملة ، قال : ومن فهم هذا فهم مسألة المعاد ، وما جاءت به الرسل فيه ، فإن القرآن والسنة ، إنما دلا على تغيير العالم وتحويله وتبديله لاجعله عدما محضا واعدامه بالكلية ، فدل على تبديل الأرض غير الأرض والسموات ، وعلى تشقق السماء وانفطارها وتكوير الشمس ، وانتشار الكواكب ، وسجر البحار ، وإنزال المطر على أجزاء بنى آدم المختلطة بالتراب ، فينبتون كما ينبت النبات ، وترد تلك الأرواح بعينها ، الى تلك الأجساد التى أحيلت ، ثم أنشئت نشأة أخرى ... فهذا هو الذى أخبر به القرآن والسنة ، ولا سبيل لأحد من الملاحدة الفلاسفة وغيرهم إلى الاعتراض على هذا المعاد الذى جاءت به الرسل بحرف واحد ٠

وإنما اعتراضاتهم على المعاد الذى عليه طائفة من المتكلمين أن الرسل جاؤوا به ، وهو أن الله يعدم أجزاء العالم العلوى والسفلى كلها فيجعلها عدما محقا ، ثم يعيد ذلك العدم وجودا ، وياليت شعرى أين في القرآن والسنة أن الله يعدم ذرات العالم وأجزاءه جملة ثم يقلب ذلك العدم وجودا ٠

وهذا هو المعاد الذى أنكره الفلاسفة ، ورمته بأنواع الاعتراضات ، وضروب الالزامات ، واحتاج المتكلمون إلى تعسف الجواب وتقريره بأنواع المكابرات ، وأما المعاد الذى أخبرت به الرسل ، فبرىء من ذلك كله ، مصون عنه لامطمع لعقل في الاعتراض عليه ، لا يقدح فيه شبهة واحدة وقد أخبر سبحانه أنه يحيى العظام بعد ما صارت رميماً ، وأنه قد علم ما تنقص

---

(١) النسائى ، سنن النسائى المجتبى ، كتاب الصلاة / باب فضل يوم الجمعة جـ ٣ ص ٧٥ الطبعة الأولى ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٤ ٠

قال المناوى في فيض القدير ، قال الحاكم على شرط البخارى : انتهى ، وليس كما قال ، فقد قال الحافظ المنذرى وغيره ليس له علة دقيقة أشار اليها البخارى وغيره وغفل عنها من صححه كالنووى في الرياض والأذكار جـ ٢ ص ٥٣٥ رقم الحديث ٢٤٨٠ ٠

الأرض من لحوم بنى آدم وعظامهم ، فيرد ذلك إليهم عند النشأة الثانية ، وأنه ينشىء تلك الأجساد بعينها بعدما بليت نشأة أخرى ، ويرد اليها تلك الأرواح … الخ (١) ٠

واذا كنا رجحنا القول بأن الاعادة عن تفريق ، لاعن عدم محض ، وأن الله عز وجل يفرق أجزاء الأجسام ، ثم يعيدها ، فما هو الجواب على مااستدل به القائلون بانعدام الأبدان ، من قوله تعالى : (كل شىء هالك الا وجهه) (القصص : آية ٨٨) ٠ وقوله تعالى : (كل من عليها فان) (لرحمن : آية ٢٦) ٠

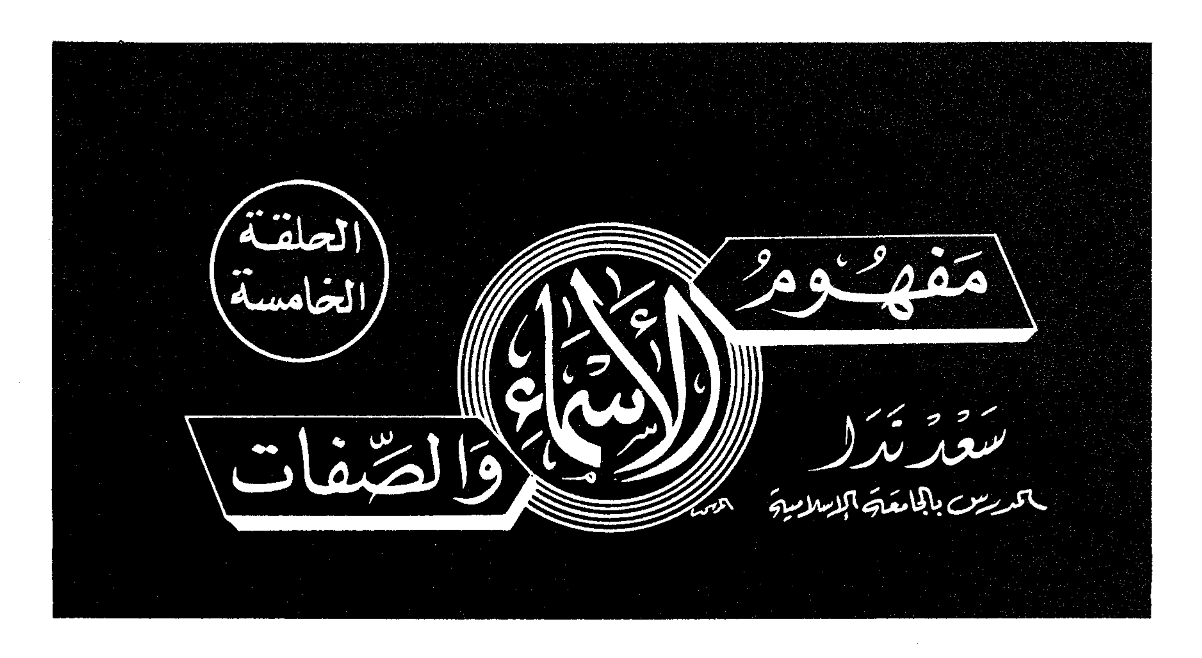
يرى القائلون بتفرق الأبدان أن الاستدلال بهاتين الآيتين على انعدام الأبدان كلية ضعيف ، ذلك أن التفريق هلاك كالاعدام ، لأن هلاك الشيء هو خروجه عن صفاته التى كان عليها وزوال التأليف والتركيب الذى به تصلح الأجزاء لأفعالها وتتم به منافعها ٠ ومثل الهلاك الفناء عرفا ، فإن البدن اذا تغير بحيث أصبح ترابا ، فقد صار في حكم المعدوم من حيث تغير صورته ، وكل ما يمتاز به من مقوماته ، وقد قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : (كل من عليها فان) ، إنه اخبار من الله تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون ، أجمعون ، وكذلك أهل السماوات الا من شاء الله ، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم فإن الرب تعالى ، هو الحي الذى لا يموت ، قال : وهذه الآية كقوله تعالى : (كل شىء هالك الا وجهه) (٢) ٠ فعلى هذا التفسير يتضح أن المقصود من الآيتين هو موت الأحياء جميعا وتغير صورهم ، بل وصور الأشياء جميعا ، كما تقدم توضيحه في كلام ابن القيم ٠

والله أعلم …

---

(١) ابن القيم ، مفتاح دار السعادة جـ ٢ ص ٣٥ ٠

(٢) ابن كثير ، التفسير جـ ٤ ص ٣٧٢ ، ٣٧٣ ٠



من الأسماء الحسنى التى ذكرتها فى الحلقة الرابعة ـ إضافة لما ذكرت من أسماء ـ اسم (المولى ـ والولى) سبحانه وتعالى ، وبينت بعضا من معانى اسم (المولى) ، وأسلفت أنه ورد فى القرآن الكريم اثنتى عشرة مرة ٠

ثم بدأت فى بيان بعض معانى اسم (الولى) سبحانه ، وذكرت أنه ورد فى القرآن الكريم ست عشرة مرة ٠

ومن ثم يكون عدد أسماء الله الحسنى التى سقتها فى الحلقات الأربع الماضية إحدى وأربعين اسما ، تكرر ذكرها فى مواضع مختلفة من القرآن الكريم ، فضلا عن السنة المشرفة مرات بلغت (٢٧٨٦) ستا وثمانين وسبع مائة وألفى مرة ، وأعود فأؤكد ما سبق لى تأكيده فى الحلقات السابقة أن تكرار أسماء الله الحسنى فى القرآن الكريم بهذا الحشد الوفير له مفهومه ومغزاه ، وهو أن هذه الأسماء لها من خطورة الأمر ، وأهمية الذكر ، ما يحتم على كل مسلم ضرورة معرفتها ، ليعرف منها صفات الله جل وعلا ، ومن ثم يستطيع أن يعبد إلها يعرفه بأسمائه الحسنى وصفات كماله العليا ، فيستطيع توحيده وتجريد العبادات له جميعا لتتحقق لها شروط القبول لدى الله عز وجل ٠

وبالنظر إلى أن اسم (المولى) سبحانه لم يفرغ ما يسر الله لى من بحث فيما يدور حول معانيه ، فإننى أستعين بالله تعالى ـ بحوله وقوته ـ وأشرع فى إتمام ذلك البحث فيما يلى :-

وورد اسم المولى كذلك فى قوله تعالى : **(إنهم لن يُغْنُوا عنك من الله شيئاً ، وإنّ الظالمين بعضُهم أولياء بعض ، والله ولّى المتقين)** (الجاثية آية ١٩) ·

وقد جاءت هذه الآية عقب قوله تعالى : **(ثم جعلناكَ على شريعةٍ من الأمر فاتبعها ، ولا تَتّبعْ أهواءَ الذين لا يعلمون)** (الجاثية آية ١٨) ·

ومعنى الآيتين فيما يقوله الإمام ابن كثير : اتبع ما أنزل إليك من ربك يا محمد . وأعرض عن المشركين ، فإنهم لا يغنون عنك بل ولا عن بعضهم شيئاً ، ولا يزيدون أنفسهم إلا خساراً ودماراً وهلاكاً ، والله ولى المتقين ، أما الكفار فلا مولى لهم إلا الطواغيت الذين يخرجونهم من النور إلى الظلمات ·

ويقول الإمام الشوكانى : الشريعة فى اللغة مذهب . وملة ، والمنهاج ، ويقال : لمشرعة الماء وهى مورد شاربيه شريعة ، ومنه الشارع لأنه طريق إلى المقصد · فالمراد بالشريعة هنا : هو ما شرعه الله لعباده من الدين ، والجمع شرائع - أى جعلناك يا محمد على منهاج واضح من أمر الدين يوصلك إلى الحق ، فاعمل بأحكامها فى أمتك ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون توحيد الله وشرائعه لعباده ، وهم كفار قريش ومن وافقهم ، فهم لا يدفعون عنك شيئا مما أراده الله إن اتبعت أهواءهم ، إذ أن الظالمين أنصار ينصر بعضهم بعضا ، والله ناصر المتقين وهو وليهم ، لأنهم الذين اتقوا الشرك والمعاصى (١) ·

ويقول الشيخ عبد الرحمن السعدى : المعنى : شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلى كل خير وتنهى عن كل شر من أمرنا الشرعى ، فاتبعها فإن فى اتباعها السعادة الأبدية والصلاح والفلاح ، ولا تتبع أهواء الذين تكون أهويتهم غير تابعة للعلم ولا ماشية خلفه ، وكل من خالف هواه وإرادته شريعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإنه من أهواء الذين لا يعلمون ، فهؤلاء لا ينفعونك عند الله فيحصلوا لك الخير ويدفعوا عنك الشر إن اتبعتهم على أهوائهم ، ولا يصلح أن توافقهم وتواليهم ، فإنك وإياهم متباينون ، ولذلك كان الظالمون بعضهم أولياء بعض ، والله ولى المتقين يخرجهم من الظلمات إلى النور بسبب تقواهم وعملهم بطاعته (٢) ·

ويقول صاحب صفوة التفاسير : فى معنى الآيتين : المعنى جعلناك يا محمد على طريقة واضحة ، ومنهاج سديد رشيد من أمر الدين ، فاتبع ما أوحى إليك ربك من الدين القيّم ، ولا تتّبع ضلالات المشركين أى آراء الجهال التابعة للشهوات وهم رؤساء قريش حيث

---

(١) فتح القدير الجزء الخامس ص ٨ · بقليل تصرف ·

(٢) تيسير الكريم الرحمن الجزء السابع ص ١٤٤ ·

قالوا : ارجع إلى دين آبائك ، فهم لن يدفعوا عنك شيئا من العذاب إن سايرتهم على ضلالهم ، وإن الظالمين يتولى بعضهم بعضا فى الدنيا ولا ولى لهم فى الآخرة ، والله ولى المتقين أى ناصرٌ ومعينٌ المؤمنين المتقين فى الدنيا والآخرة (١) ٠

وأقـول : إن أعظم شريعة ، وأوسع شريعة ، وأكمل شريعة عالجت كل جوانب الحياة في الدنيا والآخرة ، والتى تولى الله سبحانه وتعالى تشريعها تفضلًا ، ورحمةً ، وهدايةً لأقوم طريق ، وأنجى سبيل ، خاتمةً للشرائع التى أنزلها الله تعالى ٠ إنما هى شريعة رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ٠ ومن ثم كان أمره تعالى إليه بقوله : « فاتَّبِعْها » بمعنى أن يلتزمها ويأخذ بها نفسه ، ثم يدعو إليها الناس جميعا ، ليلتزموها ويأخذوا بها أنفسهم كذلك منهجا لكل نواحى حياتهم لينالوا فوز الدارين ٠

ومن ثم يبين لنا أنه لا نجاة للبشرية من حمأة الضلال ، ودركات الفسق ، ووهدة الإلحاد ، إلا باطّراح ما شرع البشر من قوانين صماء عمياء لا تبصر ما يصلح للإنسان ، وما يهيىء له الحياة الطيبة والانطلاق سريعا إلى اتباع الله تعالى الذى يعلم من خلق وما يُصلِحُ حياته ، وهو اللطيف الخبير ٠ ذلك بان الله جل وعلا يتولى أمر المتقين الذين يجعلون بينهم وبين غضب الله وقاية تقيهم عذابه فهو سبحانه وليهم ، وناصرهم بالحق على الباطل وأعوانه ، وأما الظالمون فقد وكلهم سبحانه إلى أنفسهم يتولى بعضهم أمر بعض ، فضاعوا وخسروا فى الدنيا والآخرة ٠

وإننى حين تدبرت قوله تعالى : (فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) بما تحمله من إثبات ونفى : الإثبات بالأمر باتباع ما أوحاه الله سبحانه من شرع ، والنفى بالنهى عن اتباع أهواء الجهال المارقين عن أمر الله ، حين تدبرت ذلك جال بخاطرى قوله تعالى : (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى) وما ماثلها من الآيات بما تحمله كذلك من نفى وإثبات : النفى بأن يُكفَر بالطواغيت أيا كان نوعها من البشر وما يشرعون من مناهج هابطة ، ومن الجبابرة منهم والطغاة ، ومن الموتى وما يتوهم المتوهمون من تأثيرهم فى حياة الخلق وتصريفها وتدبير أمرها ٠ والإثبات بأن يُخلَص الإيمان بالله إلها واحدا ، تُجَرَّد له الأعمال وحده جميعا ٠

فالنفى والإثبات فى معنى (لا إله إلا الله) هوأساس الإيمان : نفى العبودية لغير الله سبحانه عبادة وتشريعا ، وإثبات العبودية له سبحانه عبادة وتشريعا ٠ وذلك على أساس

---

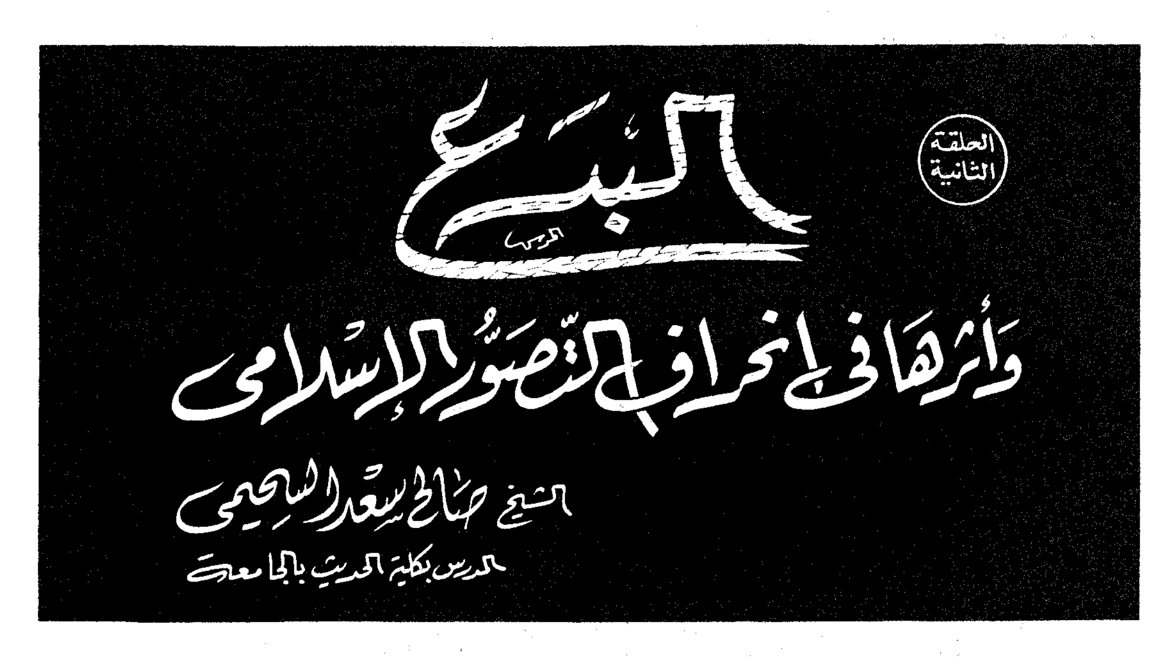
(١) صفوة التفاسير المجلد الثالث ص ١٨٥ ٠

الاعتقاد الجازم بأن الله هو وحده يتولى شأن كل من وحَّده ، ويُصَرِّف أمره على أحسن وجه ، ولهذا أمره تعالى بتوحيده ونهاه عن الإشراك به لأنه سبيل إحباط كل عمل ، كما أمره باتباع شرعه وحده ، ونهاه عن اتباع أى شرع يصدر عن غير الله الكبير المتعال · لأنه لا حياة طيبة للإنسان ، ولا سعادة له ، ولا فوز فى الدارين إلا باتباع منهج الله الذى ضمَّنهُ شرعه ·

قال الله تعالى :

لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

البقرة ٢٥٦ ، ٢٥٧



السنة والبدعة :

إذا تبين ذلك فإنه قد يرد سؤال مفاده ما هو الفارق والميزان الذى نميز به بين البدعة والسنة ؟ لأن كل مبتدع يزعم أنه على السنة بل يرى أن بدعته بعينها هى السنة فالجواب أن نقول السنة فى اللغة هى الطريق ولا ريب فى أن أهل النقل والأثر والمتبعين آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم وآثار أصحابه هم أهل السنة لأنهم على تلك الطريق التى لم يحدث فيها حادث ـ وإنما وقعت الحوادث والبدع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

هذا هو مفهوم السنة عند السلف بعبارة مختصرة هى الطريقة التى كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

هذا هو المعنى الذى يعنينا فى هذا المقام وهناك تعريفات أخرى للسنة عند المحدثين والأصوليين والفقهاء ليس من غرضنا التعرض لها هنا .

وأما تعريف البدعة فانى أنقل باختصار التعريف الذى أورده الإمام العلامة الشاطبى رحمه الله تعالى فى كتابه الاعتصام .

(وأصل مادة « بدع ») للاختراع على غير مثال سابق ، ومنه قول الله تعالى (بديع السموات والأرض) أى مخترعهما من غير سابق متقدم ، ويقال ابتدع فلان بدعة يعنى ابتدأ طريقة لم يسبقه إليها سابق ، ويربط الإمام الشاطبى بين المعنى اللغوى والمعنى الشرعى فيقول ومن هذا المعنى سميت البدعة بدعة ، فاستخراجها للسلوك عليها هو الإبتداع وهيئتها

هى البدعة ، وقد يسمى العمل المعمول على ذلك الوجه بدعة ـ فمن هذا المعنى سمى العمل الذى لا دليل عليه فى الشرع بدعة ثم يستمر بالتمهيد للتعريف ويذكر أقسام الحكم التكليفى الخمسة حتى يتوصل إلى أن من المنهيات ما يطلب تركه وينهى عنه لكونه مخالفاً لظاهر التشريع من جهة ضرب الحدود ، وتعيين الكيفيات ، والتزام الهيئات المعينة أو الأزمنة المعينة مع الدوام ونحو ذلك ٠

وهذا هو الابتداع والبدعة ، ويسمى فاعله مبتدعا ومما تقدم يستنتج الشاطبى تعريف البدعة فى الدين فيقول (فالبدعة إذا عبارة عن طريقة فى الدين مخترعة تضاهى الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة فى التعبد لله سبحانه) ٠ ومعنى هذا التعريف وهو جامع مانع كما ترى فالطريقة والسبيل والسنن ألفاظ مترادفة وهو ما رسم للسلوك عليه وإنما قيدت بالدين لأن صاحبها يضيفها إليه ، خرج بذلك الطريقة المخترعة فى الدنيا كالصناعات مثلا فإنها لا تسمى بدعة فى الدين بهذا القيد وإن كانت مخترعة ٠

ولما كانت الطرائق فى الدين تنقسم إلى قسمين ... فمنها ما له أصل فى الشريعة ومنها ما ليس له أصل فيها ٠

خص منها ما هو المقصود بالحد وهو القسم المخترع فى الدين ، أى طريقة ابتدعت على غير مثال تقدمها من الشارع ٠ وقوله فى التعريف تضاهى الشرعية ـ يعنى أنها تشابه الطريقة الشرعية من غير أن تكون فى الحقيقة كذلك ، بل هى مضادة لها من أوجه متعددة على رأس تلك الأوجه اتهام الشريعة بالنقص وعدم الكمال وهذا معلوم البطلان من الدين بالضرورة كما تقدم ٠ وقوله (يقصد بالسلوك عليها المبالغة فى التعبد لله تعالى) هو تمام معنى البدعة إذ هو المقصود بتشريعها ٠ وذلك أن أصل الدخول فيها يحث على الانقطاع إلى العبادة والترغيب فى ذلك لأن الله تعالى يقول : (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) ٠ فكأن المبتدع رأى أن المقصود هذا المعنى ٠

فأراد أن يسلكه بأى وجه ولم يتبين له أن الشارع قد وضع لذلك حدودا وضوابط وقوانين لا يجوز أن يزاد فيها أو ينقص) ٠

أمثلة من البدع الشائعة بين المسلمين :

إذا تبين الفرق بين السنة والبدعة من خلال التعريف ، فإنى أورد أمثلة للبدع التى عمت وطمت فى أرجاء العالم الإسلامى حتى أصبحت عند كثير من الناس سنة متبعة فى الوقت الذى تركت السنن وهجرت تعاليم الإسلام وسأذكرها على سبيل التمثيل لا على سبيل

الحصر ، منها : نذر الصيام قائما لا يقعد أو ضاحيا لا يستظل . والانقطاع للعبادة وترك الكسب الحلال واقامة المآتم وقراءة القرآن فيها والاقتصار من المأكل والملبس على صنف دون صنف من غير علة .

ومنها التزام الكيفيات والهيئات المعينة ، كالذكر على هيئة الاجتماع بصوت واحد . ومنها التزام عبادات معينة فى أوقات معينة لم يوجد لها ذلك التعيين فى الشريعة : كالتزام صيام يوم النصف من شعبان وقيام ليلته والاحتفال بيوم الاسراء والمعراج وتخصيصه بعبادة معينة علما بأن تاريخه قد اختلف فى تحديده وحتى لو عرف فإن الله لم يميزه بعبادة مخصوصة وغير ذلك من البدع التى أحدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الغر الميامين الذين كان لهم قصب السبق فى الذب عن حياض الإسلام والدفاع عن السنة المطهرة .

أصـــل بدعـة المـولد :

ولما كانت البدع كثيرة يجل عنها الحصر فإنى سوف أقصر الكلام بايجاز على بدعة خطيرة ومحدثة عظيمة تمس شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا وهى بدعة الاحتفال بعيد مولده صلى الله عليه وسلم .

وأن المتتبع للتاريخ الإسلامى يجد أن مثل هذه الاحتفالات لم تكن موجودة عند المسلمين الأوائل بل ولا فى القرون المفضلة حتى جاءت الدولة الفاطمية والتى انتسبت إلى فاطمة ظلما وعدوانا بل ان المحققين من المؤرخين يرون أنهم ينحدرون من أصل يهودى يقال لهم العبيديون وهم أبناء ميمون بن ديصان المشهور بالقداح قيل انه يهودى وقيل مجوسى وقد استمرت دولتهم فى مصر من (٣٥٧ ـ ٤٦٧ هـ) وقد احتفل الفاطميون بأربعة موالد : مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى بن أبى طالب ، وولديه الحسن والحسين رضى الله عنهم جميعا .

فهم أول من أحدث ذلك كما ذكر المقريزى وغيره . وظلت هذه البدعة يعمل بها حتى جاء (بدر الجمالى) الوزير الأول للخليفة الفاطمى (المستعلى بالله) وكان هذا الوزير شديد التمسك بالسنة ، فأصدر أمرا بالغاء هذه الموالد ، وما أن مات (بدر الجمالى) حتى عادت البدعة من جديد .

واستمر الأمر على هذا الحال حتى جاء عهد صلاح الدين الأيوبى ، وكان أيضا من المتمسكين بالسنة ، فالغى هذه الاحتفالات ، وتم تنفيذ هذا الالغاء فى كل انحاء الدولة الأيوبية ، ولم يخالف فى ذلك إلا الملك المظفر الذى كان متزوجا من أخت صلاح الدين .

وقد ذكر المؤرخون أن احتفالات الملك المظفر بالمولد كان يحضرها المتصوفة حيث يكون الاحتفال من الظهر الى الفجر ، وكان ما ينفق فى هذا الاحتفال يزيد عن ثلاثمائة ألف دينار ٠

واستمرت بعد ذلك هذه الاحتفالات الى يومنا هذا ، بل توسعوا فيها حتى امتدت إلى الاحتفال بمولد كل عظيم فى نظر العامة وإن كان من الملحدين بحجة أنه من الأولياء ولا يخفى على الجميع مدى المنكرات والموبقات التى ترتكب فى أسواق الموالد ، من شرب للخمور ، ولعب للميسر ، ورقص وغناء ، تؤديه النسوة فى مجامع الرجال وغير ذلك من الكبائر ، حتى أصبحت كلمة المولد يضرب بها المثل فى كل المجالات للفوضى والاستهتار وأعظم من هذا كله اعتقاد هؤلاء الجهال أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحضر المولد ولهذا يقومون له محيين ومرحبين ، بل يزعم بعضهم أنه يصافحه وهذا من أعظم الباطل بل هو غاية الجهالة والضلالة ٠ فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يخرج من قبره قبل يوم القيامة ولا يتصل باحد من الناس - بل هو منعم فى قبره وروحه فى أعلى عليين عند ربه فى دار الكرامة كما قال الله تعالى (ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) ٠

وقال النبى صلى الله عليه وسلم (أنا أول من ينشق عنه القبر يوم القيامة وأنا أول شافع وأول مشفع) ٠

ونحن لا نلوم العامة الذين يفعلون مثل هذه الأمور وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ولكن اللوم يوجه إلى العلماء المنتسبين إلى العلم ، أولئك الذين يعرفون طريق الحق ولكنهم يحيدون عنها ، ولا يذكرون أن الأتباع أولى من الابتداع ، ولكنهم يتجاهلون هذا الحق الذى لا يجادل فيه ، فكيف يجهل هؤلاء أن حقيقة الحفاوة بذكرى مولد الرسول عليه السلام ، تتركز فى اتباع ما جاء به ، واحياء سنته ، وأن هذه الذكرى الطيبة ليست مؤقتة بزمن وليست محدده بشهر ربيع الأول ، بل ينبغى أن نحييها ونحتفى بها فى كل لحظة من لحظات حياتنا وفى كل بقعة حللنا بها وذلك باتباع سنته والسير على نهجها وما أظن أن مسلما يجهل أن الاحتفال بفكرة « المولد النبوى » أو غير ذلك من الموالد فكرة مبتدعة جاءتنا متأخرة ، وفيها تشبه باليهود والنصارى الذين لا يعرفون من الدين إلا الاحتفالات على رأس السنة بعيد ميلاد المسيح عليه السلام أو غيره الذى دس عليهم وليس من دينهم ٠ ونحن قد قلدناهم فى هذا العمل كما قلدناهم فى أمور كثيرة وهذا بلا شك مصداق لقول الرسول صلى الله عليه وسلم (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال فمن) متفق عليه ٠

وقد خشى النبى صلى الله عليه وسلم ذلك على أمته فقال لا تجعلوا قبرى عيدا . والعيد اسم لكل ما يعود ويتكرر أى لا تخصصوا لقبرى يوما بعينه تعودونه فيه فمن خصص يوما من السنة كالثانى عشر من ربيع الأول وقع تحت هذا التحذير . ونحن بهذا لا ننكر زيارة قبره صلى الله عليه وسلم إذا فعلت بالطريقة المشروعة وبدون شد رحال أو تخصيص يوم أو شهر معين لأن شد الرحال من أجل العبادة خاص بالمساجد الثلاثة التى جاءت فى الحديث ·

(لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ـ المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى) والأعياد المعروفة فى الإسلام ثلاثة أعياد فقط ـ عيد الفطر ـ وعيد الأضحى ـ وعيد الاسبوع الذى هو يوم الجمعة . وما عدا ذلك من الأعياد المحدثة ما هو إلا ضرب من البدع الضالة التى قلدنا فيها أعداءنا · ولا شك أن العواطف الكاذبة ودعوى حب الرسول صلى الله عليه وسلم هى التى حدت بنا إلى أن نبتدع ولا نتبع وكيف تجتمع دعوى محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع مخالفة أمره فى النهى عن الاحداث فى الدين (الضدان لا يجتمعان) على حد قول القائل :

تعصى الاله وأنت تزعم حبه — هذا لعمرك في القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته — إن المحب لمن يحب يطيع

وقد جعل الله تعالى ميزان محبته ودليلها هو اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم : قال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله . فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) · وبمنطوق الآية لا يعتبر محبا لله من خرج على الاتباع ولجأ إلى الابتداع . وما من شك فى أنه يجب على كل مسلم أن يقدم محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى على نفسه فقد روى الشيخان عن انس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين) ·

لكن هذه المحبة يجب أن تكون فى الاطار الصحيح الذى جعله الله فيه بعيدا عن الغلو والتفريط فكأن أولئك الغلاة والمفرطين لم يسمعوا حديث عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد · فقولوا عبد الله ورسوله) وأى غلو أعظم من قول القائل :

يا أكرم الخلق ما لى من ألوذ به   سواك عند نزول الحادث العممى
فإن من جودك الدنيا وضرتها   ومن علومك علم اللوح والقلم

ترى ماذا ترك لله بعد أن جعل جميع الكون بما فيه علم اللوح والقلم من ايجاد البشر . إن شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم غنية عن هذا الاطراء وحسبه فخرا أن الله اختاره ليكون رحمة للعالمين وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا وهذه المنزلة وإن كانت أشرف منزلة ينالها مخلوق الا أن ذلك لا يخرجه عن كونه بشرا تجرى عليه السنن الكونية التى تجرى على البشر من الولادة والحياة والموت وغير ذلك من سنن الله فى البشر قال تعالى : **(قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما الهكم اله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) .**

إن هؤلاء الغلاة قد أساءوا كل الاساءة إلى شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يلفقونه من الأحاديث الكاذبة والأخبار الزائفة التى تجعله فى مصاف الآله ، مما فتح ثغرة ينفذ منها أعداء الإسلام والمسلمين إلى السخرية من الإسلام والطعن فى شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إننا نعتز كل الاعتزاز بشخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ونؤمن بأنه سيد ولد آدم ونعتز بتلك المعانى الحية والمبادىء القيمة التى جاء بها من عند الله ، لكن يجب أن لا يحملنا هذا الاعتزاز على الخروج عن حدود المنزلة الصحيحة التى شرفه الله بها . واننا نتساءل ماذا سنقول بعد الثناء العطر الذى أثنى الله به عليه من نحو قوله تعالى **(وانك لعلى خلق عظيم)** وقوله تعالى **(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عندتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم)** وماذا سنقول بعد أن نوه الله باسمه ورسالته خمس مرات كل يوم كل ما رفع الأذان ، وماذا سنقول بعد قول الله تعالى **(ورفعنا لك ذكرك)** وآيات وأحاديث كثيرة تتحدث عن سمو منزلته ، لا يمكن حصرها فى مثل هذه العجالة ، وفى ما أوردناه غنية لمن تدبر وتأمل **(ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) .**

ومما ينبغى التنبيه عليه فى هذا المقام ، تلك الشبهة التى يتعلق بها أرباب الموالد ، ولا سيما مولد النبى صلى الله عليه وسلم . وذلك فهمهم الخاطىء الذى ينطبق عليه قول الشاعر : وآفته من الفهم السقيمى ... وهو ما توهموه من الحديث الذى رواه مسلم عن أبى قتادة رضى الله عنه (ان رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن صوم الاثنين ، فقال صلى

الله عليه وسلم هو يوم ولدت فيه ، وفيه أنزل على) فقد تمسك هؤلاء بلفظة (يوم ولدت فيه) ثم عينوا هذا اليوم بالثانى عشر من ربيع الأول ، وذلك تخصيص من عند أنفسهم . وهذا الاستدلال ظاهر البطلان لوجوه كثيره منها :

١ ـ إن المطلوب فى هذا اليوم أعنى يوم الاثنين هو الصوم اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم ، بينما نرى أصحاب تلك الموالد يخصصون ذلك اليوم الذى عينوه للأكل والشرب والطرب فضلا عن ما أحدثوه من أذكار ، وهتافات لا نجد لها برهانا ولا هدى ولا حجة صحيحة .

٢ ـ إن الذى أمر به النبى صلى الله عليه وسلم هو صوم يوم الاثنين من كل اسبوع دائما ، ولم يقيد ذلك بسنة أو بشهر أو أسبوع بعينه ، بينما هؤلاء يخصصون يوما واحدا فى السنة هو التاسع أو الثانى عشر من ربيع الأول على اختلاف بينهم حتى وإن لم يوافق هذا اليوم يوم الاثنين . وبذلك يتضح وجه مخالفتهم أمر النبى صلى الله عليه وسلم .

٣ ـ إن صيام يوم الاثنين له خصوصية أخرى ، اضافة الى ما ذكر فى هذا الحديث ، وذلك انه يوم تعرض فيه الأعمال على الله تعالى فندب النبى صلى الله عليه وسلم إلى صومه كى تعرض أعمال العبد على ربه ، وهو صائم ، وذلك أحرى لقبولها ، كما جاء ذلك فى أكثر من حديث عنه صلى الله عليه وسلم .

فأى الفريقين أولى بالاتباع ، وأقرب إلى الصواب ؟ أهم أولئك الذين يصومون الاثنين من كل أسبوع ، ويعيشون ذكرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل لحظة من لحظات حياتهم بمتابعته والصلاة والسلام عليه كلما ذكر . أم أولئك الذين لا يعرفون ذكراه إلا يوما واحدا فى السنة بلا هدى ، ولا كتاب مبين .

(فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم صادقين ... ؟) .

دفـــع تــوهـــم :

وإذا كان القرآن والسنة النبوية وما جاء عن سلف الأمة على رأسهم الصحابة قد دل على التحذير من البدع وان هذه الأمور التى ذكرناها آنفا بما فيها الاحتفال بالموالد دخيلة على الدين فإن ثمة سؤالا مفاده ما هى الشبه والأدلة التى تشبث بها المبتلون بحب هذه البدع ؟ والجواب على ذلك أن نقول إن هذه الشبه لا تخرج عن أمرين ـ إما نصوص صحيحة يحرفون فيها الكلم عن مواضعه ويصرفونها عن معانيها الحقيقية وإما أحاديث واهية أو موضوعة شحنوا بها كتبهم ونسبوها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كذبا وزورا .

مثال ذلك حديث ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن ، وحديث اختلاف أمتى رحمة وحديث توسلوا بجاهى فإن جاهى عند الله عظيم وغير ذلك من الأحاديث الملفقة والتى تصدى لها علماء السنة بالبحث والتنقيب وبينوا عللها وخطورتها وما تنطوى عليه تلك الأحاديث المنكرة من المعانى الخطيرة والدس الرخيص على الإسلام ، واتاحة الفرص لنيل الأعداء من الإسلام ، ولكن الله قيض لهذه الأمة من طهر أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم من الدخيل وذلك بعلم الاسناد الذى لا شك أنه من أعظم ما ميز الله به هذه الأمة . قال عبد الله بن المبارك رحمه الله (لولا الاسناد لقال فى السنة من شاء ما شاء) .

ولما كانت هذه الأحاديث التى تعلقوا بها كثيرة فإنى لن أتوسع فى سردها وانما أحيل الى كتب السنة وما ألف فى خدمتها ففيها غنية لمن رزقه الله العقل وحسن البصيرة ولكن الذى سنلقى عليه الضوء بشىء من الكشف والبيان هى تلك النصوص التى صرفوها عن ظاهرها زاعمين أنها تؤيد ما أحدثوه من البدع ، منها :

أولا : حديث جرير بن عبد الله البجلى رضى الله عنه الذى رواه مسلم فى صحيحه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء) . فقد تمسكوا بلفظه (من سن فى الإسلام سنة حسنة وفرعوا على ذلك الفهم أن البدع قسمان بدعة حسنة وبدعة قبيحة ففسروا السنة هنا بالبدعة وكأن معنى قوله صلى الله عليه وسلم من سن أى من أحدث وابتدع وهذا مردود . من أربعة وجوه .

الوجه الأول : سبب ورود الحديث فقد قال جرير رضى الله عنه (كنا فى صدر النهار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه قوم عراة مجتابى النمار أو العباء متقلدى السيوف ، عامتهم من مضر ، بل كلهم من مضر ، فتمعر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى فيهم من الفاقة ، فدخل ثم خرج ، فأمر بلالا فأذن ، وأقام فصلى ثم خطب فقال (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة) الى آخر الآية (ان الله كان عليكم رقيبا) والآية التى فى الحشر (اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد) . تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بره ، من صاع تمره ، حتى قال : ولو بشق تمرة) . قال : فجاء رجل من الانصار بصرة كادت كفه تعجز عنها ، بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب . حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل كأنه

مذهبة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من سن ..... وذكر الحديث) . فقد ظهر أن سبب ورود الحديث هو حاجة هؤلاء القوم لذا أمرهم النبى صلى الله عليه وسلم بالصدقة فبادر هذا الصحابى بصدقته وتبعه الناس فى ذلك على أمر أمره به النبى صلى الله عليه وسلم فضلا عما ورد فى القرآن من الحث على الصدقة فهذه القصة نفسها تنقض مفهومهم الخاطىء .

الوجه الثانى : ما تقدم من الفرق بين السنة والبدعة من أن السنة هى الطريق المتبع والبدعة هى الأحداث فى الدين هذا المفهوم هو الذى عليه علماء الأمة خلفا عن سلف ولم ينقل عن أحد منهم أنه فسر السنة الحسنة بالبدعة التى يحدثها الناس من عند أنفسهم ولم ينزل الله بها من سلطان .

الوجه الثالث : فهم السلف قاطبة من قوله صلى الله عليه وسلم من سن سنة أى أحيا سنة من سنن الرسول صلى الله عليه وسلم حين يميتها الناس ويتبعه الناس فى هذا الاحياء الذى دعاهم اليه يوضح ذلك حديث أبى هريرة رضى الله عنه الذى رواه مسلم فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص من أجورهم شىء) فان قوله من دعا الى هدى تفسير لما أجمل فى قوله من سن سنة حسنة وبالمقابل (من دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شىء) .

وقد دلت الأحاديث على أن كل بدعة ضلالة بدون استثناء لأى نوع من البدع فمن دعا الى بدعة محدثة فى الدين فقد دعا الى ضلالة سواء سماها بدعة حسنة أو لم يسمها كذلك .

الوجه الرابع : قالوا بأن البدعة قسمان ـ حسنة وقبيحة ـ وهو تقسيم من عند أنفسهم وبمحض عقولهم الفاسدة ونحن نوجه اليهم هذا السؤال كيف نعرف أن هذا العمل حسن أو قبيح ؟ وبالطبع سيجيب كل عاقل بأن الحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع ولا يعرف هذا إلا بالرجوع الى الكتاب والسنة فيقال لهم حينئذ إن الكتاب والسنة قد دلا على ذم البدع كما تقدم فى الأدلة فما وجه تقسيمكم هذا ؟ .

ثانيا : يستدل كثير من أهل البدع بما يروى عن عمر رضى الله عنه من قوله نعمة البدعة هذه ردا على من أنكر عليه أمره الناس بصلاة التراويح جماعة فى المسجد خلف أبى ابن كعب يستدلون بهذه القصة توهما منهم أن ما فعله عمر بدعة وهذا باطل من وجوه :

الوجه الأول : أن عمر رضى الله عنه لم يفعل بدعة وانما فعل سنة كان النبى صلى الله عليه وسلم قد فعلها ثم تركها خشية أن تفرض على الأمة كما بين صلى الله عليه وسلم ذلك ولم ينه الناس عن فعلها مما يؤكد بقاء سنيتها ٠

الوجه الثانى : أنه قال هذه الجملة على سبيل المجاز فتسميتها بدعة باعتبار أنها لم تفعل فى عهد أبى بكر رضى الله عنه تجوزا لأن عمر هو الذى بدأ احياء هذه السنة خصوصا وقد زالت علة خشية الفرضية بانتقال النبى صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ٠

الوجه الثالث : ربما قال عمر ذلك تهكما بمن قال له إنك فعلت بدعة فلعلم عمر أنها ليست بدعة رد عليه بهذه الجملة على سبيل الانكار ٠

هذا وهناك شبه أخرى قد يتعلقون بها ولو تأملناها لوجدناها لا تخرج عن هذا الاطار الذى هو تحميل النصوص ما لا تحتمل من المعانى الفاسدة الباطلة ٠

وهناك تقسيمات للبدع ذكرها القرافى وغيره لا نجد لها مستندا أو معيارا صحيحا يمكن أن يؤخذ به ، كتقسيمهم البدع إلى حقيقية واضافية أو حسنة وسيئة أو كلية وجزئية أو بسيطة ومركبة أو فعلية وتركية أو غير ذلك من التقسيمات المصطنعة المتكلفة التى لا تستند إلى دليل ٠

وخلاصة القول أن كل ما أحدث فى الدين ولم يقم عليه دليل فى الكتاب ولا فى السنة لا بعمومه ولا بخصوصه فهو بدعة محدثة ٠

الحق لا يعرف بكثرة الاتباع :

وانه مما يؤسف له أن نرى تلك البدع والمحدثات قد طغت وانتشرت وتهافت عليها الناس تهافت الفراش على النار فى الوقت الذى ضيعوا فيه الفرائض وأهملوا الواجبات وغرقوا فى المنكرات حتى أصبح الكثير منهم يمثل قول ابن زيدون :

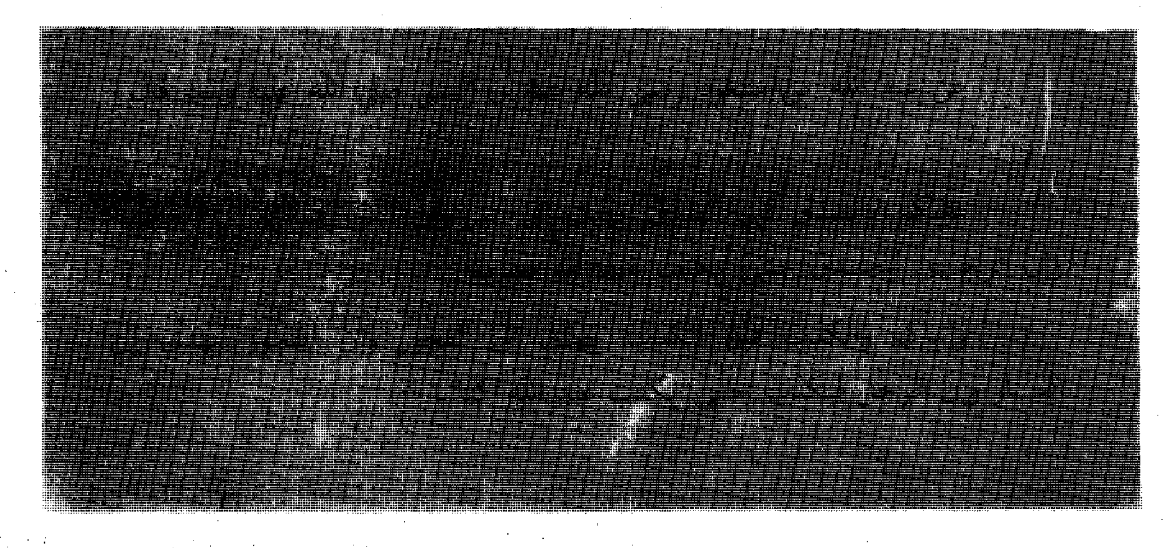
مساوىء لو قسمنا على الغوانى لما أمهرن إلا بالطلاق

ومن الغريب حقا أن يرمى هؤلاء المبتدعون أهل السنة والمتمسكين بها بالجمود والتزمت وغير ذلك من الألقاب التى يطلقونها زورا وبهتانا ، ولكن هيهات ٠ هيهات أن ينالوا مآربهم فإن نبى الرحمة صلى الله عليه وسلم قد بشرنا ببشارة عظيمة وهى قوله (لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرة منصورة لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله) ٠ لذا

فإنه لا ينبغى لعاقل أن يغتر بما يفعله سواد الناس ودهماء العامة فى سائر الاقطار من البدع والمحدثات فإن الحق لا يعرف بكثرة الفاعلين وانما يعرف بالأدلة الشرعية .. قال تعالى **(وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله)** . وقال تعالى **(وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون)** وقال تعالى **(وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)** . وقال تعالى **(وقليل من عبادى الشكور)** . الى غير ذلك من الآيات والأحاديث الواردة فى هذا المعنى .

فالحق أحق بالاتباع ولو خالفه الناس ولن يصلح آخر هذه الأمة الا بما صلح به أولها وهو لزوم جماعة المسلمين والتمسك بالقرآن الكريم والسنة المطهرة فهما مصدر كل عز وفلاح ونجاح فى الدارين وفقنا الله جميعا للاتباع وجنبنا الزلل والابتداع انه ولى ذلك والقادر عليه وصلى الله وسلم على رسوله محمد وعلى آله وأصحابه .

طريق الجنـــــة




الفقهُ
و
أصولُه



رُخصة الفطر في سفر رمضان وما يترتب عليها من الآثار

(الحلقة الثانية)

للدكتور أحمد طه ريان

الأستاذ المساعد بكلية الحديث

(المطلب الثانى) : في بيان مقدار المسافة في السفر المرخص فيه بالفطر

اختلفت النقول عن السلف رضى الله تعالى عنهم فى تحديد المسافة التى يباح الفطر فيها لمن أراد قطعها أو تجاوزها ، اختلافا كثيراً ، فقد نقل عن دحية ابن خليفة « أنه خرج من قرية بدمشق إلى قرية عقبة من الفسطاط (١) وذلك ثلاثة أميال في رمضان ، ثم أنه أفطر وأفطر معه أناس ، فكره ذلك آخرون ، فلما رجع إلى قريته ، قال : والله قد رأيت أمرا ما كنت أظن أنى أراه ، إن قوما رغبوا عن هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول ذلك للذين صاموا ، ثم قال عند ذلك : اللهم اقبضنى إليك (٢) .

ونقل ابن حزم بسنده الى اللجلاج قال : كنا نسافر مع عمر بن الخطاب ثلاثة أميال فيتجوز في الصلاة ويفطر ويقصر (٣) . كما نقل بسنده إلى وكيع عن مسعد بن كدام عن محارب بن دثار قال سمعت ابن عمر يقول : إنى لأسافر الساعة من النهار فأقصر (٤) وأيضا بما رواه بسنده إلى سحيم عن ابن عمر : لو خرجت ميلا لقصرت الصلاة (٥) .

---

(١) قرية عقبة اسم للمكان الذى دفن فيه عقبة بن عامر الجهني الصحابي المعروف والذى كان واليا لمعاوية على مصر . والفسطاط مكان آخر بمصر كان قد نصب عمرو بن العاص عليه خيامه حين فتحه لمصر .

(٢) السنن الكبرى للبيهقي جـ ٤ ص ٢٤١ دار الفكر ببيروت .

(٣) المحلى جـ ٦ ص ١١ .

(٤) المحلى جـ ٦ ص ٣٦٦ .

(٥) المحلى جـ ٦ ص ٣٦٦ .

كما روى بسنده إلى يزيد بن أبى حبيب ، أن كليب بن ذهيل الحضرمى أخبره أن عبيد بن جبر ، قال كنت مع أبى بصرة الغفارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفينة من الفسطاط في رمضان فرفع - وفي رواية : فدفع - ثم قرب غذاءه ، قال اقترب ، فقلت : ألست ترى البيوت ؟ فقال : أترغب عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأكل ، ثم قال ابن حزم والروايات في هذا كثيرة (١) .

ونقل عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قصر الصلاة في سفره إلى ذى الحليفة - وهى على ستة أميال من المدينة - ونسب ذلك إلى اقتدائه بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فقد قال جبير بن نفير « خرجت مع شرحبيل بن السمط إلى قرية على رأس سبعة عشر أو ثمانية عشر ميلا فصلى ركعتين فقلت له : فقال رأيت عمر صلى بذى الحليفة ركعتين ، فقلت له ، فقال : إنما أفعل كما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل » (٢) .

وروى مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه : أن عمر قصر الصلاة الى خيبر (٣) ، كما روى مالك عن نافع عن ابن عمر أنه قصر الصلاة الى خيبر ، وقال : هذه ثلاث قواصد يعنى ثلاث ليال (٤) ، وروى نافع عن سالم بن عبد الله أن أباه عبد الله بن عمر : ركب إلى ذات النصب فقصر الصلاة في مسيره ذلك ، قال مالك وبين ذات النصب والمدينة أربعة برد (٥) .

كما روى مالك عن ابن شهاب عن سالم عن أبيه أنه ركب الى ريم فقصر الصلاة في مسير ذلك ، قال مالك وذلك نحو من أربعة برد (٦) وقررت هذه المسافة في المصنف لعبد الرزاق بمقدار ثلاثين ميلا (٧) ولكن ابن عبد البرقد رجح تقدير مالك بكونها أربعة برد ، يعنى أنها ثمانية وأربعون ميلا (٨) .

وعن مالك بلغه : أن عبد الله بن عباس كان يقول : تقصر الصلاة في مثل ما بين مكة والطائف ، وفي مثل ما بين مكة وجدة ، وفي مثل ما بين مكة وعسفان ، قال مالك : وذلك أربعة برد (٩) .

---

(١) المحلى جـ ٦ ص ٣٦٧ .
(٢) صحيح مسلم جـ ٢ ص ١٤٥ .
(٣) السنن الكبرى للبيهقى جـ ٣ ص ١٣٦ والموطأ جـ ١ ص ٢٩٨ من شرح الزرقانى عليه .
(٤) المصنف جـ ٢ ص ٥٢٣ . السنن الكبرى جـ ٣ ص ١٣٦ .
(٥) السنن الكبرى جـ ٣ ص ١٣٦ والموطأ جـ ١ ص ٢٩٨ . من شرح الزرقانى عليه .
(٦) السنن الكبرى جـ ٣ ص ٣٣٦ والموطأ جـ ١ ص ٢٩٨ من شرح الزرقانى عليه .
(٧) المصنف جـ ٢ ص ٥٢٥ .
(٨) شرح الزرقانى على الموطأ جـ ١ ص ٢٩٨ .
(٩) السنن الكبرى جـ ٢ ص ١٣٧ والموطأ جـ ١ ص ٢٩٩ مطبوع مع شرح الزرقانى عليه .

وقد روى الشافعى عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ا بن عباس أنه سئل: أتقصر إلى عرفة ؟ فقال : لا ولكن إلى عسفان وإلى جدة وإلى الطائف ، وزاد في المصنف فإن قدمت على أهل لك أو على ماشية فأتم الصلاة (١) ٠

وروى مالك عن نافع عن أنه كان يسافر مع ا بن عمر البريد فلا يقصر الصلاة (٢) وعن عطاء بن أبى رباح أن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس رضى الله عنهما كانا يصليان ركعتين ركعتين ويفطران في أربعة برد فما فوق ذلك (٣) ٠

تعليقات هامة حول هذه النقول عن السلف رضى الله عنهم :

(أ) يتبين من هذه النقول لأول وهلة أن مسألة تحديد المسافة ، التى هى مناط الرخصة في القصر والفطر ، ليست سهلة كما يظن بعض أهل العلم من المعاصرين ، بل هي مسألة قد تباينت فيها آراء السلف تباينا كبيرا ، فقد ترواحت تقديراتهم من ثلاثة أميال الى مسيرة ثلاثة أيام كما أوضحتها هذه النقول : ـ

(ب) إن تحديد هذه المسافة هى مناط الرخصة في القصر والفطر فما يصلح دليلا لقصر الصلاة يصير تلقائيا دليلا على تحقق رخصة الفطر في السفر ، فقد قال عطاء : تفطر إذا قصرت وتصوم إذا أوفيت الصلاة (٤) ٠

كما صرح بذلك كثير من أهل العلم (٥) ٠

(جـ) كثرة هذه الآراء في تحديد مسافة الفطر في السفر تشير بوضوح إلى أنه لم يرد دليل صريح من السنة يحدد هذه المسافة التى تناط فيها الرخصة ، وكل ما ورد في ذلك ، أمران :

أولهما : ما ورد في غزوة الفتح من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « خرج عام الفتح إلى مكة في رمضان فصام حتى بلغ كُراع الغميم فصام الناس ثم دعا بقدح من ماء فرفعه حتى نظر الناس إليه ثم شرب فقيل له بعد ذلك ، إن بعض الناس قد صام ، فقال أولئك العصاة أولئك العصاة (٦) ٠

---

(١) المصنف جـ ٢ ص ٥٢٤ والسنن الكبرى جـ ٣ ص ١٣٧ ٠

(٢) الموطأ جـ ١ ص٢٩٩ من شرح الزرقانى عليه ٠ والمصنف جـ٢ ص٥٢٣ . السنن الكبرى جـ ٣ ص١٣٧ ٠

(٣) السنن الكبرى جـ ٣ ص١٣٧ ٠

(٤) المصنف جـ ٤ ص٢٧٠ ٠

(٥) المجموع جـ ٦ ص٢١٧ ونيل الأوطار جـ٤ ص٢٥٣ والمحلى جـ٦ ص٣٦٥ ٠

(٦) صحيح مسلم جـ٣ ص١٤١ ٠ والكراع بضم الكاف وفتح العين : واد أمام عسفان بثمانية أميال يضاف اليه هذا الكراع وهو جبل أسود متصل به والكراع كل أنف سال من جبل أوحرة ٠ شرح عمدة القارىء جـ١١ ص٤٦ دار الفكر ٠

قال القاضى عياض : اختلفت الروايات في الموضع الذى أفطر صلى الله عليه وسلم فيه ، والكل في قضية واحدة ، وكلها متقاربة والجميع من عمل عسفان (١) يشير القاضى عياض إلى رواية ابن عباس السابقة والتى تفيد أنه أفطر بالكديد · وهذه الرواية التى تنص على أنه أفطر بكراع الغميم وغير ذلك من الروايات ، إلا أن هذه الاختلافات لا تأثير لها على الحكم لأن هذه المواضع كلها كما قال القاضى عياض : من عمل عسفان ، وعسفان على سبعة مراحل من المدينة المنورة ، وقد ظل صلى الله عليه وسلم صائما منذ خروجه من المدينة حتى أفطر قرب عسفان ، ولا يمكن أن تعتبر هذه المسافة هى مناط الرخصة لعدم وجود ما يدل على نفي الفطر فيما دونها ، ولما ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد عمل بالرخصة في الصلاة عند وصوله إلى ذى الحليفة خارجا من المدينة ، ومقدار المسافة التى تناط بها الرخصة في الصلاة والصوم واحدة ·

الأمر الثانى : ما ورد من حديث أنس رضى الله عنه : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ (شعبة الشاك) صلى ركعتين » (٢) ·

وقد فهم منه أكثر العلماء : على أن هذه المسافة هى ابتداء العمل بالرخصة يعنى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج من المدينة إلى سفر بعيد كان يبدأ القصر للصلاة بعد مسيرة ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ من المدينة (٣) وسيأتى لهذا الحديث مزيد بيان أثناء الكلام على رأى الظاهرية في تحديد مسافة القصر · إن شاء الله ·

(د) بناء على ما سبق يمكن القول : أن الاجتهاد من الصحابة رضى الله عنهم كان له مجال في تحديد هذه المسافة التى تناط بها الرخصة ، فمنهم من اعتمد على عموم لفظ السفر في الآية فأجاز الأخذ بالرخصة مطلقا ، ومنهم من أخذ ببيان المراد من السفر من وقائع أخرى : مثل قوله صلى الله عليه وسلم في حديث أبى هريرة وابن عمر رضى الله عنهم : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذى محرم » (٤) فاعتبر مسيرة اليوم والليلة ، هى التى يطلق عليها اسم السفر التى تناط به الرخصة · وهكذا ·

(هـ) اختلاف السلف على هذا النحو المتقدم انعكس أثره على مواقف أهل العلم من الأئمة المجتهدين فيما بعد ، والذى سنبينه فيما يلى : -

---

(١) شرح عمدة القارىء جـ١١ ص٤٦ ·

(٢) صحيح مسلم جـ ٢ ص١٤٥ ·

(٣) نيل الأوطار جـ٣ ص٢٣٤ ·

(٤) صحيح مسلم جـ٤ ص ١٠٣ - صحيح البخارى جـ١٣ ص١٢٨ ص ١٢٩ مع شرحه عمدة القارىء ·

مواقف أهل العلم من تحديد المسافة التى تناط بها الرخصة وأدلتهم :

الأول : موقف ابن حزم الظـــــاهرى :

يرى ابن حزم : أن من سافر ميلا أو تجاوزه أو قاربه ، فإنه يجب عليه الفطر ، وقد بطل صومه بمجرد بلوغه نهاية الميل (١) ٠

وقد استند الى اطلاق لفظ السفر في الآية ... (ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) ، وعدم وجود ما يدل على تحديد للمعنى المراد من لفظ السفر الوارد في السنة المطهرة ، وكل ما يستفاد من حديث ابن عباس وحديث جابر في غزوة الفتح - وقد سبقت الاشارة اليهما قريبا - وحديث أنس المتقدم : هو جواز القصر في هذه المسافات ٠ وليس في هذه الأحاديث ولا في غيرها ما يفيد المنع من الفطر أو القصر في أقل من هذه المسافات ، وقد جاءت في التحديد روايات مختلفة عن الصحابة رضى الله عنهم ليس بعضها أولى من بعض (٢) ٠

ويناقش مستند ابن حزم هذا ، بأن لفظ السفر وان جاء مطلقا في الكتاب الكريم ، وفي السنة المطهرة ، إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوضح المراد منه ، في منعه المرأة من السفر بدون زوج أو محرم ثلاثة أيام حسب ما جاء في روايات أبى هريرة السابق ، فعلم من ذلك أن أدنى المسافة التى يطلق عليها لفظ السفر ؟ هى مسيرة هذه المدة من الزمن ٠ وقد فهم كثير من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم هذا المعنى ، فقد روى عبد الرزاق عن اسرائيل عن ابراهيم بن عبد الأعلى ، قال : سمعت سويد بن غفلة يقول : إذا سافرتَ ثلاثا فاقصر الصلاة (٣) ٠

كما روى عن معمر عن الأعمش عن ابراهيم التيمى عن أبيه قال : كنت مع حذيفة بالمدائن فاستأذنت أن آتى أهلى بالكوفة فأذن .. وشرط على ألا أفطر ، ولا أصلى ركعتين حتى أرجع اليه (٤) ٠

وعن مجاهد أن ابن عباس رضى الله عنهما قال : اذا سافرتَ يوما الى العشاء فأتم الصلاة ٠ فان زدت فأقصر (٥) ٠

---

(١) المحلى جـ ٦ ص٣٦٤ ٠

(٢) المحلى جـ٦ ص٣٦٥ ٠

(٣) المصنف جـ٢ ص٥٢٦ ٠

(٤) المصنف جـ٢ ص٥٢٧ ٠

(٥) المصنف جـ٢ ص٥٢٥ ٠

وما يضعف قول ابن حزم رحمه الله : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج الى قباء وإلى أحد وإلى بنى سلمة وإلى غير ذلك من المواضع حول المدينة ، وكل هذه الأماكن على مسافة تزيد كثيرا عن الميل ، ولم يثبت عنه أنه قصر الصلاة أو أفطر في رمضان حينما كان يخرج الى أى من هذه الأماكن ٠

كما أن الصحابة رضى الله عنهم كانت لهم مزارع في الجرف والعقيق والغابة وغيرها ، بل كان بعضهم يسكن الجرف والعوالى بل وذا الحليفة ولم يصل إلى علمى أن أحدا منهم قصر الصلاة أو أفطر حينما كان يأتى الى المدينة ٠

الثانى : موقف الظـــاهرية : يرى الظاهرية - ما عدا ابن حزم - أن المسافة التى تتحقق بها الرخصة في الفطر والقصر ، مقدارها ثلاثة أميال (١) ٠

وقد استدل لهم بحديث أنس رضى الله عنه : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ صلى ركعتين » شعبة الشاك (٢) ٠

ومما رواه عبد الرزاق بسنده إلى أبى سعيد رضى الله عنه ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سار فرسخا نزل يقصر الصلاة » (٣) ٠

ولعل حديث أبى سعيد قد بين المراد من أحد التقديرين اللذين تردد بينهما شعبة ورجح بأن المسافة التى كان يحدث فيها القصر ، هى ثلاثة أميال ، لأن الفرسخ الوارد في حديث أبى سعيد ، مقداره ثلاثة أميال ٠

وهذا المستند وان كان قويا ، لأنه نص صحيح صريح في الموضوع إلا أن المناقشة التى أشرنا إليها من قبل - والتى تتلخص في أن هذا المقدار كان بداية العمل بالرخصة ٠ أى أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا بدأ سفرا بعيدا ابتدأ القصر بعد مسيرة ثلاثة أميال - تقلل من شأن الاستدلال به وتجعل الاعتماد عليه في القول بهذا التقدير ، محل نظر ٠

وقد استبعد الحافظ ابن حجر هذا الاحتمال الوارد في المناقشة السابقة ٠ وقوى هذا البعد ، بما جاء عند البيهقى ، عن يحيى بن يزيد الهنائى : قال سألت أنس بن مالك عن قصر الصلاة وكنت أخرج الى الكوفة - يعنى من البصرة - فأصلى ركعتين حتى أرجع ، فقال أنس ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خرج ... الحديث (٤) ٠

---

(١) نيل الاوطار جـ٣ ص٢٣٤ ٠

(٢) صحيح مسلم جـ ٢ ص١٤٥ ٠

(٣) المصنف جـ٢ ص٥٢٩ ٠

(٤) السنن الكبرى جـ٣ ص١٤٦ ٠

يشير الحافظ بذكر هذا السياق : إلى أن أنس كان يقصد أن القصر كان يحدث ولو كان السفر قصيرا كثلاثة أميال ٠

لكن مع ذلك : فالاحتمال ما زال واردا ، اذ يحتمل أن أنسا يريد من الرجل ألا يبدأ القصر إلا بعد ثلاثة أميال من المكان الذى خرج منه ٠ ولم يرد بيان مقدار مسافة القصر ٠

ومما يقوى هذا الاحتمال ـ في نظرى على الأقل ـ ما روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة أربعا وصليت معه العصر بذى الحليفة ركعتين وكان خرج مسافرا » (١) ٠

وعند البخارى بلفظ « صلى النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة أربعا وبذى الحليفة ركعتين ثم بات حتى أصبح بذى الحليفة فلما ركب راحلته واستوت به أهل » (٢) ٠ أى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يبدأ القصر عملا بالرخصة حينما كان يصل إلى ذى الحليفة وهو في طريقه إلى مكة ٠ ومعلوم أن ذا الحليفة على بعد فرسخين أو ثلاثة من المدينة ٠

وما رواه عبد الرزاق عن ابن جريج قال : أخبرنى ابن المنكدر عن أنس بن مالك « أنه صلى مع النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة الظهر أربعا وصليت معه بذى الحليفة العصر ركعتين والنبى صلى الله عليه وسلم يريد مكة » (٣) ٠

لذلك أرى ـ والله أعلم ـ أن مقدار الثلاثة أميال أو الثلاثة فراسخ الواردة في حديث أنس هى بداية القصر وليست هى مقدار المسافة التى تناط بها الرخصة ، وأن حديث أنس المشتمل على بيان هذا المقدار ، وإن ورد مطلقا عند مسلم ، لكنه جاء مقيدا عند البخارى وغيره ، بأن ذلك كان بداية القصر أو بداية العمل بالرخصة ٠

الثالث : موقف الأوزاعى ومالك : نقل عن الأوزاعى ومالك ، أن حد المسافة التى يباح فيها الفطر وتقصر فيها الصلاة ، تقدر بمسيرة يوم وليلة ، وهو اختيار البخارى ، حيث ذكر بعد ترجمته للباب بقوله : باب : في كم يقصر الصلاة ـ وسمى النبى صلى الله عليه وسلم السفر يوما وليلة (٤) ٠

ومستند هذا الرأى هو حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة ليس معها

---

(١) المصنف جـ٢ ص٥٢٩ ٠

(٢) صحيح البخارى جـ٩ ص١٠ مع شرحه عمدة القارىء ٠

(٣) المصنف ج ٧ ص ١٢٤ دار الفكر ٠

(٤) صحيح البخارى جـ٧ ص١٢٤ دار الفكر ٠

حرمة) (١) حيث أطلق صلى الله عليه وسلم السفر على مسيرة يوم وليلة وبمعنى أوضح : أن لفظ السفر وإن جاء مجملا في الآية وبعض الأحاديث النبوية ، إلا أن هذا الحديث وما ورد فى معناه يعتبر مفسرا له ٠

ولم ينقل عن الأوزاعى تحديداً لمسيرة اليوم والليلة ، بالأميال أو بالفراسخ ، كما أنه لم يوضح فيه كيفية السير ، هل هى بالإبل المثقلة ، أو بالأقدام أو بغير ذلك ٠

وقد قدر مالك مسيرة اليوم والليلة أو اليوم التام كما يسميه : بأربعة برد ، وقد قيد بعض علماء المالكية كابن المواز وغيره هذا التقدير ، بأن مسيرة اليوم التام : إنما تقدر بأربعة برد ، إذا كان ذلك في وقت الصيف وكان السير جادا (٢) ٠

وقد نقل عن مالك بعد ذلك ، أنه ترك التحديد بمسيرة اليوم التام وتمسك بتحديد المسافة بأربعة برد ، فقد سئل عن الرجل يخرج إلى ضيعته على ليلتين أيقصر الصلاة ؟ قال : نعم ، وأبين من ذلك ، البرد والفراسخ والأميال ، على كم ضيعته منه من ميل أو فرسخ ؟ فقال على خمسة عشر فرسخا وذلك خمسة وأربعون ميلا ، فقال : نعم أرى أن تقصر الصلاة إلى مسيرة ذلك (٣) ٠

والحقيقة أن مالكاً قد أخذ هذا التقدير مما نقل عن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم ، فقد قال البخارى في صحيحه ـ تعليقا بصيغة الجزم ـ (وكان ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهم يقصران ويفطران في أربعة برد وهى ستة عشر فرسخا) (٤) وقد أخرج البيهقى هذا الأثر موصولا عن عطاء بن أبى رباح أن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم كانا يصليان ركعتين ويفطران في أربعة برد فما فوق ذلك (٥) ٠

ويناقش مستند هذا الفريق بما يلى :

أولا : أن الاستدلال بحديث أبى هريرة وابن عمر رضى الله عنهم في هذا الموضع لايتم ، لأن هذا الحديث وارد في حق المرأة اذا عزمت على السفر مسيرة يوم وليلة ، فإنه لايحق لها الشروع في ذلك إلا إذا صحبها زوجها أو محرم ، بينما المستدل عليه هو تحديد مسافة السفر الذى شرع فيه القصر أو الفطر ، وشتان بين الأمرين ، فخروج المرأة منفردة في

---

(١) صحيح البخارى باب في كم يقصر الصلاة جـ٧ ص١٢٩ مع شرحه عمدة القارىء ٠

(٢) شرح الزرقانى على الموطأ جـ١ ص٢٩٩ ٠

(٣) حاشية الرهونى على الزرقانى جـ٢ ص١٢٢ ٠

(٤) صحيح البخارى باب في كم يقصر الصلاة انظره مع شرحه عمدة القارىء جـ٧ ص١٢٥ ٠

(٥) السنن الكبرى جـ٣ ص١٣٧ ٠

مثل هذه المسافة يترتب عليه مفاسد كثيرة نظرا لأنها ستمر بطرق منقطعة ، كما أنها ستضطر للمبيت في بعض الطريق ، وفي هذا ما فيه ٠

أما المسافر فقد شرع له الفطر والقصر دفعا للمشقة الحاصلة من السفر والمشقة قد تحصل بدون ذلك ٠

ثانيــــا : أن الحديث قد ورد بيوم وليلة ويومين وثلاثة أيام ، فاختيار رواية اليوم والليلة دون اليومين أو الثلاثة تحكم ٠

ثالثــــا : تقدير مسيرة اليوم التام - أو اليوم والليلة - بأربعة برد أيضا فيه تحكم ، لاختلاف الناس والدواب من حيث الجد في السير وعدمه والقدرة على تحمل سير المسافات الطويلة ودون ذلك ، فقد تقطع هذه المسافة في أقل من يوم بالدواب السريعة النشيطة ومن باب أولى إذا كان السفر بالسيارة أو الطائرة ، وقد يبطىء في السير فيقطع هذه المسافة في أكثر من هذه المدة ٠

ويجاب عن هذه المناقشات بما يلى :

بالنسبة للمناقشة الأولى ، بأن الاستدلال بحديث ابن عمر وأبى هريرة - الوارد في حق منع المرأة من السفر يوما وليلة إلا إذا كان معها محرم - هو استدلال تام وفي موضعه ، لأن القصد من الإتيان به ، ليس هو قياس السفر الذى تناط به الرخصة على سفر المرأة ، حتى يقال بوجود الفارق بين الأمرين ، بل المراد منه هو تفسير لفظ السفر ، بأنه ما كان مسيرة يوم وليلة ، أى أن لفظ السفر الوارد في الآية كان محتملا لسير المسافات البعيدة القريبة دون تحديد فجاء هذا الحديث وأطلق لفظ السفر على ما كان مسيرة يوم وليلة ٠ أي أن المسافة اذا كانت تقطع في أقل من هذا الزمن عادة بالدابة المتوسطة ، فلا يطلق على من قطعها أنه سافر سفرا تتحقق فيه رخصة الفطر أو القصر ٠

وبالنسبة للمناقشة الثانية ، فان اختيار رواية يوم وليلة دون بقية الروايات الأخرى الواردة في حق سفر المرأة ليس فيه تحكم ، لأن ما ورد في هذه الرواية هو أقل ما يطلق عليه لفظ السفر الذى تناط به الرخصة لأن هذا الحديث يعتبر مبينا للمعنى المراد من السفر ومحددا له ، والحدود يؤخذ فيها بأقل ما قيل فيها ، كما يقال إن أقل الجمع ثلاثة ، وفي لسان الشرع : الجماعة اثنان فما فوقهما وهكذا ٠

وبالنسبة للمناقشة الثالثة : فإن اختيار مقدار الأربعة برد لتقاس بها مسيرة اليوم والليلة ، انما روعي فيه العادة بالنسبة للدابة الوسط وقد كانت ركوبة أكثر الناس ٠ فالقياس عليها أولى من القياس على الدابة السريعة أو البطيئة ٠ والله أعلم ٠

الرابع : ما نقل عن الشافعى ومالك وأصحابهما وأحمد واسحاق والليث كما نقل عن الأوزاعى وفقهاء أصحاب الحديث وغيرهم ، من أن الرخصة في الفطر أو القصر لا تتحقق الا في مسيرة مرحلتين قاصدتين (١) وحددت مسافتهما بثمانية وأربعَّين ميلًا هاشمية (٢) ٠

وقد حمل بعض العلماء ما نقل عن مالك هنا بأنه قول آخر له ، إلا أن بعض علماء المالكية قد جمع بين قوليه ، بأن مسيرة اليوم والليلة إذا كانت الدابة سريعة مع الجد في السير وكان الوقت صيفا ، وأما مسيرة اليومين والليلتين ، فهو إذا ما كانت ثقيلة بطيئة ولم يكن هناك جد في السير ، ويؤيد هذا الجمع بأن مالكا لم يختلف تقديره للمسافة في القولين ، اذ حددها في كليهما بثمانية وأربعين ميلا (٣) ٠

وقد استدل لهذا الرأى بحديث أبى سعيد : (لا تسافر المرأة يومين من الدهر الا ومعها ذو محرم منها أو زوجها) (٤) ، وقد قدرت مسيرة هذا الزمن بثمانية وأربعين ميلا ٠

وبذلك يلتقى هذا الرأي مع الرأى السابق في تقدير المسافة التى يباح الفطر فيها للمسافر إذا عزم على بلوغ نهايتها أو تجاوزها بالرغم من الاختلاف في مقدار الزمن إلا أنه يمكن الجمع بين اختلاف المقدار في الزمن بين هذا الرأى والرأى السابق بما جمع به بعض علماء المالكية بين قولى مالك في المسألة ٠ وقد أشرنا إلى ذلك قريبا ٠

ويناقش مستند هذا الفريق بعدد من المناقشات ، من أهمها ما يلى :

أولا : أن الاستدلال بحديث أبى سعيد هنا لا يتم ، لما قلناه سابقا ، من أنه وارد في منع المرأة من السفر بدون محرم لها أو زوج مدة يومين ٠ بينما المستدل عليه هو السفر المبيح للفطر ، وهناك فارق كبير بين الأمرين ، فخروج المرأة منفردة في مثل هذه المسافة يترتب عليه مفاسد كثيرة ... أما المسافر فقد شرع له الفطر والقصر دفعا للمشقة الحاصلة من السفر ، والمشقة قد تحصل بدون ذلك ٠

ثانيــا : أن الأحاديث الواردة في منع المرأة من السفر وردت باليوم ، واليومين ، والثلاثة ، فاختيار حديث اليومين ٠ دون غيره تحكم ٠

---

(١) هكذا نص عليه الشافعى ٠ وهو النص المتفق عليه بين أصحابه ، من بين نصوصه الأخرى في الموضوع اذ حدد بستة وأربعين ، وحدده بأكثر من الأربعين ، وبأربعين وبيومين وليلتين وبيوم وليلة ، وبعض أصحابه حاول أن يجمع بينها وقال إنها كلها ترجع الى معنى واحد وهو ثمانية وأربعون ميلا ٠ المجموع جـ٤ ص١٩٠ ٠

(٢) الهاشمية نسبة الى بنى هاشم وذلك احترازاً عن الأميال الأموية فإنها تقدر المسافة بأربعين ميلا لأن الأميال الأموية أكبر من الهاشمية إذ كل ستة أميال هاشمية تقدر بخمسة أميال أموية ٠ المجموع جـ٤ ص١٩٠ ٠

(٣) الزرقانى على الموطأ جـ١ ص٢٩٨ ، ٢٩٩ ، والمجموع جـ٤ ص ١٨٩ ، ١٩٠ ، والمغنى جـ٢ ص١٨٩ ، وحاشية الرهونى جـ٢ ص١٢٢ ٠

(٤) صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٠٢ ٠

ثالثـــا : تقدير مسيرة اليومين بأربعة برد يتساوى مع تقدير مسيرة اليوم والليلة ، بهذا المقدار ، مع أن ما يقطعه المسافر في اليومين والليلتين ، ضعف ما يقطعه في اليوم والليلة ...

ويجاب عن هذه المناقشات بما يلى : -

بالنسبة للمناقشة الأولى : -

فيجاب عنها بما أجيب به سابقا ، وهو أننا لا نستدل بالحديث لأجل قياس السفر الذى تتعلق به الرخصة على سفر المرأة ، بل إنما يستدل به من حيث اطلاق لفظ السفر على مسيرة اليومين . أى أن الاستدلال بهذا الحديث في هذا الموضع هو من قبيل التفسير والبيان لتحديد المراد من لفظ السفر الوارد في الآية ..

ويجاب عن المناقشة الثانيـــة :

بأن اختيار حديث اليومين ليس من قبيل التحكم ، لأنه أوسط الأزمان الثلاثة الواردة في الموضوع . وأعدل الأمور هو أوسطها ..

أما المناقشة الثالثـة :

فيجاب عنها بما أشرنا اليه سابقا ، من أن ما يقطع من المسافة في مسيرة اليومين بالدابة البطيئة ، مع عدم الجد في السفر وكون الوقت شتاء فإنه يتساوى مع ما يقطع منها في اليوم والليلة ، إذا كانت خفيفة سريعة مع الجد في السير وكان الوقت صيفا ..

الخامس : موقف أبى حنيفة ومن معه : يرى أبو حنيفة والثورى والشعبى والنخعى والحسن بن صالح : أن المسافر إذا عزم على السفر وكان سفره مسيرة ثلاثة أيام بلياليها ، سيرا وسطا على الدواب المحملة أو بالأقدام ، فإنه يرخص له في الفطر .

ويرى أبو يوسف تقدير المدة ، بيومين وأكثر اليوم الثالث .

والتقدير بالزمن هو الصحيح عند علماء الحنفية ، ومقابله : التقدير بالفراسخ ، فقيل بأحد عشر فرسخا ، وقيل بثمانية عشر وقيل بخمسة عشر ، وكل من قدر بقدر منها اعتقد أنه مسيرة ثلاثة أيام ..

وإنما صح عندهم التقدير بالزمن فقط دون التقدير بالأميال أو الفراسخ لأنه لو كان الطريق وعرا ، بحيث لو قطع في ثلاثة أيام أقل من خمسة عشر فرسخا فإنه يقصر بالنص ، وإذا جرى على هذه التقديرات فإنه لا يقصر ، فيكون معارضا للنص ، وعلى ذلك فلا يعتبر إلا التقدير بسير الثلاثة أيام .

وقد ورد عليهم اعتراض ، وهو ما الحكم إذا كانت الدابة سريعة كدواب البريد وقطعت المسافة ـ المقدر سيرها بثلاثة أيام ـ في يوم واحد ، فأجاب البعض بجواز القصر والفطر لأنه يصدق عليه أنه قطع المسافة المقدرة بثلاثة أيام .

ومنع آخرون فطره وقصره ، لانتفاء علة المشقة المنوط بها علة القصر والفطر في السفر (١) .

ولا أدري بماذا يجيب الحنفية على من يقطع هذه المسافة الآن في ساعة أو بعضها بسبب السرعة التى دخلت على ميدان المواصلات .

وقد استدل الحنيفة على التحديد بثلاثة أيام بالتوقيت الوارد في المسح على الخفين : فقد روى عن شريح بن هانىء ، قال : أتيتُ عائشة أسألها عن المسح على الخفين فقالت عليك بابن أبى طالب فسله فإنه كان على يسافر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه ، فقال : « جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر ويوما وليلة للمقيم » (٢) .

فتحديد الرسول عليه الصلاة والسلام لرخصة المسح في السفر بثلاثة أيام يلزم منه ، أن تكون هذه المدة هى المعيار الشرعى في السفر لكل رخصة سواء كانت للمسح أو للقصر أو للفطر أو لغير ذلك ، والجامع في ذلك مشقة السفر في كل .

المناقشات الواردة على هذا الاستدلال ؟

أولا : يناقش هذا الاستدلال ، بأنه من باب القياس ، والقياس لا يلجأ إليه إلا عند عدم النص ، والنص موجود وهو حديث أنس السابق : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ .... الخ فانه بالرغم من الاحتمال الوارد عليه ، لكنه لا يزال هو النص الوحيد الوارد في الموضع .

ثانيــا : بأن تمسك المذهب الحنفى بالتحديد الزمنى دون وضع معيار ثابت بالمقادير المساحية ، كالأميال وغيرها ، يقلل الفائدة من العمل بهذه الرخصة وخصوصا بعد أن تطورت وسائل المواصلات في العصر الحديث تطورا يكاد يكون مذهلا ، إذ ما كان يقطع في ثلاثة أيام فيما مضى صار الآن يقطع بالسيارات العادية في أقل من ساعة ، فمعنى ذلك أن المسلم لا يتاح له العمل بالرخصة الآن إلا اذا سافر عدة آلاف من الأميال ، كما أنه لن يستفيد من الرخصة اذا ما سافر بالطائرات .

---

(١) نيل الأوطار جـ٣ ص٢٣٤ ، المجموع جـ٤ ص١٩١ ، فتح القدير للكمال جـ٢ ص٣٠ ، ٣١ ، مطبعة مصطفى الحلبى .
(٢) صحيح مسلم جـ١ ص١٦٠ .

ويجاب عن المناقشة الأولى : بأن الاستدلال بحديث أنس في تحديد المسافة التى تناط بها الرخصة كان محل نظر وقد أوضحنا ذلك سابقا ، ومعلوم أن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال ٠

أما المناقشة الثانية : فلا أدري بما يجيب الحنفية عنها ٠ اللهم إلا إذا أخذ بما يقابل القول الصحيح وهو التقدير بالفراسخ أو الأميال ٠

وقد استدل سفيان الثوري على رأيه ـ المتفق مع الحنفية ـ بأن الرخصة لا تتحقق إلا بمسيرة ثلاثة أيام ـ بحديث ابن عمر رضى الله عنهما : « أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : لا تسافر المرأة ثلاثة أيام إلا مع ذى محرم » (١) ٠

فقد نقل عبد الرزاق عن الثورى قوله : « وقولنا الذى نأخذ به : مسيرة ثلاثة أيام ، قلت : من أجل ما أخذت به ؟ قال : قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تسافر امرأة فوق ثلاث إلا مع ذى محرم » (٢) ٠

وجـــه الاستدلال : أن الرسول عليه الصلاة والسلام منع المرأة من السفر خلال هذه المدة إلا إذا كان معها زوجها أو محرم ، وتعليقه صلى الله عليه وسلم هذا الحكم بمدة الثلاثة أيام يفهم منه : أن سفر الثلاثة أيام هو الذى ينصرف إليه اسم السفر عند الإطلاق فينبغى أن يقيد به ٠

ونرد على استدلال الثورى بهذا الحديث عدد من المناقشات التى وردت على بعض أصحاب الآراء السابقة ، ونجملها فيما يلى :

أ ـ إن الحديث وارد في تحديد المسافة التى لا يجوز للمرأة أن تسافر فيها بدون محرم بينما المستدل عليه ، هو حد السفر المبيح للفطر وشتان بين الأمرين ٠

ب ـ إن هـــذا الحديث قد ورد بعدة روايات ، فالتمسك بإحداها دون بقيتها فيـــه تحكم ٠

جـ ـ عدم وجود تقدير مساحى لتحديد هذه المسافة بالأميال أو الفراسخ جعل التحديد الزمنى بمسيرة ثلاثة أيام قليل الفائدة ٠

ويمكن الرد على هذه المناقشات بما يلى :

أ ـ أما المناقشة الأولى : فقد سبقت الإجابة عليها أكثر من مرة ٠

---

(١) صحيح البخارى ، باب في كم يقصر الصلاة جـ٧ ص١٣٦ مع شرحه عمدة القارىء ، وصحيح مسلم جـ٤ ص١٠٢ ٠

(٢) المصنف جـ٢ ص٥٢٧ ، وصحيح مسلم جـ٤ ص١٠٣ ٠

ب - أما المناقشة الثانية : فيجاب عنها ، بأن التمسك برواية الثلاث أولى من التمسك بغيرها ، لأن الثلاث أكثر ما ورد والتمسك بأكثر ما ورد ، فيه أخذ بالحيطة ، وهى مطلوبة في الدين ٠

جـ - أما المناقشة الثالثة : فيجاب عنها ، بأن العلة في الرخصة هى المشقة ، والمشقة إنما تتحقق في سفر الثلاثة أيام ٠

ويمكن على هذه الإجابة السؤال التالى :

ما الحكم إذا قطعت هذه المسافة - مسيرة الثلاثة أيام - في ساعة أو بعض الساعة كما هو حاصل الآن بالسيارات السريعة فضلا عن الطائرات ، فماذا تكون الإجابة ؟

هذه هى أهم الآراء في تقدير المسافة التى تتحقق بها رخصة الفطر للمسافر ، وقد أضربنا عن ذكر بقية الآراء ، لعدم وجود مستند صحيح لها ٠

الرأى المختـــــــــار :

واضح من استعراضنا لآراء الفقهاء ومستنداتهم في هذه المسألة أن الرأى الثانى أقوى الآراء إذ يستدل بحديث أنس « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا سافر ثلاثة أيام أو ثلاثة فراسخ - شك شعبة - صلى ركعتين » إذ هو نص صريح صحيح في الموضوع ٠ وأن التحديد بالثلاثة فراسخ أولى ، لأنه القدر المتيقن ٠

لكن وجود الاحتمال الذى أشرنا إليه سابقاً من أن ذلك كان ابتداء القصر ، وأن هذا الاحتمال ليس ببعيد - بعد أن ذكرت بعضا من الأحاديث الصحيحة التى تفيد أنه صلى الله عليه وسلم كان يبتدىء القصر من ذى الحليفة ، وبينها وبين المدينة ، من فرسخين إلى ثلاثة ، كما يحمل فعل عمر رضى الله عنه على ذلك - يضعف هذا الاستدلال ٠ لذا أرى أن الأخذ برأى الفريق الذى حدد المسافة بأربعة برد هو الأولى لما يأتى :

١ - امتياز هذا التحديد بالوضوح ، فقد حددت فيه المسافة بمقياس مساحى وهو أربعة برد ٠ وأن هذا القياس ارتكز على علامات مادية يمكن الرجوع إليها للتأكد من مقداره وضبطه ٠ وهو من مكة إلى عسفان ، ومن مكة إلى الطائف ومن مكة إلى جدة ، ومن المدينة إلى ذات النصب ومن المدينة إلى ريم ٠

٢ - اتفاق ابن عمر المعروف بتشدده ، وابن عباس بتيسيره على هذا القدر يومىء -

ولو من بعيد - إلى أنه ربما يكونا قد استلهماه من مشكاة النبوة ، ومعلوم أنهما كانا من الملازمين له صلى الله عليه وسلم في أسفاره (١) ٠

وأما ما ورد من قول ابن عمر رضى الله عنهما ، أنه يقصر في سفر ساعة ونحو ذلك مما يتعارض مع التحديد السابق ، فقد قال بعض أهل العلم : إن التحديد بأربعة برد وما في معناه هو أصح الروايتين عن ابن عمر (٢) ٠

٣ - كان هذا الرأى هو محل اختيار أغلبية رجال الحديث الذين أنفقوا حياتهم في الاشتغال بالسنة رواية ودراية ، فإطباق هذه الكثرة على الأخذ بهذا التحديد يشير بوضوح إلى عدم وجود نص صريح ثابت من السنة في الموضوع ٠

٤ - عدم تجويز كل من ابن عمر وابن عباس للقصر في مسافات أقل من هذا المقدار ، يدل على مدى تمكنهما من تحديد هذا المقدار ، فقد سبقت الإشارة إلى ما رواه سفيان عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنه سئل أتقصر الصلاة إلى عرفة ، فقال : لا ٠ ولكن إلى عسفان وإلى جدة وإلى الطائف وما روى عن ابن عمر أنه كان يخرج إلى الغابة - وهى على بريد من المدينة - فلا يفطر ولا يقصر » (٣) ٠

كما نقل عن أبى جمرة قوله : قلت لابن عباس : أقصر إلى الأبله (٤) ٠ قال أتجىء من يومك ؟ قلت : نعم ٠ قال : لا تقصر (٥) ٠

وما رواه مالك عن نافع أنه كان يسافر مع ابن عمر البريد فلا يقصر الصلاة (٦) ، وأما ما جاء في قصة دحية فقد قال الخطابى عنها : ليس الحديث بالقوى ، وقال صاحب العون : إن ابن عمر وابن عباس خالفا دحية وهما أفقه من دحية وأعلم بالسنن (٧) وأما أبو بصرة الغفارى ، فلعله كان يقصد سفرا بعيدا كان كذلك فله أن يفطر في بداية سفره ٠

٥ - إن الأخذ بهذا التحديد ، فيه أخذ بالأحوط ، إذ لم يخرج عنه إلا من قال بتحديد مسيرة ثلاثة أيام ٠ وقد عرفنا ما أخذ على التحديد بهذا المقدار ، والله أعلم ٠

---

(١) وقد جاء في ذلك حديث ضعيف . فقد أخرج البيهقى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يا أهل مكة لا تقصروا الصلاة في أدنى من أربعة برد من مكة الى عسفان » قال الترمذى بعد ذكره له ٠ هذا حديث ضعيف . اسماعيل بن عياش لا يحتج به وعبد الوهاب بن مجاهد ضعيف مرة . والصحيح أن ذلك من قول ابن عباس . السنن الكبرى جـ ٣ ص١٣٧ ، ١٣٨ ٠

(٢) عون المعبود جـ ٤ ص٦٩ طبعة المجد بالقاهرة ٠

(٣) السنن الكبرى جـ٣ ص١٣٧ . وسنن أبى داود جـ٧ ص٥٩ مع عون المعبود ٠

(٤) على وزن حبلى موضع بأرض بنى سليم بين مكة والمدينة ٠

(٥) السنن الكبرى جـ١ ص١٣٧ ٠

(٦) السنن الكبرى جـ٣ ص١٣٧ ٠

(٧) عين المعبود جـ٧ ص٥٩ ٠

بيان هذه المسافة حسب المقياس المعلوم لدى أغلب المسلمين اليوم وهو القياس - بالكيلومتر - :

يقدر البريد بأربعة فراسخ ، والفرسخ يقدر بثلاثة أميال · وعلى ذلك فتكون المسافة مقدرة بثمانية وأربعون ميلا ·

أما الميل - وهو فارسى معرب - فقد اختلف في تقديره اختلافا كبيرا وفيما يلى اشارة إلى أهم أقوال العلماء في بيانه وما شهر أو صحح منها وبيان المراد منه بالمتر المعروف الآن :

القول الأول : الميــــل : هو منتهى مد البصر من الأرض لأن البصر يميل عن وجه الأرض حتى يفنى إدراكه وبذلك جزم الجوهرى ·

الثـانى : أن ينظر الى شخص بعيد يقف على أرض مستوية فلا يدرى أرجل هو أو امرأة ·

الثالث : ما قاله النووى : أنه ستة آلاف ذراع والذراع أربعة وعشرون أصبعا معترضة معتدلة ، وشهر هذا القول الحافظ ابن حجر ثم قال : قد حرر بذراع الحديد المشهور في مصر والحجاز في هذه الأعصار فوجد ينقص عن ذراع الحديد بقدر الثمن · فعلى هذا : يكون الميل بذراع الحديد في القول المشهور خمسة آلاف ذراع ومائتان وخمسون ذراعا ·

الرابع : هو اثنا عشر ألف قدم بقدم الإنسان ·

الخامس : هو أربعة آلاف ذراع ·

السادس : ثلاثة آلاف وخمسمائة ذراع قاله الخرشى وصححه بعض العلماء ·

الســـابع : ثلاثة آلاف ذراع ·

الثـــامن : ألفا ذراع ·

التـــاسع : خمسمائة ذراع وصححه ابن عبد البر (١) ·

واذا ما رجعنا إلى الأقوال المشهورة أو المصححة وهى الأقوال المنسوبة الى النووى والخرشى وابن عبد البر ، فإننا نجد أن أصح هذه الأقوال ، من حيث مطابقته للواقع : هو قول الخرشى ، ونبين ذلك فيما يلى :

أ - طول المسافة على ما قاله النووى - إذا عرفنا أن الذراعين يقدران بمتر واحد وأن كل ألف متر تقدر بكيلو متر واحد - هو ١٢٧ كم سبعة وعشرون ومائة كيلو مترا ·

ب - وعلى ما قاله الخرشى فان طول المسافة هو ٨٤ كم أربعة وثمانون كيلو مترا ·

جـ - وعلى ما صححه ابن عبد البر يكون طول المسافة هو ١٢ كم اثنا عشر كيلو مترا ·

---

(١) انظر هذه الأقوال وغيرها في : نيل الأوطار جـ٣ ص٢٣٣ مطبعة مصطفى الحلبى الطبعة الأخيرة · والمجموع جـ٤ ص١٩٠ وحاشية الرهونى على الزرقانى جـ٢ ص١٢٢ ·

وإذا ما راجعنا هذه الأطوال على العلامات المادية التى ضبطت عليها المسافة التى انيطت بها الرخصة ، وهى من مكة إلى جدة ، ومن مكة إلى الطائف ، ومن مكة إلى عسفان ، فإننا نجد أن المسافة مقدرة الآن ، بين مكة وجدة بـ ٧٥ كيلو مترا خمسة وسبعون كيلومترا ، وبين مكة وعسفان بحوالى ٨٠ كم ثمانون كيلومترا . وبين مكة والطائف من ٨٠ الى ٨٥ كم من ثمانين إلى خمسة وثمانين كيلومترا .

وإذا لاحظنا الاتساع العظيم لمكة وجدة ، مما جعل العمران يزحف إلى الطريق الموصل بينهما فيقتطع منها حوالى ١٠ كم عشرة كيلومترات أى خمسة من كل ناحية ، إذا عرفنا ذلك ؛ وجدنا أن أمثل الأقوال هنا في تحديد مقدار الميل ؛ هو قول الخرشي .

وبناء على هذا فإنه يمكننا القول ؛ بأن المسافة التى تناط بها رخصة الفطر والقصر هى ٨٤ كم أربعة وثمانون كيلو مترا أو ما يقاربها . والله أعلم .

من الحكمـــة

وقِّرْ مَن فوقَك ، ولِنْ لِمَن دونَك ، وأحسِنْ مواتاةَ أكفائِك ، وليكن آثَرَ ذلك عندك موتاةُ الإخوان ، فان ذلك هو الذى يشهد لك أن إجلالك مَن فوقَك ليس بخضوع منك لهم ، وأن لينَك لِمن دونك ليس لالتماس خِدمتِهم .

ابن المقفَّع
في الأدب الصغير

ثلاثة لثلاثـــة

أمورهنَّ تَبَعَ لأمور : فالمروءات كلُّها تبع للعقل ، والرأيُ تَبَعُ للتجربة ، والغبطةُ تبعٌ لِحسن الثناء ، والسُّرورُ تبع للأمن ، والقرابة تبع للمودة ، والعمل ـ المنصب ـ تبع للقَدْر ، والجِدَةُ تبع للإنفاق .
ابن المقفَّع

الحدود فى الإسلام

للدكتور جمعة على الخولى
رئيس قسم الدعوة بالجامعة

الحدود فى الإسلام جزء من نظام إلهى كامل أنزله رب العالمين على خاتم رسله صلى الله عليه وسلم ليكون نظاما يكفل لمن اتبعه السعادة والأمان والاستقرار إلى قيام الساعة (**صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة**) (سورة البقرة ١٣٨) .. وأساس الحدود فى الإسلام أنها ضابط يحفظ التوازن بين حقوق الفرد والجماعة معا .. فمن حق الفرد على الجماعة تحقيق مصالحه وحفظها ، وصيانة حياته ومقوماتها والعمل على حمايته ليس فقط من غيره بل من نفسه أيضا .. وللمجتمع كذلك الحق فى صيانة كيانه من كل اعتداء أو مساس ، وفى الحصول على حياة آمنة وادعة تتسم بالطهر والعفاف .. وجميع الجرائم التى حرمها الإسلام إنما هى من النوع الذى لو ترك وشأنه لأدى إلى اضطراب المجتمع ، وإشاعة الفوضى والقلاقل فيه .

وينبغى أن يعلم أن الإسلام لا يعتمد على العقوبة فى إنشاء الحياة النظيفة بين الناس ولا يتخذها الوسيلة الوحيدة لذلك ، وإنما يعمل على الوقاية من الجريمة ومحاربتها بالضمير الوازع ، والنفس المهذبة ، والسلوك المستقيم ، وتوفير أسباب الحياة النظيفة لكل الناس ، فمن ارتضى هذه الأسباب واتخذها منهج حياته ارتقى وعز بالإسلام ، وسعد بالمجتمع ، وسعد به مجتمعه .. ومن هجر هذه الأسباب ونفر منها وسعى فى الأرض فسادا ، دون رادع من خلق أو وازع من ضمير ، فهو كمن يتمرغ فى الوحل مختارا ، وحق للإسلام أن ينزل به عقابه ليحمى الناس من شروره ، ويوفر للمجتمع أمنه واستقراره .

والإسلام لم يرصد عقوبة دنيوية لكل انحراف أو معصية ، بل إن هناك كثيرا من الانحرافات والمحرمات ، اكتفى الإسلام فيها بأن أنذر مرتكبيها بغضب الله وعقابه ، وترك تقدير عقابهم الدنيوى للقاضى حسبما يراه كافياً في التأديب والتعزير ، ويتلاءم مع أثر المخالفة فى المجتمع وذلك مثل الكذب ، والرياء ، وأكل الربا ، وشهادة الزور ، وخيانة الأمانات ، وأكل الميتة ، والمحرمات ، والغش فى المعاملات ، والتطفيف فى الكيل والميزان ، وعقوق الوالدين ، والغيبة والنميمة .. الخ .. أما الجرائم التى أرصد لها الإسلام حدودا معينة فهى جرائم محدودة بعضها جاء به القرآن الكريم ، وبعضها الآخر ورد فى السنة وهى .. السرقة ، الزنا ، القذف ، شرب الخمر ، الردة ، البغى ، الحرابة وهى التى تسمى بقطع الطريق ، ثم جريمة قتل العمد ، والقتل شبه العمد ، والقتل الخطأ ، والعقوبة المقررة للجرائم السبعة الأولى تسمى حدا ، بمعنى أن العقوبة المقررة فيها هى حق الله تعالى .

وحينما يقول الفقهاء أن العقوبة حق الله تعالى يعنون بذلك أنها لا تقبل الإسقاط لا من الفرد المجنى عليه ، ولا من الجماعة أو ولى الأمر ، وهم يعتبرون العقوبة حقاً لله كلما استوجبتها المصلحة العامة ، وهى دفع الفساد عن الناس وتحقيق الأمن والسلامة لهم (١) .. أما العقوبات المتعلقة بجرائم القصاص والدية فلا تسمى حدا (٢) - عند بعض الفقهاء - لأنها حق الأفراد بمعنى أنه إذا عفى المجنى عليه أو وليه عن القصاص أو الدية سقطا .

وعلة التفريق هنا أن جرائم الحدود يصيب ضررها المباشر الجماعة أكثر مما يصيب الأفراد ، أما جرائم القصاص والدية فمع مساسها بكيان المجتمع إلا أن ضررها المباشر يصيب الأفراد أكثر مما يصيب الجماعة ، ولقد كانت الشريعة عملية واقعية فى إعطائها حق العفو للمجنى عليه بالنسبة للقصاص والدية لأنهما يتصلان اتصالا وثيقا بشخصه ، ولأن العفو هنا لا يكون إلا بعد حصول التراضى والتنازل وصفاء النفس بين الطرفين ، وذلك هو غاية عقوبة القصاص والقصد من ورائهـــا .

لكن يلاحظ هنا أن الشريعة أباحت فى حال عفو المجنى عليه ، وسقوط القصاص أو الديــة عن الجــانى أباحت لولى الأمر معاقبة الجانى بعقوبة تعزيرية ملائمة لظروف

---

(١) التشريع الجنائى الاسلامى . عبد القادر عودة جـ ١ / ٧٩ .

(٢) ذهب البعض الى أن الحد يطلق على كل عقوبة مقدرة بتقدير الشارع سواء كان ذلك فى جريمة الأعتداء فيها على حقوق الله . أم كان الاعتداء فيها على حقوق العباد . انظر فتح القدير جـ ٥ / ٤ ط دار احياء التراث العربى بيروت . وكتاب العقوبة للشيخ محمد أبو زهرة ص ٧٠ ط ١٩٧٤ .

الجريمة والمجرم (١) وأوجب ذلك الإمام مالك (٢) حتى لا يستغل أسلوب الإغراء المادى للإفلات من العقـــاب أو يساء استعمال حق العفو عن المجنى عليه ٠

والعقوبات المقررة فى الإسلام عقوبات ملائمة للجرائم المرصودة لها ، وقد شرعت على أساس محاربة الدوافع الخاصة بكل جريمة ، فهى فى الزنا الرجم للمحصن ، والجلد لغير المحصن وتغريب عام ، وهى فى السرقة القطع ، وفى القذف والشرب الجلد ، وهى فى الحرابة وقطع الطريق كما قال سبحانه (**انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض**) (سورة المائـدة ٣٣) ٠ وهى فى الردة والبغى القتل ، وهى فى القتل والجرح العمد القصاص ، وفى القتل الخطأ الدية ، وعلة التشديد فى هذه الجرائم بالذات أنها من الخطورة بمكان ، والتساهل فيها يؤدى إلى انهيار الأخلاق ، وفساد المجتمعات ، إذ هى جرائم رئيسية تتصلَ بالحياة العامة ولا يقتصر ضررها على مرتكبيها فقط ، ولكنه يتعدى إلى الأفراد والجماعات ، فالقتل العمد عدوان على الحياة التى اختص الله وحده بمنحها للإنسان ، فهو عدوان على حق الله ، زِدْ على ذلك ما يترتب على هذه الجريمة من الاستهانة بحرمة الدماء ، وتأريث الأحقاد والعداوات ، واشاعة الفتن والذعر بين الناس ، ولذلك كان قتل نفس واحدة بمثابة عدوان على البشرية كلها (**من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا**) (سورة المائدة ٣٢) ، وكان قتل النفس عمدا هو الجرم الذى لا يكفر عنه دية ولا عتق رقبة (**ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالدا فيها**) (سورة النساء ٩٣) ، وكان القصاص هو الجزاء العادل (**ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون**) (سورة البقرة ١٧٩) ٠

وجريمة الزنا تشيع الفوضى الجنسية فى بيئات الإنسان ، وتظهر الشخص منتكسا قذرا كالحيوان ، وما يترتب على ذلك من اختلاط الأنساب ، وإثارة الأحقاد ، وتهديد بنيان الأسرة والذرية ·· وفى السرقة عدوان على أموال الناس ، وحرمانهم من الاستمتاع بأمنهم وأموالهم اللذين من حقهم أن يستمتعوا بهما ·· وقطع الطريق فيه ترويع للآمنين والأعتداء على أموال الناس ودمائهم بشكل جماعى أشبه ما يكون بالعصابات المسلحة التى تستهين بالإنسان وما يملكه الإنسان ٠

---

(١) التشريع الجنائى ١ / ٢٤٥ ط دار الكتاب العربى ـ بيروت ٠

(٢) مواهب الجليل جـ ٦ / ٢٦٨ عن المرجع السابق ٠

والقذف فيه تجريح للأعراض ، وتلويث للسمعة ، واشاعة للسوء والشكوك فى جو الأسر ، وتلك حالات تهدد البيوت بالانهيار ، وفى شرب الخمر - أم الخبائث - سلبٌ للعقل - أشرف ما وهب الله الإنسان وميزه به عن الحيوان - كما أنها تعرض شاربها للعربدة والتعدى على حرمات الناس ، وتحطم قوى الشباب ، وتضر بنفوسهم وعقولهم وجسومهم ، وكم شرح الأطباء ما لها من ضرر جسيم على النفس والجسم ، وأجمعوا على ضررها البالغ وأثرها السىء على الأمة فى دينها ورجالها وأخلاقها (١) .. وفى الردة كفر بالإسلام ونظامه ، وتجريح له واستهانة به ، وخروج على نظام الجماعة المسلمة ، ذلك أن الإسلام عقيدة وشريعة ، أو دين ودولة ، فالخارج عن الإسلام أقل ما يوصف به أنه خارج على نظام الدولة ، وهو يشبه فى أيامنا هذه جريمة الخيانة العظمى ، وعقوبتها الإعدام ، يقول الأستاذ علال الفاسى « وقع إجماع المسلمين منذ إنشاء المذاهب الفقهية على قتل المرتد مستدلين بحديث « من بدل دينه فاقتلوه » ولكنهم لا يعتبرون قتله عقابا له على كونه لم يعد مسلما وإنما يعتبرون ذلك نتيجة خيانته للملة الإسلامية التى انخرط فى عداد أفرادها ثم غدرها فلو ستر كفره لم يتعرض له أحد ولم يشق على بيضة قلبه كما كان يقع للمنافقين (٢) .

أما ما عدا هذه الجرائم من مخالفات ، وسبق ضرب أمثلة لها - فقد ترك التصرف بشأنه لولى الأمر فيؤدب المخطىء عن طريق ما يسمى فى الفقه الإسلامى بالتعزير ، والتعزير : التأديب ، وهو عقوبة لم تحدد الشريعة مقدارها ، وتركت للقاضى التقدير الملائم لنوع الجريمة ولحال المجرم وسوابقه .. ولقد أعطى الشارع قاضى المسلمين صلاحية فرض العقوبة المناسبة والتى يراها كفيلة بتأديب الجانى وإصلاحه ، وحماية الجماعة وصيانتها وهى تبدأ بالزجر والنصح ، وتتراوح بين الحبس ، والنفى ، والتوبيخ ، والغرامات المالية ، ومصادرة أدوات الجريمة ، والحرمان من تولى الوظائف العامة ، ومن أداء الشهادة .. الخ .. وقد تصل إلى أشد العقوبات كالحبس والجلد والقتل وذلك فى الجرائم الخطيرة ، كالتجسس لحساب العدو مثلا ، أو معتاد الجرائم الخطيرة (٣) .

وبعد : فإنه لا يزال البعض يتحرج من إقامة حدود الإسلام ، ويثير حولها عجاجة من غبار ، ويصفها بالقسوة والشدة ، وعدم مسايرتها لروح العصر الذى ارتقت فيه المدارك ،

---

(١) انظر كتاب الاسلام والطب الحديث د / عبد العزيز اسماعيل .

(٢) مقاصد الشريعة الاسلامية ط الرباط سنة ١٩٦٣ ص ٢٤٩ .

(٣) التشريع الجنائى جـ ١ / ٦٨٨ نقلا عن الطرق الحكمية لابن القيم / ١٠٦ . الحسبة لابن تيمية / ٥٨ . حاشية ابن عابدين ٤ / ٢٤٧ . على أن الشافعية ومعظم المالكية لا يبيحون القتل تعزيرا ويفضلون أن يحبس الجانى الذى يستضر بجرائمه إلى غير أمد لكف شره عن الجماعة . ويؤيدهم فى هذا الاتجاه بعض الحنابلة (انظر المرجع السابق) .

والطباع الإنسانية ، ولكن يبدو أن هؤلاء يجهلون فقه الحدود الإسلامية ، وحكمتها ، ولا يعرفون متى تقام ومتى لا تقام ، ومتى يؤخذ بتلابيب المجرم ، ولهؤلاء وأمثالهم أسوق الفقرات التالية فى مغزى الحدود والملابسات المحيطة بها ، والظروف التى تراعى إقامتها ، وأثرها فى القضاء على الجريمة ، وفى سلامة المجتمع وأمنه ، فنقول والله المستعان ٠

١ ـ ان الذى شرع الحدود ، وحدد العقوبات هو عالم الغيب والشهادة ، الخبير بمسالك النفوس ودروبها ، العليم بما يصلحها ويقومها **(ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)** (سورة الملك ١٤) ، وإذا كان الأمر كذلك فتشريع الله لعباده أمرا أو نهيا ، حكماً أوْحَدّاً بعيدٌ عن كل معانى النقص والقصور ، والمبالغة والهوى ، وغير ذلك من صفات الجهل والعجز التى يتصف بها البشر وتتسم بها مناهجهم ، وإذا كانت الحدود من تشريع الله ، فإن الله أرأف بعباده وأرحم مما يظن القاصرون ، وهو أخبر بما يصلح حياتهم ويهذب طباعهم ، فليس لمتشدق أن يتحدث عن قسوة الحدود ، وشدة العقوبات ، لأنه ليس أبصر بمصلحة الخلق ، وأرحم بهم من خالقهم ، ومن يظن غير ذلك فقد خرج من الإيمان ٠

٢ ـ المتأمل فى تشريع الحدود يجد أن علاج النفس الإنسانية بها يتسم بالحكمة والرحمة معا : أما الحكمة فتتجلى فى أن لكل جرم حدا معينا ، ولكل مخالفة عقوبة خاصة دون غلو أو زيادة ، ودون مبالغة أو افراط ، بحيث تلحظ أن الشارع قد سار فى هذه الأمور كما سار فى غيرها ـ على أدق المقاييس وأعدلها ، فالذى يريد أن يستمتع بنشوة اللذة عليه أن يتوقع أنه سيذوق من الألم أشده ٠٠ والذى يريد الثراء من كسب غيره يعامل بنقيض مقصوده ، وتقطع منه أداة كسبه ٠٠ والذى يريد أن يحقر غيره بالقذف سيجد التحقير من الجماعة كلها ، فتسقط شهادته ، ويمشى بينهم لا يوثق له بكلام ،

وهكذا ٠٠ وهكذا ٠٠ ناسبت كل عقوبة جريمتها ، ووضعت على أساس محاربة الدوافع التى تدفع إليها كل جريمة ، فهى لم توضع اعتباطا وإنما وضعت على أساس طبيعة الإنسان وفهم لنفسيته وعقله ، ولهذا كانت العقوبة فى الشريعة الإسلامية قائمة على واقعية علمية فنية تامة الضبط والإحكام ، لأنه مما لا شك فيه أن العقوبة التى تقوم على أساس العلم بالطبيعة البشرية ، وفهم نفسية المجرم هى العقوبة التى يكتب لها النجاح ، لأ نها تحارب الإجرام فى نفس الفرد وداخله ، قبل أن تحاربه فى حسه وظاهره ، الأمر الذى يجعل الشخص يبتعد حتى عن مجرد التفكير فى اقتراف المنكر ٠

يقول الإمام ابن القيم « لما تفاوتت مراتب الجنايات لم يكن بد من تفاوت مراتب العقوبات ، وكان من المعلوم أن الناس لو وكلوا إلى عقولهم فى معرفة ذلك وترتب كل عقوبة

على ما يناسبها من الجناية جنسا ووصفا وقدرا ، لذهبت بهم الآراء كل مذهب ، وتشعبت بهم الطرق كل متشعب ، ولعظم الاختلاف ، فكفاهم أرحم الراحمين مؤنة ذلك ، وأزال عنهم كلفته ، وتولى بحكمته وعلمه ورحمته تقديره نوعا وقدرا ، ورتب على كل جناية ما يناسبها من العقوبة وما يليق بها من النكال ، وأنت تلحظ أن هناك تناسباً جيداً بين الجريمة وعقوبتها المقررة لها بحيث لو وضعت واحدة مكان أخرى أو لو عممت عقابا واحدا على جرائم متعددة لظهر لك على الفور الاختلال والاضطراب وعدم العدل فى الأحكام .. فالشريعة مثلا عاقبت على السرقة بقطع اليد ، ولكنها لم تعاقب على القذف بقطع اللسان ، ولم تعاقب على الزنا بالخصاء ، وعاقبت فى القتل بالقصاص ، ولكنها لم تعاقب فى اتلاف المال بالقصاص ، وسبحان اللطيف الخبير (١) .. هذا عن أن الحدود حكمة .. وأما أنها رحمة .. فهى كذلك بالنسبة للمنحرف ذاته ، وبالنسبة للمجتمع الذى يعيش فيه .. أما بالنسبة للمجتمع ، فذلك ظاهر لما تجلبه له من شيوع الأمن والحماية للأموال والدماء ، وبما تدفعه عنه من أذى العدوان والقلق والترويع ، فإذا أرخص الإسلام دم قاتل ، فلكى يحقن ألوف الدماء ويحيط الجماعة كلها بما يحفظ عليها حياتها وأمنها **(ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون)** (سورة البقرة ١٧٩) أى حياة هادئة مطمئنة لا بغى فيها ولا عدوان .

زد على ذلك ما فى إقامة الحدود من بركات تعم المجتمع بأسره . وفى الحديث « حد يعمل به فى الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحا » (٢) وفى رواية « أربعين ليلة » أما أن الحدود رحمة بالمعتدى فيتجلى ذلك فى مغفرة الله ورحمته التى تحوطه بعد إقامة الحد عليه ، فالحدود كفارات للآثام وجوابر لها ، تغسل أثرها وتمحو ذنبها ، وكون الحدود جوابر لا ينفى أنها زواجر كذلك .. وفى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن ماعز « لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم » (٣) وعن الغامدية « لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم » (٤) كما جاء فى السنة « من أصاب فى الدنيا ذنبا ، فعوقب به فالله أعدل من أن يثنى على عبده العقوبة » (٥) .. وروى أن السارق إذا تاب سبقت يده إلى الجنة وان لم يتب سبقت يده إلى النار » (٦) . فالحد أشبه بجرعة من الدواء

---

(١) اعلام الموقعين جـ ٢ / ٨٢ ، ٨٣ .
(٢) ابن ماجه ـ باب اقامة الحدود .
(٣) رواه الخمسة واللفظ للترمذى انظر التاج ٣ / ٢٥ .
(٤) رواه الخمسة . انظر التاج جـ ٣ / ٢٧ .
(٥) ابن ماجه : باب الحد كفارة .
(٦) العقوبة فى الفقه الاسلامى جـ ٢ / ٢٦٥ .

الكريه يشربها الإنسان ليحصل بعد ذلك على الراحة . وفى الحديث « من أصاب منكم حدا فعجلت له عقوبته فهو كفارته » (١) .

يقول ابن القيم : بلغ من رحمة الله تعالى وَجُوده أن جعل تلك العقوبات كفارات لأهلها ، وطهرة تزيل عنهم المؤاخذة بالجنايات إذا قدموا عليه . ولا سيما إذا كان منهم بعدها التوبة النصوح والإنابة . فرحمهم بهذه العقوبات أنواعا من الرحمة فى الدنيا والآخرة (٢) .

٣ ـ لا يرى الإسلام العقوبة غاية فى ذاتها . ولكنه يراها وسيلة ـ ضمن وسائل كثيرة أخرى لتقويم النفس الإنسانية وكفها عن الانحراف . ولذلك فإن الإسلام لا يتربص بالمجرم لكى يوقع عليه العقاب . ولا ينتظر عثرة العاثر ليبطش به أو ينتقم منه . إنه طالما نصح بالستر عليه لعله يتوب أو يستغفر . دليل ذلك قوله عليه الصلاة والسلام « تعافوا الحدود بينكم فما بلغنى من حد فقد وجب » (٣) . وعنه صلى الله عليه وسلم « اجتنبوا هذه القاذورات التى نهى الله عز وجل عنها فمن ألم فليستتر بستر الله عز وجل . فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه الحد (٤) . وقال عليه الصلاة والسلام « من ستر مسلما ستره الله يوم القيامة (٥) . ويكره الإسلام أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا حتى لا تجرح أعراض الجماعة المسلمة . ويلوث جَوَّها بالقيل والقال .. ولما جاء ماعزا إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال لهزال ـ رجل حرضه على الإقرار ـ لو سترته بثوبك كان خير لك (٦) .. ويروى ان ماعزا مر على عمر قبل أن يقر فقال له عمر : أأخبرت أحدا قبلى . قال : لا . قال : فأذهب فاستتر بستر الله تعالى وتب الى الله . فان الناس يعيرون ولا يغيرون . والله تعالى يغير ولا يعير . فتب الى الله تعالى ولا تخبر به أحدا . وذهب الى أبى بكر فقال مثل ما قال عمر . ثم ذهب الى هذا الرجل الذى لامه النبى صلى الله عليه وسلم فأمره بما أقر به (٧) .. وهذا يدل على أن الجريمة اذا ارتكبت فى غير إعلان ينبغى سترها وعدم كشفها .

٤ ـ إذا ضبط الجانى وجىء به إلى القاضى هل يقام عليه الحد فوراً .. لا .. إنه يدرأ ما كان هناك مخرج منه لقوله صلى الله عليه وسلم « ادرؤا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فخلوا سبيله . فإن الإمام إن يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى

---

(١) ابن ماجه : باب الحد كفارة .
(٢) اعلام الموقعين ٢ / ٨٣ .
(٣) الحاكم والبيهقى : انظر جمع الجوامع ٤٧٢ .
(٤) رواه البيهقى ٨ / ٣٣٠ والحاكم ٤ / ٢٤٤ . انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة جـ ٢ / ٢٧٢ .
(٥) ابن ماجه باب الحدود .
(٦) أبو داود باب الحدود .
(٧) العقوبة فى الفقه الاسلامى ـ محمد أبو زهرة ٢١٩ .

العقوبة (١) .. فحين توجد أى شبهة ، فمبدأ الإسلام هنا هو قول النبى صلى الله عليه وسلم « ادرؤوا الحدود بالشبهات » (٢) . ولذلك يقول عمر بن الخطاب « لأن أعطل الحدود بالشبهات أحب إلى أن أقيمها بالشبهات » (٣) . ولهذا لم يقطع عام الرمادة عندما انتشرت المجاعة (٤) ، ولم يقطع كذلك عندما سرق غلمان حاطب من أبى بلتعه ناقة رجل من مزينة بعد أن تبين أن سيدهم يجيعهم ، وغرم السيد ضعف ثمن الناقة تأديبا له (٥) .

ولعل القصد من وراء الأخذ بمبدأ الشبهة التى تدرأ الحد هو التقليل من العقوبات ما أمكن ، إذ القليل منها كاف فى الزجر والتخويف (٦) ومن أمثلة ذلك ما ذكره الفقهاء من أنه لا قطع إذا كان السارق والدا أو زوجا (٧) . أو كان فى ظروف مجاعة . وبالنسبة للقذف قالوا لا حد بالتعريض (٨) . وبالنسبة للزنا قالوا لا حد إذا لم يصرح الشهود أو المقر بالعبارات الدالة عليه من غير احتمال فإن الحد يقام (٩) كما جاء فى كتاب المغنى لابن قدامة أنه اذا ادعى أحد الجهل بفساد نكاح باطل قبل قوله لأن عمر رضى الله عنه قبل قول المدعى الجهل بتحريم النكاح فى العدة . ولأن مثل هذا يجهل كثيرا ويخفى على غير أهل العلم (١٠) فالتضييق فى الحدود أمر محبب فى الإسلام حتى يكون العقاب قليلا مانعا بدل أن يكون عاما جامعا .. على أن الفقهاء وإن كانوا اتفقوا على أن الشبهات تدرأ الحدود إلا أنهم لم يتفقوا عل كل الشبهات . فما يراه البعض شبهة صالحة للدرء قد لا يراه الآخرون كذلك . وتلك أمور كلها من مصلحة المتهم . ومن أمثلة ذلك أن كل نكاح أجمع على بطلانه كنكاح الخامسة أو المتزوجة أو المعتدة أو المطلقة ثلاثا يدرأ فيه أبو حنيفة الحد ولو كان الجانى عالما بالتحريم لأن العقد فى رأى أبى حنيفة شبهة والشبهة تدرأ الحد (١١) . ولا يرى مالك والشافعى وأحمد درء الحد فى هذه الحالات لأنهم لا يعتبرون العقد شبهة (١٢) .

---

(١) الترمذى : باب الحدود .
(٢) البيهقى والدارقطنى . انظر فيض القدير جـ ١ / ٢٢٨ .
(٣) التشريع الجنائى جـ ١ / ٢٠٨ .
(٤) العقوبة فى الفقه الاسلامى ص ٢٥٩ ط دار الفكر .
(٥) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه ص ٢٦٥ ط دار الهلال .
(٦) لا ينكر قاعدة درء الحدود بالشبهات الا أهل الظاهر الذين لا يسلمون بصحة ما ورد عن الرسول والصحابة فى هذا المجال (انظر فتح القدير ٤ / ١٣٩) .
(٧) العقوبة فى الفقه الاسلامى ٢٢٦ .
(٨) العقوبة فى الفقه الاسلامى ٢٥٩ .
(٩) العقوبة فى الفقه الاسلامى ٢٤٢ .
(١٠) التشريع الجنائى جـ ١ / ٢١٠ عن فتح القدير ٤ / ١٤٣ . ١٤٨ .
(١١) المرجع السابق ٢٣٢ .
(١٢) المرجع السابق عن شرح الزرقانى جـ ٨ / ٧٦ . ٧٧ وأسنى المطالب جـ ٤ / ١٢٧ .

ويجعل أبو حنيفة التفاهة شبهة فى المال تدرأ الحد عن سارقه ، ويرتب على ذلك ألا قطع فى التراب والطين والتبن والحصى وأشباهها إلا إذا أخرجته الصنعة عن تفاهته كان القطع واجبا ، ويخالف مالك والشافعى وأحمد مذهب أبى حنيفة ولا يرون شبهة فى تفاهة المال ما دام يبلغ النصاب (١) .

ولا يرى أبو حنيفة الحد فى سرقة ما يتسارع إليه الفساد كالطعام والرطب والبقول واللحم ولا فى سرقة باب المسجد لشبهة عدم تحريزه (٢) . ويرى مالك والشافعى وأحمد القطع فى كل هذا (٣) .

٥ ـ يوفر الإسلام الضمانات الكاملة والكافية لكل متهم ، حتى لا يؤخذ بغير دليل ثابت ولذلك كان من المبادىء المقررة فى الشريعة أنه لا يصح الحكم بالعقوبة إلا بعد التثبت من أن الجانى ارتكب جريمته فإن كان هناك شك فى ارتكاب الجانى لجريمته ، ولم تتقرر بالنسبة له أدلة الإثبات وجب العفو عنه ، وأصل ذلك المبدأ قول النبى صلى الله عليه وسلم « إن الإمام إن يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة » (٤) ، ومن جهة أخرى نجد أن أدلة الإثبات التى قررتها الشريعة فى الحدود دقيقة قلما ثبتت إلا على محترفى الإجرام .. فهى فى الزنا مثلا الإقرار أو أربعة شهود رجالا يقرون برؤية الفعل فإذا لم يتكامل العدد أربعة وأصر واحد أو إثنان أو ثلاثة على قولهم اعتبر من أصر قاذفا ويحد حد القذف (٥) وذلك لقوله تعالى (**والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون**) (سورة النور آية ٤) .. وفى القذف بشهادة اثنين أو بالإقرار بعد الدعوى (٦) ، وفى السرقة الاعتداء على مال الغير المتقوم المحرز خفية .. الخ تلك الشروط .. ولا بد معها من الإقرار وشهادة اثنين (٧) ، وفى الشرب مثل السرقة بالإقرار أو بشهادة اثنين (٨) .. ومثل هذه الشروط لا تنطبق إلا على المصر المجاهر بمعصيته الذى تكررت منه حتى أمكن أن تقع منه علنا ،

---

(١) المرجع السابق نقلا عن فتح القدير ٤ / ١٤٨ . وبدائع الصنائع جـ ٧ / ٦٧ . ٦٨ .

(٢) المرجع السابق عن فتح القدير ٤ / ٢٣٠ .

(٣) المرجع السابق عن شرح الزرقانى ٨ / ٩٩ واسنى المطالب ٤ / ١٤٠ .

(٤) الترمذى : باب الحدود .

(٥) المغنى جـ ١٠ / ٧٢ ط أولى سنة ١٣٨٩ . والجريمة فى الفقه الاسلامى ٧٨ وذكر المغنى عن الشافعى فى المسألة قولين أحدهما لاحد عليهم .

(٦) الجريمة فى الفقه الاسلامى ٨٣ .

(٧) المرجع السابق ٨١ .

(٨) المرجع السابق .

ويضبط متلبسا بها ، ومن حق المجتمع أن يحمى نفسه ممن لا يأبه بحرمة الله دون استثناء لأي اعتبار كان ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يقيم حدود الله دون مجاملة ، وقد رفض الشفاعة فيها من أعز أحبابه أسامه بن زيد وقال له : أتشفع فى حد من حدود الله إنما هلك بنو اسرائيل أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها (١) ، وعنه صلى الله عليه وسلم قال : « من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله فى أمره (٢) .

٦ ـ ذهب بعض العلماء إلى أن توبة الجانى تسقط الحد عنه وتكون سببا للتجاوز عنه وإخلاء سبيله ، واستدل هؤلاء بقوله تعالى بعد آية المحاربة **(إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فأعلموا أن الله غفور رحيم)** (سورة المائدة ٣٤) .. وحجتهم فى ذلك أن القرآن نص على سقوط عقوبة المحارب بالتوبة ، وجريمة الحرابة هى أشد الجرائم ، فإذا دفعت التوبةُ عن المحارب عقوبته كان من الأولى أن تدفع التوبة عقوبة ما دون الحرابة من الجرائم ، وأن القرآن لما جاء بعقوبة الزنا الأولى رتب على التوبة منع العقوبة ، وذلك قوله تعالى **(واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا واصلحا فأعرضوا عنهما)** (سورة النساء ١٦) .. وذكر القرآن حد السارق واتبعه بذكر التوبة فى قوله تعالى **(فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه)** (سورة الأنفال ٣٨) .

وقد أيد ابن القيم هذا الرأى ودافع عنه بقوله « وأما اعتبار توبة المحارب قبل القدرة عليه دون غيره ، فيقال أين فى نصوص الشارع هذا التفريق ، بل نصه على اعتبار توبة المحارب قبل القدرة عليه ، إما من باب التنبيه على اعتبار توبة غيره بطريق الأولى ، فإنه إذا دفعت توبته عنه حد حرابة مع شدة ضررها وتعديه ، فلأن تدفع التوبة ما دون حد الحراب بطريق الأولى والأحرى ، وقد قال الله تعالى **(قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف)** (سورة الأنفال ٣٨) ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم « التائب من الذنب كمن لا ذنب له (٣) والله تعالى جعل الحدود عقوبة لأرباب الجرائم ورفع العقوبة عن التائب شرعا وقدرا ، فليس فى شرع الله وقدره عقوبة تائب البتة ، وفى الصحيحين من حديث أنس قال :

« كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فجاء رجل وقال يا رسول الله : إنى أصبت حدا فأقمه على قال : ولم يسأل عنه فحضرت الصلاة فصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما

---

(١) رواه الخمسة . انظر أبواب الحدود .

(٢) مجمع الزوائد جـ ٦ / ٢٥٩ ط ثالثة .

(٣) ابن ماجه فى الزهد . والبيهقى فى شعب الإيمان .

قضى النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة ، قام إليه الرجل فقال : يا رسول الله إنى أصبت حدا فأقم فى كتاب الله قال : أليس قد صليت معنا ، قال نعم ، قال فإن الله تعالى قد غفر لك ذنبك ، قال ابن القيم « فهذا لما جاء تائبا بنفسه - من غير أن يطلب - غفر الله له ، ولم يقم عليه الحد الذى اعترف به ، وهو أحد القولين فى المسألة ، وهو إحدى الروايتين عن أحمد ، وهو الصواب .. فإن قيل فماعز جاء تائبا ، والغامدية جاءت تائبة ، وأقام عليهما الحد قيل لا ريب فى ذلك ، وبهما احتج أصحاب القول الآخر ، وسألت شيخا عن ذلك فأجاب بما مضمونه أن الحد مطهر وأن التوبة مطهرة ، وهما اختاروا التطهير بالحد على التطهير بمجرد التوبة وأبيا إلا أن يطهرا بالحد ، فأجابهما النبى صلى الله عليه وسلم إلى ذلك وأرشد الى اختيار التطهير بالتوبة على التطهير بالحد ، فقال فى حق ماعز ، هلا تركتموه يتوب فيتوب الله عليه .. ولو تعين الحد بعد التوبة لما جاز تركه ، بل الإمام مخير بين أن يتركه كما قال لصاحب الحد الذى اعترف به اذهب فقد غفر الله لك ، وبين أن يقيمه كما أقامه على ماعز والغامدية لما اختارا إقامة الحد وأبيا إلا التطهير به ، ولذلك ردهما النبى صلى الله عليه وسلم مرارا وهما يأبيان إلا إقامته عليهما ثم يقول « وهذا المسلك وسط بين مسلك من يقول لا تجوز إقامته بعد التوبة البتة ، وبين مسلك من يقول تجوز إقامته بعد التوبة ، ومن مسلك من يقول لا أثر للتوبة فى إسقاطه البتة ، واذا تأملت السنة رأيتها لا تدل إلا على هذا القول الوسط (١) ، لكنه إذا أخذ بهذا الرأى الذى يسقط الحد بالتوبة ، فإنه ينبغى أن يراعى ما يأتى :

أ - أن يكون ذلك فيما يتعلق بحق الله تعالى كشرب الخمر مثلا ولا يكون مما يمس حق الأفراد ، كالقتل أو الضرب ، فلا بد فى ذلك من عفو أصحابهما .

ب - أن تكون تلك التوبة عن الجريمة الأولى ، فإذا عاد إلى انحرافه مرة أخرى وضبط وادعى التوبة ، فينبغى أن يعاد النظر فى قبول توبته حتى لا يتعطل القضاء أو يستهين بحدود الله تعالى ، فقد يكون كاذبا قد خدع القضاء بها أولا فلا يخدعه ثانياً ، لأن فعله هذا يثبت أن التوبة الأولى لم تكن صحيحة ، لأن شرط التوبة الصحيحة التى تقبل الغفران ألا يقع الشخص فى الفعل الذى تاب منه مرة أخرى ، ولا شك أن الثانية من نوع الأولى ولا فرق بينهما ، ثم إن النفس إذا تمرست بالمعصية أحاطت بها واستولت عليها ، ولذلك قال الله تعالى (**بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**) .(سورة البقرة ٨١) (٢) .

---

(١) اعلام الموقعين جـ ٢ / ٦٤ ط دار الكتب الحديثة سنة ١٣٨٩ .

(٢) انظر العقوبة فى الفقه الاسلامى ٢٧٦ .

٧ ـ كثير من هذه العقوبات منصوص عليها فى التوراة ، وصدق عليها الإنجيل لأن ما لا نص عليه فى الإنجيل بالمنع أو الإباحة تتبع به نصوص التوراة . لأن عيسى عليه السلام قال « ما جئت لألغى الناموس بل جئت لأحيى الناموس » .. ويقول الله عز وجل فى هذا الشأن **(وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ، وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة)** (سورة المائدة ٤٥ ، ٤٦) .. ويقول عليه الصلاة والسلام « إنما أهلك من كان قبلكم أنه كان إذا سرق منهم الشريف تركوه واذا سرق منهم الضعيف أقاموا عليه الحد (١) . وفى سفرى الخروج (٢) والتثنية (٣) أمثلة على عقوبات القتل والغدر والضرب وسائر أنواع القصاص (٤) . فالذى يهاجم الإسلام من الأوربيين فى تشريع العقوبات فهو يهاجم الأديان السابقة كذلك . على أنه إذا كان اليهود والمسيحيون قد تركوا تلك الأحكام واستغنوا عنها فنحن المسلمين ليس عندنا استعداد لترك ديننا ، والتخلى عن شريعتنا ، لأننا لا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض .

٨ ـ إذا تعلل بعض الرقعاء بأن الحدود لا تناسب أذواق العصر ومداركه لأنها وضعت لنفوس قاسية غير مدركة ، أما الآن فقد ارهفت الأحاسيس وعلت المدارك فلا سبيل الى مثل هذه العقوبات ، قلنا لهم : مصداق هذا الادعاء ألا توجد أسبابه ، فلا توجد السرقة التى أوجبت عقوبتها ، ولا يوجد الزنا الذى أوجب عقوبته .. وهكذا .. ولكن الجرائم مازالت قائمة ، وقد تعددت أسبابها ، وتفتحت أبوابها ، وتفننت العقول فى طرائقها ، وتصفح أى جريدة فى أى بلد فى العالم تجدها لا تخلو من جرائم السرقة والقتل والنصب والاختلاس ، حتى صار الشخص لا يأمن على نفسه وماله فى كثير من بلدان العالم .

ولقد نشرت جريدة الأخبار القاهرية منذ سبع سنوات ما يلى نقلا عن وكالات الأنباء ، قتل المجرمون فى الولايات المتحدة أكثر من عشرين ألف شخص خلال عام ١٩٧٣ ، وسرق اللصوص ممتلكات وأشياء تزيد قيمتها على ألفين وستمائة مليون دولار ، وذلك بعد أن زادت موجة الجريمة خلال سنة ١٩٧٤ بنسبة ١٨ ٪ عن العام الأسبق .

---

(١) رواه الخمسة : انظر أبواب الحدود . (٢) الاضحاح ٢١ ، ٣٥ . (٣) الاصحاح ٩ .

(٤) لا نذكر هذه الشواهد على أنها صحيحة لأن فيها أمورا تخالف النقل والعقل مثل من شتم أباه أو أمه يقتل . كما لا نذكرها على أنها التوراة الحقيقية . وانما لنلطم بها وجه الذين يطعنون فى عقوبات الاسلام ونثبت لهم وللاوربيين أن القصاص وكثيراً من العقوبات موجود فى الكتب السابقة .

وذكر تقرير مكتب التحقيقات الفيدرالية فى عام ١٩٧٤ أن عشرة ملايين ومائة ألف جريمة خطيرة وقعت فى الولايات المتحدة وذلك بزيادة مليون ونصف مليون جريمة عن عام ١٩٧٣ ، وكان ثلث الذين اعتقلوا لارتكاب الجرائم الخطيرة من الشباب المراهق تحت العشرين (١) .. ومثل ذلك كثير فى البلدان التى لا تقيم حدود الله . فكثرة أسباب العقوبة دليل على شدة الحاجة الى الحدود والعقوبات ودليل على أن النفوس لم تسم عن نفوس السابقين ، وان ارتفعت فى مجال العقل والفكر ، لأن العقل وحده لا يكفى ، بل لا بد له من خلق كريم يسيره ، وهداية إلهية تهديه سواء السبيل .

وإذا بدا للبعض أن العقوبات شديدة موجعة ، فذلك شأن العقوبة دائما ، فاسمها مشتق من العقاب ، ولا يكون العقاب عقابا اذا كان موسوما بالرخاوة والضعف ، بل يكون لعبا وعبثا ، أو شيئا قريبا من هذا (٢) .

أما العقوبات فشأنها أن تكون رادعة بحيث تكف عن الجريمة قبل وقوعها ، فاذا وقعت كانت كفيلة بتأديب الجانى وزجر غيره ، والا ما حققت المقصود منها ، يقول أحد الفقهاء عن العقوبات « انها موانع قبل الفعل زواجر بعده » (٣) أى العلم بشرعيتها يمنع الاقدام على الفعل ، وايقاعها بعده يمنع العود اليه ، ثم أن عدم الردع فى العقوبات الحاضرة ، دليل على الحاجة الى العقوبات السماوية ، واذا كان السجن الآن هو أبرز العقوبات على مخالفات العصر ، أو هو العقوبة الأساسية التى يعاقب بها فى كل الجرائم بسيطة كانت أو خطيرة فهل ترى ذلك أغنى شيئا ؟ .

إن الجرائم لم تقل ، بل هى فى ازدياد مستمر .. كما تدل على ذلك سجلات المحاكم وملفات المحامين .. وفوق أن السجن لم يقض على الجريمة ، ولم يوقف نشاطها ، فان العلاج به فيه كثير من العيوب نشير الى بعضها :

١ ـ تكليف الدولة كثير من النفقات والأموال الباهظة التى لا بد من رصدها للانفاق على نزلاء السجون ، وموظفيها وعمالها ، زيادة على تكاليف بنائها وانشائها ، وكم يرصد من أجل ذلك من أموال ، ان ميزانية السجون بين الميزانيات الضخمة التى يدفعها المجتمع وهو فى حاجة اليها دون فائدة أو جدوى ، ذلك أنك تسأل هل استطاعت السجون المسماة بدور الاصلاح والتقويم أن تقوم بهذا الغرض فعلا من حيث علاج المجرم والقضاء على الجريمة .

---

(١) جريدة الأخبار ١٨ / ١١ / ١٩٧٥ ـ ص ٢ .
(٢) التشريع الجنائى جـ ١ / ٥٦٤ فقرة ٤٦٢ .
(٣) المرجع السابق نقلا عن شرح فتح القدير ٤ / ١١٢ .

إن الواقع يؤكد عكس هذا . فإن الحبس لا يمنع المجرم من مزاولة هوايته الا مدة الحبس فقط ، ثم يعود بعده سيرته الأولى كأعتى ما يكون ، لأنه يعيش بين قوم ألفوا الاجرام واعتادوه ، فيخرج من سجنه وقد أصبح أستاذا فى الجريمة بعد أن اخذ قواعدها من مدرسة الجريمة ، ولذلك فانه قد يكون فى الحبس بعض من لم يتمرس على الجريمة لأنه ليس مجرما حقيقيا ، ولكنه باختلاطه مع زملائه ، وتبادل المعلومات والخبرات معهم يخرج وقد أصبح خبيرا متخصصا .

٢ ـ يحول السجن بين اللصوص وبين العمل خلال فترة السجن ، وغالبا ما يكونون أصحاب قدرة ونشاط ، وفى ذلك تعطيل للمواهب والقدرات ، وكان من الممكن ـ لو أنهم عوقبوا بعقوبة أخرى غير الحبس تكفى لتأديبهم ، كان من الممكن أن يستغلوا جهدهم المعطل فى العمل فيستفيدوا ويفيدوا مجتمعهم .

٣ ـ كثيرا ما يعود السجن على السجين بالضرر البالغ فى صحته وجسده نظرا للازدحام الموجود فيه ، وعدم الرعاية الصحية والنظافة الكاملة ، ولذلك فالسجن غالبا ما يكون وسيلة لنقل الأمراض ونشرها بين المسجونين ، وسببا لافساد أخلاقهم .

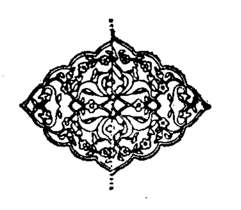
٤ ـ السجن فيه اهدار لانسانية الانسان ، لأن السجين ينادى عليه هناك برقمه لا بأسمه وفى ذلك الغاء لشخصية الانسان وذاته ، واشعاره بالاهانة وعدم الكرامة ، ومن شعر بفقد كرامته وانحطاط انسانيته هانت عليه كثيرا من الجرائم .

٥ ـ فى مدة حبس السارق تكون النتيجة اضطراب أسرته ، وعدم استقرارها وفى ذلك من تيسير الانحراف وطرق الاجرام ما فيه

٦ ـ بعد أن يخرج السارق من السجن نجده محكوما عليه بالموت الأدبى ان لم يكن المادى أيضا ـ وذلك لأن الجمهور ينبذه ولا يفتح له صدره أو ييسر له طريقا لاستئناف حياة نظيفة ، وقد يضطره ذلك إلى أن يزاول الاجرام من جديد ، وبصورة فيها تصميم على الانتقام فيمرن عليه ويتشبع بدمه ويصبح عنده حرفة وعادة ، وكثيرا ما قرأنا فى الصحف عن أشخاص خرجوا من السجن ، ولما نووا الاستقامة ، أخذوا يبحثون عن عمل شريف فأوصد المجتمع فى وجوههم أبوابه ، ووصمهم بعار الانحراف والخيانة ، ولذلك كانوا يناشدون المجتمع فى حياة أنقى ، وسيرة أطهر .

وبعد .. فلقد أخفقت عقوبة الحبس فى تأديب المجرمين ، كما أخفقت سائر القوانين الوضعية فى تنظيف المجتمع من الانحرافات والسوءات ، فهل لنا أن نعود الى طريق الكمال

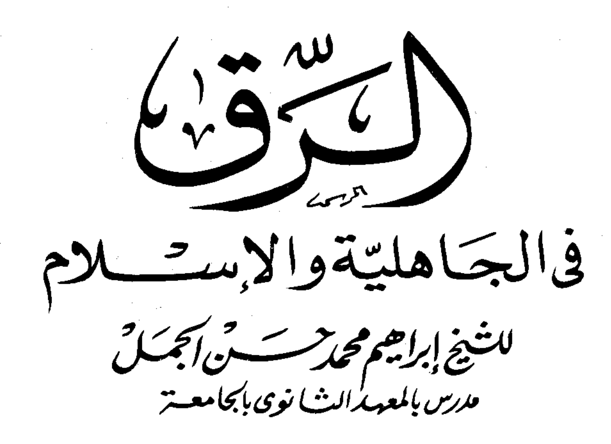
والطهر والعفاف .. الى شرع الله .. **(يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ، ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين)** (سورة الأحقاف ٣١ ، ٣٢) .



جريمة قتل كل ٢٣ دقيقة فى أمريكا ...

كشفت وزارة العدل للولايات المتحدة الأمريكية فى تقرير صدر أخيراً أن سير الجرائم فى الولايات المتحدة قد ازداد بنسبة تسعة فى المائة بالنسبة للعام السابق ، وبنسبة خمسة وخمسين فى المائة خلال اثنتى عشرة سنة أخيرة . وطبقاً للتقرير تقع كل جريمة وعمل عنيف كل ٢٤ دقيقة ، وجريمة قتل كل ٢٣ دقيقة ، وانتهاك حرمة كل ٦ دقائق . وكشفت الإحصائيات الرسمية أن عدد القتلى بلغ إلى ٢٣ ألف و٤٤ . وأكثرهم تتراوح أعمارهم بين عشرين وتسعة وعشرين عاماً .

الرائد الهندية



معنى الرق ونشـــــأته :

الرق في اللغة : العبودية ، وسمى العبيد رقيقا ، لأنهم يرقون لمالكهم ، ويذلون ويخضعون ، والرقيق هو المملوك .

وقيل : الرق في اللغة : الضعف ومنه رقة القلب (١) وهو نظام اجتماعى معروف بين الشعوب القديمة ، واستمر قائما حتى أخريات القرن التاسع عشر ، وكان يعتبر بين تلك الشعوب نظاما مشروعا تحميه قوانين الدولة (٢) .

وعرف أيضا بأنه حرمان الشخص من حريته الطبيعية ، وصيرورته ملكا لغيره (٣) ؛ وهذا ما كان مصطلحا عليه عند الأمم القديمة .

ولقد عرف الرق من قديم ، وكانت الحرب بادىء الأمر عاملا على نشأة الرق ، وذلك أن القوى حينما كان يظفر بالضعيف يقتله ولا يقبل بغير القتل بديلا ، وكان الناس في ذلك الوقت يعملون لأنفسهم فكان الرجال يقومون بالصيد والحروب وكان النساء والأبناء يقومون بغير ذلك من الأعمال .

(١) لسان العرب لابن منظور ج ١١ ص ٤١٥ .

(٢) دائرة المعارف الحديثة لأحمد عطية الله مادة « الرق » .

(٣) قصة الحضارة تأليف ول ديورانت ترجمة د . زكى نجيب محمود ج ١ ص ٣٧ .

وحينما اتجه الانسان إلى الزراعة ، كان في حاجة الى العناية بالأرض عناية تتكرر كل يوم ، وإلى تنظيم العمل ؛ كما أنه كان في حاجة إلى من يساعده ، وهذه المساعدة كانت تعتمد في النهاية على القوة والإرغام ، وحدوث التعاون بين الناس ، انتهى إلى استخدام الضعفاء بواسطة الأقوياء · ثم فكر القوى الظافر في القتال أن الأسير الذى يقتله يمكن أن يبقيه حيا · فيستخدمه في زراعة الأرض · وبهذا قلت المجازر وقل أكل الناس لحوم بعضهم بعضا ·

وحين امتنع الإنسان المنتصر عن قتل المغلوب اعتبر هذا تقدما عظيما للإنسان من حيث الأخلاق حين أقلع عن قتل زميله أو أكله واكتفى من أعدائه باسترقاقهم ، وإعمالهم في الأرض وفي الزراعة (١) ثم انتقل استرقاق الغير من الزراعة إلى الصناعة ، حتى إذا زادت الثروة ، ومال الأغنياء الى الدعة والراحة ، واستغلال الآخرين في ذلك جعل الناس ينظرون إليه كأنه نظام فطرى لاغنى عنه ·

وكانت الجماعات البدائية لا ترى فارقا بين الحر والعبد ، ولا تجد رقا ولا طبقات ، ولاتدرك من الفوارق بين الرئيس وتابعيه إلا قدرا ضئيلا · وبالتدريج ، أخذ تقسيم العمل ، وما يقتضيه الاختلاف بين الناس ، يستبدل شيئا فشيئا المساواة بقليل من التحكم الذى زاد على مرور الأيام ، ثم لما ازدادت الآلات والصناعات تعقدا ، عمل ذلك على اخضاع الضعيف لمشيئة القوى ، وكلما ظهر سلاح جديد في أيدى الأقوياء زاد من سلطانهم على الضعفاء واستغلالهم إياهم ·

ثم عمل نظام التوريث على اتساع الهوة بأن أضاف إلى الامتياز في الفرص السانحة امتيازا في الأملاك ·

وقسمت المجتمعات التى كانت يوما متجانسة إلى عدد لا يحصى من طبقات وأوساط ، وأحس الأغنياء والفقراء بغناهم أو فقرهم إحساسا يؤدى إلى التشاحن ، وأخذت حرب الطبقات تسرى خلال التاريخ حتى انتهت إلى وجود طبقة من الناس تُستخدم وكأنها آلة تتحرك بغير إرادتها يحركها الغير ، وكأنها دمية توجه حسب ما يريد لها سيدها (٢) ·

ولم يستطع الفلاسفة القدامى أن يغيروا شيئا من الواقع ، وإنما زادوه تثبيتا ، وكأنما هذا الصنف من الناس إنما خلق بغير إرادة ولا حول ولا قوة ، فأفلاطون يقضى في جمهوريته الفاضلة بحرمان الرقيق حق المواطنة وإجبارهم على الطاعة والخضوع للأحرار من ساداتهم أو

---

(١) المرجع السابق ·

(٢) قصة الحضارة ج ١ ص ٣٨ ·

من السادة الغرباء ، ومن تطاول منهم على سيد غريب أسلمته الدولة إليه ليقتصَّ منه كما يريد .

ومذهب ارسطو في الرق أن فريقا من الناس مخلوقين للعبودية لأنهم يعملون عمل الآلات التى يتصرف فيها الأحرار ذو الفكر والمشيئة . فهم آلات حية تُلحق في عملها بالآلات الجامدة .

ويحمد من السادة الذين يستخدمون تلك الآلات الحية أن يتوسموا فيها القدرة على الاستقلال والتمييز فيشجعوها ويرتقوا بها من منزلة الأداة المسخرة إلى منزلة الكائن العاقل الرشيد (١) .

الرق قبـــل الإســــلام

كان الرق من دعائم المجتمع عند قدماء المصريين ، وكانوا يتخذون الإماء للخدمة ، وللزينة ، ولمظاهر الأبهة . فكانوا بقصور الملوك ، وبيوت الكهان والأعيان . وهم وإن كانوا يسيئون معاملة رقيق الخدمة بحيث يعتبرونهم كآلة صماء فإن رقيق الزينة على العكس ؛ فقد كانوا يلقون معاملة حسنة كما يدل على ذلك قول العزيز لامرأته في حق يوسف عليه السلام .

« وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » (يوسف آية ٢٠) .

ولقد أباح العبرانيون الرق . وذكر في التوراة في مواضع (٢) . وكان الرق عندهم نوعين : استرقاق الأفراد لارتكاب خطيئة محظورة . واسترقاق غير اليهود في الحروب (٣) .

وكذلك أباحته المسيحية ، وأمر بولس مدعي الرسالة العبيد بطاعة سادتهم كما يطيعون السيد المسيح ؛ فقال في رسالته إلى أهل أفسس :

« أيها العبيد ! أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح ، ولا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس عالمين أنه مهما عمل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبدا كان أم حرا » .

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد ص ٢١٠ .

(٢) سفر التكوين ٣١ ـ ٢ ـ ٧ وسفر التثنية ٢١ : ١٤ . ٢٤ . ٧ .

(٣) النظم الاسلامية د . حسن ابراهيم ص ٣٠١ .

وأوصى مدعى الرسالة بطرس بمثل هذه الوصية ، وأوصاها آباء الكنيسة ؛ لأن الرق كفارة من ذنوب البشر يؤديها العبيد لما استحقوا من غضب السيد الأعظم (١) ·

ونص في الإنجيل على أن الناس كلهم إخوان ، ولكنه لم ينص على منع الاسترقاق ، لذلك أقرته جميع الكنائس على اختلاف أنواعها ولم ترفيه أقل حرج ·

ولم ير من جاء من باباوات النصارى ولا قديسيهم حرجا من إقرار الرق حتى قال باسيليوس في كتابه القواعد الأدبية بعد أن أورد ما جاء في رسالة بولس إلى أهل افسس ·

« هذا يدل على أن العبد تجب عليه طاعة مواليه تعظيما لله عز وجل » إن الطبيعة (هكذا قول بولس) قضت على بعض الناس بأن يكونوا أرقاء ، واستشهد على نظريته (كما يرى هو أى بولس) بالشريعة الطبيعية والشريعتين الوضعية والإلهية ·

وقال القسيس المشهور بوسويت الفرنسى : إن من حق المحارب المنتصر قتل المقهورُ ، فإن استعبده واسترقه فذلك مِنْهُ مِنَّةٌ وفضل ورحمة ·

وقد بقى الاسترقاق معتبرا من الأمور المشروعة لدى المسيحيين فقد جاء في دائرة معارف لاروس أن رجال الدين الرسميين يقرون صحة الاسترقاق ويسلمون بشرعيته (٢) ·

وإذا كانت الأديان التى سبقت الإسلام ، قد أباحت الرق ، فإن جميع الأمم المعروفة لنا في القديم قد أباحته كذلك ·

ففى الهند قسمت الشرائع البرهمية القديمة الأشخاص الملزمين بالخدمة إلى قسمين وهما الخادمون والأرقاء ، فالأعمال الطاهرة من خصائص الخادمين ، والأعمال النجسة على عواتق الأرقاء (٣) ·

وكانت الشريعة الهندية تقضى على أن الرقيق لم يُخْلَق إلا لخدمة البرهمى - وهم الطبقة المقدسة عندهم - فكانوا يتخذون الرقيق من إحدى طبقات المجتمع التى تعتبر صفة العبودية لازمة لها حتى لو تخل السيد عن عبده فإنه يبقى رقيقا لا يصلح أن يتمتع بحريته كغيره من الناس ، وكانت القوانين عندهم تقضى بقتل العبد لأقل هفوة يرتكبها ، أما التنكيل به والانتقام منه بسائر الوسائل الوحشية فحدث ولا حرج (٤) ·

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٢٠٩ ·

(٢) دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدى ج ٤ ص ٢٧٨ مادة رقق ·

(٣) الرق في الاسلام لأحمد شفيق ص ١١ ·

(٤) دائرة معارف القرن العشرين ج ٤ ص ٢٧٥ مادة رقق ·

وكان الرق عند الفرس بدولتهم العظيمة التى امتدت في حدود آسيا المعروفة كثيرة ، فكان الأرقاء الرعاة ، والأرقاء المختصون بحاجات الزينة والثروة واليسار ، ومنهم من خُصص لعمل القبائح المنكرة التى قضت بها خرافات القوم ٠

قال هيرودت : « ولا يجوز لأى قاس أن يعاقب عبده على ذنب واحد اقترفه بعقاب بالغ في الشدة والصرامة ٠ لكن إذا عاد العبد لارتكاب هذا الذنب بعدما أصابه من العقاب ، فَلِمَوْلَاه حينئذ أن يعدمه الحياة أو أن يعاقبه بجميع ما يتصور من أنواع العذاب » (١) ٠

ولعل الصين كانت في القديم من أكثر الدول اعْتدَالا في معاملة رقيقها ، فكان يُستخدم للمنفعة العامة ، وكانوا يجلبون الرقيق من الخارج بواسطة الحروب والأسلاب ، أو يأخذونهم من البلاد بسبب الفقر والحاجة ؛ لأن الفقير كان يضطر لبيع نفسه أو لبيع أولاده ، وكان الاسترقاق في تلك البلاد قليل الشدة والصعوبة ، لأن الشرائع والعرف والأخلاق كانت تساعد على تلطيف حاله ٠ وقد ورد في آثارهم :

« إن الإنسان هو أفضل وأشرف المخلوقات التى في السماء والتى على الأرض ، فمن قتل رقيقه فليس له من سبيل في إخفاء جرمه ، ومن أخذت به الجرأة فكوى رقيقه بالنار ، حوكم على ذلك بمقتضى الشريعة ، ومن كواه سيده بالنار دخل في عداد الوطنيين الأحرار » (٢) ٠

وإذا تركنا آسيا وانتقلنا إلى أوربا لم يكن حال الرقيق بأحسن مما كان عليه الحال في بلاد فارس أو الهند ٠

فلقد كان المجتمع اليونانى المقسم إلى سادة وعبيد يبالغ في احتقار العبيد على الرغم من استخدامهم في سائر المرافق ، وكانوا يعتقدون أن الأرقاء إنما خلقوا لخدمة السادة والأمراء ، وكانوا يعتبرونهم جزءاً من الأرض يباعون ويشترون ، وكان المورد الأساسى للعبيد عندهم الأسر في الحروب وأهل البلاد المغلوبة التى يعملون فيها ، وكانت القرصنة هى المورد الثانى للعبيد ٠

وعندما نشطت تجارة الرقيق في أثينا لم تقف مطامع النخاسين عند حد ، وصار القرصان اليونانيون يخطفون المسافرين والسكان الآمنين في الشواطىء الأفريقية والأوربية ويبيعونهم للناس في الأسواق من غير خجل ولا تكبر (٣) ٠

---

(١) الرق في الاسلام لأحمد شفيق ص ١٨ ٠

(٢) الرق في الاسلام لأحمد شفيق ص ١٨ ٠

(٣) معجم لاروس مادة « رق » ٠

وكان حق المولى على عبده أنه جزء من أملاكه وأمتعته ، فله رهنه أو بيعه ، والتصرف فيه كما يشتهى لا يمنعه مانع (١) .

ولم يكن الحال عند الرومان بأقل مما كان عليه غيرهم من حيث استخدامهم في الأعمال الجسمانية ، ومساواتهم بالأمتعة والفرش ، فكانوا يباعون بالمزاد ، وكانوا يوقفون على مكان عال بحيث يتيسر لكل واحد أن يراهم ويمسهم بيده ، ولو لم يكن له نية في شرائه ، بل أحيانا كانوا يشاهدون كيوم ولدتهم أمهاتهم .

وكان الرق في نظرهم نتيجة الأسر والسبى أو الميلاد أو الدين أو الفرار من الجيش (٢) ، ومن العجيب أن الدولة كانت تسترق بعض الأفراد بسلطة القانون مثل أن يمتنع الشخص من أداء الضريبة أو بعيب عندما يطلب منه الحضور فيمتنع فيصبح حينئذ في عداد الأرقاء ، وكذلك كان المجرمون والثوار يسترقون للدولة ، أما الملحدون في الدين فكانوا يسترقون للمعاد .

وكان الاسبرطيون يُكَرُون العبيد لمن يرغب في ذلك ، ويشغلونهم في الحروب والقتال زيادة في الخدمة ، وفلاحة الأراضى وحراستها وغير ذلك من أنواع العمل الشاق .

وكانت القرون الوسطى مسرحا للاسترقاق ، وتكاد كلها تتشابه مع الرومان .

ويعتبر الرقيق كجزء من متاع البيت فهو بمنزلة الفرس والثور وغيرهما من الحيوانات المستخدمة الأهلية ، فكان المولى في شرعهم يتصرف بعبده كما يتصرف بما عنده من الأشياء ذات القيمة ، وكان لا يجوز له قتله لأنه شيء من الأشياء التى تملكها يمينه .

ولم يختلف الاسترقاق عن سابقه عند الغاليين وهم السكان المعروفون في فرنسا وأمام جبال الألب في ايطاليا الشمالية ، وأقاليم الغاليا في الجزر البريطانية وأسبانيا وكذلك سكان جرمانيا ـ المانيا ـ فكانوا يحتكمونهم بطريقة الشراء أو الميراث ، وكانوا يكلفون بخدمة المنازل ، وكان الولى يفرض عليه مقدارا من القمح أو الماشية أو الملابس كأنه من مؤاجريه ، وكان سكان نهر الرين الأسفل إذا تزوج أحد الأهالى برقيقة أجنبية وقع في الرق والاستعباد ، وكذلك المرأة الحرة التى تتزوج برقيق تفقد حريتها ، وينالها العقاب .

وكان عند القوط أن المرأة الحرة إذا تزوجت برقيقها ، كانت عقوبتها أن تحرق هى وإياه وهما على قيد الحياة ، وإذا كانت لا تمتلك العبد يفسخ النكاح ، ويجلد كل منهما

---

(١) النظم الاسلامية ص ٣٠١ .

(٢) النظم الاسلامية ص ٣٠١ .

بالسياط . ولكن التصرف في العبد بالموت كان يلجأ السيد إلى القاضى ليحكم حكمه ثم يسلمه لسيده ليفعل به ما يريد وكانت قبائل الويز يغوط تشدد النكير في مسألة تزواج الأحرار بالأرقاء حتى نص القانون على أن المرأة الحرة إذا تزوجت بعبدها فعقابها أن تحرق هى وهو حيين . وكذلك كانت قبائل الاستروغوط فقد كانوا يقتلون المرأة التى تتزوج بعبد (١) ·

وكان الأنجلو ساكسون يقسمون الرقيق إلى نوعين هما الرقيق المشبهون بالمنقولات والمشبهون بالعقارات فالصنف الأول يجوز بيعهم أما الآخرون · فكانوا لا ينفكون عن الأرض يقومون بحراثتها وزراعتها (٢) ·

من هذا يتبين أن الأرقاء لم يكن لهم أى تصرف في أنفسهم . ولا أمل لهم في حياة إنسانية أو شبه إنسانية ·

وكانت تجارة الرقيق نشطة في أسواق أوربا وموانى جنوة والبندقية وليفورن في ايطاليا . تعج بالمراكب التى تحمل أبناء السود من الجنسين المخطوفين من أفريقيا وبعض دول آسيا وكان أكثر القائمين على هذه التجارة من اليهود ·

ولم يكن الحال في أمريكا بأقل منه في الدنيا القديمة . فلقد كانت بواخرها تنتقل بين شاطىء أفريقية وبين أمريكا حاملة الألوف من أهل افريقية للاتجار وللزراعة وكانت حالتهم شبيهة بحال إخوانهم في الدنيا القديمة فهم بين العمل والاحتقار والمهانة فكان على غاية الشدة والقسوة وكان مقتضى القانون الأسود أن الحر إذا تزوج بأمة صار غير جدير بأن يشغل وظيفة في المستعمرات ·

وكانت القوانين تصرح بأن للسيد كل حق على عبده حتى حق الاستحياء والإماته ·

وكان يجوز للمالك رهن عبده واجارته والمغامرة عليه وبيعه كأنه بهيمة وكان لاحق للأسود أن يخرج من الغيط ويطوف بشوارع المدن إلا بتصريح قانونى . ولكن اذا اتفق واجتمع في شارع واحد أكثر من سبعة من الأرقاء ولو بتصريح قانونى . كان لكل أبيض القاء القبض عليهم وجلدهم وقد صرح قانونهم على أن ليس للعبد روح ولا عقل وأن حياتهم محصورة في أذرعهم (٣) ·

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ج ٤ ص ٢٧٧ ·
(٢) الرق في الاسلام ص ٣٢ ·
(٣) دائرة معارف القرن العشرين ج ٤ ص ٢٧٨ ·

ولقد بدأ الغاء الرق في أمريكا في منتصف القرن الثامن عشر وفي سنة ١٧٨٨ م نشبت الحروب بين الولايات الشمالية والجنوبية من أجل اعلان حرية العبيد ، ولم يتحقق إلا سنة ١٨٦٥ م بعد انتصار الشماليين على الجنوبيين وقد ظلت التفرقة العنصرية شائعة سنوات عديدة ولم يكن من الممكن أن يدخل العبيد في الأماكن التى فيها الأسياد ولا أن يركبوا مراكبهم ، وكثيرا ما كان البيض يثورون ضدهم ويشبعونهم ضربا وتقتيلا وكان القانون دائما في صف البيض ·

ومع مرور الأيام بدأ يخف هذا النمط من المعاملة حتى أخذ العبيد أو السود كما يسمونهم شيئا من المشاركة في الحياة العامة ·

ولقد بقى الرق على شرعيته عند غير المسلمين إلى أن قررت الثورة الفرنسية الغاءه سنة ١٧٧٩ م ومع ذلك فإن عامة البلاد الأوربية والأمريكية ظلت تمارسه إلى نهاية القرن التاسع عشر أى بعد الثورة الفرنسية التى اعلنت مبادىء الحرية والمساواة بين الناس بما يزيد على قرن كامل من الزمن ·

وكان الرق في الجزيرة العربية لا يختلف كثيرا عما كان عليه في الأمم الأخرى ، وكانت الحروب الدعامة الكبرى للرق ، فعندما تقوم الحرب ، ويأسر الغالب المغلوب يأخذه أسيرا عنده ، وأيضا كان الرق نتيجة للثراء بعد أن يخطف الرقيق فلقد خطف زيد بن حارثة وهو صغير في أثناء لعبه بعيدا عن أمه وهو عند أخواله ، ثم بيع في احدى الأسواق القريبة من مكة واشتراه حكيم بن حزام ابن أخى السيدة خديجة بنت خويلد ثم اهداه حكيم إلى عمته ولما رأت رضى الله عنها رغبة زوجها الأمين محمد بن عبد الله قبل البعثة أن يلازمه فيقوم بخدمته قدمته إليه هدية فلازم الرسول صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة وبعدها ·

وكانت تجارة الرقيق من أهم موارد الثروة عند أهل مكة في الجاهلية ومن أشهر تجار الرقيق عبد الله بن جدعان ، وكان ذا تجارة واسعة في الرقيق ·

ولقد حرم الأرقاء في الجاهلية من كافة الحقوق المدنية ، ومن التصرف في شئونهم الخاصة ·

وغالبا ما كنوا يطلقون كلمة السبايا على النساء خاصة وفي ذلك يقول الشاعر :

فعادوا بالغنائم حافلات وعدنا بالأسارى والسبايا (١)

---

(١) النظم الاسلامية ص ٣٠١ ·

وكان العبد أحيانا ينال حريته وذلك إذا أظهر شجاعة فائقة في الحروب والقتال ضد من يعتدى على سيده وعلى قبيلته · ويحفظ لنا التاريخ قصة عنترة المشهورة ، وعتق وليه وأبوه له ، وجعله حرا يتصرف تصرف الأحرار بعد أن كان عبدا يرعى الغنم ، وأيضا فقد يكون الاخلاص الشديد سببا في العتق ·

ومهما يكن من وجود طريق إلى حرية الرقيق فقد كانت قليلة بل نادرة ، وكانت معاملة الرقيق لا تخرج عما كان متبعا في الدول الأخرى ·

الرق في الإســـــــلام

جاء الإسلام والعالم تتحكم فيه قوتان كبيرتان هما الفرس في آسيا والروم في أوربا ، والفوارق الطبقية بلغت مداها ، وما يزال الرق منتشرا والرقيق يعاملون وكأنهم جزء من المتاع لا يملكون من أنفسهم شيئا ·

جاء الرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم في الجزيرة العربية بشريعة رب العالمين ، فيها سعادة البشر في الدنيا والآخرة ، ولم تكن دعوته لقوم دون قوم ، أو لطائفة وحدها وإنما هى دعوة لجميع البشر ، في أنحاء المعمورة لا تتقيد بمكان أو زمان إلى يوم القيامة :

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (سورة سبأ ٢٨)

وأول ما دعا اليه الإسلام حفظ كرامة المسلم ، وتحريره من كل القيود لا فرق بين أسود وأبيض أو غنى وفقير أو حاكم ومحكوم ، الكل أمام الله سواء ·

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (سورة الحجرات ١٣) ·

ومما يروى في سبب نزول هذه الآية ما روى أنها نزلت في أبى هند أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى بياضة أن يزوجوه امرأة منهم ، فقالوا يارسول الله ونزوج بناتنا موالينا فنزلت الآية ·

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لافضل لعربى على عجمى ولا لأحمر على أسود إلا بتقوى الله » (١) ·

---

(١) الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٣ ص ٥٧ ·

ولقد عامل الإسلام في أول عهده الرقيق الذين اسلموا ـ وما يزالون قريبين من العهد الجاهلي ـ أحسن معاملة ، ولم يلغ ما سبق في الجاهلية حتى لا تفسد أمور الناس ، وينشغلوا عن أصل الرسالة بأمور جانبية ٠

لقد عاملهم معاملة حسنة ، وكان إسلامهم طريقا إلى التخلص من الرق بطريق مشروع كأن يُشْتَرى العبد المسلم من سيده ويعتق كما حصل للعبد بلال بن رباح ، فقد أسلم ، ولكنه ما يزال عبداً لسيده أمية بن خلف الذى أذاق بلالاً كل أصناف التعذيب فكان يتركه في حرارة الشمس القاتلة ساعات الظهيرة كى يرجع عن إسلامه ، ولكنه كان قوى الإيمان فتحمل العذاب الأليم إلى أن جاء أبو بكر الصديق واشتراه واعتقه ٠

ولقد وجد الرقيق في الإسلام عزا وكرامة ، ووجدوا في أخوة الإسلام ما جعلهم يعيشون أحرارا ، يرتقون بهذه الأخوة إلى أسمى الرتب ولنضرب لذلك مثلا بزيد بن حارثة وابنه أسامة الذى ولى قيادة جيش المسلمين ولما يناهز الثامنة عشرة وقد ولاه الرسول صلى الله عليه وسلم في آخر حياته ونفذه كبار الصحابة بعد وفاته ، ومشى أبو بكر الخليفة رضى الله عنه وهو راكب ، وكان تحت قيادته الصحابة من أمثال عمر وعلى وغيرهما رضى الله عنهم أجمعين ...

ولقد افتخر المسلمون بأن رابع الذين أسلموا كان زيد بن حارثة ، فقد أسلم بعد السيدة خديجة زوج الرسول عليه الصلاة والسلام وأبى بكر وعلى رضى الله عنهما ٠

الاسلام المنقــذ

إن من حق الإسلام أن يتحرك ابتداء ، فالإسلام ليس نحلةُ قوم ، ولا نظام وطن ، ولكنه منهج إله ، ونظام عالم .. ومن حقه أن يتحرك ليحطم الحواجز من الأنظمة والأوضاع التي تغل من حرية الانسان في الاختيار ٠ وحسبه أنه لا يهاجم الأفراد ليكرههم على اعتناق عقيدته ، إنما يهاجم الأنظمة والأوضاع ليحرر الأفراد من التأثيرات الفاسدة المفسدة للفطرة ، المقيدة لحرية الاختيار ٠

سيـــد قطب

دراسات فى أصول الفقه

للدكتور على أحمد محمد بابكر
الأستاذ المساعد بكلية الشريعة بالجامعة

الحلقة الثانية

فى الحلقة الأولى من هذه الدراسة الأصولية والتى نشرناها فى العدد ٤٦ من هذه المجلة والتى دارت حول أهمية علم الأصول وخصوبته، أشرنا إلى المضمون العام لهذا العلم · ولكن لابد لنا من بيان الحد الاصطلاحى له كما قرره العلماء، ثم مناقشة وتحليل ذلك حتى نخرج بفكرة واضحة لما أراده العلماء من حدهم الذى وضعوه فى عبارات مختصرة · ثم ننتقل بعد ذلك لعرض ودراسة مباحث علم الأصول الرئيسية، والتى اشرنا فيما مضى إلى أنها تتطلب الاتصال بعلوم متعددة ·

حقيقة علم الأصول :

نلاحظ أن العلماء فى تحديدهم لعلم الأصول، منذ أن ظهر هذا العلم منظماً ومكتوباً، قد أوردوا تعريفات متعددة ومتنوعة فى صياغتها، ونجد مناقشات تدور حول تلك التعريفات · ولعل هذا التنوع فى التعريفات يرجع إلى أسباب نحاول توضيحها فيما يلى :

أولا : يميل بعض العلماء إلى الاختصار الشديد وتقديم أقصر العبارات لإعطاء معنى إجمالى لهذا العلم، بينما يميل البعض الآخر إلى أن تكون الكلمات التى يشتمل عليها التعريف متضمنة بارتياح لذلك المعنى · فيبدو للناظر أن بعض هذه التعريفات غير جامع لمعنى العلم وبعضا آخر غير مانع من دخول علوم أخرى فى التعريف ·

ومن هنا تتوجه بعض الملاحظات والانتقادات والمآخذ من العلماء على بعضهم ·

ثانيا : من الأسباب التى يرجع إليها التنوع فى تعريفات هذا العلم أن بعض الكلمات والعبارات التى تستخدم فى التعريفات تلقى ظلالا وتشير إلى معان زائدة . والبعض الآخر من العبارات والكلمات لها معان محددة . فاستعمال الكلمات التى لها ظلال قد يؤدى إلى اختلاف فى فهمها ومدى أدائها للمعنى المقصود . فيحدث بذلك اختلاف فى الاعتداد بالتعريف أو عدم الاعتداد به .

أنظر مثلا إلى تعريف الغزالى لهذا العلم حين يقول : « هو عبارة عن أدلة الأحكام وعن معرفة وجوه دلالاتها على هذه الأحكام » (١) . فعبارة وجوه دلالاتها ضمّنها الغزالى القياس ووجوه الاجتهاد العقلى الأخرى . وهى عبارة قد تعطى ذلك المعنى الذى أراده الغزالى ، وقد يرى غيره أنها لا تتسّع لتشمل كل ما أراده بها ، وقد وردت مناقشات حول هذا التعريف نوردها فى مكانها عندما نعرض لهذا التعريف بتحليل أكثر .

ثالثا : من الأسباب التى يرجع إليها تنوع التعريفات للأصول أن بعض العلماء يعتبر أن الأصول هى المصادر التى تستقى منها الأحكام فحسب ، والبعض الآخر يرى أن الأصول تشمل المصادر والقواعد الأصولية المختلفة والأبحاث التى اشتمل عليها العلم . ومن هنا يخرج بعضهم ما يدخله الآخرون فى مضمون العلم فيحدث الاختلاف .

رابعاً : اختار العلماء ما يناسب عصورهم المختلفة من عبارات وألفاظ بحيث يسهل على أجيالهم فهم مضمون التعريف من غير كبير عناء . وللتحقق من هذا يمكن النظر فى تعريفات بعض المعاصرين من الأصوليين ومقارنتها بالتعريفات القديمة . فالصياغة ، والأسلوب ، يسببان اختلافا فى صورة التعريف ، وربما يوحيان باختلاف فى المعنى .

هذه بعض الأسباب التى بدت لنا والتى نظن أنها أدت إلى الاختلاف فى تعريف علم الأصول فى كتبه المختلفة على مرّ العصور . وربما كانت هنالك أسباب أخرى لم تبد لنا فى هذه الساعة التى نكتب فيها هذا البحث .

وينبغى أن لا يفهم من ذكر هذه الأسباب ومن إيضاح أن هنالك اختلاف فى صورة التعريفات التى وردت فى كتب الأصول أن هذا الاختلاف هو اختلاف مخلّ بالمضمون يؤدى إلى تعارض فى المعنى ، ولكن هذا الاختلاف ربما يحدث فرقا فى توسيع المعنى أو تضييقه حسب ما سنرى بعد أن نعرض بعض نماذج من هذه التعريفات ونتعرض لتحليلها ومقارنتها .

---

(١) المستصفى جـ ١ ص ٤ ـ ٥ .

بعد هذه الملاحظات التى أبديناها حول اختلاف تعريفات علم الأصول التى وردت فى كتبه ، نورد بعض هذه التعريفات ولا نستقصيها لتساعد فى توضيح النقاط التى اثرناها فى الفقرات السابقة ، ثم نتوصل إلى تقرير أوضح حد لعلم الأصول . ونرجو أن لا يمل القارىء عرض هذه التعريفات التى سنوردها تباعا من غير تعليق ، ثم نعقب عليها بتعليق مجمل يسهّل مقارنتها ويوصل إلى الخلاصة .

أول تعريف نورده هو التعريف الذي أورده أبو الحسين البصرى (١) فى كتابه المعتمد فى الأصول والذى كان شرحا لكتاب العمد فى الأصول للقاضى عبد الجبار بن أحمد (٢) بحسبان أن هذا الكتاب هو أقدم الكتب الأصولية بعد رسالة الإمام الشافعى ألف على طريقة الشافعية ، وأن الإمام الشافعى فى رسالته نثر مفهوم علم الأصول فى عبارات مطولة ومشروحة خلال بيان مفهوم هذا العلم فلخص أبو الحسين البصرى هذا المفهوم فى عبارات محددة كما لخصها من بعده الإمام الغزالى فى كتابه المستصفى فى تعريف مشابه لتعريف أبى الحسين ، كما سنورد ذلك .

يقول أبو الحسين البصرى فى تعريفه لعلم الأصول : « هو طرق الفقه على طريق الإجمال ، وكيفية الاستدلال بها وما يتبع كيفية الاستدلال بها » (٣) .

وقد شرح أبو الحسين هذا التعريف الذى أورده بأنه أراد بطرق الفقه على وجه الإجمال أن هذه الطرق غير معينة مثل أن يتكلم الفقيه عن أن الأمر للوجوب والنهى للتحريم وكذلك إذا تكلم فى مطلق الإجماع والقياس . فليس الحديث فى هذه الأمور مثل الحديث فى أدلة الفقه التفصيلية المعينة مثل قول النبى صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات » فهذا ينتمى إلى الفقه وليس لأصوله .

وشرح كيفية الاستدلال بأنها : الشروط والمقدمات وترتيبها الذي يستدل معه بالطرق على الفقه - أما ما يتبع كيفية الاستدلال فقد بينه بأنه الحديث عن المجتهدين .

وعند مقارنتنا للتعاريف التى سنوردها سندرك وجوه الاتفاق والاختلاف بينها ، ووجوه التقارب .

وبما أننا أوردنا تعريفا قديما من تعريفات العلماء الذين كتبوا فى الأصول على طريقة الشافعية ، فينبغى أن نورد هنا أيضا تعريفاً من التعريفات القديمة التى أوردها العلماء

---

(١) توفى أبو الحسين البصرى فى ربيع الآخر سنة ٤٣٦ هـ (أنظر وفيات الأعيان) .
(٢) توفى عبد الجبار بن أحمد فى عام ٤١٥ هـ .
(٣) المعتمد : جـ ١ ص ٩ .

الذين كتبوا فى الأصول على طريقة الحنفية (١) وسنورد هنا التعريف الذى أورده البزدوى (٢) لأن البزدوى من أهم العلماء الذين كتبوا فى الأصول على هذه الطريقة ، وقد اعتمد عليه المتأخرون من علماء المدرسة الحنفية فى كتابتهم فى أصول الفقه . على الرغم من أنه كان مسبوقا بعدد من علماء الأحناف الذين كتبوا فى الأصول ، وكان أسبقهم أبو الحسن الكرخى (٣) الذى ألف رسالة فى الأصول ذكر فيها الأصول التى عليها مدار فقه الأحناف . ولكنه لم يضع تعريفا محددا لعلم أصول الفقه كما وضعه البزدوى .

يقول البزدوى فى تعريف هذا العلم :

« اعلم أن أصول الشرع ثلاثة : الكتاب والسنة والإجماع والأصل الرابع القياس بالمعنى المستنبط من هذه الأصول » (٤) .

أما أبو حامد الغزالى الذى اتبع فى تعريفه لشيخه إمام الحرمين (٥) فيقول : « افهم أن أصول الفقه عبارة عن أدلة هذه الأحكام وعن معرفة وجوه دلالاتها على الأحكام من حيث الجملة لا من حيث التفصيل » (٦) .

وقد أورد ابن قدامة نفس هذا التعريف مع الاختصار قليلا حيث قال : « وأصول الفقه أدلته الدالة عليه من حيث الجملة لا من حيث التفصيل » (٧) .

ونسبة لأن تعريف ابن الهمام يعطينا نموذجا مستقلا متميزا عما أوردنا من تعريفات فيستحسن أن نورده للاستفادة منه فى تحليل هذه التعريفات . يقول ابن الهمام : « أصول الفقه هو القواعد التى يتوصل بمعرفتها إلى استنباط الفقه » (٨) .

ونختم نماذج تعريفات القدماء بما أورده الإمام الشاطبى (٩) فى كتابه الموافقات من بيان يريد به توضيح معنى أصول الفقه ، وهذا البيان الذى أورده يتناسب مع أسلوبه فى

---

(١) كانت الكتابة في أصول الفقه فى القديم على طريقتين : طريقة الشافعية وطريقة الأحناف . ثم اندمجت الطريقتان فيما بعد كما سنوضح ذلك في فصل خاص .

(٢) توفى سنة ٤٨٢ هـ .

(٣) توفى ببغداد سنة ٣٤٠ هـ .

(٤) أصول البزدوى . جـ ١ ص ١٩ ـ ٢٠ الخ .

(٥) توفى سنة ٤٧٨ هـ .

(٦) المستصفى جـ ١ ص ٤ .

(٧) روضة الناظر ص ٤ .

(٨) التحرير وشرحه جـ ١ ص ٢٤ .

(٩) توفى سنة ٧٩٠ هـ .

الكتابة . ومع أنه أطول من التعريفات المعهودة فسنورده كآخر نموذج من التعريفات القديمة ، يقول الإمام الشاطبى :

« الأدلة الشرعية ضربان أحدها ما يرجع إلى النقل المحض ، والثانى ما لا يرجع إلى النقل المحض . وهذه القسمة بالنسبة إلى أصول الأدلة . وإلا فكل واحد من الضربين مفتقر إلى الآخر . لأن الاستدلال بالمنقولات لا بد فيه من النظر . كما أن الرأى لا يعتبر شرعا إلا إذا استند إلى النقل . فأما الضرب الأول فالكتاب والسنة - وأما الثانى فالقياس والاستدلال . ويلحق بكل واحد منهما وجوه إما باتفاق وإما باختلاف . فيلحق بالضرب الأول الإجماع على أى وجه قيل به ، ومذهب الصحابى ، وشرع من قبلنا ، لأن ذلك وما فى معناه راجع الى التعبد بأمر منقول صرف لا نظر فيه لأحد . ويلحق بالضرب الثانى الاستحسان ، والمصالح المرسلة إن قلنا إنها راجعة الى أمر نظرى ، وقد ترجع إلى الضرب الأول إن شهدنا أنها راجعة إلى العمومات المعنوية- ثم نقول : إن الأدلة فى أصلها محصورة فى الضرب الأول . لأنا لم نثبت الضرب الثانى بالعقل وإنما أثبتناه بالأول - وإذا كان كذلك فالأول هو العمدة » (١) .

والآن نورد بعض نماذج من تعريفات المعاصرين لعلم أصول الفقه . فقد عرفه الشيخ الخضرى بقوله : « أصول الفقه هو القواعد التى يتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة » .

وعرفه الشيخ عبد الوهاب خلاف بقوله : « هو العلم بالقواعد والبحوث التى يتوصل بها إلى استفادة الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية (٢) .

ونختم نماذج التعريفات المعاصرة بالتعريف الذى أورده الشيخ أبو زهرة ونكتفى بذلك لتشابه التعريفات المعاصرة ، بل يمكن أن نقول تطابقها حتى فى الألفاظ . يقول الشيخ أبو زهرة : « أصول الفقه هو العلم بالقواعد التى ترسم المناهج لاستنباط الأحكام العملية من أدلتها التفصيلية (٣) .

هذه نماذج من التعريفات التى أوردها العلماء على مر العصور لعلم الأصول - وهى تعريفات تمثل آراء العلماء فى المدارس الفقهية المختلفة إلى حد ، من القرن الثانى الهجرى إلى عصرنا هذا .

وبإلقاء نظرة فاحصة على هذه التعريفات ومقارنتها ، نخرج بملاحظات عامة ، نخلص

---

(١) الموافقات جـ ٣ ص ٢٤ - ٢٥ الخ .
(٢) أصول الفقه لخلاف ص ١٢ .
(٣) أصول الفقه لأبى زهرة ص ٧ .

بعدها إلى نتيجة توضح ما إذا كان هذا الاختلاف في شكل وصورة التعريفات يشكّل اختلافاً في المضمون ، والملاحظات العامة تتلخص فيما يلي :

الملاحظة الأولى هي : أن جميع هذه التعريفات تدور حول ثلاثة أمور : فهي إما أن تشير إلى منابع الفقه ومصادره ، أو تشير إلى القواعد المستخدمة لإستخراج الأحكام من هذه المنابع ، أو تشير إلى الأمرين معاً .

الملاحظة الثانية هي : أننا بتتبع الكتب التي ألفت في الأصول ، لم نجد اختلافا في وضع منابع الأصول ومصادرها ودراستها في بداية جميع هذه المؤلفات بلا استثناء ـ ثم تأتي بعد ذلك الأبحاث التي تتضمن القواعد المختلفة التي يتوصل بها إلى استخراج الأحكام .

الملاحظة الثالثة هي : أن المتأخرين تأثروا بالمتقدمين من حيث المذهبية ، فجاءت صياغة التعريفات متماثلةً تقريباً بين فقهاء المدرسة الواحدة . مثلا فقهاء المدرسة الشافعية ومن تبعهم تشابهت تعريفاتهم وفقهاء المدرسة الحنفية تشابهت تعريفاتهم .

فالتعريفات التي أوردناها للمؤلفين المعاصرين كلها تأثرت بالتعريف الذي أورده صدر الشريعة الحنفي . وبما أننا لم نورد تعريفه فيما مضى فإننا نقول إن صدر الشريعة عرف الأصول بقوله : « وعلم أصول الفقه العلم بالقواعد التي يتوصل بها إليه (١) على وجه التحقيق » فانظر إلى التشابه بينه وبين التعريفات المعاصرة .

الملاحظة الرابعة هي : أن بعض الأصوليين يبدأ تعريفه بقوله : هو العلم بكذا . وبعضهم يحذف كلمة العلم هذه ويبدأ تعريفه بقوله : هو كذا . وطبعا العلم بالشيء ليس هو حقيقة الشيء . وربما تأثر بعض المعاصرين ببعض المتقدمين في ذكر هذه الكلمة في أول التعريف .

هذه بعض الملاحظات التي نلاحظها ونحن نقرأ تعريفات الصيغ المختلفة لتعريفات علم الأصول التي أوردها العلماء على مرّ العصور .

ومن ذلك نستطيع أن نقول : إن الذين أرادوا أن يقصروا التعريف على القواعد المتبعة لاستخراج الأحكام فقط بحيث لا يشمل المصادر نفسها قد حذفوا من التعريف ما لا يمكن إهماله . حتى هم أنفسهم لم يستطيعوا الاكتفاء بالقواعد فقط في كتاباتهم ، بل بحثوا المصادر نفسها أولا ، ثم بحثوا القواعد التي تتبع لإستخراج الأحكام من هذه المصادر . ولأن كلمة أصول نفسها أقرب إلى المصادر منها إلى أي شيء آخر .

---

(١) قوله إليه الضمير راجع إلى الفقه .

أما الذين قصروا تعريفهم على المصادر فقط فقد اعتبروا أن حديثهم عن المصدر كالقرآن مثلا يتضمن الحديث عن القواعد المتبعة لاستخراج الأحكام من القرآن من تفسير مجمل أو تخصيص عام الخ وهذا أقرب فيما يبدو ·

ولكن التعريف الأشمل فيما نرى هو الذى يشمل الطرفين : المصادر والقواعد ، ولعل التعريف الذى نقلناه عن الغزالى هو التعريف الشامل للطرفين ·

ولعل هذه النتيجة التى توصلنا إليها هى التى توصل إليها التفتازانى (١) عندما كان يبحث فى حقيقة علم الأصول قال : « ثم نظروا - أى العلماء - فى تفاصيل تلك الأدلة - يشير إلى الأدلة الفقهية - فوجدوا أن الأدلة راجعة إلى الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس · والأحكام راجعة الى الوجوب والندب والحرمة والكراهة والإباحة وتأملوا فى كيفية الاستدلال بتلك الأدلة على تلك الأحكام إجمالا ، وبيان طرقه وشرائطه - أى الاستدلال - ليتوصل بكل من تلك القضايا إلى استنباط كثير من تلك الأحكام الجزئية عن أدلتها التفصيلية · فضبطوها ودونوها وأضافوا إليها من اللواحق والمتممات وبيان الاختلافات ما يليق بها وسموا العلم بها أصول الفقه » ·

ولكن التفتازانى بعد وصوله إلى هذه النتيجة يعود فيقول : « فصارت - أى أصول الفقه - عبارة عن العلم بالقواعد التى يتوصل بها إلى الفقه » (٢) ولو قال : فصارت عبارة عن المصادر والقواعد الخ لكان التعريف مطابقا تماما لما سبقه من تفصيل ·

لقد اطلنا فى تحقيق معنى علم الأصول - ولكنا نظن أن هذا التحقيق ضرورى لمعرفة النتيجة التى يسوق إليها اختلاف الصيغ التى وردت فى تعريف حقيقة هذا العلم · والآن ننتقل إلى الحديث عن مباحث علم الأصول ·

مباحث علم الأصـــول إجمـــالا :

من خلال تعريف وتحليل علم الأصول فى الفقرات الماضية نستطيع أن نلمح المباحث والمواضيع التى يتعرض لها ويبحثها العلماء فى هذا العلم · ولكن لا بد من عرض سريع به بعض التفصيل يلقى ضوءاً على مباحث هذا العلم ، ووجه بحثها فيه ، وارتباط هذه المباحث ببعضها · كما يوضح هذا العرض علاقة بعض العلوم الفرعية بعلم الأصول مثل علم الخلاف (٣) وقواعد الفقه العامة ·

---

(١) توفى سنة ٧٩٢ هـ ·

(٢) التلويح على التوضيح ·

(٣) أنظر الغزالى . المستصفى جـ ١ ص ٤ - ٥ ·

ولن نتعرض فى هذا الفصل للعلوم التى اشرنا إليها من قبل فى معرض حديثنا عن خصوبة علم الأصول ، لأن تلك علوما مساعدة للتمكن من علم الأصول ، وليست من المباحث الأساسية التى درج علماء الأصول على بحثها فى كتبهم ٠

سنحاول ما أمكن إعطاء فكرة عن المباحث تقارب الصورة التى بسطها الأصوليون فى تأليفاتهم مع محاولتنا تبويبها على وجه يتمشى مع ترابط وتسلسل تلك المباحث ٠ وسيكون عرضنا لهذه المباحث إجماليا بحيث نذكر رأس المبحث ونعلق عليه تعليقاً خفيفا ونترك تفصيل المبحث إلى مكانه من العلم ٠

وعليه فربما يبدو عرضنا لمباحث علم الأصول مجملا جدا ، وهو المقصود هنا ٠ لأن المطلوب هو التعريف الإجمالى بتلك المباحث ٠

بعض هذه المباحث التى سنتعرض لها هنا ربما تبدو غير مندرجة فى مباحث هذا العلم ، لأن العلماء ظلوا يبحثونها فى كتب أخرى ، لكنها ـ كما نرى ـ من المباحث التى يجب أن ترتبط بمباحث علم الأصول ، مثل مبحث الثبات والمرونة فى الشريعة ٠

ولا بد من أن يتصدر المباحث المندرجة فى علم مبحث نشاة علم الأصول وتدرجه والكتابة فيه وأساليبها وأسسها ٠ مع أن العلماء بحثوا هذا الأمر ضمن تاريخ التشريع ٠ لكن حين يكون هذا المبحث متصدرا لمباحث علم الأصول فإنه يساعد كثيرا على فهم العلم ، وفهم أصول المذاهب المختلفة ، وكيف تكونت ٠ وبالطبع فإن مثل هذا المبحث يعده كثيرون مبحثاً تاريخياً ما كان ممكنا أن يتصدر كتب الأقدمين ، خاصة الذين وضعوا اللبنات الأولى لهذا العلم مثل الإمام الشافعى ، لأنهم كانوا يؤسسون علما لم يسبقهم عليه مؤلفون ـ أما اليوم فهناك رصيد من الماضى يمكن أن يكون تقديما مفيدا لمباحث علم الأصول ٠

وفيما يلى من الفقرات نعرض لهذه المباحث إجمالا كما أشرنا :

١) أول المباحث التى بحثها الأصوليون فى هذا العلم هو مبحث بيان حقيقة هذا العلم وهو المبحث الذي قدمناه على هذه الفقرات المخصصة للمباحث ٠

٢) الحكم الشرعي :

يقع الحكم الشرعى ـ بعد بيان حقيقة الأصول ـ على رأس مباحث علم الأصول ٠ فجميع علم الأصول ومباحثه هو وسيلة للتوصل لاستخراج الأحكام الشرعية ٠ فالحكم هو محور العلم كله وغايته التى يهدف اليها ٠

ففى تعريفنا لعلم الأصول قلنا إنه : أدلة الأحكام ووجوه دلالاتها على الأحكام ٠

فالغاية من العلم واضحة من هذا التعريف وهى التوصل إلى الحكم الشرعى · ومن هنا كان مبحث الحكم على رأس مباحث الأصول · وهذا المبحث فيه تفصيلات كثيرة مثبتة فى مكانها من كتب الأصول ·

٣) الحـــاكم :

ومبحث الحاكم من المباحث الأصولية التى يوضح فيها من تصدر عنه الأحكام الشرعية ، ثم يوضح فيه إجمالا مكان العقل البشرى من التشريع · أما مكان العقل من التشريع تفصيلا فله مباحث أخرى معنونة بعناوين خاصة تأتى فى الفقرات التالية · فالحكم الشرعى لا بد له من مصدر ينطلق منه · ومن هنا جاء مبحث الحاكم تاليا لمبحث الحكم ·

٤) التكليف والمكلف :

عندما يصدر الحكم من الحاكم فإنه يتطلب من يكلَّف به لتطبيقه وتنفيذه · من أجل هذا ارتبط مبحث التكليف وحدوده بمباحث الأصول لأنه متفرع عن الحكم · وكذلك المكلَّف (بفتح اللام) معرفته ترتبط بمبحث الحكم · ومن هنا كانت له أهميته بين مباحث علم الأصول ·

٥) أفعال العباد :

وهى ما يشير اليها الأصوليون بالمحكوم فيه · وهو مرتبط بمبحث التكليف · ويمكن أن يكوّنا معاً مبحثا واحدا ، لأن حدود التكليف · والأفعال التى يكلف الله بها عباده أمر يكاد يكون واحدا · ومن نقاط مبحث أفعال العباد صفات الأفعال أى أفعال الناس وحسنها وقبحها العقليين ، واتفاق واختلاف تلك الصفات مع أحكام الشريعة من واجب وحرام ·· الخ ·

ولقد درج بعض الكتاب فى أصول الفقه أن يشيروا إلى أن هناك أبحاثاً دخلت ميدان الأصول وهى ليست منه ويضربون مثلا لذلك بمبحث صفات أفعال العباد من حسن وقبح عقليين وما يتعلق بذلك · ولاشك أن أفعال العباد من الجانب الذى بحثها منه الأصوليون من المباحث الهامة فى هذا العلم ، ولم يدخله علماؤنا المتقدمون فى هذا الميدان إلا بعد إدراكهم لخطورة هذا الموضوع بالنسبة لعلم الأصول · وإدراكهم أنه يتعلق تعلقا وثيقاً بعلل الأحكام ، ومدى اتفاق الشرع والعقل فى علة الحاكم وتأثير ذلك فى الحكم ، وهل يدرك العقل الحكم بإدراكه لصفات الأفعال من غير معاونة الشرع ، وهل يترتب على ذلك شيء فى الآخرة ، إلى غير ذلك من النقاط الهامة التى لها اتصال مباشر بالحكم الشرعى (١) ·

---

(١) أنظر الآمدى · الإحكام جـ ٣ ص ١٠٦ الخ ·

٦) تعليل الأحكام :

هذا من المباحث الأصولية التى لها أهمية قصوى · وقد درج العلماء على مناقشة هذا الموضوع وعرضه اثناء عرضهم لباب القياس على أساس أن هذا الموضوع هو ركن من أركان القياس · ولا شك أنه ركن من أركان القياس ولكن لو نظرنا الى تعليل الأحكام لوجدناه يرتبط بالمصالحُ عموماً · كما وأن الأحكام المنصوص عليها فى الكتاب والسنة منها ما له علله ومقاصده التى ينبغى ان تعرف حتى اذا لم نكن محتاجين لاستخدام القياس فى موضوعها · ويرتبط موضوع التعليل أيضا بموضوع تحديد أهداف الشريعة العامة · وسنفرد للأهداف بندا خاصا من بين بنود هذه المباحث · ويرتبط مبحث تعليل الأحكام بمباحث الأسباب والشروط والموانع الخ (١) ·

وبحث موضوع التعليل فى باب مستقل لا يعنى ان نمنع عرضه كركن من أركان القياس · بل يعرض هناك بوصفه ركناً من الأركان اما عرض التعليل مفصلا من حيث حقيقته فى الشريعة فينبغى أن يعقد له فصل مستقل لأهميته بالنسبة للتشريع ·

٧) الكتــاب :

مبحث القرآن الكريم كمصدر رئيسىّ للتشريع هو المبحث الرئيسى فى علم الأصول · وقد رأينا أن يتأخر فى ترتيب بحثه ـ كما درج علماء الأصول ـ ليتمكن الدارس من إدراك الحكم وما يتعلق به من أبحاث · لأن الحكم هو المقصد الذى نزل القرآن الكريم لبيانه · ومن هنا كان تقديم مبحث الحكم على مبحث الكتاب · ليدخل الدارس على الكتاب ولديه تصور لما يهدف الكتاب الكريم لبيانه ·

وفى مبحث الكتاب تقدم الدراسات التى يحتاج إليها في تصور القرآن الكريم عموماً لا تفصيلاً ، ويحتاج اليها فى بيان أن القرآن الكريم هو المصدر الأول الذى ترجع اليه كل الأصول ·

٨) الســنّة النبويــة :

يأتى مبحث السنة النبوية عقب مبحث القرآن الكريم فهى الأصل الثانى والمكمل للأصل الأول · وما قلناه فى تأخير مبحث القرآن عن مبحث الحكم الشرعى وما يتعلق به نقوله أيضاً هنا فى تأخير مبحث السنة عن الحكم الشرعى · وتبحث السنة فى علم الأصول من حيثيات مختلفة · من حيث مكانتها فى التشريع وكيفية أخذ الأحكام منها ومقارنتها مع

---

(١) أنظر الغزالى المستصفى جـ ١ ص ٨ ·

الأصول الأخرى إلى غير ذلك من المباحث المستفيضة والتى يطلبها الدارس فى مكانها من علم الأصول ·

٩) الإجمـــاع :

مبحث الإجماع هو المبحث الثالث الذى يلى مبحث السنة وهو المصدر الثالث من مصادر الأحكام · وفى حقيقته ومستنده ومراتبه والأخذ به تفصيلات مبسوطة فى مكانها ·

١٠) الألفاظ وتفســيرها :

هذا مبحث واسع من مباحث الأصول ويشتمل على فصول عديدة وهو من أهم مباحث هذا العلم · ففى هذا المبحث تدرس كيفية فهم وتفسير ألفاظ القرآن والسنة ببيان معانى ألفاظ هذين المصدرين الرئيسيين ودلالاتها واشاراتها وأمرها ونهيها وعمومها وخصوصها واطلاقها وتقييدها وناسخها ومنسوخها ووضوحها وعدم وضوحها ومنطوقها ومفهومها ·

١١) القياس والمصادر العقليه الملحقة به :

ومبحث القياس والمصادر العقلية الأخرى كالمصالح المرسلة والاستحسان والعرف والذرائع والمخارج ، هذا المبحث من المباحث المهمة فى ميدان الأصول - وقد حدث عليها اختلاف كبير مما جعل تفصيلاتها ومناظراتها ومناقشاتها مستفيضة فى كتب الأصول ، لأن جميع هذه المباحث تقوم على العلة المعقولة لتبنى عليها الأحكام من خلال هذه الأبواب · ولقد عد بعض علماء الأصول القياس وبقية الأصول العقليه من وجوه دلالات نصوص القرآن والسنة ولم يجعلوها أصولاً قائمة بذاتها (١) وجعلها بعضهم أصولا قائمة بذاتها ولكنها مرتبطة بالنصوص وبأهداف الشريعة التى حددتها النصوص · وليس هنالك فرق بين المذهبين فى الحقيقة ·

١٢) الاجتهـــاد :

هذا المبحث حقيقته جمع وتلخيص وترتيب للمباحث السابقه خاصة مباحث الألفاظ والمصادر العقليه · حيث أن تلك الأبحاث تحدد كيف تستخرج الأحكام من النصوص ومن معقول النصوص - والاجتهاد فى النهاية لا يعنى أكثر من هذا المضمون - وفى هذا المقام تدرس نقاط عديدة من بينها : المجتهد وأحواله ويلحق بذلك الافتاء ·

---

(١) أنظر الغزالى جـ ١ ص ٩ ·

١٣) التقليـــــــد :

التقليد من مباحث علم الأصول وان لم تناقشه بعض كتب الأصول ٠ فبدراسته يتبين الحد الفاصل بين الاجتهاد والتقليد ٠ فالتقليد هو ضد الاجتهاد كما وأن المقلد هو فى مقابلة المجتهد ٠

١٤) مباحث متفرقـة :

هنالك مباحث أخرى متفرقة تدرس فى علم الأصول لمعرفة ما اذا كانت مضامينها أصولا تستقى منها الأحكام أم لا نذكرها جملة هنا ٠ تلك المباحث هى : الشرائع السماوية السابقة للإسلام ، قول الصحابى ٠ الاستصحاب ٠

١٥) أهداف الشريعة العامة ومبادئها :

على الرغم من أن هذا المبحث مرتبط بتعليل الأحكام لكن رأينا تخصيصه بمبحث خاص ٠ فربما يفهم من مبحث تعليل الأحكام أن المقصود من ذلك بحث علل الأحكام الفردية ٠ لذا رأينا أن ندقق على أهمية دراسة مقاصد الشريعة العامة من حفظ دين ونفس وعقل ومال ونسل ومن تيسير ورفع حرج ... الخ ٠

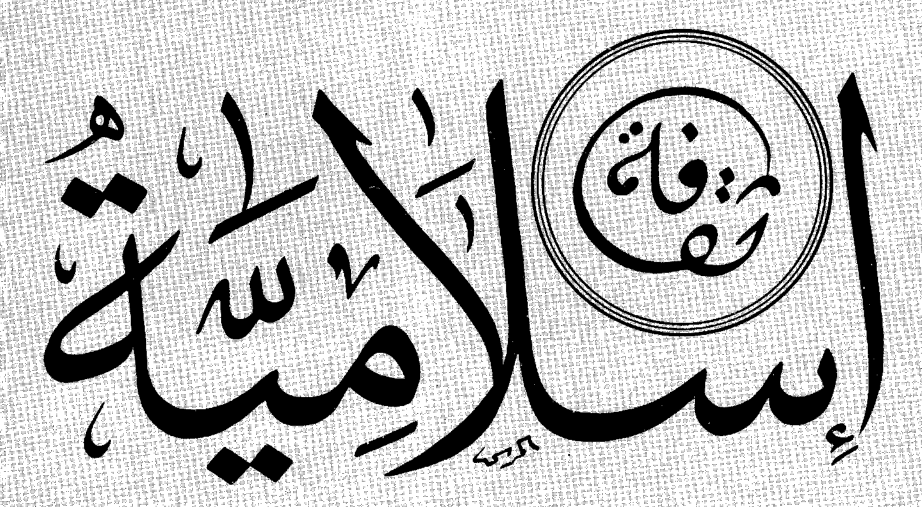
١٦) الثبات والمرونة فى شريعة الإسلام :

هذا المبحث ينبغى أن يدرج ضمن علم أصول الفقه مع أنه بحث فى كتب مستقلة ٠ ولكنى أرى أنه من صميم علم الأصول ٠ فتحديد الأصول والمبادىء التى تقوم عليها مرونة الشريعة وصلاحيتها لكل زمان ومكان من قياس ومصالح والأصول التى يقوم عليها ثبات بعض الأحكام من خصوص وتقييد وتفسير ، كل ذلك لا يتأتى الا من خلال علم الأصول ٠ فهو الميزان الذى نزن به تلك الأسس التى تقوم عليها مرونة الشريعة وصلاحيتها لكل زمان ومكان وهو المقياس الذى نميز به الأحكام التعبدية من الأحكام المدركة عقلا والأحكام الخاصة والمقيدة وغيرها مما لا يدخله تغيير ابدا والأحكام الاجتهادية غير المجمع عليها مما يمكن ان يخضع لاجتهادات جديدة ٠

ففى نظرنا أن هذا الموضوع ينبغى أن يلحق بمباحث الأصول ٠

هذا مجمل ما أردنا أن نقوله هنا حول بيان حقيقة علم الأصول ومباحثه ٠




ثقافة
إسلامية

القرآن الكريم
بين الدراسة والتطبيق

للشيخ محمد الراوي
رئيس قسم التفسير بكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

إن تحولا هائلا قد وقع في الأرض بنزول القرآن صارت معه قافلة الحياة على هدى ونور ونشطت مع فجره نفوس لبت نداء الله فأحياها وجعل لها نورا تمشى به بين الناس وبقى القرآن للحياة بقاء النور في الكون لا يتوقف مده الى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ولم أر شيئا تفجرت به ينابيع الحكمة وامتدت أنهار المعرفة في غير انقطاع كما تم للقرآن الكريم . لقد شغل الناس جميعا من آمن به ومن أعرض عنه وأثر في هذا وذاك مطاوعة ومكابرة ، تأييدا ومعارضة ونجاة وهلاكاً ورفعا وخفضا وحربا وسلما وهزيمة ونصرا ، وظل القرآن في جميع الأحوال وسيظل عزيزا شامخا أبيا ولو تكسرت من حوله السيوف أو ضعفت النفوس « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

لقد نزل القرآن وبنزوله طويت الكتب وختمت الرسالات وحفظت للناس أسباب الحياة وصان الله كتابه من التزييف والتبديل ومضى القرآن في الحياة يعلن الرسالة رسالة الأنبياء جميعا كما جاءت من عند الله وتقيم الحجة على الناس جميعا وعلى أهل الكتاب ويدعوهم إلى كلمة سواء ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله « قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » (الأعراف ١٥٨) .

مضى القرآن يدعو الناس في كل زمن ويتلى عليهم في كل مكان ويحمله موجات الأثير إلى كل بيت ومن قبل كان ينتقل مع حركة الحياة إلى كل مكان هاديا في تجارة تعبر البحار ومع قافلة تنقل الزاد والمتاع وكانت هذه الحركة في نشاطها أسبق وأقوى من وسائل عصرها .. هاكم ساحة الأمن أمام أعيننا ... سلوا التاريخ وسلوا أنفسكم كيف امتد القرآن في هذه الساحة الواسعة بوسائل العصر الذى نزل فيه وكيف استطاع أن يقوم الألسن مع اختلافها ويجعلها تنطق به كما نزل من عند الله أليس من عجائب القرآن أن ترى على الفطرة رجلا يجلس في ظل شجرة تنبت بعيدا عن موطن الوحى يكتب من آيات الله مايكتب ثم يردد بلسان عربى مبين « فاستمسك بالذى أوحى اليك انك على صراط مستقيم وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » (الزخرف ٤٣) ولو جلست تخاطبه باللسان العربى في غير القرآن لاضطربت الألفاظ وذهبت الكلمات وجاءت الاشارات .

ولا أنسى ما حييت منظر بائع متجول في نيجيريا يبيع الفاكهة والثمار يأتى ويجلس في جانب الدار ليبيع ما قدر له ولا يمل من قرب إذا غبت عنه يؤثر البقاء في الظل ولو طال الوقت وعلى وجهه بسمة مشرقة لا تفارقه اشترى الناس منه أو أعرضوا عنه .. خرجت يوما وقد تعودنا عليه فوجدته قد بدأ التلاوة في سورة الأعراف فلم أخاطبه في بيع أو شراء وآثرت أن أسمع وهو يتلو حتى فرغ من القراءة فلم يقع في لحن ولا خطأ مع طول ما قرأ وكنت قد تعودت عند البيع والشراء أن استعمل أصابع اليد في تحديد السعر من أخذ وعطاء اليس دليلا على تيسير الله وهدايته أن ترى ماهرا في القرآن من وصفت حاله ولسانه فلا يتتعتع فيه ولا يكون عليه شاقا . أليس هذا دليلا على عزة القرآن وغلبته أن تتوحد الألسنة المختلفة عند تلاوته كما تتوحد القلوب المتنافرة بتوفيق من الله عند جبله وقد تعجز جميع الوسائل من أن توحد بين اللهجات المختلفة لأصحاب اللغة الواحدة واللسان الواحد كما تعجز في انفاق ما في الأرض جميعا أن تؤلف بين قلبين لا يجمعهما الإيمان ونفسين لا يقود سعيهما القرآن « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » (الاسراء ٩) .

اى والله للتى هى أقوم في كل شىء وانى أقسم بمواقع النجوم وإنه قسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » إن فيه غنى لطالب الحق والراغب فيه ومن قبل كانت المعجزات لزمن محدود لا يتأثر بها إلا من رآها أو عاش في عصرها فهى لا تدوم ولا تكون حجة إلا لمن رآها ولمن شاهدها من جيل أو قبيل . أما القرآن فآية لا تزول وهو حجة على كل من بلغه إلى أن يرث الله الأرض ومن

عليها . آيات تتلى على جميع الناس في كل زمان ومكان » وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون » وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون . وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » ومن لم يكفه القرآن فالنار أولى به فإن الجبال الشم لو خوطبت به لكان حالها كما ذكر الله « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

القرآن يتلى على الناس فهو حجة لهم أو حجة عليهم « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » وكما قال السلف : ما جالس أحد القرآن وقام عنه سالما إما أن يربح أو يخسر وقال ابن مسعود رضى الله عنه القرآن شافع مشفع وحاصل مصدق ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلف ظهره قاده إلى النار ، وعنه قال يجىء القرآن يوم القيامة فيشفع لصاحبه فيكون قائدا إلى الجنة أو شاهدا عليه فيكون سائقا إلى النار . وقال أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه إن هذا القرآن كائن لكم أجراً وكائن عليكم وزراً فاتبعوا القرآن ولا يتبعكم القرآن فإن من اتبع القرآن هبط به على رياض الجنة ومن اتبعه القرآن زج في قفاه فقذفه في النار فقد ورد في السنة الصحيحة ما يؤكد أن موقف الإنسان يتحدد بموقف القرآن شهادة له أو عليه . روى مسلم عن أبى أمامة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه وروى مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع آخرين . وروى مسلم عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا يقدمهم سورة البقرة وآل عمران يحاجان عن صاحبهما .

إن القرآن يتلى وبتلاوته تقوم الحجة وتنقطع المعذرة « إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة التى حرمها وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون » .

آيات تتلى على جميع الناس وترى في الآفاق والأنفس وفي كل زمان . والناس غاديان فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها قال أبو بكر بن عباس قال لى رجل مرة وأنا شاب : خلص رقبتك ما استطعت في الدنيا من ربق الآخرة فان أسير الآخرة غير مفكوك أبداً قال فوالله ما

نسيتها بعد . وكان بعض السلف يبكى ويقول ليس لى نفسان إنما لى نفس واحدة إذا ذهبت لم أجد أخرى . القرآن يتلى ولذا تستطيع أن تقول إن جانب الدراسة لم ينقطع أبدا منذ نزول القرآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فإن الدراسة لاتحتاج لفلسفة متعمقة إنما تحتاج لتلاوة متدبرة وقلوب حاضرة تعرف مقاصد القرآن وهدايته وتستمسك به في نزاهة لا يخالطها هوى أو رغبة ، ولا تقعدها حظوظ عاجلة أو يأسرها منفعة باطلة وعندئذ تقترن الدراسة بالتطبيق وينتصر الحق في نفس الإنسان ويتغلب على هواه ويستطيع الإنسان أن يعرف ذلك من نفسه حين يصادم مطلب الحق مقاصد النفس من مطالب وشهوات فإما أن يؤثر الحق ويرضى به وإما أن يركن إلى النفس ويخلد للأرض . ولا تمر الحياة على إنسان دون تجربة أو امتحان « ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) العنكبوت آية ١ ــ ٣ ، (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » محمد آية ٣١ .

وكل جيل من الأجيال يمر بالتجربة ، ويأتى الجزاء من جنس العمل جزاء المحسن على إحسانه وجزاء المسىء على إساءته « ولله ما في السموات وما في الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » والقرآن الكريم يسجل لنا نتائج كل شىء وبين سمات الهالكين وصفات الناجين لكى نعى ونتدبر ونحذر « قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين » ومع القرآن الكريم لنعرف سنن الله في خلقه ونبصر عواقب الأمور ونتائجها ونرى من تأسوا بنبيهم وكان القرآن لهم خلقاً كيف صدعوا به وارتقوا ؟! والقرآن يوضح لنا مواطن الفوز والنجاة ويبين خصائص من يرفعهم الله ومن يخفضهم ، تقرأ القرآن « اذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة » والدراسة تعى الدلالة وتعرف المقصود والتطبيق والعمل . يبين أن من الناس ناساً يتعلقون بالرغائب وينسون العواقب وربما فقدوا صفاتهم من أجل أن ينالهم عرض من زخرف الدنيا وزينتها وقد يختلط عليهم إكرام العبد في دار الجزاء وتفاوت الحظوظ في دار الابتلاء فتلهيهم العاجلة عن الآجلة ، والقرآن الكريم يوضح ذلك في مواطن كثيرة ليأخذ الناس بأسباب الرفعة وأسباب الحياة « وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة والسابقون السابقون » وبين القرآن من هم السابقون ومن هم أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة ، ويذكر جزاء كل فريق ، ثم يبين في نهاية السورة أن هذا الجزاء مرهون بالأجل فإذا جاء الأجل وما أسرع أن يجىء لقى كل فريق جزاءه « فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان

من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم إن هذا لهو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم » ٠

إن هذا البيان لا يعزل الناس عن الحياة الدنيا أو يزهدهم فيها إنما يصحح أمرها بالآخرة ٠ والعاجلة لو قصدت وحدها لقادت أصحابها إلى النار والدمار « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » ، « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » ٠ وكل حسبان أن الخير في عاجل يعطاه الإنسان من مال وبنين رده القرآن وبين أنها زينة والزينة يخدع بها من غفل عن العاقبة « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ٠ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين في الأسحار » ٠

فواضح أن الآخرة تُطلب بصفات وهذه الصفات لا يتوفر للناس الأمن والسلام إلا بها ، فهى لدنيا الناس أمن وسلام ، ولآخرتهم نور ورضوان وواضح أن حسبان الأمر غير هذه الصورة دليل على عدم الشعور بحقائق الأمور « أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون » وإذا أصيب الناس بعدم الشعور رغبوا في الزينة والمتاع وغفلوا عما ينتظرهم من حساب وجزاء ولم يستطيعوا أن يفرقوا بين ما يعطى للإنسان استدراجا وإملاءً وبين ما يعطى تعليماً وجزاءً ، إن فقدان الشعور وتبلد الحواس يلحق الإنسان بالأنعام بل ينزله به دونها وعندما تختلط الأمور فلا يفرق الناس بين العاجلة والآخرة وبين ماهو فانٍ وماهو باقٍ ويؤثرون ما يفنى على ما يبقى ويحبون العاجلة ويذرون الآخرة ٠ عندئذ تتحول الأمة إلى غثاء كغثاء السيل ولا يغنى عنها شيئا من وفرة عددها وكثرة ما بيدها وهذا ما حذر منه الرسول صلى الله عليه وسلم (ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم) وفي الحديث المتفق عليه عن عقبة بن عامر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه خرج إلى قتلى أحد فصلى عليهم بعد ثمان سنوات كالمودع للأحياء والأموات ثم طلع المنبر فقال : إنى بين أيديكم فرد وأنا شهيد عليكم وإن موعدكم الحوض وإنى أنظر اليه من مكانى

هذا وانى لست أخشى عليكم أن تشركوا ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها ، قال فكانت آخر نظرة نظرتها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم) وفي رواية ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها وتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم فقال عقبة فكانت آخر ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر من القرآن الكريم ومن بيان الرسول صلى الله عليه وسلم نرى نتائج الأعمال وآثارها في نجاة الأمم أو هلاكها وبالعمل كما أمر الله ورسوله يكون

القرآن حجة لنا وبالدراسة وحدها يكون حجة علينا لأن الدراسة فهم وعلم وبالعلم تقوم الحجة ، والتطبيق تنفيذ وعمل وعليه يكون الجزاء وبه تقع قيمة الدراسة ويعلو شأنها « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته . قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون قل ياقومى اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم « إنا انزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل » .

الدراسة هنا تفهم الدلالة والتطبيق يقتضى ألا نستعين إلا بالله وأن نأخذ بالأسباب والاستعانة بغير تفريط أو استهانة بأن تخلص القصد لله وتستقيم كما أمرنا وأن تكون جميع أقوالنا وأعمالنا لإعلاء كلمة الله ولنصرة دينه عندئذ نصدق في حسن التوكل عليه وطلب النصرة والنجاة منه وإن فعلنا ذلك فلأنفسنا وإن فرطنا فعليها وما ربك بظلام للعبيد « أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » الدراسة هنا تفهم الدلالة والتطبيق يقتضى استقرار النفس بما أعطيت وهذا الاستقرار دلالة صدق وإيمان لأن الآيات إذا لم يظهر أثرها في الحياة تكون قد وقفنا بها عند الدراسة فحسب وهذا قدر قد يزيد من حسابنا ويقيم الحجة علينا ، (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون حتى اذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) .

هذا بيان لنتائج العمل الجاحد الخاسر إذ العمل المقبول عند الله لا يكون إلا بصدق الولاء له وحسن الاستقامة على دينه وكل شيء يناصب الإنسان العداء إذا عادى الإنسان ربه حتى جوارحه التى ينالها من العذاب ما ناله تخضع وتخشع لإرادة الخالق لا إرادة المخلوق ولا

يملك الإنسان في فترة الحساب إلا أن يجعلها طوع إرادته كما طوعها في فترة الامتحان في الحياة الدنيا والتطبيق العملى لفهم هذه الآيات أن يتجنب الإنسان ما من شأنه أن يقع فيما وقع فيه الجاحدون ويتقى الله في السر والعلن (قل آمنت بالله ثم استقم) إذ لا فائدة من الدراسة إذا عرفنا مصير الجاحدين وفعلنا فعلهم وياويل من أضله الله على علم والقرآن الكريم بين مصير هؤلاء ويذكر جزاء من آمن واستقام في آيات متباينة بلا فصل « ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاءً بما كانوا بآياتنا يجحدون » · « وقال الذين كفروا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين » بعد هذا نقرأ « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم » ·

وتلك طريقة القرآن في إعطاء النتائج متقابلة ومتجاورة فمن ضاقت أنفاسه من عقاب أولئك ـ فليأخذوا طريق النجاة ليكون ممن أنعم الله عليهم ورضى عنهم ومن رأى كيف تكون العداوة هناك بين الجاحدين فليأخذوا طريق أخوة المؤمنين وصداقة المتقين « هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون · الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين · ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون · وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون أم يحسبون أنا لانسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون » الزخرف ·

وهكذا نجد القرآن الكريم يقدم لنا بيان كل شيء ويوضح النتائج التى تترتب على الأعمال ، وكثيراً ما يقدمها في أسلوب الشرط والجزاء أو الأمر وجوابه وهى أشد انضباطا في المعادلات الرياضية التى لا يختلف الناس على أمرها « من يعمل سوءاً يجز به » ـ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » « ومن يهن الله فماله من مكرم إن الله يفعل ما يشاء » « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا » « ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا » « ومن يشاقق

الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم » « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم الى ربكم ترجعون » « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً » .

وربط الجزاء والنتيجة بالمقدمة « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا » . « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » . « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم » « إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم » « إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين » « إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون » .

ان القرآن الكريم يتلى على الناس جميعا وقد يسمعه المتقون والفجار ولكن مواقف الناس لا تتحدد بالسماع والدراسة وحدها فإن العلم بالشيء قد يستوى فيه بار وفاجر وإنما تتحدد مواقف الناس بالعمل وما يشفع إليه بالبيان وفرق بين الاتباع والاعراض ، والجهاد والقعود والطاعة والمعصية واتباع سبيل المؤمنين أو اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين وكل ذلك سيوزن بميزان دقيق « ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا » « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » « ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ماكنتم تعملون . وهذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنتسخ ما كنتم تعملون فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته وذلك هو الفوز المبين وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين » .

ولذا فإن النفر من الجن لما سمعوا القرآن علموا أن السماع يتبعه الإجابة والتنفيذ وإلا لزمت الحجة « فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم » قاموا بتبليغ ما سمعوا وكانوا أمناء صادقين طلبوا من قومهم أن يجيبوا داعى الله وأن يؤمنوا

به وبينوا الجزاء « يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم » وحذرهم من عدم الإجابة تحذيرا بالغاً « ومن لم يجب داعى الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين » لقد فهم هؤلاء النفر من الجن دلالة ما يتلى من الكتاب فلم يقفوا عند حد السماع وحده أو الدراسة وحدها بل قاموا بواجب التبليغ على خير وجه وحددوا موقفهم على أساس من هذا الدين « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا » . عرفوا النتائج وبلغوها إلى قومهم وعلموا ألا نجاة إلا بالصدق مع الله ولا ملجأ من الله إلا إليه « وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا » يقول الله تعالى « غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير » . ويقول سبحانه وتعالى : « إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار خير أمن يأتى آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير » .

إن القرآن الكريم لحركة الحياة ولشرفها وطهارتها بل هو الحياة نفسها لأنه روح ولا حياة بلا روح ونور ، وهل يستوى من أحياه الله وجعل له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له مافي السموات ومافي الأرض ألا إلى الله تصير الأمور » « فاستمسك بالذى أوحى إليك أنك على صراط مستقيم وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تُسألون » .

والذكر يطلق على الشرف ويطلق على البيان والتذكرة فإذا أعرض من شرفهم الله به فقد رضوا لأنفسهم أن يعيشوا بلا شرف وأن يسيروا على غير هدى وفي ذلك من الإساءة لأنفسهم في عاجل أمرهم وآجله مافيه .

إن جيل القرآن الأول لم ير لنفسه شرفاً في غير ما شرفه الله به ولم يبتغ العزة في غير ما أعزهم الله به ولذا كانت دراستهم للقرآن دراسة علم وعمل وكانت مواقفهم معبرة عن مدى تأثير القرآن في نفوسهم وكان بيان الرسول صلى الله عليه وسلم أمام أعينهم تطبيقاً عملياً للقرآن يتبعونه ولا يخافون وماكان لهم الخيرة من أمرهم إذا قضى الله ورسوله أمرا « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا » كانوا لا يتباطؤون فيما أمروا به ولا يلتفتون لما نهوا عنه ان

سمعوا من رسولهم « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » قاموا إليها مسرعين يقول قائلهم : « والله لئن بقيت حتى آكل تمراتى تلك إنها لحياة طويلة » وإن أرسلهم الرسول صلى الله عليه وسلم دعاة إلى الله فواجهوا الخطر استقبلوه راضين مستبشرين وإن طعنوا في سبيل الله حمدوا الله أن جعلهم من الفائزين . وإن خرجوا إلى أعدائهم لم يخرجوا بطراً ورئاء الناس بل دعاة إلى الله يعلون كلمة الله بأنفسهم وأموالهم ولا يرون لأنفسهم حظاً إلا فيما عند الله ولا ينشدون إلا رضاه ·

في الحديث المتفق عليه عن أنس رضى الله عنه جاء ناس للنبى صلى الله عليه وسلم وقالوا : (ابعث معنا رجالاً يعلموننا القرآن والسنة) فبعث معهم سبعين رجلًا من الأنصار فيهم خالى حرام يقرأون القرآن ويدرسونه بالليل ليتعلموه وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء فبعثهم النبى صلى الله عليه وسلم فعرضوا لهم فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان فقالوا اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا أو أتى رجل حراما خال أنس من خلفه فطعنه برمح حتى أنفذه قال حرام « فزت ورب الكعبة » فقال الرسول صلى الله عليه وسلم إن إخوانكم قد قتلوا وإنهم قالوا اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا ··· تلك دراستهم وهذه مواقفهم دراسة تعتنى بتدبر القرآن وتنفيذ أمره ويأتى الامتحان بعد الدراسة في مواطن كثيرة فلا يتعثرون في إجابتهم ولا يجيب أحد منهم إجابة خاطئة بل تكون إجابتهم درساً للإنسانية كلها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لقد أرسلهم الرسول صلى الله عليه وسلم ليكونوا دعاة لفريق من الناس في زمنهم فكانوا باجابتهم دعاة للزمن كله وللناس جميعا بعدهم ·

كانوا يقرأون القرآن ويتدارسونه بالليل ليتعلموا فأعدت نفوسهم بالقرآن إعداداً يواجه الحياة بسرائها وضرائها بيسرها وعسرها في ثبات لم تتبدل نفوسهم بتبدل الأحوال ولم تتغير بتغير العوارض · يقول عتبة بن غزوان وهو يخطب الناس في البصرة وكان أميراً عليها لقد رأيتنى سابع سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مالنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت اشداقنا فأخذت بردة فشققتها بينى وبين سعد بن مالك فأتزرت بنصفها وسعد بنصفها فلم يصبح منا أحد إلا وأصبح أميراً على مصر من الأمصار وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسى عظيما وعند الله صغيرا · هذا حالهم في العسر وهم رجال في جميع الأحوال لا تتغير نفوسهم بتغير الأحوال ·

وبعد مرة أخرى فإن المسلمين لا يستطيعون في كل زمان ومكان أن يواجهوا قضايا عصرهم وزمانهم إلا بالقرآن يعتصمون به في روابطهم ويقيمون أحكامه في حياتهم ويجاهدون

به أعداءهم ويصلحون به دنياهم ويستقبلون به آخرتهم ولقد اقتضت سنة الله في خلقه أن تكون هداية الله سبباً لنجاتهم « فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى » ولقد أدرك جيل القرآن الأول منذ اللحظة الأولى أن أقوى العدة والعتاد في مواجهة أعدائهم أن ينتصر دين الله في نفوسهم وأن يكونوا أهلا لنصر الله فإذا تخلف عنهم بحثوا في عيوب أنفسهم وهم يعلمون أن الذنوب أخطر على المسلمين من العدو وعلى أنفسهم ، ولقد كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتابا إلى سعد بن أبى وقاص لما أرسله إلى فتح فارس جاء فيه :

أما بعـــــد : فانى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة على الحرب آمرك ومن معك من الأجناد أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصى منكم من عدوكم فان ذنوب الجند أخوف عليهم من عدوهم وإنما ينتصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ولم تكن لنا بهم قوة لأن عدونا ليس كعدوهم ولا عدتنا كعدتهم فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة وإن لم ننتصر عليهم بفعلنا لم نغلبهم بقوتنا ، واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منه ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا فرب قوم سلط عليهم شر منهم كما سلط على بنى إسرائيل لما عملوا بمعاصى الله كفار المجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألوه النصر على عدوكم . (الله أكبر .... الله أكبر) .

تستطيع أن ترى في كل كلمة من هذه الكلمات قبساً من نور القرآن أو هدى النبوة ، إن ناسا شغلوا أنفسهم فأصلحوها وفروا إلى الله موحدين جديرون أن يخاطبوا من قبل الله عز وجل إكراما لهم « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » . إن العالم كله في حاجة إلى نور القرآن لتصان كرامة الإنسان الذى صار في عصرنا هذا أرخص شيء في دنيا الناس . العالم في حاجة إلى القرآن ليكون الحق والعدل أساساً في معاملة الإنسان للإنسان ، ودراسة القرآن لم تتوقف ولن تتوقف أبداً بإذن الله لأنه يتلى ويكفى أن يتلى ولكن الذى يتوقف أحياناً هو التطبيق وبه يتباين جيل عن جيل ويعز ناس ويذل آخرون ، وجيلنا هذا قد انحسر عنه التطبيق في كثير من دياره إلى درجة لم يسبق لها نظير فانحدر المسلمون إلى درجة لم يسبق لها مثيل ولكن من رحمة الله بخلقه أن حفظ لهم الذكر كما حفظ لهم بفضله بيانه فجمع الأسباب التى صعدت بأسلافنا ورفعهم الله بها قائمة أمام الأجيال كلها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها كتاب

وسنة فهل نستطيع أن نجعل دراستنا عملاً وتطبيقاً كما كان أسلافنا من قبل ، أم نطمع من الدراسة بالشهادة والألقاب وإن فعلنا ذلك كان القرآن حجة علينا فإن عملنا به مقتدين بالرسول صلى الله عليه وسلم كان القرآن حجة لنا ٠

نسأل الله أن يجعله حجة لنا لا علينا .... وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ،،،

* * * *

نكون أسعد الخلق لو وصلنا اليه بعد ألفى عام

إن البشرية لتفخر بانتساب رجل كمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليها ٠ إنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتى بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد الخلق لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي عام ٠

شبرل

عميد كلية الحقوق بجامعة فيينا



لمحـــــة لغويـــــة :

الشباب جمع شاب وقد تجمع على (شبان) كفارس وفرسان ، وقد تجمع على (شببة) ككاتب وكتبة . جاء في السيرة : لما برز يوم بدر عتبة وشيبة والوليد برز لهم شببة من الأنصار ، وقال ابن عمر رضى الله عنهما : كنت أنا وابن الزبير وشببة معنا . والمؤنث منه شابة وتجمع على (شواب) كدابة ودواب .

ومادة (ش ب ب) من باب (ضرب) تشير هى وجميع مشتقاتها إلى معنى القوة والفتوة والحداثة والجمال والنماء . فالشؤبوب هو الدفعة من المطر . وأول كل شىء وشدة دفعه يطلق كذلك على شدة حرّ الشمس . وفرس مشب هائج متمرد عَصِيىّ القياد . والشباب بالكسر النشاط .

ومن معانيها الحداثة والابتداء تقول فعل فلان هذا الشىء في شبابه أى في أول عمره وحداثة سنه وتقول : سافر فلان في شباب الشهر أى في أوله . وتقول جئتك في شباب اليوم أى في أوله ومنه التشبيب ، وهو ما يذكر في أول القصيدة من ذكر النساء ، وما يتصل بهن ، ويدور حولهن قالت أم معبد : لما سمع حسان قولا لهاتف شبب بجارية ، أى أخذ يجاوبه من التشبيب وهو الابتداء بالكتب والأخذ فيها .

ومما تحمله المادة الحسن والجمال تقول : شب الخمار لون المرأة أى زاد في بياضها وجمالها ، لأن الضد يزيد في الضد ، ويبدو ما خفى منه ، لهذا قالوا : (وبضدها تتميز الأشياء) وقالوا (والضد يظهر حسنه الضد) ومنه قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين جىء له بجواهر ولآلىء : يشب بعضها بعضا · أى يزيد بعضها في جمال بعض ·

من معانيها النماء والزيادة تقول شب فلان أى كبر وزاد حجمه · ومنه قول جزيمة الأبرش : شب عمرو عن الطوق · أى نما جسمه وزاد حجمه ، حيث الطوق لم يعد يمكن الدخول في عنقه ·

والإنسان إذا بلغ السادسة عشر من عمره يسمى (شابا) حتى سن الأربعين ثم هو كهل حتى سن الستين ومن ثم يسمى (هرما) حتى يموت · وهذه الحدود ليست موضع اتفاق ولا هى حدود بارزة كحدود الحجرات في المنزل ولكنها حدود وهمية كخطوط العرض والطول · ومن ثم فقد نرجع بالحديث عن الشباب الى ما قبل مرحلة الشباب لما بين هذه المراحل من تداخل واضح وارتباط وثيق ··

سر الاهتمام بالشبـــــاب :

يمثل الشباب من حيث الكم ٦٠ ٪ من مجموع الأمة · ومن حيث الكيف يمثل قلب الأمة النابض وقوتها الدافعة ودرعها الواقى ·· هم بُدورها إذا أظلم ليلُها ، وهم سيوفُها إذا جَلَّ خطبها ·· هم كنزها المدخر ، ورصيدها المعتبر ·· ومستودع آمالها ، وموضع ثقتها ورجائها ·

إذا نظرت بعين الحقيقة إلى فترة الشباب ، وجدتها فترة التأثير والتأثر ، والعطاء والبذل ، لأننا ونحن نعد الشباب نستثمر مواهبه ، ونفجر طاقاته ونستغلها في البناء والتعمير ، ودفع العدو المغير · هى فترة الحاجة الماسة إلى التوجيه والترشيد والتبصير والعناية والرعاية ·· هى فترة وضع حجر الأساس ، وكلما كان الأساس متينا كان البناء قويا شامخ الذرى ، وكلما كان الأساس ضعيفا كان البناء هشا سرعان ما يتحطم وينهار عند أول هبة ريح أو رشة مطر ·

إذن هى فترة لها ما بعدها ، ومرحلة لها أثرها الخطير في المستقبل : سلبا أو ايجابا ، صلاحا أو فسادا ، سموا أو هبوطا فلا غرو إن وجدنا رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام يوجه بحسن استغلال هذه الفترة فيقول : (اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وحياتك قبل موتك ، وفراغك قبل شغلك) كما نجده يوجه الشباب إلى كل ما يحفظ عليهم صحتهم ، ويستبقى قوتهم ، ويصون أخلاقهم فيقول : « يا

معشر الشباب من استطاع منكم الباءة ـ المقدرة على الزواج والقيام بواجباته الحسية والمعنوية ـ فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » ·· أى وقاية من الوقوع في الفاحشة والآثام ـ وإنما خص الشباب بوصيته الغالية لحاجتهم إليها بحكم نوازعهم الفطرية · والشباب في هذه السن الباكرة يكونون أصلح للتربية والتوجيه ، واسمع للنصح والترشيد ، فإذا وجدوا من يأخذ بأيديهم اتبعوه ، وعملوا بأمره ·

من هنا كان السرُّ في إقبالنا على الشباب ، وعنايتنا به ورعايتنا له حتى يمضى إلى غايته الكبرى وهدفه الأسمى مصونا من الانحراف الفكرى والتدهور الخلقى والضعف العقلى · أما إذا تركناه هملا بلا رعاية ، وسدى بلا ولاية فلسوف يتضعضع كيانه ، ويضمر بذله وعطاؤه ، ويستشرى خطره وفساده فيصبح نقمة بعد أن كان نعمة ، ومحنة بعد أن كان منحة ، وبلاء بعد أن كان نفحة وعطاء ·

إن شبابنا اليوم يواجه هجمة استعمارية فكرية شرسة تحاول زعزعة إيمانه وزحزحة أقدامه ، وضعضعة كيانه ، فلا بد من تسليحه بالسلاح الذى يصيب مقاتلها · إن أعداءنا لما عجزوا من غزونا عسكريا لجأوا إلى غزونا فكريا · وبتعبئة الأمة وتجنيد طاقاتها وإعداد شبابها سيؤول أمر الغزو الفكرى مآل الغزو العسكرى : هزيمة نكراء وفشلا ذريعا · إذا شيدوا للشباب المراقص شيدنا له المساجد ، وإن أقاموا له الحفلات الغنائية أقمنا له الكتائب الليلية ، ليكونوا رهبانا بالليل وفرسانا بالنهار ، لينشدوا أراجيز الحرب والقوة بدل التغنى بفنون اللذة ···· ليحرصوا على الموت أكثر من حرصهم على الحياة وحبهم لها ·· ليقتلوا أعداءهم بدل قتلهم أوقاتهم ·· وهكذا نواجه مكر أعدائنا بمكر أدهى ، وهجماتهم بدفاع أعتى حماية لشبابنا ، وصونا لعقيدتهم وحقيقتهم ····

لمـــاذا نعـــد الشبـــــاب ؟

السؤال الذى يطرح نفسه أمامنا ماهى الأهداف التى من أجلها نهتم بتربية الشباب وإعداده ؟ هل نُعِدّ الشباب ليكون ـ صالحا في نفسه غير مصلح لغيره ؟ هل نعد الشباب ليكون مهتما بأمره هو ، لا بأمر غيره ؟ هل نُعِدّ الشباب ليتمثل فيه الدين ثقافة وعلما ؟ هل نربى الشباب ليؤدى شعائر الإسلام من صلاة وصوم وحج وزكاة ؟ هل نربى الشباب ليكف بصره ، ويصون فرجه ويحفظ جوارحه ويرسل لحيته وكفى !؟ ·

الواقع أن السؤال الواحد تفرعت عنه أسئلة ، ولكنها نشأت عنه وارتبطت به كارتباط الفروع بالشجرة · ونجد المفكرين ورجال الإصلاح يجيبون على هذه الأسئلة إجابات كافية شافية ، فهم يرون أن المرمَى من إعداد الشباب أن يكون هو في ذاته صالحا ، لأن الفاسد لا يصلح غيره · ثم يقوم بمهمة التغيير والتحويل والتبديل ··· نعدُّه ليكون ثورة الحق على الباطل ، وحملة الإيمان على الإلحاد ، وكتيبة الصدام في وجه الأعداء ··· نعدُّه ليصون دينه ووطنه من خطر المذاهب الهدامة والأفكار الملحدة المنحلة ·· نعدُّه ليكافح بحزم لا هوادة فيه البدع والخرافات وأنواع الضلالات ·· نعدُّه ليخرج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام ، نعدُّه ليمسح بيده الحانية القوية آلام أمته وآلام الانسانية ، ويوفر للحياة جوا من الطهر والأمن والسعادة ·· نعدُّه ليمزق بسيف الحق جيوش الباطل ، ويبدد بنور العلم ظلام الجهل ·· نعدُّه ليقود أمته بقوة العزيمة وشدة الشكيمة إلى حيث يضعها في مكانها اللائق بها تحت الشمس ·· نعدُّ في الشباب سواعده لتحمل راية الإسلام ودعوته ، نعدُّ عقوله لتحمل فكر الإسلام وثقافته ·· نعدُّ أرواحه لتحمل هدى الإسلام وصفاءه وشفافيته ·

وإن الشباب لقادرون على كل ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ إذا وجدوا العناية الفائقة ، والتوجيه السديد ، والمتابعة الدقيقة التى تراقب خطوهم ، وتزيل العقبات من دروبهم · ونحن نرى كيف أن المذاهب المختلفة تتلقف الشباب ، وتحتضنهم بالجماعات ، وتعدُّهم إعدادا ، ليقوموا بمهمة الدعوة إليها والذود عنها ، وهى في سبيل ذلك ترسم الخطط المحكمة ، وتجند الطاقات الهائلة ، وتنفق الأموال الطائلة ، لتضمن بقاءها على أيد قوية ، وعزائم ماضية فتية ·

وعلى الشباب أن يدركوا هذه الحقيقة ، ويَعُوا تلك الغاية البعيدة المدى ، وتكون همّهم الملازم ·· ينامون به ، ويقومون به ويمشون به بين الناس ، عاقدين عليه قلوبهم ، حانين فوقهِ ضلوعهم :

قد رشحوك لأمر لو فطنتَ له   فاربأْ بنفسك أن ترعى مع الهمل

الشبـــاب عنوان الأمـــــة :

إذا أردت أن تعرف ماهية الأمة وحقيقة أمرها ، فلا تسأل عن ذهبها ونشبها وبترولها ورصيدها المالى ، ولكن انظر إلى شبابها فإن رأيته شبابا متدينا متمسكا بقيمه الأصيلة منشغلا بمعالى الأمور ، قابضا بأذيال الكمال وأهداب الفضائل ـ فاعلم أنها أمة جليلة الشأن رفيعةُ القدر والجاه قوية البناء ، مرفوعة العلم لا ينال منها عدو ، ولا يطمع فيها قوى ·

وإذا رأيت شباب الأمة هابط الخلق والقيم ، منشغلا بسفاسف الأمور ، يتساقط على الرذائل كما يتساقط الذباب على جيف الفلاة - فاعلم أنها أمة ضعيفة البناء مفككة الأوصال هشة الإرادة ، سرعان ما تنهار أمام عدوها ، فيستلب خيراتها ، ويحقر مقدساتها ، ويهين كرامتها ، ويشوه تاريخها وثقافتها ٠

وتلك حقيقة جلية لا يزيدها تعاقب الزمن إلا رسوخا ووضوحا ، لأنها جاءت نتيجة لتجارب الأمم وحوادث التاريخ وسنن الكون ٠٠ إن الشباب هو عنوان الأمة والمتحدث بلسان حالها ، والمترجم عن مصيرها ومآلها - تستطيع الأمة بشبابها - بعون الله - حماية دينها وأرضها واستخراج كنوزها ، وتطويع مواردها ، واستغلال خيراتها ٠٠ إلا أن ذلك مرهون بتربيته والعناية به وصيانته من كل خطر يهدد خلقه وعقيدته ٠٠ ذلك مرهون بتمكن الإيمان في قلبه وبين جنبيه ٠٠ ذلك مرهون بتنمية روحه وضميره وعزمه وفكره تلك هى التنمية المطلوبة ، والتى ينبغى أن نهتم بها أكثر من غيرها كتنمية الموارد الطبيعية ، لأن الأخيرة هذه إنما تدار من أجل الإنسان فهو إذن قطب الرحى ، فالاعتناء به ينبغى أن يكون في مقدمة مانعتنى به ، وفرق بين تنمية تدفع إليها الحاجة ، وتنمية يسار إليها مع الحاجة ٠

لعلنا على اتفاق أن حاجتنا الملحة هى تنمية شبابنا ليكون عنوان الأمة والناطق بلسانها والذائد عن حياضها ٠ إذا وجدت غريقا جائعا يستغيث من الغرق والجوع فإن منطق العقل والحكمة والحاجة يقتضى أن تنقذه أولا ثم تذهب فتبحث له عن طعام ، وإن أنت تصرفت على غير هذا النحو تكون قد جافيت الصواب ، وأخطأت التصرف ٠

ماذا نقول عنك لو أنك تركته لأمواج البحر تبتلعه ، وذهبت تبحث له عن طعام ؟

وانها لتنمية تعلو في درج المشقة ، درجات ، وتمضى في مشوار الصعوبة أشواطا ، وتتقدم على التنمية المادية بمسافة شاسعة ، إذ ليس بناء النفس كتشييد العمارات ، ولاتعمير الأرواح كتأسيس المصارف ، الأمر اذا يحتاج منا الى منهج رشيد وجهد مكثف يقرب البعيد ، ويسهل الصعب ويجعل القول عملا والخيال واقعا ٠

ونحن لا نقلل من أهمية التنمية المادية المتمثلة في النهوض بالناحية الاقتصادية والزراعية وغيرهما ، ولكن الذى نعيبه هو الانشغال بها عن التنمية الروحية والتربية الدينية ٠٠ فهلا سارت التنميتان معا كركبتى بعير ، أو كفرسى رهان ، إن لم تتقدم الثانية على الأولى ٠

مظاهر الاهتمـــــام بالشبـــــاب :

لم يبدأ اعتناء الإسلام بالشباب عند بلوغهم سن الشباب · بل اعتنى بهم وهم نطف في اصلاب آبائهم وترائب أمهاتهم وذلك حين دعا إلى :

١ ـ اختيار الزوجة والتحرى من كرم أصلها وطيب منبتها ، لأن الانسان إذا أراد أن يبذر بذرا اختار له الأرض الصالحة بغية أن يخرج نباته بإذن ربه ، والأمر بالنسبة للزوجة أجل خطبا وأعظم هولاً ، لأنه إنتاج بشرى وذاك إنتاج زراعى ، وفرق شاسع بين إنتاج وإنتاج ، فلا عجب إن دعا الإسلام إلى التدقيق في اختيار الزوجة والنظر إليها والوقوف على أخلاقها ودينها حتى يكمل الانسجام ، وتزداد المحبة ، وصولا إلى عش الزوجية الهادىء الذى يستقبل الأبناء في عطف وحنان فيترعرعون في ظله ليقدمهم إلى المجتمع رجالا أصلاء ونساء عريقات ·

٢ ـ من آداب المعاشرة الزوجية أن يسمى الرجل الله تعالى ، ويأمر زوجته بها اتباعا للسنة وعملا بقوله صلى الله عليه وسلم : « لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنا فقضى بينهما ولد لم يضره الشيطان أبدا » وهكذا يدعو الابوان لابنهما قبل أن يولد بل قبل تكوينه ·· حتى إذا جاء إلى الحياة نشأ نشأة رحمانية بعيدة عن غواية الشيطان ومكائده ·

٣ ـ حينما يولد المولود نؤذن في أذنه اليمنى ، ونحنكه بمضغ تمرة ووضعها في فيه ، وندعو له بالبركة ، ثم نعقّ له في اليوم السابع ، ونختار له اسما حسنا ، وهذه كلها معان خيرة تتعاون على رسم بداية طيبة لحياة قادمة مليئة بالكرامة والخير والاستقامة والسعادة ·

٤ ـ حفظا لفطرة المولود من أى شيء يغيرها ، ويعكر صفوها نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ من استرضاع المرأة الحمقاء حتى لا يتعدى حمقها إلى الطفل متسربا إلى نفسه الذكية مع لبنها ، فيلوثها بما يشوه جمالها ، ويغير طبيعتها ·

٥ ـ أمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يطعم الطفل ، ويغذى من حلال لأن الذى ينبت لحمه من حلال ينشأ وهو يحب الحلال ـ كما أن الذى ينبت لحمه من حرام ينشأ وهو يحب الحرام ، ولا يخفى مافي هذه المسألة ، من خير كثير في شقها الأول ، ومن شر مستطير في شقها الثانى ·

٦ ـ اذا بلغ الأطفال السابعة من أعمارهم أمرناهم بالصلاة فإن داوموا عليها فبها ونعمت ، والا ضربناهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقنا بينهم في المضاجع حتى لا يلتفتوا إلى

أشياء جنسية ، في وقت مبكر هم لم يتأهلوا لها عقليا فتؤثر في اخلاقهم وتنحرف بسلوكهم · ومن حكمة الله ورحمته بخلقه أن الإنسان لا يبلغ الحُلُمَ إلا في مرحلة متأخرة يكون فيها عقله قد نما وأصبح يدرك الأمور ويتحكم لحد ما في رغبته ، وكبح جماح شهوته ·

٧ ـ يزود الإسلام الشباب في وقت مبكر بثقافة جنسية تتناسب مع سنه وتصلح أساسا لثقافة جنسية كاملة فنحن نعلمه الصلاة نعرفه بآداب قضاء الحاجة ، ونواقض الوضوء ·· وهكذا · والثقافة الجنسية لازمة للأولاد لأنها ترشد سلوكهم ، وتضبط نوازعهم ، وتصون خطاهم من الانحراف ·

إشـــــــادة وتكريم :

إن الشباب اذا أخلص انتماءه لدينه تمسكا به ودعوة إليه وجهادا في سبيله استحق أن يحلى صدره بأوسمة المجد والفخار ·· قال تعالى إشادة بأهل الكهف الذين فروا بدينهم ، وآووا الى كهف حفاظا على عقيدتهم ، وتعرضا لرحمة ربهم قال سبحانه : « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » ، فسجل موقفهم قرآنا عربيا يتعبد بتلاوته ، وقال عز وجل تنويها بموقف ابراهيم عليه السلام الذى وقف يصيح بكلمة التوحيد في وجوه قومه الذين عبدوا الأصنام ، وأمام صيحته القوية العالية ، انخلعت قلوب القوم ، وخابت وخسرت أصنامهم ·· قال سبحانه : « قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم » ورسولنا الأعظم يثنى على الشباب المتدين الناشىء في طاعة ربه ، ويجعله مع الحكام العادلين والأخوة المتحابين والأغنياء المتصدقين وبقية السبعة الذين يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله ·

كما نجده عليه الصلاة والسلام يسند إلى الشباب أرفع المناصب وأخطر المسئوليات فيسند إلى على رضى الله عنه وكان في ريعان الشباب وميعة الصبا ـ أن ينام على فراشه ليلة تسور عليه سبعون فتى من فتيان قريش ينتظرون (ساعة الصفر) ليميلوا على رسول الله ميلة رجل واحد ـ أمره أن ينام على فراشه ليعمى عليهم أمرهم وأحسن التخلص عليه الصلاة والسلام حيث كانت بداية الهجرة النبوية المباركة · أما على رضى الله عنه فقد قال فيما بعد عن نومه في فراش النبى صلى الله عليه وسلم : (والله ما نمت ليلة أهدأ من تلك الليلة) ·

ويسند عليه الصلاة والسلام مهمة الدعوة في المدينة إلى مصعب بن عمير وكان شابا في مقتبل العمر ـ فقام بواجبه على خير وجه ، وبلغ من التوفيق والنجاح أن أهل المدينة يكادون يكونون قد اسلموا جميعا على يديه ، وفي غزوة (أحد) نجده عليه الصلاة والسلام يرجح رأى الشباب على رأى الشيوخ فيخرج لمواجهة العدو خارج المدينة ، كما وكل قيادة الجيش الذاهب

إلى الشام إلى اسامة بن زيد ـ وكان في العقد الثانى من عمره ، وفي الجيش كبار الصحابة ... وهكذا كان عليه الصلاة والسلام يعد الشباب جنوداً مجاهدين وعمالا حركيين ، ويكل إليهم من المسئوليات أخطرها ومن المناصب أعلاها وأرفعها ٠

وقد سار على قدمه ومضى على سنته سلف الأمة في إعدادهم الشباب وثقتهم فيه وتقليدهم المهام الجسام فهذا أبو بكر رضى الله عنه ينادى (زيد بن ثابت) رضى الله عنه ، ويعهد إليه بجمع القرآن الكريم بعد أن اثنى على أخلاقه وأنه شاب مستقيم ٠ الأمر الذى أهله ليرأس المجموعة الخيرة التى نهضت بذاك العمل الفخم الجليل ٠

كان ذلك في ماضى الأمة الناضر الزاهر فينبغى لها في حاضرها أن تهتم بأمر الشباب حضًّا لهم على التمسك بأهداب الدين والخلق المتين مع إزالة كل عقبة تقف في سبيل إعدادهم ، ولعله من الأفضل أن تسند اليهم بعض المناصب والمسئوليات مع إعطائهم الصلاحيات التى تجعلهم يتحركون في حرية واختيار ، فإن في ذلك إعداداً لهم ، وتنمية لملكاتهم ، وتفجيرا للكامن من طاقاتهم ، مع إتاحة الفرصة لهم للالتقاء بالشيوخ ، والاستفادة من خبرتهم ، والاقتباس من تجاربهم حتى تلتحم قوة الشباب مع حكمة الشيوخ فيثمران رشادا في الرأى وصلاحا في العمل ، والا جاءت الأمور كما قال حكيم الشعراء :

إن الأمور إذا الأحداث دبَّرها ... دون الشيوخ ترى في بعضها خللا

الشبـــاب والتقليـــد :

يقول علماء الاجتماع : (الإنسان مدنى بطبعه) أى أنه لا يذوق للحياة طعما إلا إذا عاش بين جماعة ومادامت هناك جماعة فلابد من أن يؤثر بعضهم في بعض ، ويقلد بعضهم بعضا ، لأن التقليد وسيلة من وسائل التعليم ونقل الخبرات ، خاصة لمن هم في ريعان الشباب ومقتبل العمر والواقع أن التقنية الحديثة وسرعة المواصلات جعلت العالم كله أسرة واحدة مرتبط بعضها ببعض ارتباطا عضويا ٠

وليس في هذا ضرر بل فيه منفعة ، ولكن الضرر يكمن في أن يتحول التقارب إلى امتزاج ، والالتصاق إلى ذوبان يفقد الناس معه أصالتهم وذاتيتهم وتراثهم ٠ إننا لا نمانع أن تهب علينا رياح الثقافات ، ولكن لا نرضى أن تصبح الرياح ريحا تقتلع شجرة ثقافتنا ٠

وإنك لتجد كثيرا من شبابنا اليوم يتخلى عن عاداتنا السمحة وتقاليدنا الأصيلة منصرفا إلى تقليد الغربيين في شتى مناحى الحياة ، ولم يقفوا عند حد التقليد بل ذهبوا إلى الدعوة

اليها والمناداة عليها باعتبار أن كل ما يأتى من الغرب حق كله والأخذ به تقدمية ، والانصراف عنه تأخر ورجعية ٠

وإحقاقا للحق واعترافا به أن ما يأتى من الغرب ليس شرا كله بل هناك جوانب مشرقة وخيرية ، فيجب علينا أن نقف ونتبين ونميز ، ولا نكون أمامها (كحاطب ليل) ، فما وافق ديننا وأخلاقنا أخذناه (خذ الحكمة من أى وعاء خرجت) وما خالف ديننا نبذناه نبذ النواة ٠ ولكن شبابنا ـ هداهم الله ـ قلدوا أهل الغرب في الجوانب المظلمة وتركوا المشرقة فمثلهم ـ كما قال الشيخ محمد الغزالى حفظه الله مثل رجل مسلول ـ مصاب بذات الرئة ـ رأى عملاقا ـ فارع الطول مفتول العضل ولكنه يشرب الدخان ـ فلم تعجبه هذه العملقة بقدر ما أعجبه شرب الدخان فقلده فيه ليجلب على نفسه الضعف والهلاك ولعل التربية الاسلامية كفيلة بتبصير شبابنا بمساوىء الحضارة الغربية حتى لا يغتروا بزخارفها الخادعة ، وأشكالها الفارغة من المحتوى والكيان ، وفي الوقت نفسه تحضهم على التمسك بأخلاقنا الإسلامية العظيمة وعاداتنا الوطنية الأصيلة محافظة على تراثنا واعتزازا به ، وإن في تمسكهم به غنى لهم عن غيره ، وتحصينا لهم من ضرره ، وعاصما لهم من الانحراف الفكرى والانحطاط الخلقى ٠ كما تبين لهم الأثر الكبير ـ للحضارة الإسلامية في تقدم أوربا ، وأن نهضة الغرب الحالية إنما كانت بدفع قوى من يدى الإسلام ، وأنه لولا جهود المسلمين لتأخرت نهضة أوربا بضعة قرون ، وأن مؤلفات ابن سينا وغيره من علماء المسلمين كانت تدرس في جامعات أوربا حتى القرن الثامن عشر الميلادى ٠

وأن العلماء المسلمين كانوا أساتذة أوربا في جميع فروع المعرفة ، وأن الغربيين مدينون لهم في الحقل العلمى ٠ وقد اعترف علماء أوربا بهذا الفضل للمسلمين ـ والفضل ما شهدت به الأعداء ٠

والواقع أننا لسنا فى حاجة لشهادتهم لنا ، ولكن نذكرها لما رأينا قومنا يجهلون ما علمه غيرهم وينكرون ما اعترف به سواهم ، ليقبلوا عليه وينشغلوا به ، ويضيفوا اليه كل ما يعلى أسواره ويغيظ غرامه وحساده ٠

واجب الآبـــــــاء :

الأبناء نعمة وشكرها يكون بحسن الرعاية لها ، وكمال الإشراف عليها من جانب الأب والأم ليتم التعاون بين المدرسة والبيت على التربية القويمة ، والتوجيه السليم والمتابعة الدقيقة ٠

وتطلعا للنتائج العظيمة وتفاديا للعواقب الوخيمة ، أذكر بعض التوجيهات راجيا النظر فيها والعمل بها :

١ ـ الاهتمام بالتربية الإيمانية ، وذلك بتعميق الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر في نفس الابن وغرس العقيدة السليمة ، في أعماقه لتكون مصدرا للسلوك الشريف والمعاملة الصادقة ، فالعقيدة هى سفينة النجاة وصمام الأمان ، وقد جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى ابن عمه عبد الله بن عباس رضى الله عنهما وكان يركب خلفه على دابة فقال له : « ياغلام إنى أعلمك كلمات : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك .. » الحديث . ومما يقوى العقيدة ويعمق جذورها الصلاة على وقتها وفي جماعة ، وتلاوة القرآن ، وذكر الله تعالى ، وقراءة السيرة النبوية وسير الصحابة الأجلاء والسلف الصالح . ولا بد من متابعته حتى لا ينحرف بها عن الجادة أو يخلطها بشىء من البدع والخرافات .

٢ ـ تقديم النصيحة ، الخالصة ، والمعرفة الصحيحة على حسب نموه العقلى ، لتقع موقعها من الحاجة فتثمر ثمارها ، وتحدث آثارها ، تنمية ملكات واتساع مدارك واستقامة سلوك . ولا يكفى أن نلقى إليه بذلك وكفى ، ولكن لا بد من المتابعة والوقوف على أثر هذه الجرعات في تكوينه الفكرى وسلوكه الفعلى .. وهكذا نراقبه مراقبة الطبيب مريضه حتى تذهب العلة ، وتحل العافية ، أو مراقبة الزارع حرثه حتى يستغلظ ويستوى على سوقه ويدلى بثماره .

٣ ـ التأكد من صلاح الصحبة التى يلتقى بها ، ويخرج معها لأن الشاب سريع التأثر بأصحابه شديد الرغبة في أن ينسجم معهم ولا يشذَّ عنهم ، فإن كانوا أخيارا انسجم مع أخيار ، وتَطبَّع بطباعهم وتخلق بأخلاقهم ، وإن كانوا أشرارا فالأمر واضح ، والنتيجة أوضح ومن الحكم النبوية البالغة قوله صلى الله عليه وسلم : عن أبي موسى الأشعرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « انما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك واما أن تبتاع منه واما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير اما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا منتنة » متفق عليه ، أما أن يترك للشاب الحبل على الغارب يخرج متى شاء ، ومع من شاء بلا رقابة من أب أو أم أو ولى فليس هذا من حسن التربية وتقدير المسئولية ورعاية الأمانة .

٤ ـ تنظيم أوقات الأبناء وبرمجةُ استذكارهم مع إشعارهم بقيمة الوقت وأنه هو الحياة ، وأن فواته من غير منفعة أشق من فوات الروح ، بهذا يحرصون على أوقاتهم حرص

الشحيح على المال والجبان على الروح فيستثمرونه على وجه نافع . ومن المعلوم تربوياً أنه لا بد من وقت للترفيه والتسلية البريئة لأن سير الأمور على وتيرة واحدة ـ مجلبة للسآمة والضجر والملل ، والقلوب إذا كَلَّتْ عميت ، وسويعةُ ترفيه تجدد النشاط وتقوى العزيمة ، وتفتح نوافذ البصيرة . أما وسائل الترفيه البرىء فأنت أعرف بها ، وأقدر عليها .

٥ ـ أن نكون قدوة صالحة لأبنائنا ، لأنهم يقلدون الآباء ، ويتشبهون بهم ، وينشأون على ما عودوهم عليه إن خيرا فخير ، وان شرا فشر . وأكثر ما تقع أعينهم على آبائهم ، فتنطبع صورهم على شاشة فطرتهم ، فلنحرص على أن تكون تلك الصور مرسومةً بمداد الاستقامة ، لابسة ثياب التقوى . وهم إنما يتأثرون بما يشاهدون أكثر من تأثرهم بما يسمعون ، إذ الدلالة الفعلية أقوى أثرا من الدلالة القولية ، وإذا اجتمعت الدلالتان فعلتا في النفس فعل السحر ، وجذبتا القلب بأسلس عنان :

وينشأ ناشىء الفتيان منا على ماكان عوّده أبوه

العلماء والشباب :

إن هناك خطراً مريعاً يتهدد شبابنا ، وحتى ننبهه إلى هذا الخطر ليأخذ حذره ، ويتفادى الوقوع فيه ، لابد من دق ناقور الخطر . والسؤال من الذى يدقه ؟ والجواب : العلماء فعليهم يقع عبء المسئولية ، وواجب الإنقاذ ، وإن لم يكن هم فمن ؟

العلماء هم الاساة الذين يشخصون الداء ، ويعطون جرعات الدواء ويراقبون العلة حتى تذهب ، وتحل مكانها الصحة والعافية . وكل مرض ترك وشأنه فتك بالمريض ، وأهلكه ، فليس هناك مناص من أن يقوم العلماء بواجبهم ، ويؤدوه على وجه يرضى ربهم وضمائرهم ، ويحفظ شباب الأمة والا فهم مسئولون أمام التاريخ ، فضلا عن المسئولية الكبرى أمام الله عز وجل الذى أخذ الميثاق وأكد العهد على العلماء في كل ملّة أن يبينوا الحق ، ولا يكتموه : (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ...) ، (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ، ويلعنهم اللاعنون ، إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك اتوب عليهم وأنا التواب الرحيم) (البقرة ١٥٩ ـ ١٦٠) .

ولله در الشيخ عبد الله بن أحمد قادرى إذ يقول متحدثا عن واجب العلماء تجاه الشباب :

يا علماء الأمة ... شبابكم في ظلمة
قد حاد عن إسلامه ... وغاص في آثامه
وصار جل همته ... إشباعه لشهوته
وقاده الأعادى ... للكفر والإلحاد
حتى غدا مناصرا ... لمن يكفر جاهرا
ففقد الشخصية ... والنبل والحمية
وأنتم في غفلة ... يا علماء الأمة
مابكم لم تنهضوا ... وكسلا لم ترفضوا
من غَيرُكمُ للجيل ... يهديه للسبيل
أليس في القرآن ... والسنن الحسان
قد جاءنا وعيد ... مغلظ شديد
لكل ذى كتمان ... وتارك البيان
فانتبهوا ياعلما ... لخطر قد دهما
وكل مالا يحسن ... فللشباب بينوا (١)

فعلى العلماء أن يلتقوا على أمر الله تعالى ، وتلتحم صفوفهم ، وينطلقوا في دروب الجهاد والإصلاح ، ينازلون الباطل بخطة محكمة وطاقات مجندة ، وعزائم لا تعرف الضعف ولا الفتور ، وصولاً إلى الانقلاب الإسلامى المنشود ، وظفراً بالغاية المخطط لها والمتفق عليها ، وهى تحقيق أمر الله جل جلاله واقعا يعاش ، ومنهجا يتبع ، وسلوكا يمارس ، وقانونا يحكم ، ودولة تسهر على حمايته ، وتسعى جادة لنشره بين البشر ، وبهذا نوفر الجو الصالح لشبابنا لينمو نموا كاملا ، يرمى إلى الناس بالخيرات المباركات والثمار اليانعات ذلكم واجب العلماء الذى لا يجوز لهم التغافل عنه ، أو التهاون فيه وإنما واجب الساعة ، الإقبال عليه ، والقيام به ، قياما لاجلوس بعده ، وسيراً لاجلوس عقبه .

* * *

(١) جوهرة الإسلام ، ٤٤ .

خصائص ومقوّمات :

الاقتصاد الإسلامى

للشيخ محمد ابراهيم برناوى
مدرس بدار الحديث المدنية

الاقتصاد كما يبدو لنا في بعض معانيه أو جلها : ـ هو الاعتدال الذى لا افراط فيه ولاتفريط . الاعتدال في الدخول والإنتاج ، والمنصرفات ، لضمان بقاء الحياة الاقتصادية في جو معتدل بعيدا عن التدهور والكساد ـ والاقتصاديون يحاولون حل المشاكل الجماعية والفردية وفق المنهج الاقتصادى العادل الذى لاظلم فيه لأحد على حساب آخر .

والمتأمل في النظريات الاقتصادية السائدة ـ اليوم ـ يراها تقوم على أصل مضاعفة الإنتاج الذى يعتبره رجال الاجتماع والاقتصاد الحل الوحيد للمشكلات الاقتصادية ، فهذا الحل في الواقع وجيه وسليم لولا مافي ذلك من إنكار ذات الفرد في المجتمع وإنكار ملكيته وتحديد الدخل القومى للمجتمع بأسره باسم القضاء على الطبقات لتحل محل ذلك المساواة ـ المزعومة ـ ... كى تصبح السلطة في يد الدولة ـ الحاكمة ـ فيتجرع مرارة ذلك الحرمان الشعب المغلوب على أمره ... وقد وضع الاقتصاديون لذلك خطة عنيفة تمشيا مع التفسير المادى للتاريخ الذى يرون فيه أنه نتيجة للصراع الطبقى على هذه البسيطة .

وأسلوب الخطة يتلخص عندهم فيما يأتى : ـ

١ ـ التحليل المادى للتاريخ : فيزعمون أن التطور المادى في مكان ما هو وحده الذى يفرض نظام المجتمع الواجب الاتباع ...

٢ ـ إنكار كيان الفرد ، ومحاربة الحوافز الفردية ووجوب تغيير نظام المجتمع القائم على هذا الأساس ...

٣ ـ حتمية الصراع الطبقى من أجل تغيير المجتمع ، وإلغاء الملكية الفردية لجميع وسائل الإنتاج فيه .

٤ ـ إلغاء الدولة عندما يصبح الناس فيها اشتراكيين ويتضمن هذا القضاء على الطبقات ـ هذه أفكار المذاهب التجريبية عند الشيوعيين والاشتراكيين ... وتلك هى الفلسفة المادية التى جعلت المجتمع الذى يرزح تحت سيطرتها طبقة واحدة من الفقراء والبؤساء ، فلا هى تركت الفقير يعالج مشكلاته الاقتصادية على أساس من حرية الكدح والاكتساب المشروع لتنمية وتغطية احتياجاته الاقتصادية في هذا الصدد ، ولا هى تركت الغنى يعيش في مستواه الطبيعى ويستثمر مدخولاته لتنمية مورده الاقتصادى في هذا المجال .

الاقتصـــــــاد في نظام الاشتراكية : ـ

يؤسس الاقتصاديون النظام الاشتراكى على أساس التفسير المادى للتاريخ ... فهم يفسرون الصراع الطبقى في الحياة بأنه نتيجة للحالة الاقتصادية لدى الأفراد والجماعات التى يحتاجها الإنسان ، وضربوا لذلك مثلا بتأمين المأكل ، والمشرب ، والمسكن ، والجنس ... فإذا اشترك الناس جميعا في هذه الأمور فقد تمت المساواة بينهم ، ولا محل للصراع والشقاء في نظرهم ...

ومن ثم قرروا ما يلى :

١ ـ إنكار كيان الفرد في المجتمع ومحاربة الحوافز فيه ضرورة تغيير نظام المجتمع .
٢ ـ إلغاء الملكية الفردية لجميع وسائل الإنتاج .

ومعلوم أن الغاء الملكيةَ الفرديةَ وهدم كيان الفرد وقتل الحوافز لدى الأفراد والجماعات يؤدى إلى تدهور الحالة الاقتصادية لديهم ، حتى تصبح السلطة الرئيسية للدولة ، وبالتالى تكون هى المسيطرة على الحالة الاقتصادية في البلاد بزعم المساواة في الطبقات وما ذهبوا إليه لحل المشاكل الاقتصادية التى اصطنعوها ويودون حلها بهذه الفكرة ، إنما هى في الحقيقة عمل مضاد للمنهج الإلهى العادل وكذلك للسنن الكونية ، والفطرة الإنسانية السليمة .

المنهج الإسلامى :

في الظروف الحرجة التى تضل فيها البشرية الطريق السوى لتنظيم حياتها وحل مشكلاتها في شتى نواحى الحياة ، وحينما يعجز المفكرون عن وضع الحلول المناسبة لإنقاذ

الإنسانية عامة ، ويصلون بتجاربهم وفلسفاتهم ونظرياتهم المادية إلى طريق مسدود · يقف الإسلام دائما لإنقاذ البشرية من حمأة المادة وويلاتها ، ويصف لها العلاج الناجع في هذا الصدد ، لأنه المنهج الصالح لكل زمان ومكان ، وهو بحق الكفيل بتنظيم حياة الإنسان خاصها وعامها في شتى النواحى الإقتصادية الفردية والجماعية ، لأنه المنهج الربانى العادل الذى لاظلم فيه ولاحيف بعكس النظم الوضعية النفعية التى تظلم فريقا لتحقيق رغبات فريق آخر · وهذا مشاهد في الأنظمة الشيوعية والاشتراكية ·

أما الإسلام فهو نظام مستقل إذ يقدر للعاملين نتيجة عملهم وكسبهم المشروع في الحياة ، ويحقق مصلحة الفرد والجماعة ، بل ويحثهم على السعى كما في قوله جل وعلا في سورة الجمعة « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » والشاهد في هذه الآية هو الانتشار في الأرض ابتغاء فضل الله وكذلك كما في قوله تعالى في سورة الملك « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » فالإسلام يحث المسلم على الكدح في ميادين الحياة الفسيحة · مع مراعاة الطهر والنزاهة ، وإعطاء إخوانه السائلين والمحرومين حقهم المعلوم ، فتطيب نفوسهم وتنتزع منهم الأحقاد ·

إن الإسلام يعلم المسلم أن المال في الحقيقة هو مال الله ، والله تبارك وتعالى هو الذى استخلفه فيه ، والسائل والمحروم إذا لم يعط حقه في هذا المال يمتلىء قلبه حقدا وحسدا على الغنى الذى منعه حقه ، أما إذا أدى الأغنياء حقوق الله فيه شعر الفقراء أنهم إخوة لهم ، وبهذا يعيش المجتمع المسلم حياة كلها وئام وصفاء لاتعرف فيها الأنانية أو النفعية الخاصة ، التى لاتعرف الرحمة ، ولا تعرف حق الإنسان ـ نحو الإنسان الذى يدعو اليه دعاة (حقوق الإنسان) الذين أكلوا حقوق الإنسانية كلها تحت هذا الستار ·

مرة أخرى نقول إن نظام الإسلام الإقتصادى أفسح المجال للعاملين والكادحين لمضاعفة ـ الإنتاج في شتى النواحى الإقتصادية والزراعية والصناعية والتجارية على السواء وأتاح الفرصة ـ أيضا لتسخير جميع القوى الإنسانية الفردية منها والجماعية والآلية على طول الخط شريطة ألا تضر بالمصالح العامة على حساب المصالح الخاصة كما أن استثمار الأموال يجب أن يبعد عن الطرق غير المشروعة كالقروض الربوية طويلة المدى والقصيرة المدى وما شابه ذلك من احتكار وغش وتدليس ، تلك هى بعض الأسس التى يقوم عليها النظام الإسلامى لتنظيم حياة البشرية في شتى مجالات الحياة ، ولن تصل الإنسانية كافة إلى ما تصبو إليه من سعادة وطمأنينة واستقرار ، وتحقق معنى الخلافة في الأرض إلا إذا طبقت منهج الله العادل ·

خصائص ومقومات الاقتصاد الاسلامى

قلنا إن النظريات الاقتصادية الغربية هى نتيجة ـ الصراع الطبقى التى دعت الإنسان لحب التملك والاستعلاء كما يزعمون ...

لكنا نحاول بيان مقومات وخصائص الاقتصاد الإسلامى بعد أن عرفنا موطن الداء في النظريات الاقتصادية ـ السلبية ـ التى تتنافى مع فطرة الإنسان ومع المصلحة الجماعية في آن واحد ، فضلا عن منافاتها للسنن الكونية . فمنهج الإسلام كما يبدو واضحاً وواسعاً وشاملا في نفس الوقت ـ تراعى فيه مصلحة الجماعة من جهة وتراعى فيه مصلحة الفرد من جهة أخرى لأن الفرد عضو في هذه الجماعة وليس كمًّا مهملا ساقطا من أى اعتبار وإنما هو كيان له ما للجماعة المتمثلة في بقية الأفراد .

فالشريعة الإسلامية لاتسقط من حسابها مصلحة الفرد ، ولاتهمل أيضا المصلحة الجماعية كذلك فهى تقيد هذه وتلك بقيود لا تتنافى مع العدل والإنصاف ، ولا تترك العنان لإحدى المصلحتين ـ الجماعية أو الفردية ، أن تطغى على الأخرى .

فلئن كانت المصلحة الجماعية مقدمة في الأصل على المصلحة الفردية فكذلك الربط بين المصلحتين الفردية والجماعية أيضا فلا تضر الشريعة بمصلحة الفرد على حساب المصالح الجماعية ، وإنما تدور هذه المصالح جميعها في فلك واحد لا يتنازعان على طول الخط مادام هناك تقدير لجهود الفرد ـ ومادام هناك شعور بحق الجماعة كما سلف .

وهذه هى أبرز مقومات وخصائص الاقتصاد الإسلامى نلخصها فيما يلى : ـ

١ ـ تسخير مافي السماوات ومافي الأرض للناس على السواء .
٢ ـ حرية الكسب والتحصيل بطرق شرعية .
٣ ـ مراعاة المصلحة الفردية .
٤ ـ مراعاة مصلحة الجماعة مقدمة على مصلحة الفرد في حدود العدل والإنصاف .
٥ ـ محاربة الفوائد الربوية بشتى طرقهـا .

تلك هى اهم خصائص ومقومات الاقتصاد الإسلامى كما سنوضح ذلك بإذن الله تعالى .

١ ـ تسخير الله ما في السماوات ومافي الأرض للناس على السواء :

بهذه الخاصية نستدل على أن الإسلام خول للناس جميعا حرية العيش في الأرض ، واستخدام ـ الوسائل التى تمكنهم من الاستفادة مما خلق الله لهم في السماوات والأرض بشتى

الطرق . بل وطلب الإسلام من الإنسان أن يستخدمها ليستفيد ويفيد . فالله سبحانه وتعالى ذلل لهم ما خلق في السماوات وما خلق في الأرض وسخر جميع مافيها من خيرات ومواد وخامات وجعلها معايش للناس جميعا لا احتكار فيها ولااستئثار فيها لأحد دون أحد ، والآيات - التى تشير إلى ذلك وتحث الناس على أن يشكروا لله تلك النعم الكثيرة التى لاتحصى يقول تعالى من سورة البقره (هو الذى خلق لكم ما في الأرض جميعا الآية) وقوله تعالى من سورة الأعراف : - (ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون) وقوله تعالى من سورة الملك : (وامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) فهذه الآيات المتقدمة تشير إلى أن الله خلق جميع ما في الأرض للناس على السواء . والهدف من هذا كله هو الانتفاع بذلك ليكون عونا لهم على عبادته جل وعلا ، لأنه في الحقيقة لم يمكن الله العباد في هذه الأرض هذا التمكين ويكشف لهم عن - أسرارها ودواخلها وما تحويه بين طياتها من كنوز ومعادن ومواد إلا ليعبدوه وحده ، لا لتسيطر عليهم « المادة » فيعبدوها من دونه فتثقلهم - وتقعدهم عن السمو بأرواحهم بل ليعيشوا مع خالقهم ورازقهم الذى منحهم هذه الأشياء بمحض كرمه وامتنانه ، وإلا فإن الله قادر على قهرهم وعدم تمكينهم من أن يتوصلوا إلى كل هذه الاكتشافات ، ولكنه سبحانه يبلوهم فيما آتاهم على حد قوله تعالى (ليبلوكم أيكم أحسن عملا (الملك) . وبهذا نستطيع تحديد الأبعاد ..... ما بين طبيعة المنهج الربانى الذى وضعه الله للناس على علم ، وما بين الفلسفات « المادية التى وضعها البشر » ، وشتان ما بينهما ، فبينما يسخر الله تبارك وتعالى كل مافي الأرض وما في السماء للبشرية عامة ويطلب منهم أن يجتهدوا في طلب الرزق على تفاوت منازلهم ليعمروا هذا الكون وفق منهجه ، إذا بالفلسفات الحمقاء تقف حجر عثرة على الطريق لتعرقل سير الإنسانية عن هذا الطريق السوى بكبت المواهب وقتل الحوافز لدى الأفراد والجماعات ، فتحجر عليهم طرق الكسب والتحصيل كما سنوضح ذلك في محله ، فإلى أين تذهب البشرية في عماياتها وإلى متى تستمر في تنكبها عن الطريق .

٢ - حرية الكسب والتحصيـــل بطرق شرعيـــة :

وهذه الخاصية كسابقتها من حيث الضرب في الأرض ابتغاء فضل الله فلم تضيق الشريعة الإسلامية الخناق على الناس فى طرق كسبهم من الرزق المقدور لهم شريطة ألا يتعدى ذلك المنهج الذى رسمه الله لهم ولايخرج عن إطاره ، وعلى الفرد أن يختار بعد ذلك العمل الذى يريده من حرف يدوية - وصناعة آلية ومن بيع وشراء وما إلى ذلك بصور فردية جماعية . مادام ذلك الكسب والتحصيل بطرق شرعية نظيفة .

والطرق الشرعية فى ذلك كثيرة . نذكر أهمها فيما يلى :

أ ـ البيع والشراء الشرعيان ·
ب ـ طرق المضاربة برؤوس الأموال ·
جـ ـ العمل بأجر أو الاحتراف وما إلى ذلك ·

ويشترط فيها جميعها « الطهارة والنزاهة وصدق المعاملة » في كل كلمة واحدة منها مع عدم الغش والتدليس ·

٣ ـ مراعاة المصلحة الفرديـــــة :

سبق لنا القول عن حرية الكسب والتحصيل وكيف سخر الله مافي السماوات ومافي الأرض للناس جميعا · إلا أننا نكرر فى هذه الخاصية ما سبق أن ذكرناه من أن الشريعة الإسلامية نظرت للمصلحة الفردية بعين الاعتبار فراعت تلك المصلحة بل وجعلتها من المصلحة العامة أيضا أفمن مراعاتها للمصلحة الفردية وجعل مصلحة الفرد مرتبطة بمصلحة الجماعة هو مقت البطالة ومحاربتها بشتى الوسائل حتى ولو كانت عن ظهر غنى وتلك من مصلحة الجماعة أيضا لأن توقف هذا الفرد عن العمل بدون أى مبرر هو خسارة فادحة على المجتمع بأسره إذ قد خسر المجتمع موهبة هذا الفرد الذى كان بإمكانه أن يسهم بدوره في رفع إنتاج البلاد فيفيد ويستفيد ·

فالإسلام يشجع على العمل ، ويمقت البطالة ، ويعتبر العامل في نظر الشريعة الإسلامية ـ كالمجاهد ، وهو يفضل العابد المنقطع للعبادة وحدها ، فقد جاء في الأثر « أن من الذنوب ·· ذنوبا لا يكفرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج ولا العمرة (١) يكفرها الهموم في طلب المعيشة » وجاء أيضا في الحديث الصحيح « ما أكل ابن آدم طعاما قط خيرا من عمل يده » ·

تلك هى مراعاة المصلحة الفردية التى تدعو الفرد لتنمية مواهبه وثرواته المادية وتقدر له ذلك حق التقدير ، وترى أن عود الفائدة ليست له وحده ، وهو كذلك بلا شك فقد تعود الفائدة إلى ورثته من بعده ، وقد تعود للمصلحة العامة التى يشترك فيها جميع إخوانه من المسلمين ، وتعتبر تلك الثروات التى قدمها زيادة الإنتاج كان له دوره في إسهامه وتعود فيه الفائدة أيضا على الجميع فضلا عما يقدمه هو لآخرته من أعمال البر والإحسان ليكون له رصيد يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ·

---

(١) « إن من الذنوب الخ » رواه الطبرانى وأبو نعيم عن أبى هريرة مرفوعا . ورواه الخطيب في تلخيص المتشابه وفي لفظ (عرق الجبين) بدل الهموم وللديلمى عن أبى هريرة رفعه ·
« إن في الجنة درجة لا ينالها إلا أصحاب الهموم يعنى في طلب المعيشة » ا هـ كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث غلى ألسنة الناس للمفسر المحدث الشيخ اسماعيل بن محمد العجلونى الجرافى ·

٤ ـ مصلحه الجماعة مقدمة على مصلحة الفرد في حدود العدل والإنصاف :

في هذه الخاصية نرى الترابط الوثيق بين المصلحتين · فمصلحة الفرد مرتبطة بمصلحة الجماعة في نفس الوقت · ولكن المصلحة الجماعية في الحقيقة لها دورها الكبير في هذا المجال لأنها مصلحة الأمة بأسرها والتى يعتبرها الشرع من المصالح العامة التى لا يحل لفرد من أفراد الأمة استغلالها لحسابه الخاص فمن هذه المصالح العامة على سبيل المثال ما يلى : ـ

١ ـ الطرق والميادين العامة وما شابهها والتى جعلت للناس كافة ، فلا يحل لفرد من الأفراد استغلالها لمصالحه الشخصية ·· فيعرقل مصالح المسلمين بوضع عوائق في طرقاتهم وشوارعهم ·

٢ ـ الأموال العامة تعتبر من المصالح العامة للمسلمين فلا يحل لوال من الولاة التصرف فيها وصرفها في غير وجهها وإنما يوزعها على المستحقين وفق العدل والإنصاف فيقرض من يحتاج إلى القرض · ويحمى بها الثغور الإسلامية ·

٣ ـ عدم احتكار أقوات الناس للإضرار بهم لحساب مصلحة شخصية كما هو الحال لدى أصحاب رؤوس الأموال حينما يلجأون لكسب السوق بتعطيل المصالح الجماعية فلا يحل لفرد من الأفراد أن يبخل على إخوانه ببعض ما آتاه الله فيبيعهم بالأسعار المناسبة المعقولة فضلا عن احتكار أقواتهم وأرزاقهم فقد جاء في الحديث أن المحتكر ملعون والجالب مرزوق ·

هذه هى النظرة الإسلامية لمصلحة الأفراد والجماعات ، وهى في حقيقتها نظرة عادلة لا ظلم فيها ولاحيف لأنها تقدر حق الفرد ولا تسقط من حسابها حق الجماعة المتمثلة في هؤلاء الأفراد وتلك هى سنة العدل والإنصاف ·

٥ ـ محاربة الفوائـــــــد الربويـــــــه : ـ

المتأمل في عمليه الربا يجدها في الواقع عملية « سلبية بحته » جامدة فضلا عن نتائجها السيئة التى تأباها الفطرة السليمة · ولما كانت الشريعة الإسلامية تنظر ـ نظرتها الواسعة للأمور وتضع لكل مشكلة حلولها المناسبة لها بعد علم المقدمات والإحاطة الشاملة « بالنتائج » عندها تحلل وتحرم عن علم ودراية بمصالح البشرية كافة (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) · وما كان الربا من أفحش الظلم وأشنعه حرمة إلا لأنه يتنافى مع العدل الذى أراد الله أن يسود العباد ـ (وأحلَّ الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون / البقرة) ·

فلئن ظن المرابى أنه يحقق بهذه العملية رغباته فى الحياة ويصبح من أصحاب الأموال الطائلة التى لاتحصى بما يتحصل عليه من فوائد ربوية لاتقف عند حد فيجب أن يتيقن كذلك أن ما جمعه إلى زوال وأن مآله « المحق » كما قال تعالى : (يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم) . فشتان ما بين وجه السماحة وطهارة النفس وسمو الإنسانية وهو الوجه المقابل للصدقة الذى تكفل الله له النماء والزيادة ، والوجه الآخر المقابل لعداء الإنسانية كلها بما لا يعرف للرحمة أو الشفقة طريقا ، ذلك الوجه المرذول الممثل للأنانية والحقد والشح وخبث النفس والذى ـ توعده الله بالمحق . ولسنا في حاجة بعد ذلك كله لنعت المرابى بأكثر من تلك النعوت التى نعت بها في مواضع كثيرة من الكتاب الكريم لأن مرد ذلك إلى شيء واحد وهو مرض القلب والعياذ بالله ومرض القلب معروف النتائج ... ولما أراد الله تبارك وتعالى أن يبين حقيقه المنافقين ـ إنما نعتهم بذلك فقال (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) . وبالاستقراء والاستنتاج نجد أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه إنما عمل أول ما عمل في بادىء الأمر ـ على معالجة القلوب في كثير من الأحيان ووردت في ذلك أحاديث كثيرة تعالج هذه النواحى النفسية بما لا نستطيع حصرها فى مثل هذه المعالجة . ولا بأس بذكر شيء منها على سبيل المثال .. فقد جاء في ذلك من حديث طويل رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولاتجسسوا ، ولاتحسسوا ، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ، ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم الله تعالى المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره .... » الحديث .

ومعلوم أن كل هذه الأفعال إنما هى من أعمال القلب . وكذلك ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم من حديث أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أنه قال : « لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » . إنما يعالج أمراضا نفسية مناطها القلب . وكذلك الأمر في بيع الرجل على بيع أخيه المنهى عنه فى الحديث ، لأنه يسبب التباعد والتباغض ، والإسلام إنما جاء في الحقيقة ليجمع لا ليفرق ، إذا كان الأمر كذلك فما هو موضع ـ آكل الربا الذى آذنه الله ورسوله بالحرب ولعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذه هى بعض العلاجات لأصحاب القلوب المريضة والأمراض التى حاربها عليه الصلاة والسلام في المجتمع المسلم حتى تسود في الأمة المحبة والألفة والتعاون في الخير بدلا من الاختلاف والفرقة . وإنما سقنا الكلام هنا عن هذه الأمراض كلها لمحل الشاهد وهو اجتماع

هذه الخصال المذمومة في شخص المرابى ، فتجده من أعدى الأعداء لله ولعباد الله وأشدهم إنكارا لأنعم الله فهو حسود حقود كالحيوان المفترس فكيف يتصور ولاء شخص منعوت بهذه النعوت جميعا ، وكيف يرجى منه النفع للمجتمع وهو بؤرة للفساد والهدم والتخريب « والله لا يحب الفساد » . لذا أراد الله تبارك وتعالى أن يطهر المجتمع المسلم من مثل هؤلاء جميعا ليعيش الناس كافة تحت راية العدل والإنصاف . ولا بأس من نقل رأى لفقيد الاسلام « سيد قطب رحمه الله » في هذا الصدد من تفسير الظلال حيث يقول عن الربا وبشاعته ما نصه (فلقد كانت للربا في الجاهلية مفاسده وشروره ولكن الجوانب الشائهة القبيحة من وجهه الكالح ما كانت كلها بادية في مجتمع الجاهلية كما بدت اليوم وتكشفت في عالمنا الحاضر . ولا كانت البثور والدمامل فى ذلك الوجه الدميم مكشوفة كلها كما كشفت اليوم في مجتمعنا الحديث . فهذه الحملة المفزعة البادية في هذه الآيات على ذلك النظام المقيت تتكشف اليوم حكمتها على ضوء الواقع في حياة البشرية أشد مما كانت منكشفة في الجاهلية الأولى ، ويدرك من يريد أن يتدبر حكمة الله وعظمة هذا الدين وكمال هذا المنهج ودقة هذا النظام .

يدرك اليوم من هذا كله مالم يكن يدركه الذين واجهوا هذه النصوص أول مرة وأمامه من واقع العالم - ما يصدق كل كلمة تصديقا حيا مباشرا واقعا ، والبشرية الضالة التى تأكل الربا وتؤكله تنصب عليها البلايا الساحقة من جراء هذا النظام الربوى فى أخلاقها ودينها وصحتها واقتصادها ، وتتلقى - حقا حربا من الله تصب عليها النقمة والعذاب أفرادا وجماعات وأمما وشعوبا ، وهى لا تعتبر ولاتفيق وحينما كان السياق يعرض في الدرس السابق دستور الصدقة . كان يعرض قاعدة من قواعد النظام - الاجتماعى والاقتصادى الذى يريد الله للمجتمع المسلم أن يقوم عليه ويحب للبشرية أن تستمتع بما فيه من رحمة فى مقابل ذلك النظام الآخر الذى يقوم على الأساس الربوى الشرير القاسى اللئيم إنهما نظامان متقابلان : النظام الإسلامى ، والنظام الربوى ؟ وهما لا يلتقيان فى تصور ولا يتفقان فى أساس ولا يتوافقان فى نتيجة أن كلا منهما يقوم على تصور للحياة والأهداف والغايات يناقض الآخر تمام المناقضة وينتهى إلى ثمرة في حياة الناس تختلف عن الأخرى كل الإختلاف .

إن الإسلام يقيم نظامه الاقتصادى ونظام الحياة كلها على تصور معين يمثل الحق الواقع في هذا الوجود ، يقيمه على أساس أن الله سبحانه هو خالق هذا الكون فهو خالق هذه الأرض وهو خالق هذا الإنسان وهو الذى وهب كل موجود وجوده . وأن الله سبحانه هو مالك كل موجود ، وبما أنه هو موجده فقد استخلف الجنس الإنسانى في هذه الأرض ومكنه مما ادخر له فيها من أرزاق وأقوات ومن قوى وطاقات على عهد منه وشرط ولم يترك له هذا الملك العريض فوضى يصنع فيه ما شاء كيف شاء ، وإنما استخلفه فيه في إطار من الحدود

الواضحة ... استخلفه فيه على شرط أن يقوم في الخلافة وفق منهج الله ـ وحسب شريعته فما وقع منه من عقود وأعمال ومعاملات وأخلاق وعبادات وفق التعاقد فهو صحيح نافذ وما وقع منه مخالفا لشروط التعاقد فهو باطل موقوف ، فإذا أنفذه قوة وقسرا فهو إذن ظلم واعتداء ـ لا يقره الله ولا يقره المؤمنون بالله ٠ فالحاكمية في الأرض كما هى في الكون كله لله وحده والناس حاكمهم ومحكومهم إنما يستمدون سلطانهم من تنفيذهم لشريعة الله ومنهجه وليس لهم في جملتهم أن يخرجوا عنها لأنهم وكلاء مستخلفون في الأرض بشرط وعهد ، وليسوا ملاكا خالقين لما في أيديهم من أرزاق ٠ ومن بين بنود هذا العهد أن يقوم التكافل بين المؤمنين بالله فيكون بعضهم أولياء بعض وأن ينفقوا وأن ينتفعوا برزق الله الذى أعطاهم على أساس هذا التكافل لا على أساس قاعدة الشيوع المطلق ـ كما تقول الماركسية ، ولكن على أساس الملكية الفردية المفيدة ٠

فمن وهبه الله منهم سعة أفاض من سعته على من قدر عليه رزقه مع تكليف الجميع بالعمل كل حسب طاقته واستعداده فيما يسره الله له فلا يكون أحدهم كلًّا على أخيه أو على الجماعة وهو قادر) .... أقول : تلك هى طريقة الإسلام في نظامه الاقتصادى واضحة المنهج تقوم على أساس التكافل الاجتماعى في أزهى حلله بعيدة عن الأثرة والشح أو الظلم ، وأكل أموال الناس بالباطل أو بكل وسيلة من شأنها أن تعرقل نمو الحركة الاقتصادية في بلادنا ...

نظرة الإســـلام للمـــال

لا يعتبر « المال » في نظر الإسلام حقيقياً إلا اذا كان بطرقه الشرعية فليس كل مال مهما كانت مصادر الحصول عليه يعتبر « مالا » شرعيا يستطيع المرء المسلم أن يتقرب به إلى الله من نفقات واجبة وصدقات يبتغى بها وجه الله ٠ بل المال مقيد في الإسلام بقيود شرعية وهى تعنى طهارة الكسب وأوجه التحصيل فالأموال المجموعة من أوجه غير شرعية تعتبر أموالا باطلة كأثمان المحرمات « الخمر والميسر وثمن الكلب والخنزير » وما إلى ذلك لأن الله إذا حرم شيئا حرم ثمنه كل هذه الأموال لاتعتبر شرعا بالنسبة لمن يدين بالإسلام وإن كانت معتبرة في حق غيره ومن هنا نستطيع أن نعرف كيف ينظر الإسلام للمال ٠ إنه ينظر إليه على أنه وسيلة لتبادل المنافع بين العباد ووسيلة للتعايش في الأرض ولما كان الأمر كذلك أقر الله تبارك وتعالى هذه الخاصية : خاصية حب المادة وحب التملك « للمال » في الناس وهى طبيعة فطرية فطرهم عليها بل وحثهم على الطلب والتحصيل من هذه المادة على تفاوت طبقاتهم وسعيهم في طلب الرزق ونهاهم أن ينظروا لغيرهم نظرة حسد وكره لمن فضلوا عليهم في الرزق ، وأمرهم أن يسألوه سبحانه وتعالى من فضله (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم

على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله / النساء) فجعل المال فتنة وامتحاناً وميدان سباق للخير والإحسان في نفس الوقت ، وجاءت الآيات الكريمة في كلا الوجهين تبين للناس ما ينفعهم في دينهم ودنياهم وتنهاهم أيضاً أن يجعلوا « المال » وجمعه من أى طريق كلَّ غرضهم في الحياة بما لا يقبل المنافاة بين الآيات التى تشجع على الكسب والتحصيل ، والآيات التى تهدد وتنذر الذين يكتنزون الأموال ولا يؤدون حق الله فيها ، فآيات الفتنة والامتحان إنما هى في الحقيقة تنذر أولئك الذين جعلوا المال هدفا لذاته وغاية كل غاية فقد سمى الله تبارك وتعالى المال مرة « زينة » ومرة « فتنة » فقال جل ثناؤه (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا / الكهف) وقال :- (إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم / التغابن) .. فهو في الآية الأولى زينة الحياة الدنيا « والزينة تغرى - والزينة تلهى عن الله والدار الآخرة إلا من وفقه الله » لذا قال تعالى في سورة المنافقين (يا أيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) لأنه يعلم أن بعض العباد تشغلهم الأموال وتلهيهم عن ذكر الله - واللهو عن ذكره سبحانه وتعالى خسارة أيما خسارة ، فأرشد عباده المؤمنين لتلافى تلك الخسارة الكبرى ، ولا يكون ذلك إلا بمراقبة الله في السر والعلن ، وأداء حقوق الله . وقد علم الله تعالى كذلك ان من العباد من تقطع أعناقهم الأموال ، التى يجلبها البيع والشراء .. فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) فالحكم وإن كان خاصا بالجمعة إلا أنه عام في غيرها كذلك مع مافي الجمعة من خصائص ومميزات ، فالمال فتنة بلا شك يفتن أصحاب القلوب الضعيفة ويقعدهم عما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة كما فتن قارون وفرعون وأشباههم من الأولين والآخرين ، والمال كذلك ميدان سباق لأعمال البر والإحسان لأصحاب الهمم العالية حينما يبذلون أموالهم في سبيل الله وابتغاء مرضاته كقوله (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فَيَقْتلون ويُقْتَلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) . فهو وسيلة للفداء والتضحية في سبيل الله وفي سبيل السعادة الأبدية التى تكفَّل المولى عز وجل بها لعباده المؤمنين . وقد امتدح الله سبحانه وتعالى أصحاب هذه الطبقة في غير موضع من كتابه ، وجاءت السنة المطهرة فأيدت ذلك كل التأييد وحثت المسلم على أن يكون له فضل مال يقيم به أوده في الحياة ويتقرب به إلى الله ، ويترك لورثته من بعده ما يسد عوزهم من الفاقة والسؤال كقوله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبى وقاص رضى

الله عنه (إنك إن تذر ورثتك أغنياء - خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس) وشجع المسلم على الاكتساب من المال الحلال كقوله عليه الصلاة والسلام (لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه) .... بل وعظمت السنة المطهرة شأن المال فجعلته من الكليات التى جاء الإسلام بالمحافظة عليها صيانة للحقوق المشروعة فيه . فمن قاتل دون ماله وعرضه فقتل فهو شهيد .

هذه نظرة الإسلام إلى المال ، نظرة تقدر فيها للعاملين نتيجة كسبهم وكدحهم في الحياة فلا تبخس أحدا ولا تظلم أحدا لمصلحة آخر .

فلا إباحية تبيح للماجنين أن يعيشوا على أكتاف الآخرين شأن النظرية الماركسية التى تبيح الشيوع وتنادى به ، وإنما لكل امرىء نتيجة سعيه لا يعدوه إلى سواه .

ولكن الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون في المال نصيب مفروض للبائسين والمحرومين يأخذونه من أموال إخوانهم الذين وسع الله عليهم في الرزق إما بطيب خاطر ورضى نفس كالصدقات وأعمال البر ، وإما على سبيل الوجوب والإلزام كالزكاة وجعلت الشريعة الإسلامية مصارف تصرف فيها الأموال لمستحقيها كما بين الله ذلك في مواضع كثيرة من كتابه الكريم .

أوجـــه صرف المـــــال

لما كان - المال - عصب الحياة وشريانها وكانت المشاكل تحصل بسببه بين الناس ويحصل النزاع والقتال من أجله . جعل الله تبارك وتعالى له مصارف عادلة يُصرف فيها لمستحقيها - من المساكين والمحرومين . فعدد الله ثمانية أصناف من هذا النوع تعطى لهم الزكاة من أموال الأغنياء ، يأخذها ولى أمر المسلمين ويقسمها بينهم كما أمر الله جلت قدرته ، ووضح ذلك غاية الإيضاح ، فلم يترك ذلك لاختيار أحد ، ولم يتركها كذلك للأغنياء أنفسهم يعطون من شاءوا ويحرمون من أرادوا حسب ما تمليه عليهم أهواؤهم وآراؤهم فقال تعالى (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ، والله عليم حكيم) . فهؤلاء هم أصحاب الزكاة الذين سماهم الله في كتابه فلا تجوز لغيرهم ولاتحل لغنى ولا لقوى مكتسب . هذه هى مصارف الزكاة في الإسلام ... مصارف عادلة لا ضرر فيها على أحد من الأغنياء ، ولا بخس فيها للفقراء والمساكين كذلك ، فيشعر الجميع بشعور الأخوة والتعاون على البر والتقوى ، فحينما يقدم الغنى الميسور لأخيه الفقير المعدم بعض فضله ويفيض عليه من سعته إنما يشعر أن هذا العمل الذى قام به واجب من واجباته وحق من حقوق أخيه يجب أن يؤديه ويقابل ذلك الأخ هذه

المعاملة بالرضى والامتنان لله أولاً ـ ثم لأخيه ثانيا : فأولاً : لله الذى فرض هذه الفريضة العادلة فكفلته وشملته بعدلها وإنصافها ورحمتها فلم تتركه للضياع والحيرة ولم تسلمه للفساد والانحراف أو السرقة والنهب والتخريب بعد أن عجز عن العمل تماما : وثانياً : لأخيه من بعد الذى تذكر أن له أخا في الله له عليه حق يؤديه له طاعة لله وامتثالا لأمره سبحانه وتعالى ، فيعيش الجميع في صفاء ومحبة وألفة يستمتعون جميعا بعدل الله ورحمته ، إخوة متحابين متعاونين كالجسد الواحد ·

وفي اعتقادى أن أية أمة من الأمم تطبق هذا المنهج الربانى الخالد في نظام حياتها واقتصادها وشتى شئون الحياة لاشك أنها ستعيش في سعادة كاملة وراحة تامة ، لاتعرف معها الفوضى الأخلاقية ولا الحرمان والظلم والجور والأنانية وحقد الطبقات بعضها على بعض كما هو مشاهد اليوم في الدول الاشتراكية بل ولا تشكو من الفائض ولا التضخم المتزايدين اللذين يشكلان الأزمات الاقتصادية لتكدس الثروات بايد قليلة لها السيطرة التامة على النظام الاقتصادى العام للبلاد ·

مزيـــــــة الاقتصـــــــاد الإســـــلامى

على ضوء ما تقدم نستطيع وضع اللمسات السريعة على مزية الاقتصاد الإسلامى على سائر النظم الاقتصادية الوضعية · السائدة التى لاتقوم ولاتنهض إلا على انكار الذات الإنسانية ومحاربة الفوارق بين الناس كافة بزعم العدل والمساواة في الطبقات ··· يقول الأستاذ العقاد رحمه الله في كتابه الديمقراطية الإسلامية ما نصه (والمتأمل في حقيقة الأمر يجد أن الفوارق بين الناس متعددة لا تنحصر فى شئون الرزق والثروة فحسب بل منها ما هو فوارق طبيعية تلازم البشرية كافة ولا تكاد تنفصل عنهم ولا يخلون منها على طول الخط ···· وإذا كان الناس متفاوتين بطبيعتهم فمن الظلم البين أن تسوى بينهم ، وأن تجعل المتقدم منهم كالمتخلف ـ والعامل كمن لا يعمل · ومن المسخ للطبائع أن تحرم الفاضل ثمرة فضله ، وتؤمن الكسلان والبليد على عاقبة كسله وبلادته ، فلا إنصاف لذى كفاءة في هذه المساواة ، ولا فائدة لعاجز فيها ، لأن العاجز لا يسلم من عجزه باختياره ، وكل ما نجنيه من هذا الإجحاف تعجيز الأكفاء وتثبيط العاملين) ·

أقـــول : وكذلك فعلت النظم الشيوعية والاشتراكية · فالنظام الشيوعى يقوم على أساس إلغاء الفوارق ويرى عدم استقامة الحياة مع بقاء الفوارق بين الناس في المال أو شئون الرزق على العموم · والنظام الاشتراكى يقوم على أساس الغاء الملكية الفردية وإباحة الشيوع

على طول الخط ، وأما النظام الرأسمالى فهو يقوم على أساس الملكية المطلقة وبدون حدود . وموضع الخطأ في النظم الأخرى واضح بلا جدال .

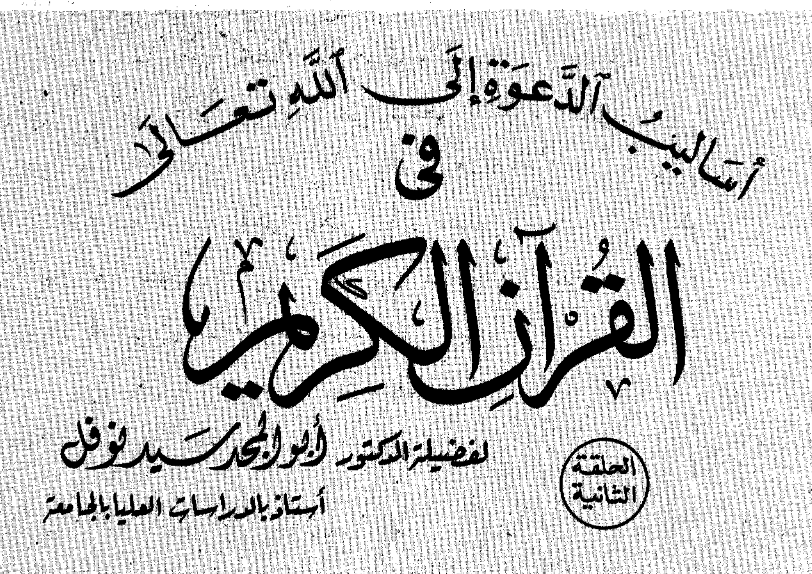
ومن هنا تتضح لنا مزية الاقتصاد الإسلامى بين تلك المتناقضات والاضطرابات الفلسفية ، فموقف الإسلام وسط وفي غاية الاعتدال ، فلا يبيح الشيوع ولا يبيح إطلاق الملكية بلا حدود ، وإنما يقيد الملكيات كلها الخاصة والعامة بقيود الشرع ، ومن هنا أيضا تبرز مزية النظام الإسلامى في قاعدتين أساسيتين هما : إنكار قوة الاستغلال والاستبداد ، وتقدير حق العمل وتشجيع أصحاب الكفاءات تلك مزية الاقتصاد الإسلامى في جلاء ووضوح تقدر للعاملين نتيجة عملهم في ميادين الحياة ، وتقمع قوى الظلم والجور ، وتقرر مبدأ التكافل الإجتماعى في إطار من العدل والرحمة لمن هم في مسيس الحاجة إلى العون والمساعدة ، وذلك بتوزيع الثروة كما قررته شريعة الإسلام ، وعددت أصحاب الفريضة في الزكاة وكذلك الحماة والغزاة في سبيل الله ، وسد الثغور الإسلامية ، وسائر من يتولى مصالح الأمة الإسلامية من خليفة المسلمين إلى من يقم الشوارع . وهكذا يقف النظام الربانى شامخا صامدا يتحدى جميع النظم والنظريات وغيرها على مدى الأيـــام .

* * *

تربيـــــة

قال معاوية للأحنف بن قيس ما تقــول في الولد؟ قال : يا أمير المؤمنين ، ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنـا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وسماء ظليلة ، بهم نصول على كل جليلة ، فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم ، يمنحوك ودهم ، ويحبوك جهدهم ولا تكن عليهم ثقلا ثقيلاً فيملوا حياتك ، ويودوا وفاتك ويكرهوا قربك ...

فقال معاوية : لله أنت يا أحنف ، لقد أرضيتنى عمن سخطت عليــه من ولـــدى . ووصلته بعطية عظيمـــة .



٥ ـ منهج القرآن في الاستدلال على صدق العقيدة الإسلامية

ولقد ساق القرآن الكريم الأدلة الكثيرة على صحة العقيدة الإسلامية وفساد غيرها من العقائد الأخرى .

فالله عز وجل يوجه الأنظار إلى الآثار الناطقة بوجوده . وهو استدلال بالصنعة على الصانع وبالأثر على المؤثر ، وهو دليل واضح لا يحتاج إلى كبير عناء .

ومن هنا فلقد كان الكون كله أرضه وسماؤه ، وما فيهما .. حقلا واسعا لصياغة هذه الأدلة فجاءت آيات القرآن تحمل الدعوة إلى النظر في السماء ، والنجوم ، والشمس ، والقمر ، والأرض ، والجبال ، والبحار ، والأنهار ، والإنسان ، والحيوان ، والنبات ، والجماد داعية إلى التأمل الصحيح والنظر الدقيق في هذه الآيات البينات . وليس بعد ذلك سوى الإيمان بوجود الصانع جل وعلا ، الذى خلق كل شيء فقدره تقديرا . ويوجه القرآن العقول إلى ملاحظة الواقع المشاهد والتزام المنطق السليم في الحكم على الأشياء وذلك في استدلاله على صحة الإيمان بالبعث والإعادة ، فإن المنكر للإعادة يقول (من يحي العظام وهى رميم) ؟ فيقول الله عز وجل : (.. يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) (يس آية ٧٩) .

ويعنى هذا : أنك أيها المنكر للبعث تسلم ولاشك بوجود العظام .. وهو يستلزم الإقرار بأنها مصنوعة ولا يمكن أن تصنع من عدم ، لأن العدم لا يصنع وجودا . فاذا انتهيت من ذلك وجب عليك التسليم بأن العظام إذا رمت وبليت فليس هناك أى مانع من إعادتها إلى ما كانت عليه قبل أن تبلى لأن من قدر على صنعها ابتداء ، فهو أقدر على إعادة صنعها ، لأن الإعادة أسهل من البدء .. (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحي العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) . والقرآن الكريم يستدل بالظاهرة الكونية على صدق ما يقول ، بإيراد الظاهرة مجملة ثم يأخذ في بيان ما تشتمل عليه من آيات ، وفي بيان أنواع كل آية ، وما تحمله من دليل وبيان آثارها وجمال صنعتها .. فالسماء مثلا أصلها كذا ، وهى مؤلفة من كذا ، ووظائفها كذا .. ثم يفصل هذه الآية (السماء) ويبين ما اشتملت عليه ، ففيها النجوم والشمس والقمر .. وكل من هذه له خصائصه وآثاره في الكون .

والماء مثلا . له أنواعه ، ووظائفه ، وآثاره ، وكذلك الإنسان ... خلق من كذا وركب من كذا وهكذا يستخدم القرآن الكريم المظاهر الكونية أدلة على صحة ما يقول ، وينهج في هذا الاستدلال منهج الإجمال والتفصيل ، والتنويع .. ليزيد من تقرير العقيدة وتثبيتها .

٦ ـ نماذج من هـــذا الاســتدلال

فعندما صدع الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر ربه معلنا كلمة التوحيد ، وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، رب العالمين . وأن رب العالمين ليس وَدًّا ، ولاسواعا ، ولا يغوث ، ويعوق ، ونسرا ، وليس وثنا ، ولا ملكا ، ولا زعيما ، ولا حاكما .. ولا شمسا ولا قمرا ، ولا ماء ولا نارا ، إنه الله وحده رب العالمين ... استدل على صحة ما يقول بوجود الأرض والسماوات . فهما الآيتان الناطقتان بوجوده تعالى ووحدانيته ، فهو وحده خالقهما ، وهو الذى خلق الأرض ، وجعل فيها الرواسي ، وأودع فيها البركة والأقوات ، وقسم فيها الأرزاق ، وهو صاحب السموات السبع ، لا يعجزه شىء فيهما ولا في الأرض وكل من السماوات والأرض وما فيها طوع يمينه . فالإيمان به جل وعلا واجب ، ولا ينبغى الإيمان بغيره لأنه كفر وانحراف عن الطريق المستقيم .

(قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) فصلت / ٩-١٢ .

وفى سوق هذا الدليل على هذا النحو الكفاية لذوى العقول والألباب ·· لكنه تعالى ، وهو الأعلم بخلقه ، وما يصلح لهم من أدلة الاقناع والتأكيد ······ يأخذ في بيان بعض صفات كل من السماء والأرض ثم يبين بعض ما اشتملت عليه كل منهما ·

فالسماء · خلقها الله بغير عمد (····· خلق السموات بغير عمد ترونها ······) لقمان /١٠ · كما خلقها بقدرته تعالى (والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون) الذاريات /٤٧ وهى سبع سموات مطبقة بعضها فوق بعض (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا) نوح /١٥ وهى عظام شداد (وبنينا فوقكم سبعا شدادا) النبأ /١٢ ·· وهى لا شقوق فيها ولا تصدع (فارجع البصر هل ترى من فطور) الملك /٣ · وهى السقف المحفوظ (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) الأنبياء /٣٢ وهي الممسوكة بقدرته حتى لاتقع على الأرض (·· ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ·) الحج /٦٥ ·

والأرض : جعلها الله تعالى ذلولا صالحة للمشى والإعاشة (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) الملك /١٥ وهى مدحوة (والأرض بعد ذلك دحاها) النازعات /٣٠ ممدودة غير مطوية (وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا) الرعد /٣ · مبسوطة غير مقبوضة · (والله جعل لكم الأرض بساطا · لتسلكوا منها سبلا فجاجا) نوح ١٩ ـ ٢٠ وهى مهاد وسكن للإنسان ولغيره (ألم نجعل الأرض مهادا) النبأ /٦ · وهى الميتة بالجدب والحية بالخصب والرى (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه تأكلون) يس /٣٣ · وهى التى خلق منها وعاش فيها الإنسان ، وهى التى يعاد إليها ميتا ، ويبعث منها يوم القيامة (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) طـه /٥٥ ·

والماء : هو أصل كل حى (وجعلنا من الماء كل شىء حي ··) الأنبياء /٣٠ ، وهو سبب إحياء الأرض بعد موتها · (والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ···) النحل /٦٥ · وهو سبب إخراج الثمر ، ورزق للعباد (فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ··) البقرة /٢٢ · ومنه العذب ومنه الملح (أفرأيتم الماء الذى تشربون · أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون · لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون) الواقعة /٦٨ ـ ٧٠ · (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان) الرحمن /١٩ـ٢٠ · وهو يكون البحار والأنهار التي يستخرج منها اللؤلؤ والسمك وتسير فيها الفلك « ··· لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ··· » النحل /١٤ ·

والإنسان : مخلوق من تراب (والله خلقكم من تراب ...) فاطر /١١ · ومن نطفة (.. من نطفة خلقه فقدره) عبس /١٩ ومن علقة (خلق الإنسان من علق) العلق /١٩ ومن طين (هو الذى خلقكم من طين) الأنعام /٢ ومن نفس واحدة (.. الذى خلقكم من نفس واحدة ...) النساء /١ · ومن ماء دافق (خلق من ماء دافق) الطارق /٦ · ومن صلصال من حمأ مسنون (.. من صلصال من حمأ مسنون) الحجر /٢٦ · وجعل خليفة لله في الأرض (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل في الأرض خليفة ..) البقرة /٣٠ وخلقه سويا (الذى خلقك فسواك فعدلك ..) الانفطار /٧ · وجعل له عينين ولسانا وشفتين ، وهداه النجدين (ألم نجعل له عينين · ولسانا وشفتين · وهديناه النجدين) البلد / ٨-١٠ · وفضله على سائر المخلوقات بعقله (هل في ذلك قسم لذى حجر) الفجر /٥ ، وعلمه البيان (علمه البيان) الرحمن /٤ · وخلقه على ألوان ولغات متعددة (.. واختلاف ألسنتكم وألوانكم ..) الروم /٢٢ · ويسر له أمره .. (ثم السبيل يسره) عبس /٢٠ وسخر له مافي السموات ومافي الأرض (وسخر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعا منه ..) الجاثية /١٧ ·

وهكذا في سائر الآيات يبين أصلها ، وخصائصها ، وآثارها ... كآيات الشمس ، والقمر والنجوم ، والظلمات ، والنور ، والليل ، والنهار ، والرياح ، والسحاب ، والشجر ، والجبال ، والحيوان ، والطير ، والنبات ، والزرع ، والثمر ...... جاء بها على هذا النحو السابق لبيان عظمة الصنع الإلهى ، وروعة الخلق الربانى .... وبهذا يتأكد الإيمان بالذى خلق فسوى والذى قدر فهدى · كما سلك القرآن الكريم هذا المسلك في تقرير سائر مبادئه ومطالبه ....

٧ ـ العقيدة في الأساليب الخبرية والإنشائيــــة :

ولا يمكننا عرض كل الأساليب التى صيغت فيها العقيدة في القرآن الكريم في هذا البحث القصير اذ أن هذا أمر يصعب تحققه · ولهذا سنكتفى بإيراد نماذج من هذه الأساليب موضحين كل نموذج بمثال أو أكثر ، وفيه الكفاية لبيان المراد ·

الأساليب الخبريــــة :

يقول أهل اللغة والبيان : إن الكلام ينحصر في نوعين هما الخبر والإنشاء ، فالكلام الذى يحتمل التصديق والتكذيب هو الخبر ، والكلام الذى يقترن معناه بلفظه هو الإنشاء(١) ·

---

(١) وقيل أن الخبر كلام يفيد بنفسه نسبة أمر من الأمور نفيا أو اثباتا · فإذا قلنا القرآن كلام الله تعالى فإننا نفيد نسبة القرآن إلى الله تعالى · وإذا قلنا الأناجيل الموجودة الآن ليست كلام الله تعالى فإننا ننفى هذه النسبة .. أما الإنشاء فهو الذى يحصل مدلوله في الخارج بالكلام أى إذا قلت (قم) فإن القيام يحصل بعد تلفظك بلفظ (قم) لا قبله · والخبر خلافه · والقصد بالخبر هو إفادة المخاطب أمرا من الأمور كإخبار الله تعالى بانه خلق كذا وكذا .. ومن أقسامه النفي مثل (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) ·

ولقد أورد على تعريف الخبر السابق خبره تعالى ، فإنه لا يكون إلا صادقا · وأجيب بأنه يصح دخوله إذا نظرنا إليه من حيث اللغة بقطع النظر عن محتواه · أما من حيث معناه ونسبته إلى قائله فأخبار الله تعالى لصدورها عنه جل وعلا لا تحتمل إلا الصدق فقط سواء كانت إيجابا أو سلباً (·· ومن أصدق من الله قيلا) النساء /١٢٢ · فإذا قال الله تعالى : (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون · والأرض فرشناها فنعم الماهدون · ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) الذاريات ٤٧ ـ ٤٩ فهو إخبار عن أنه هو الخالق للأرض والسماء ، وكل شيء ، وهو إخبار صادق لأنه من الله عز وجل · والقصد من هذا الخبر أن ينظر المخلوق في هذه الآيات ويتأمل صنعها ليؤمن بوجود صانعها ·

ومن هذا القبيل قوله تعالى : (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) الأعراف /٥٤ ·

كما أخبر تعالى بأنه واحد لا شريك له · والدليل على ذلك يظهر فيما يراه الإنسان أمامه من صنع السماء والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، وخلق البحار والماء ، والرياح والسحاب ، ولولا وجود هذه الأمور لتوقفت الحياة · وهذه الآيات توجد بنظام وإحكام ، وكل منها دائب في عمله على أبدع ما يكون ، وهو مسخر لإيجاد الحياة الطيبة للإنسان ، وهو ما ينطق بوحدة الصنع الدالة على وحدة الصانع جل وعلا (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم · إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) البقرة ١٦٣ ـ ١٦٤ ·

وتأكيداً لتفرده سبحانه وتعالى بالخلق والصنع ، وتقريراً لوحدانيته ، فلقد نفى إيجاد أى شيء في هذا العالم عن غيره ، ونفى وجود إله أو آلهة أخرى ، ونفى أن يكون له شريك ، وأخبر أن المتخذين من دونه آلهة لا يستطيعون ضرا ولا نفعا ، وأنهم سيكفرون بمن عبدوهم يوم القيامة · إنه تعالى الواحد الأحد المنفرد بالخلق ، والمحيط علمه بجميع مخلوقاته في حركاتهم وسكناتهم ، وفي شتى أمورهم وأحوالهم ، يعلم أعمارهم وبيده رقابهم ·· وهو وحده القادر · ومن قدرته أنه خلق البحرين العذب والملح ، لا يطغى أحدهما على الآخر ، ومنها يأكل الإنسان لحوم الأسماك ، ويستخرج اللؤلؤ وغيره مما يتحلى به الإنسان ، وفيهما تسير الجوارى المنشآت في البحر كالأعلام ، وسائل نقل بحرية للإنسان وغيره ·· وهو وحده الذى

يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وهو وحده مسخر الشمس والقمر للإنسان ، كل يجرى إلى أجل مسمى عنده سبحانه وتعالى ٠٠ وهو وحده مالك الملك وهو على كل شىء قدير ، أما الذين يدعون من دونه فلا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا لغيرهم من باب أولى ٠٠

(والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير ٠ وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ٠ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير) فاطر /١١ـ١٤ ٠

في الأساليب الإنشائيـــــة :

والإنشاء كما تقدم ، هو ما يحصل مدلوله في الخارج بالكلام فإذا قلت (لاتقم) فإن عدم القيام يحصل بعد تلفظك بـ (لاتقم) ٠

وأقسام الإنشاء كثيرة منها (الأمر) وهو طلب فعل غير كف ومثاله قوله تعالى لنبيه أمرا إياه بالشهادة (فاعلم أنه لا إله إلا الله ٠٠) محمد /١٩ والأمر للنبى عليه السلام أمر لأمته ومنها (النهي) وهو طلب الكف عن الفعل ومثاله قوله تعالى لنبيه ناهيا إياه عن الشرك (لاتجعل مع الله إلها آخر ٠٠) الاسراء /٢٢ وهو نهى له عليه السلام ولأمته ٠

ومنها الاستفهام وهو طلب الفهم مثل قوله تعالى (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ٠٠) النازعات /٢٧ـ٢٨ ٠

ومنها (الشرط) مثل قوله تعالى الذى أقام به الدليل على فساد عقيدة الشرك ، واستقامة عقيدة الوحدانية (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ٠٠) الأنبياء /٢٢ ٠

ومنها (النداء) مثل قوله تعالى الذى بين فيه فساد عقيدة الشرك ، وأن المدعوين من دون الله ضعفاء لا يستطيعون خلق أقل الأشياء ، وأنهم اذا ضاع منهم شىء لا يملكون إرجاعه ومن كان هذا شأنه لا يستحق التأليه ولا العبودية ٠٠ (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) الحج /٧٣ ٠

حقوق الإنسان في الإسلام

الحلقة الثالثة

بقلم الشيخ : عبد الفتاح عشماوى
محاضر بكلية الحديث

أما عن الحرية الدينية التى ذكرها إعلان حقوق الإنسان فكان عليهم أن يتواروا خجلا من أن يذكروا شيئا عنها ، لقد لقى المسلمون منهم أفظع ما لقى أهل دين من اضطهاد وإبادة ، وزاد سعيرها اليوم بما هو صارخ في كل مكان يحتوى على أقلية إسلامية ، إن اليهودية والنصرانية والشيوعية والهندوسية والبوذية ليس لهم جميعا اليوم إلاعدو واحد ، هو الإسلام وأهله ، وأصبح اليوم أرخص دم في العالم دم المسلم ، في مدنية القرن العشرين وهيئة الأمم المختلفة ومجلس خوفها الحامى حمى الأمان والسلام على الأرض ، إلا المسلمين فلا أمان لهم عندهم ولا سلام ، وكل ذنبهم أنهم قالوا ربنا الله .

ونحن ماذا فعلنا لما هيمنا وحكمنا ، وعاشوا أقليات مصانة محفوظة في ظل شريعتنا السمحة ، لقد قال في ذلك قائل هذين البيتين

حكمنا فكان العفو منا سجية ... فلما حكمتم سال بالدم أبطح
وحسبكمو هذا التفاوت بيننا ... وكل إناء بالذى فيه ينضح

إننا لم نتمشق الحسام ولم نخرج سيوفنا من أغمادها إلا عندما نفد الصبر وفاض الإناء ، وَوصِفْنا من الحكم العدل بأننا ظُلمْنا ، (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلِموا وأن الله على نصرهم لقدير) ، وإذا كان علينا أن ندفع عن أنفسنا وأن نؤدب عدونا وأن نريه أن صبرنا ما كان إلا بأمر ربنا ، فلما أمرنا كان شعارنا الخالد قوله تعالى (قل هل تربصون بنا الا إحدى

الحسنيين ، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين) ، ومنذ نزول هذه الآيات على رسولنا صلى الله عليه وسلم ونحن على هذا الصراط السوى نسير ، فلا نعتدى على أحد ولا نقبل أن يعتدى علينا أحد ، وتركنا لغيرنا حرية اختيار ما يعتقده والدين الذى يعتنقه وإثمه على نفسه ، إن فرعون قال لقومه : (ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) فلما أدركه العقاب المؤقت لإثمه في الدنيا بالإغراق ، قال وهو على وشك الغوص في الماء : (وأنا من المسلمين) ، بل تركنا غيرنا يتعصب لنبى معين لا يعتقد بنبوة سواه ، كما فعل اليهود والنصارى ، ولم نعاملهم بالمثل لما كفروا بنبينا صلى الله عليه وسلم ، بل آمنا بأنبيائهم وبكل نبى ورسول من لدن نوح عليه السلام إلى النبى الخاتم صلى الله عليه وسلم (لا نفرق بين أحد من رسله) ، ولا نعتبر مؤمنين على الاطلاق إذا أنكرنا واحدا منهم ، ومبشروهم يجوبون الآن خلال الأرض في ظل إعلان حقوق الإنسان ، ليخرجوا الناس من دينهم ويحملوهم على الإيمان بنبيهم فقط ، وبوسائل تخلو من كل إنسانية ، ثم يأتوا ليعتموا على الناس اعتداءهم على الأديان بليّ ألسنتهم بكلمة (الحرية الدينية) وهم ألدُّ أعدائها ، وحصيلة الحديث أن الإسلام يأبى بترفع أن يتطفل على أحد ليعتنقه ، لأن المعتنق له هو المستفيد وحده ، ومنزله سبحانه لا يناله نفع ولا ضر (إن تكفروا فإن الله غنى عنكم) (من عمل صالحا فلنفسه) ، بل حتى الذى يدخل في الإسلام لا يرضينا منه الا أن يكون مقتنعا به عاملا بالأوامر مجتنبا للنواهى ، يقول في ذلك الإمام الشيخ محمد عبده : -

(إن التقليد بغير عقل ولا هداية شأن الكافرين ، وإن المرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به ، فمن رُبّى على التسليم بغير عقل ، وعلى العمل - ولو صالحا - بغير فقه ، فهو غير مؤمن ، فليس القصد من الإيمان أن يُذَلَّلَ الإنسان للخير كما يُذَلَّلَ الحيوان ، بل القصد أن يرتقى عقله وترتقى نفسه بالعلم ، فيعمل الخير وهو يفقه أن الخير النافع المرضى لله ، ويترك الشر وهو يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته) .

فإذا كان هذا حالنا مع من يعتنق الإسلام أصلا ، فهل نرغم الناس على أن يعتنقوه ؟ أم أن الذين (وضعوا حقوق الإنسان) أحسوا بأنهم يفعلون ذلك كما بينا آنفا ، فراحوا يصرفون النظر عنهم . بحقوق متكلفة متصنّعه ؟ .

أما عن الفقرة الخاصة في حقوقهم التى وضعوها ، بحرية ترك ما عليه من دين والانتقال كما يشاء من دين إلى آخر ، فنحن نقر ذلك تماما اذا انتقل من النصرانية الى اليهودية الى الشيوعية الى البوذية الى الهندوكية إلى آخر قائمة الكفر الطويلة ، لأن الصورة

عندنا واحدة وهى أنه ترك حقا ليس سواه ، وهو الله ، واعتنق باطلا يتردى في نتن أنواعه المتعدده ، لا يترك واحدا منها إلا ليذهب إلى ما هو مثيله في الضلال والوبال ، فلا مفاضلة بين الباطل مهما تفاحشت أنواعه وأعداده وأوساخه ·

أما بالنسبة لديننا الذى نسبه الله إلى نفسه (يدخلون في دين الله أفواجا) أىّ دين الله هذا ؟ (بلى من أسلم وجهه لله) (إن الدين عند الله الإسلام) (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) ، والآية الأخيرة أنهت الجواب بأعظم حسم لمن يريد أن يدْخل الإسلام في تلوُّن الحرباء والتقلب في دناءة الهوى ، فالمسلم يوم أن أسلم قطع مع الله عهدا هائلا ، ووضع يده في يده سبحانه لتكون هى العليا ، فلا تسمح له بأن ينفض يد البيعة ببساطة متى عنَّ له ميله ، دون أن يذوق وبال أمره - (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) ، فليست كل بيعة تقوض بسهولة ، وليس كل عهد يُلعَبُ به ، وكان الطرف الأقوى هو خالق المعاهد ورب المبايع ، ثم يترك هكذا سُدًى طليقا ، وإنما كما قال الأجلُّ الأعز (كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد ايمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات (إن الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نُوَلِه ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا) ، وقبل هذا الأمر الرهيب الذى ينتظره في الآخرة بما ذكرت الآيات ، فلابد أن نجعل منه نحن زاجرا مخيفا لمن يتلاعب بدين الديان ، الذى ما أقر دينا سواه ليبقى على الأرض ، حتى يرث هو أرضه ومن عليها ·

(البـــاب الخـــــامس)

ونتناول الحديث في هذا الباب عن مادة واحدة من مواد إعلان حقوق الإنسان وهى المادة السادسة عشرة ، ومع أنها مادة واحدة فسيكون الكلام عنها هو أطول ما قيل في الأبواب العشرة ، ذلك لأن هذه المادة تختص بالمرأة ، والحديث عن المرأة متشعب ومشكل ، وشائك أيضا ، وقد يكون ذلك هو السبب في أن المرأة كثيرة الكلام لاتنتهى لها ثرثرة ، وعلى أى حال سنبدأ الحديث عنها في هذا الباب بالصورة التى رتبناها منذ البداية ، وهى نقل حرفية المادة المذكورة فيما زعموه (حقوق الانسان) ، وهى : -

(المادة السادسة عشرة)

أ ـ للرجل والمرأة متى بلغا سن الزواج حق التزوج وتأسيس أسرة ، دون أى قيد بسبب الجنس أو الدين ، ولهما حقوق متساوية عند الزواج ، وأثناء قيامه ، وعند انحلاله ·

ب ـ لا يبرم عقد الزواج إلا برضا الطرفين الراغبين في الزواج ، رضا كاملا لا إكراه فيه ٠

ج ـ الأسرة هى الوحدة الطبيعية للمجتمع ، ولها حق التمتع بحماية المجتمع وحماية الدولة ٠

على أننى سأبدأ الحديث أولاً عن المرأة بتناول بعض ما اتخذه الحانقون على الاسلام قصة من قصص الترديد المتبذلة ، والتقطها منهم الناعقون المحسوبون علينا عروبة ودينا ، قالوا : لماذا يبيح الإسلام الزواج بأكثر من واحدة إلى أربع ، بل ولماذا تزوج نبى الإسلام صلوات الله عليه بأكثر من أربع ، تزوج بتسع ، وظنوا أنهم بهذا التهجم الوقح على خير دين وأكرم رسول قد وجدوا ضالتهم ، عسى أن ينالوا بذلك النيل الذى يريدونه ، فراحوا يبثونه في أوساطنا الإسلامية ، بل وشاركهم في ذلك أبناؤنا الذين ترسلهم حكوماتنا إلى الخارج ليتعلموا ، فيسقونهم هناك من الكأس المعد لهم ، وننتظر نحن عودتهم بعد أن تعلموا ، وإذا بهم عادوا ليتهجموا ، أما نحن فنرد قائلين ، آخذين أساس ردنا من القرآن الكريم إن شاء الله ، ...... سنبدأ أولا بما هو لعامة المسلمين ، ثم حسن التثنية والثناء بما هو خاص بنبى المسلمين صلى الله عليه وسلم ٠

أما عن إباحة الزواج بأكثر من واحدة إلى أربع ، فنقرأ بعضا من الآية الخاصة بذلك ثم نتناولها بالتوضيح ، يقول تعالى (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) ، وقد اكتفينا بهذا الجزء من الآية وصولا إلى أساس الموضوع وتجنبا للإطالة ، فالأمر هنا (فانكحوا) ، ليس للإلزام وإنما للتخيير ، بدليل قوله تعالى بعد ذلك (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) ، لأن القاعدة أنه لا تخيير بعد الإلزام ، وما وجه الإباحة إذاً ؟ لقد علم الله فينا شدة الميل إلى النساء ، (زين للناس حب الشهوات من النساء) ، فهن أول قائمة الشهوات المذكورة في الآية بعد ذلك ، وأنه بعد زواج الواحدة ، وبعد قضاء المأرب منها زمناً ما ، فقد ينظر الى أخرى على أنها قد تكون أحسن من التى معه ، فهذه الثانية التى أعجبته ، بدل أن يعمل على نيل ما يريد منها بالفاضح المشين ، فليتزوجها بالواضح المبين وبنفس الاحساس مع الأولى الذي جعله يأتي بالثانية ، بدأ يحس به بالنظر إلى ثالثة ، فقد يكون فيها ما ليس في السابقتين ، فلا مانع بالعلنية وليس بالسرية ، لم يقنع بعد الثلاث بأن الطعم واحد ، فطابت في عينه رابعة ، وإلى هنا يكون الأمر قاطعا لديه بأنه وجدهن جميعا في الخلوة شيئا واحدا ، فلا يبحث عن خامسة ليزنى بها ، حيث لن يجد فيها جديدا بعد أن تأكد من أربع ، وهنا يقدم الإسلام للمجتمع أمراً من أعظم الأمور المبعدة للفسق والمشككة في النسب ٠

ثم إن الآية خَوَّفَتْ بعد السماح بالزواج إلى أربع من شيء هو مستحيل ، وهو العدل بين الزوجات (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) ، فإذا أمكن العدل بما هو ظاهر فلا يمكن العدل بما هو باطن ، وهو القلب الذى لا يقلبه إلا فاطره سبحانه وخوفتنا الآية بلفظ الخوف الصريح (فإن خفتم ألا تعدلوا ، فواحدة) ، أى الأحسن أن تكتفوا بواحدة لعدم استطاعة العدل بينهن ، وأن الذى يضطر إلى الزواج بأكثر من واحدة يكون لغير الميل الغريزى ، وإنما لأسباب قد يصبح التعدد فيها خيرا من الاكتفاء بواحدة ·

نقول ذلك وقد أصبح الذين يعيبون على الإسلام إباحة التعدد يطالبون حكوماتهم أن تبيح لهم ذلك ، لما كثرت الفواحش ، وأهلكت الحربان العالميتان من الرجال ما أهلكت ، بالإضافة للحروب الجانبية المنتشرة في كل أرجاء الأرض ولا تنقطع سنة واحدة ، حتى زاد عدد النساء على الرجال أضعافا ، وأصبحت المرأة لاتتزوج سرا بأربعة رجال فقط ، بل بما يحلو لها وتريد ، وبعدد غير محدود ، فالحمد لله على سماحة هذا الدين ودقة تشريعه · فهل لازال منا من يسأل ، لماذا أباح الإسلام تعدد الزوجات ؟ ·

أما عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، فما أحلى الكلام في ذلك دحضا لقذر ما قالوا ·

فنقول إن النبى صلى الله عليه وسلم ، لم يتزوج بتسع كما قال هؤلاء وكما اشتهر على ألسن الكثير من الناس ، وإنما لنزيد في غيظهم نقرر أنه صلوات الله عليه تزوج بأكثر من تسع ، تزوج بإحدى عشرة ، ونقصد بالزواج هنا من دخل بهن ، عليهن رضوان الله ، فالثابت وقوع العقد منه على غير الإحدى عشرة ولم يبن بهن ، وإنما التسع اللواتى عرفهن الناس من مات عنهن وعِشْنَ بعده ، وهذه أسماء الإحدى عشرة كرمهن الله ·

(١) خديجة بنت خويلد (٢) عائشة بنت الصديق (٣) حفصة بنت عمر (٤) أم حبيبة (رملة) بنت أبى سفيان (٥) أم سلمة (هند) المخزومية (٦) سودة بنت زمعة (٧) زينب بنت جحش (٨) زينب بنت خزيمة (٩) جويرية بنت الحارث (١٠) ميمونة الهلالية (١١) صفية بنت حُيَىّ ·

مات منهن في حياته صلى الله عليه وسلم اثنتان ، خديجة ، وزينب بنت خزيمة ، المعروفة بـ (أم المساكين) ، والتسع الباقيات بقين بعد وفاته صلى الله عليه وسلم أعمارا مختلفة ، رضى الله عنهن من أمهات للمؤمنين ·

وقد جمعهن أحد العلماء في الأبيات الثلاثة الآتية : ـ

توفى رسول الله عن تسع نسوة إليهن تعزى المكرمات وتنسب
فعائشة ، ميمونة ، وصفية وحفصة ، تتلوهن هند ، وزينب
جويرية ، مع رملة ، ثم سودة ثلاث وست ذكرهن مهذب

ويلاحظ لمجرد ذكر أسمائهن وأنسابهن ، أنهن يجمعن باقة أشهر القبائل العربية وأقواها ، لهذا كان اختيار هن وسيلة من وسائل شد هذه القبائل بصاحب الرسالة صلوات الله عليه ، ليكون ذلك صورة من صور التبليغ عندما تقع المصاهرة ، وهى من أهم وشائج الصلات عند العرب ، وأظهرها وقوع التواصل والتلاقي ، وترديد اسم مشهور لخير من زاوج وصاهر ، وهو اسم محمد الذى هزّ مجتمعهم كله من أساسه ، ولذا ثبت بسبب هذا التصاهر دخول كثير منهم في الإسلام ، ممن لم يسبق لهم الدخول فيه قبل المصاهرة ٠

ثانيا وهو الأخطر شأنا ، أن هذه الباقة النابهة من الزوجات ، وقد اخترن من الله لرسوله ، فقد قال له بعد ذلك (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدَّل بهن من أزواج) ، كان عليهن مهمة تبليغ الرسالة للنصف البشرى الذى يقيده الحياء وهن النساء ، خاصة ما يتصل بتشريع الأنوثة ، ولهذا لا تكاد بيوتهن تخلو من أفواج النساء ليتلقين منهن عاطر الوحى الخاص بهن ، والدليل بأن هذا تكليف لنساء الرسول وليس مجرد تطوع بالخير منهن هو قوله تعالى : (واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) ، وخص هذا الأمر مباشرة بهن ، فالكلمة (اذكرن) تكليف بِمَعَانٍ ثلاثة ، اذكرن بمعنى احفظن ما أنزله على زوجكن الرسول ، واذكرن ذلك في ذوات أنفسكن بمعنى العمل والتنفيذ لأنكن القدوات لغيركن ، وثالث المعانى اذكرن ذلك بين النساء تبليغا وتعليما ٠

فلما كانت الرسالة بهذا الاتساع والتعاظم ، ونصيب المرأة منها كبير ، أصبح كثرة المعلمات المتصلات بِسرِّ النبوة شيئا يزيد في كمية العلم المبلَّغ وسعة انتشاره ، وعودا إلى كتب الإسلام على اختلاف أنواعها وكثرتها ، نجد عائشة وزميلاتها قد أضأن هذه الكتب بما أخرجن من التشريع والعلم ، من داخل حجرات النبوة ، ليس عن النساء فقط ولكن عن الرجال أيضا ، فقمن بتنفيذ الأمر كاملا ، فذكرن حفظا وتطبيقا وتبليغا ، وهكذا زوجه سبحانه بعدد من النسوة وخاطبهن بالجمع (واذكرن) لعلمه بما زوج به نبيه ، وأن من مهمتهن مساعدة رسوله في تبليغ رسالته الثقيلة ، ولهذا كُنَّ جديرات بأن يجعلهن أمهات المؤمنين ، وكأنهن وَلَدْنَ

جميع أمة زوجهن العظيم ، صلى الله عليه وسلم ، فكل أم يمكن أن تلد ، ولكن ليس كل أم يمكن أن تعلم وتربى أبناءها ، وهذا هو خير ما في الأم ، فأعطاهن الله هذه الصفة كاملة وليس مجرد تشبيه ، فلم يقل سبحانه : وأزواجه كأمهاتهم ، وإنما قال : (وأزواجه أمهاتهم) ، حتى إن كبار الصحابة كانوا يرجعون إلى أمهاتهم هؤلاء في كل معضل من الشريعة ، ثم إن نبينا عليه الصلوات ، لم يكن بدعا من الرسل حين تزوج بهذا العدد المحدود ، وهو كثير عند الأعداء والجاهلين ، والذى كان لحكمة عظيمة أوضحنا منها ما ذكرنا ، والذين تخرج هذه البغضاء من أفواههم ، يعلمون يقينا أن أكثر من نبى كريم من أنبيائهم كسليمان عليه السلام ، تزوج بتسعين امرأة كما هو ثابت في الحديث الصحيح ، فيتركون التسعين ويتكلمون عن التسع ، وذلك لحاجة في نفس يعقوب لم يقضها .

وإنه والله لزيادة في الكفر ، حينما يعترض أحد على من له التصرف في ملكه بما يشاء ، ، فما دخْلُ الخلق في عمل الخالق ؟ ، حيث الرجال عباده والنساء إماؤه ، زوج من يشاء بالعدد الذى يشاء (يا أيها النبى ، إنا أحللنا لك أزواجك) (ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له) ، إن الواحد منا لا يقبل من غيره التدخل في شؤونه ، فكيف بالتدخل في شأن من له الشأن كله ؟ ، والرسل هم أحبابه وصفوته ، يميزهم بما يشاء ، ويدخل في ذلك بما يعجز عنه غيرهم ، فسبحان من أتم عليهم نعمته خَلْقا وخلقا ، وبعد ذلك ، أفنحن نسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ؟ .

ثم قال الأعداء وردد أدعياء الإسلام قولهم : إنكم أيها المسلمون تمزقون ما أحكمته أواصر الزواج بتشريد الزوجة وأطفالها بمجرد كلمة طلاق تخرج من فم أحدكم ، أما غيركم فلا يطلق إلا بدعوى أمام القاضى ليحكم بالطلاق أو عدمه ، وجوابنا من كتاب الله أيضا ، فإذا كان بعض الرعناء والحمقى قد أساءوا استعمال كلمة الطلاق فقد خالفوا صميم تعاليم دينهم ، ومكنوا عدونا من اصطياد التهم ضدنا ، وإلى قرآننا وهو نبعنا الذى لا يغور فراته ، لنأخذ منه ما نرد به الكيد ، ولنرى كيف يعالج الأمر منذ أول بادرة شر بين الزوجين ، وبصورة ترفع من هام المسلم بهذا التشريع الرفيع ، يقول عز من قائل : (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن ، واهجروهن في المضاجع ، واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن الله كان عليا كبيرا ، وإن خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ، إن الله كان عليما خبيرا) .

أما القوامة وما يتصل بها ، فسأعود إليها في فاصل آخر يأتى بعد إن شاء الله ، وسأبدأ الآن من قوله تعالى :

(فالصالحات قانتات حافظات للغيب) ، أى مطيعات حافظات لغيب الزوج في عرضه وولده وماله (بما حفظ الله) ، يعنى حقها الذى أمر الله زوجها أن يفى لها به مقابل حفظها له ، فإذا قام الرجل بما عليه ـ فليس غير القائم محل حديثنا ـ وإن كنا لن نغفله ولو بقليل ، لأن حديثنا الآن حول المرأة ، ولأن الآية التى نحن بصددها مختصة بها أيضا ، فإذا لم تعد مطيعة لزوجها حافظة لغيبه ، وبدأ (النشوز) وهو التمرد والمعصية ، فهل تخرج طلقات الطلاق كما يطلق المدفع الرشاش ، لتقتل أسرة بأكملها ولتصبح مشردة تعسة في هذه الحياة ؟ ، تباعد بين زوجين عزيزين أفضيا إلى بعضهما ، وتحكم باليتم المحزن على أطفال برآء لم يمت أبواهما ، لمجرد لحظات من تعكير صفو ، كما يفعل الآن الكثير من المتهورين والمندفعين .

ولننظر كيف يكون من القرآن وقتئذ ، فقد جعل الطلاق آخر مرحلة من خمس مراحل ، بعد أربع لا بد أن تسبق خامستها ، وهى مرحلة الفراق .

الأولى : مرحلة الكلام الهادىء ، المرهب أو المرغب ، وهو المعبر عنه بقوله تعالى : (فعظوهن) ، ولا يكتفى بذلك بيوم ولا بأيام ، وإنما بمدة تكفى للتفكر والتبصر ، ولو طال هذا النصح سنة أو أكثر ، فإن انتهى النشوز ، وإلا فالمرحلة الثانية ، وهى الابتعاد عن فراشها ، فلا يمسها بمدة تشغل بالها ، بنحو الخوف من أن يتجه إلى غيرها ، وهو المعبر عنه بقوله تعالى (واهجروهن في المضاجع) ، والغيرة عند المرأة معروفة ، فإذا طال الأمر ولم تقلع ، فتأتى المرحلة الثالثة وهى الضرب ، ولكم أسىء إلى هذه الكلمة إساءة بالغة ، سواء ممن لم يفهمها من المسلمين ، أو ممن سمعها من أعداء الإسلام المتربصين ، فقالوا إن دينكم يأمر بضرب المرأة ، وربما قطعت هذه الجملة من الآية بتعمد لئيم مقصود ، ورددتها كثيرات من المتعلمات التعليم المعروف الذى لا صلة له بالإسلام ، فلم تذكر الآية بكاملها ، وإنما على طريقة (ولا تقربوا الصلاة) و (ويل للمصلين) ، فمع أن كلمة الضرب لم تأت إلا في ثالث مرحلة قد تكون بعد سنوات في الوعظ والهجر ، فإنها ليست بالأمر اللازم التنفيذ ، بمعنى أن الزوج إذا رأى أن الجرم الذى وقع منها يوجب ضربها ، ولكنه تنازل عنه ولم يضرب ، فهل عليه من اثم ؟ ، لم يقل أحد بذلك أبدا ، ودليلى أنه ثبت عن نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم أنه لم يستعمل هذه الرخصة أبدا ، فلم يضرب واحدة من زوجاته قط طول حياته ، رغم أنهن أغضبنه لأكثر من مرة كما نعلم ، ثم إن معنى الضرب هنا بما أجمع عليه المفسرون أخذاً من

تفسير النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه ، بأنه ضرب غير مبرح ، أى الذى لا يسيل الدم ، ولا يكسر العظم ، بل ولا شديد الألم ، فلا يكثر من ضرب الزوجة إلا الزوج الضعيف الشخصية ، حتى إن أبا حنيفة رحمه الله لا يجيز الضرب بأكبر من حجم السواك غلظا وطولا ، ولعله رحمه الله أخذ هذا الحكم من قول نسب إلى ابن عباس رضى الله عنه ، ومنع اللطم على الوجه أو باليد مقبوضة لأنها قد تكسر بل قد تقتل ، وإنما بعود رفيع يؤلم ولا يحطم ، بنحو ما ذكر الفقهاء ، ولكم أصلح هذا الضرب بصورته هذه معوجات كثيرات وناشزات ، شريرات ، وقد ورد أن معاوية بن حيدة رضى الله عنه قال ، يارسول الله ، ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : (أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تقبح الوجه ، ولا تضرب) رواه أحمد ، وكلمة (لا تضرب) أى بمعنى الضرب الغير جائز وهو المبرح ، مع الابتعاد عن الوجه على أى حال .

أبعْد ذلك يقال إن الإسلام أمر بضرب المرأة وكفى ؟ وأن يعصى الكثير منا أمر القرآن وحديث الرسول وسيرته مع أهله ، فيغالى في الضرب بما نرى ونعلم ؟ وبما يتخذه الخصوم سببا للتشويش والتشهير ، مع أن ضربهم للنساء في الخارج بوحشية أصبح أمرا مألوفا عندهم .

نعود إلى الآية لما لم يجد التخويف بالضرب ، فتكون المرحلة الرابعة عندما يتحول الأمر إلى شقاق (وإن خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها) ، واشترطت الآية الحَكَم الذى لا يميل مع هوى القرابة (إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما) ، فإرادة الاصلاح ونيته لابد أن توجد عند الحكمين ، ولو وجداه في الانفصال بعد محاولة الوصال أولاً فلا بأس باعتباره آخر مرحلة . وقيل إن عمر رضى الله عنه أرسل حكمين إلى زوجين ، فعادا ولم يصلا ولم يفصلا ، فضربهما بالدرة قائلا : إنكما لم تريدا إصلاحا كما قال الله ، ولو أردتماه لأصلح الله بكما .

وأخيرا إذا لم يفد ذلك كله يأتى خامس المراحل وهو الطلاق ، وعندئذ يكون أبغض الحلال ويغن الله كلًا عن الآخر من سعته (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) ، هذا هو الطلاق عندنا ، فإذا فعل أحدنا غير ذلك ، فهل يكون من تقصير الدين أم تقصير الجاهلين .

* * *

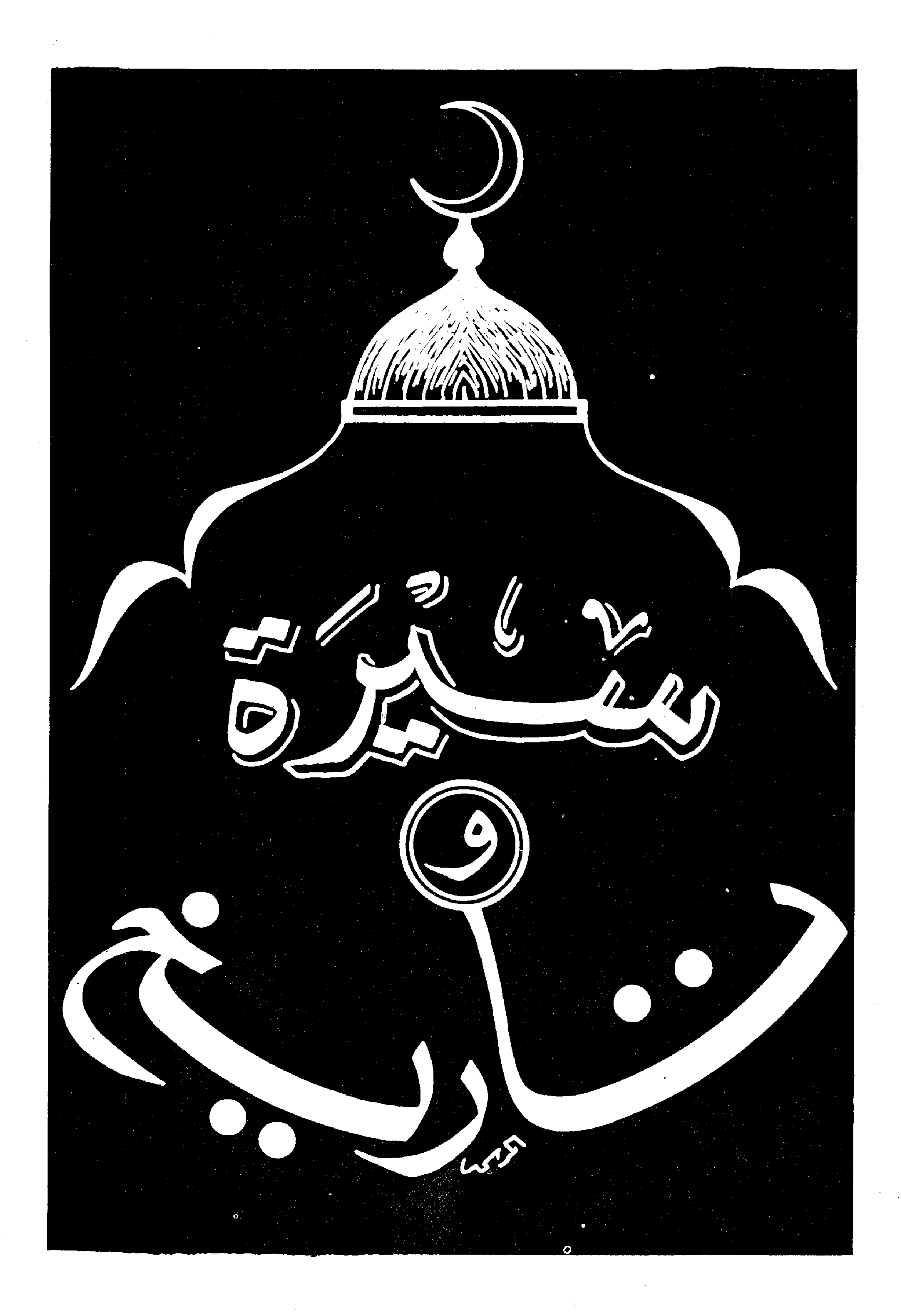
* * *

إلى الاسلام

لقد اضطلعت الجزائر بدور الريادة خلال تاريخها الطويل .. فكانت ثورتها التحريرية قدوة للشعوب المستعمرة .. كما كانت معركتها في البناء ـ بعد الاستقلال ـ نموذجا للشعوب السائرة في طريق النمو، بفضل سياستها الرشيدة، ومبادراتها الشجاعة المشرفة، في خدمة الانسانية وقضايا العدل، لكن الجزائر اليوم، ينتظر منها دور أعظم، هو تقديم النموذج الحى للمجتمع السليم المعافى، في عالم مريض، اختل توازن انسانه لأنه يطلب السعادة في التقدم الصناعى التكنولوجى وحده، وتجاهل الجانب الروحى في الوجود الانسانى .

إن ناقوس الخطر، الذى يهدد الكيان الحضارى بالانهيار، يدقه أبناء هذه الحضارة نفسها، الذين يغارون عليها، فما أكثر الصيحات التى أطلقها المفكرون الواعون الذين نادوا بضرورة العودة الى الاسلام، عقيدة ومنهاج حياة، وأنه لمن العجب أن يقتنع غيرنا بالاسلام منقذا لانسان الذرة وغزو الفضاء، بينما يظل بعض أبنائه شاكين تائهين، أو معرضين متنكرين لصلاحية مبادئه وقيمه !

« جوهر الاسلام التونسية »


سيرة
و
تاريخ

أثر الحضارة الإسلامية في الحضارة الأوروبية

د. جاد محمد أحمد رمضان
رئيس قسم التاريخ بالجامعة

الحمد لله الذى هدى المسلمين إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى بعثه الله رحمة للعالمين فبلغ الرسالة وأدى الأمانة وعبد ربه حتى أتاه اليقين ٠

أما بعـــــــــــــد

فإنه في الوقت الذى كان المسلمون ينعمون فيه بظل الحضارة الإسلامية التى أفاضت عليهم كل أنواع الخير ووقتهم مفاسد الشر وأبعدتهم عن مواقع الفتن ؛ في هذا الوقت الذى كان فيه المسلمون كذلك كان أهل أوروبا يعيشون في جهالة جهلاء وضلالة عمياء بعيدين كل البعد عن كل مظاهر التقدم الحضارى ٠

ومنذ العقد الأخير من القرن الأول الهجرى بدأ شعاع الحضارة الإسلامية يصل إلى أوروبا عن طريق الأندلس ثم عن طريق صقلية وكذلك عن طريق الحروب الصليبية ومن قبل تلك الحروب عن طريق السفارات بين دول أوروبا وبين دول المسلمين في الشرق والغرب ٠

ولم يكن تأثير هذا الإشعاع الحضارى متساويا في الدرجة بل كان بعضه أكثر تأثيرا من الآخر فالأندلس كانت أسبق مصادر الاشعاع وأكبرها تأثيرا ثم تلتها في الأهمية صقلية ثم

تأتى بعد ذلك الحروب الصليبية ثم الاتصالات السياسية والتجارية بين الدول الإسلامية والدول الأوروبية ·

الأندلس مصدر الإشعاع الأول

عبر المسلمون إلى الأندلس في العقد الأخير من القرن الأول الهجرى وواصلوا فتوحهم في أوروبا حتى استولوا على شبه جزيرة أيبريا وجنوب فرنسا ثم استمروا في فتوحهم حتى استولوا على جزر البحر الأبيض المتوسط وجنوب إيطاليا ونشروا دينهم فيما فتحوه من البلاد ·

وكانت أوروبا ـ في ذلك الوقت ـ خلوا من كل مظاهر الحضارة بعد أن تمكنت القبائل المتبربرة من القضاء على الدولة الرومانية الغربية واحتلال الأقاليم التى كانت تخضع لحكمها · وعلى الرغم من أن هذه القبائل دانت بالمسيحية فإنها لم تتقدم تقدما حضاريا يستحق الذكر بسبب توالى مجىء موجات جديدة منهم وغلبة الروح العسكرى عليهم وقلة المرونة العقلية لديهم مما جعلهم متخلفين عن ركب الحضارة والمدنية يعيشون في ظلام الجهالة والهمجية ·

وقد نشر المسلمون في كل بقعة دخلوها من أوروبا لواء الأمن ونور المعرفة وأقاموا فيها قواعد حكم عادل يسوى بين الجميع في المعاملة ويكفل الحرية لكل فرد في المجتمع ويعمل للصالح العام ويمقت الأنانية والإنتهازية ·

وتاريخ أسبانيا العربية المسلمة صحيفة مشرقة من صحائف التاريخ الإنسانى وسجل حافل بالأمجاد ذاخر بمختلف نواحى الحضارة التى كانت مركز إشعاع هائل للحضارة الأوروبية ·

وقد كان المجتمع في الأندلس بعد الفتح الإسلامى يتألف من العرب الفاتحين ومن الأسبان الذين اعتنقوا الإسلام وقد عرفوا باسم « المسالمة » ومن الأسبان الذين استمروا على المسيحية وقد أطلق عليهم اسم « العجم » وأصبحوا أهل ذمة يدفعون الجزية للمسلمين ويعيشون آمنين في وطنهم ويتمتعون بالحرية الدينية والتسامح الذى امتاز به المسلمون في معاملتهم لمخالفهيم في الدين ·

وكان من بين هؤلاء جماعة عاشروا العرب وتعلموا لغتهم ودرسوا علومهم وقلدوهم في عاداتهم وأسلوب معيشتهم وأطلق على هذه الطائفة اسم « المستعربين » (١) ·

---

(١) لطفى عبد السميع : الإسلام في أسبانيا ص ٣٠ ، ٣١ ·

وعن طريق هؤلاء الذين جمعوا بين معرفة اللغة العربية واللغة اللاتينية الحديثة نقلت حضارة العرب إلى الأمارات الشمالية في شبه جزيرة أيبريا التى اتخذها المسيحيون معقلا لهم واعتصموا بجبالها ولم يدخلوا في طاعة المسلمين .

وبعد جيل من الفتح تكون من المسلمين العرب والأسبان عنصر جديد عرف « بالمولدين » وهم الذين ولدوا من آباء عرب وأمهات أسبانيات وعلى مرّ الزمن كثر عدد هؤلاء حتى أصبحوا يكونون أغلب سكان الأندلس .

وقد وصلت الحضارة العربية في الأندلس إلى درجة عالية من الازدهار وبخاصة في القرن الرابع الهجرى حيث كانت مدينة قرطبة العاصمة تضم مائة وثلاثة عشر ألف مسكن وواحد وعشرين ضاحية وكان بها سبعون داراً للكتب وعدد لا يحصى كثرة من الحوانيت كما كان بها كثير من المساجد وكان أغلب شوارعها مرصوفا ومضاءا (١) . وكانت بقية المدن صورة مصغرة من العاصمة .

وفي محيط الزراعة غرس العرب الكروم في بلاد الأندلس وأدخلوا إليها كثيرا من النباتات والفواكه التى لم تكن بها مثل الأرز والقمح وقصب السكر والمشمش والخوخ والبرتقال والرمان وقد حفر المسلمون الترع والقنوات ونظموا وسائل الرى وكان الرقى الزراعى أحد مفاخر أسبانيا الإسلامية (٢) .

وفي ميدان الصناعة ازدهرت صناعة النسيج والزجاج والنحاس والخزف والسيوف وكثر استخراج الذهب والفضة والحديد والرصاص وغيره من المعادن (٣) . وكان ما تنتجه الأندلس من مزروعات وفواكه ومصنوعات يفيض عن حاجة سكانها .

ولقد ازدهرت الحياة الثقافية في الأندلس وبخاصة في عهد الحكم الثانى (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ) وكانت جامعة قرطبة التى أنشأها والده عبد الرحمن الناصر في المسجد الجامع يفد إليها الطلاب من جميع أنحاء الأندلس ومن أفريقيا وأوروبا . وقد استدعى الحكم بعض الأساتذة المشهورين من الشرق ليحاضروا فيها ومن بينهم العالم اللغوى المشهور أبو على القالى مؤلف كتاب الأمالى (٤) وكان المؤرخ الأندلسى ابن القوطية يدرس النحو بها .

وكان الحكم مغرما باقتناء الكتب فكان يكلف رجاله بالبحث عن المخطوطات في حوانيت الأسكندرية ودمشق وبغداد وشرائها ونسخها وبهذه الطريقة تمكن من جمع أربعمائة

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٩٨ .

(٢) جوت هل : الحضارة العربية ص ١١٩ .

(٣) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٣٠ ، ١٣١ .

ألف مجلد (١) وكان يطلع بنفسه على بعض هذه المخطوطات ويكتب ملاحظات في هوامشها مما جعل لها قيمة كبيرة في نظر العلماء المتأخرين ٠ وقد أراد أن يحصل على النسخة الأولى لكتاب الأغانى التى كتبها أبو الفرج الأصفهانى بنفسه - وهو من سلالة الأمويين - وكان يقيم إذ ذاك بالعراق فبعث إليه بألف دينار ثمنا لها (٢) ٠

وكان المسيحيون الأسبان الذين هاجروا إلى كثير من بلاد أوروبا قد أشادوا بالعرب وشرائعهم وحضارتهم وثقافتهم وبالعمران الذى عم البلاد الأسبانية على أيديهم فنشروا بذلك - من حيث لا يقصدون - دعاية طيبة للمسلمين في أوربا ونبهوا أذهان أهلها إلى النهضة الحضارية التى قام بها المسلمون في أسبانيا ٠

وكان هؤلاء المهاجرون قد تسرعوا في هجرتهم خوفا على أنفسهم من بطش المسلمين بهم من غير أن ينتظروا ما سيكون منهم ولكنهم لم يلبثوا أن ندموا على هجر بلادهم حين علموا من مواطنيهم الذين لم يهاجروا مثلهم أن المسلمين يحسنون جوارهم ويطلقون لهم الحرية في أداء شعائر دينهم ويعاملونهم بالحسنى وينشرون العدل والأمن في سائر البلاد وأنهم حولوا أسبانيا إلى مروج خضراء وجنات فيحاء (٣) ٠

هذه الدعاية غير المقصودة التى نشرها المهاجرون الأسبان في أكثر بقاع أوروبا جعلت أهلها يتطلعون للوقوف على هذه النهضة الحضارية التى وصلت أخبارها إليهم وكان أسبق الأوربيين إلى ذلك الملك فيليب البافارى حيث بعث إلى الأندلس يرجو الأمير الأموى هشاما الأول (١٧٢ - ١٨٠ هـ) يرجوه أن يسمح له بايفاد بعثة إلى قرطبة لدراسة أنظمة الأندلس وثقافتها ومشاهدة أوجه النشاط بها فقبل الأمير رجاءه وأرسل الملك الجرمانى وفداً إلى الأندلس برئاسة وزيره الأول « ويلميبن » الذى أطلق عليه الأندلسيون اسم « وليم الأمين » لأنه تحرى الأمانة في نقل ما رآه من مظاهر نهضة بلادهم إلى الملك ٠ وقد أشار الوزير على الملك بالاستمرار في إرسال البعثات العلمية لاقتباس ما يفيد البلاد من فنون الحضارة العربية (٤) ٠

وقد توالت البعثات على الأندلس بعد ذلك وفي أوائل القرن الخامس الهجرى أرسل جورج الثانى ملك انجلترا ابنة أخيه الأميرة « دوبانت » على رأس بعثة من ثمان عشرة فتاة

---

(١) ابن خلدون : كتاب العبر جـ ٤ ص ١٤٦ ٠

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٥٠ ٠

(٣) المدوّر : الديانات والحضارات ص ٦٧ ٠

(٤) على الخربوطلى : العرب والحضارة ص ٢١٢ ٠

من بنات الأمراء والأعيان إلى أشبيلية بمرافقة النبيل « سفليك » رئيس موظفى القصر الملكى وأرسل معه كتابا إلى الخليفة هشام الثالث آخر الخلفاء الأمويين بالأندلس جاء فيه بعد الديباجة « وقد سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضه الصافى معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة فأردنا لأبنائنا إقتباس نماذج من هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التى يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة ، وقد أرسلنا ابنة شقيقتنا الأميرة « دوبانت » على رأس بعثة من بنات الأشراف الإنجليز لتتشرف بلثم أهداب العرش والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم وحماية الحاشية الكريمة وحدب من لدن اللواتى سيتوفرن على تعليمهن وقد أرفقت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص من خادمكم المطيع : جورج .

وقد ردّ الخليفة هشام الثالث على ملك انجلترا برسالة جاء فيها « لقد اطلعت على التماسكم فوافقت ـ بعد استشارة من يعنيهم الأمر ـ على طلبكم وعليه فاننا نعلمكم بأنه سينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم الملكى أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد وبالمقابلة أبعث إليكم بغالي الطنافس الأندلسية وهى من صنع أبنائنا هدية لحضرتكم وفيها المغزى الكافى للتدليل على اتفاقنا ومحبتنا والسلام ـ خليفة رسول الله على ديار الأندلس : هشام .

وفي عهد ملوك الطوائف في الأندلس كانت توفد إلى معاهد غرناطة وأشبيلية وغيرهما بعثات من فرنسا وإيطاليا والأراضى الواطئة لتنهل من الحضارة العربية وكان طلاب هذه البعثات يعجبون بالحياة العربية وتقاليدها وثقافتها حتى أن بعضهم اعتنق الإسلام وفضل البقاء بالأندلس ولم يعد إلى بلاده (١) .

وكانت مدينة طليطلة بعد سقوطها في أيدى المسيحيين سنة ٤٨٧ هـ المركز الرئيسى لحركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية وقد أنشأ « ريموند » رئيس أساقفتها مكتبا للترجمة ، وكان المستعربون من أهل الأندلس أكبر المساهمين في حركة الترجمة ومن أشهرهم « دومونيقوس جونديسا لفى » و « بطرس الفونسى » و « حنا الأشبيلى » وغيرهم (٢) .

وقد ترتب على هذه الحركة وجود ثورة علمية وفكرية هائلة في غرب أوروبا : ذلك لأن المعارف الجديدة التى نقلت من العربية إلى اللاتينية أضاءت أمام الأوربيين طريق الحياة

---

(١) المدور : الديانات والحضارات ص ٧٠ .

(٢) سعيد عاشور : أوروبا في العصور الوسطى ص ٢١٧ .

وبددت ضباب الجهالة الذى حجب عنهم رؤية الحضارة وأيقظتهم من سباتهم العميق ونبهتهم من غفلتهم الطويلة فأقبلوا على دراسة الحضارة الإسلامية بشغف بالغ ونهم شديد (١) ٠

ففى علم الحساب مثلا عرفوا نظام الأعداد الهندية عن العرب وهو النظام الذى تتغير فيه قيمة الرقم بنقله من خانة الآحاد إلى خانة العشرات أو المئات أو الآلاف وما بعدها واستعملوه في عملياتهم الحسابية بدل الأرقام الرومانية التى كانت عملياتها الحسابية تتطلب منهم وقتا طويلا ٠

ومن المرجح أن البابا « سلفتر » الثانى الذى قضى سنوات عديدة في شمال أسبانيا كان من أوائل الأوروبيين الذين نقلوا نظام الأعداد العربى إلى الغرب هذا بالإضافة إلى تشجيعه على ترجمة كثير من المؤلفات العربية إلى اللاتينية وبخاصة ما يتعلق منها بعلم الجغرافيا ٠

وقد عرف الأوروبيون علم الجبر ـ لأول مرة ـ عن العرب كما نقلوا عنهم علوم الهندسة والفلك والطبيعة والكيمياء والطب والفلسفة وكثيرا من أنواع فروع المعرفة المختلفة ٠

وقد سلكت الفنون الإسلامية سبيلها إلى أوربا عن طريق الأندلس كذلك مثل صناعة الخزف والنسيج والتعدين وصناعة المعادن والنجارة والتطعيم بالعاج وغيرها من الصناعات (٢) ٠

ومن هذا العرض السريع نتبين أهمية الدور الذى قامت به الأندلس في نقل الحضارة الإسلامية إلى ربوع أوربا فكانت أساس نهضتها في العصور الحديثة وسببا فيما تنعم به الآن من حياة مرفهة وثراء وفير وما تفخر به من تفوق في العلوم والفنون ٠

صقلية مصدر الاشعاع الثانى

حاول المسلمون فتح جزيرة صقلية منذ عهد معاوية بن أبى سفيان فقد أرسل واليه على مصر وأفريقية معاوية بن حديج جيشا بقيادة عبد الله بن قيس الغزاوى لغزوها ولكن ابن قيس لم يتمكن من ذلك ثم تجددت المحاولة عدة مرات ولكن أقدام المسلمين لم تثبت في هذه الجزيرة إلا في أوائل القرن الثالث الهجرى حيث ابتدأ فتحها سنة ٢١٢ هـ زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب الذى كان واليا على أفريقية من قبل الخليفة المأمون العباسى ٠

وكان سبب فتحها أن إمبراطور الدولة البيزنطية « ميخائيل الثانى » ولى عليها « قسطنطين البطريق » فأرسل الأمير القائد قسطنطين بوفيموس » على رأس أسطول نهب

---

(١) بالنشيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٥٣٦ ٠

(٢) هل : الحضارة العربية ص ١٢٠ ٠

ساحل أفريقية ولكن الإمبراطور غضب على هذا القائد لما بلغه من أنه اختطف راهبة من أحد الأديرة هناك ففر القائد إلى مدينة « سرقوسة » الواقعة على ساحل صقلية الشرقى وأعلن الثورة على حاكم الجزيرة غير أنه رأى أن لا طاقة له على مقاومة جيوش الإمبراطور وأساطيله فلجأ إلى زيادة الله بن الأغلب أمير أفريقية وأغراه بغزو صقلية وهوّن عليه فتحها فجهز الأمير الأغلبى جيشا وأسطولا يتألف من مائة سفينة بقيادة أسد بن الفرات قاضى القيروان وسيره لفتحها (١) ٠

وقد لقى المسلمون صعوبات كثيرة في فتحها ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليها جميعها إلا في عهد إبراهيم الثانى الأغلبى سنة ٢٦٤ هـ وقد ظلت صقلية تابعة لدولة الأغالبة حتى سقطت هذه الدولة على أيدى الفاطميين سنة ٢٩٦ هـ فدخلت صقلية في حوزتهم ولكن العرب الذين كانوا يستوطنونها أعلنوا الثورة على الفاطميين بزعامة أحمد بن قرهب بعد أربع سنوات من حكمهم واعترفوا بسيادة الدولة العباسية (٢) ٠

غير أن الفاطميين تمكنوا من إخضاع الثورة وإعادة سيطرتهم على الجزيرة واتخذوها قاعدة حربية لأسطولهم يشنون منها الغارات على جنوب إيطاليا وبخاصة مدينة جنوة التى تكررت غاراتهم عليها ٠

وقد عيّن الخليفة المنصور ثالث خلفاء الفاطميين الحسن بن على بن الكلبى واليا على صقلية فوضع الحسن أساس حكومة شبه مستقلة في صقلية يتوارثها أبناؤه من بعده وفي عهد هذه الأسرة بذرت بذور الثقافة العربية وأخذت تنمو وتزدهر على مرّ الأيام في تلك الجزيرة ٠

ولم يتدخل العرب في الشئون الداخلية لأهل الجزيرة بل تركوا لهم الحرية التامة في مزاولة عاداتهم وتقاليدهم وفي أداء شعائر دينهم واكتفوا بجباية جزية قليلة ممن لم يعتنق الإسلام منهم وكان مقدارها أقل بكثير من الضرائب التى كان الرومان يفرضونها عليهم وقد أعفوا من هذه الجزية الرهبان والفقراء والنساء والأطفال والشيوخ ولم يتعرضوا لكنائسهم بسوء ٠

وقد اهتم العرب بالزراعة وأدخلوا في الجزيرة العربية زراعة قصب السكر والكتان والزيتون وكثيرا من النباتات وأشجار الفاكهة التى لم تكن موجودة بها من قبل ٠ وقد ساعد خصب تربة الجزيرة على نمو زراعتها وجودة فواكهها فتوفرت حاصلاتها وكثرت مواردها ٠

---

(١) أمارى : مكتبة صقلية العربية جـ ١ ص ٤٢٧ ـ ٤٢٩ ٠

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٥٣ . ٥٤ ٠

وقد مرّ الرحالة ابن جبير بها سنة ٥٨٠ هـ بعد ست وتسعين سنة من انتهاء حكم العرب بها فأعجب بأشجار الفاكهة فيها واسترعى انتباهه ما شاهده من جودة كرومها (١) ٠

ولم يكن اهتمام العرب في صقلية بالصناعة أقل من اهتمامهم بالزراعة فقد أنشأوا مصانع للورق ومصانع للنسيج واستخرجوا الذهب والفضة والحديد والرصاص والنوشادر من مناجمها وتفننوا في صناعة الأوانى النحاسية وصناعة النجارة والتطعيم بالعاج وصناعة الرخام والفسيفساء وغيرها وشيدوا المساجد الفخمة والقصور الجميلة ٠

وقد ساعدت موارد الجزيرة الفنية كما ساعد اشتغال العرب بالتجارة على زيادة ثروتهم فعاشوا عيشة مرفهة وملؤوا منازلهم بالأثاث الفاخر وفرشوها بأحسن أنواع السجاد وتزيوا بأغلى أنواع الثياب ولبست نساؤهم ثياب الحرير الموشى بالذهب وانتعلن الأخفاف المذهبة وتزيّن بالذهب والجواهر ٠

ومنذ أوائل القرن الرابع الهجرى أخذ البيزنطيون يكثرون من الغارات على الجزيرة فشغل ولاتها من قبل الفاطميين بعد هذه الغارات وفي الوقت نفسه قامت اضطرابات بين العرب أنفسهم داخل صقلية فأدى ذلك إلى ضعفهم وعجزهم عن الدفاع عن الجزيرة ولم يكن في وسع الفاطميين بالقاهرة أن يمدوهم بالجيوش لاضطراب الأمور فيها فانتهز النورمانديون هذه الفرصة وأخذوا يستولون على ثغور الجزيرة ومدنها الواحدة تلو الأخرى حتى تم للملك « روجر الأول » الاستيلاء على جميع نواحى الجزيرة سنة ٤٨٣ هـ وبذلك انتهى حكم العرب فيها بعد أن استمر مائتين وعشرين عاما (٢) ٠

ولم يكن استيلاء النورمانديين على الجزيرة آخر عهد العرب بها بل ظلوا بعد زوال الحكم العربى يقيمون فيها وقد اعتمد حكامها النورمانديون على العناصر العربية في الشئون السياسية والاقتصادية لأنهم كانوا على جانب كبير من الخبرة والحضارة والرقى كما كانوا عناصر نشيطة ومنتجة ٠

وكان « روجر الثانى » يرتدى الملابس العربية ويطرز رداءه بحروف عربية وقد نقش على سقف كنيسته التى بناها في مدينة « بالرمو » نقوشا بالخط الكوفى ٠ وكان الإدريسى الجغرافى الرحالة وأعظم رسامى الخرائط محببا إليه مقربا عنده وقد شجعه الملك على بحوثه الجغرافية وقدم له كل مساعدة وبذل له من المال ماامكنه من إرسال الرسل إلى كثير من الأقاليم لامداده بالمعلومات الجغرافية عنها ٠

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٢٨ ٠

(٢) أمارى : مكتبة صقلية العربية ص ٤٧٢ ٠

وكذلك كان الملك « وليم » بن الملك روجر الثانى وحفيد الملك روجر الأول يعتمد على العرب فيقربهم اليه ويثق فيهم وقد عبر عن ذلك شاهد عيان هو الرحالة بن جبير في حديث له عن الملك بقوله « .... إنه عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين وإنه لكثير الثقة بهم وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله وله منهم الأطباء والمنجمون وهو شديد الحرص عليهم (١) .

وكان الامبراطور « فردريك الثانى » الذى ورث عرش الامبراطورية الرومانية المقدسة عن أبيه الألمانى كما ورث عرش صقلية عن أمه الإيطالية كان قد ولد بصقلية وتربى بها وتعلم فيها فنشأ محبا للعلوم العربية وكان يحسن التكلم باللغة العربية . وقد أفاض المؤرخون العرب والأوربيون في وصف حبه للمسلمين وإعجابه بعلومهم وحضارتهم وأخلاقهم وتقريبه لهم واستخدامهم في حاشيته حتى أن الموذنين المسلمين كانوا يؤذنون عند موعد كل صلاة في معسكره (٢) .

وقد قامت بين الامبراطور « فردريك الثانى » وبين السلطان الأيوبى الكامل محمد ابن أخى صلاح الدين صداقة متينة وكانا يتبادلان السفارات والهدايا فتذكر المصادر التاريخية أن السلطان الكامل أرسل هدية إلى الامبراطور كان من بينها زرافة كانت أول زرافة دخلت أوربا وأن الأشرف الأيوبى صاحب دمشق أرسل إليه جهازا عجيبا للكواكب في صور تمثل الشمس والقمر وتحدد الساعات في مداراتهما وأن الامبراطور أرسل هدايا لكل من الكامل والأشرف منها دب أبيض وطاووس أبيض أعجبا أهل القاهرة ودمشق كما أعجبت الزرافة وجهاز الكواكب أهل صقلية (٣) .

وقد استمرت الصداقة قائمة بين « فردريك الثانى » وسلاطين مصر بعد وفاة السلطان الكامل سنة ٦٣٥ هـ يدل على ذلك ما أشارت إليه المراجع التاريخية من أن الأمبراطور حذر الصالح نجم الدين أيوب عندما علم بنية ملك فرنسا « لويس التاسع » القيام بالحملة الصليبية السابعة ضد مصر سنة ٦٤٧ هـ حيث أرسل إليه - وهو بدمشق - رسولا تظاهر بأنه تاجر وأسرّ إليه بأن لويس التاسع يعتزم توجيه حملة إلى مصر للاستيلاء عليها فأسرع الصالح بالعودة إلى مصر للدفاع عنها (٤) .

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٣٣١ .
(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٣٨٢ .
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٨٣ .
(٤) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢١٩ .

وقد ظل العرب يحتفظون بضياعهم وأموالهم ومتاجرهم ومصانعهم في الجزيرة ويزاولون نشاطهم الزراعى والتجارى والصناعى بحرية تامة كما ظلت اللغة العربية شائعة في الجزيرة وكان ملوك النورماند يحسنون التكلم بها ويطربون لأدبها وشعرها · ويظهر أن استعمالها استمر إلى أواخر القرن التاسع الهجرى ويؤيد ذلك شواهد القبور التى عثر عليها علماء الآثار حديثا سواء كانت قبور مسلمين أم قبور مسيحيين ·

وقد ترك العرب في جزيرة صقلية كثيرا من عاداتهم وتقاليدهم التى لا تزال باقية حتى الآن كما تركوا ألفاظا عربية كثيرة في اللغة الصقلية والايطالية · ولا تزال مدن كثيرة في الجزيرة تحمل أسماء عربية · وفي مدينة بالرمو مبنيان عظيمان من مبانى العرب أحدهما قلعة العزيزة والآخر قصر القبة ·

ومما تقدم يتبين أن الحضارة الإسلامية ازدهرت في الجزيرة نحو ستة قرون من الزمن وقد خرّجت صقلية العربية عددا غير قليل من المحدثين والفقهاء والنحويين والأدباء والمؤرخين والجغرافيين والأطباء والفلاسفة · نذكر منهم على سبيل المثال أسد الدين بن الحارث صاحب كتاب الأسديات في الفقه والقاضى ميمون بن عمر وابن حمد يس الصقلى الشاعر المبدع والشريف الأدريسى الجغرافى المحقق والحسن بن يحى المعروف بابن الخزاز صاحب تاريخ صقلية وعيسى بن عبد المنعم وكان من أهل العلم بالهندسة والنجوم والحكمة وأبو عبد الله الصقلى الفيلسوف وغيرهم كثير ·

وقد أنشأ العرب في مدينة بالرمو عاصمة صقلية أول مدرسة للطب في أوربا وعن طريقها انتشر الطب في إيطاليا وسائر أرجاء القارة · إذن كانت جزيرة صقلية مركز إشعاع للحضارة الإسلامية العربية أفادت منه أوربا أعظم الفائدة لأن الجزيرة كانت على صلة وثيقة بالعالم الإسلامى وبخاصة ما يقع منه على شواطىء البحر المتوسط مثل الشام ومصر وبلاد المغرب وكانت البلاد الإسلامية في العصور الوسطى وطنا عاما للمسلمين لافرق بين مشرقى ومغربى فلم تكن هناك قيود على انتقال العلماء من بلد إسلامى إلى بلد آخر فكثرت تنقلاتهم وساعد هذا على تبادل الآراء وانتقالها من جهة إلى جهة فلم تكن حضارة المسلمين في صقلية من صنع أهلها وحدهم بل كانت حضارة إسلامية شاملة لنتاجها ونتاج العالم الإسلامى كله ومن هناك ترجمت وتسربت إلى جميع أصقاع أوروبا ·

لذلك لانكون مبالغين إذا قلنا : إن صقلية ساهمت في تحضير أوروبا وتنويرها بنصيب يقرب من نصيب الأندلس ولكنه يقّل عنه لأن رقعتها أضيق بكثير من رقعة الأندلس ولأن عدد من أنجبتهم من العلماء لم يصل في شهرته العلمية إلى ما وصل إليه علماء الأندلس ·

وهذا لا يغض من قيمة الدور الذى قامت به صقلية في إمداد أوروبا بكل مظاهر الحضارة ما كان منها من صنع العرب الذين استوطنوها أو مما نقلوه عن غيرهم من الدول الإسلامية الأخرى ·

دور الحروب الصليبية في نقل الحضارة الإسلامية

في أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) خرجت جموع من المسيحيين الأوروبيين مختلفى النزعات والأغراض لغزو الشرق الإسلامى · والأسباب التى دفعت هؤلاء إلى شنّ تلك الحروب التى عرفت في التاريخ باسم « الحروب الصليبية » نسبة إلى الصليب الذى اتخذه المحاربون شارة لهم أسباب غير واضحة تختلف باختلاف الطوائف التى اشتركت فيها ·

ويمكننا أن نعتبر رغبة القبائل القيوتونية في الهجرة وحبهم للمخاطرة من بين تلك الأسباب كما لا نستبعد أن يكون هدم الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله لكنيسة القيامة في أواخر القرن الرابع الهجرى من بين الأسباب البعيدة لهذه الحروب (١) ·

أما إدعاء الحجاج المسيحيين أنهم كانوا يلقون مصاعب في أثناء اجتيازهم أسيا الصغرى الاسلامية وهم في طريقهم إلى بيت المقدس أو أنهم كانوا يتعرضون لمضايقات من جانب المسلمين في أثناء حجهم فليس له ما يبرره لأن تعاليم الإسلام كفلت لأهل الأديان الأخرى الحرية التامة في مزاولة شعائر دينهم ونهت عن التعرض لهم بسوء مادامو مسالمين ولا نظن أن مسلمى هذا العصر كانوا يجهلون ذلك ·

ولإن سلمنا حدوث بعض مضايقات فإن ذلك لا يعدو أن يكون حوادث فردية صدرت من بعض جهلة المسلمين وحتى على فرض صدورها فإنها لاتقتضى هذه الضجة الكبرى التى أثارها الغرب ضد المسلمين ولا تستلزم سفك ما سفك من دماء في هذه الحروب التى استمرت نحو قرنين من الزمن ·

وكان الراهب بطرس الناسك الذى حج إلى بيت المقدس وعزّ عليه أن يراه ملكا للمسلمين وهو المكان الذى يقدسه المسيحيون ، كان هذا الراهب هو الذى روّج تلك الإشاعات ·

على أن السبب المباشر لتلك المأساة التى ذهب ضحيتها عدد من البشر هو استنجاد

---

(١) ابن الأثير ، الكامل جـ ٨ ص ٤٤ ، ٤٥ ·

الإمبراطور « ألكسيوس كمنينوس » امبراطور الدولة البيزنطية بالبابا « إربان الثانى » بطريك الكنيسة الغربية بعد هزيمة البيزنطيين أمام السلاجقة في موقعة « ملاذكرد » في أواخر سنة ٤٦٢ هـ (١) وكان هذا الاستنجاد بعد الموقعة بأكثر من عشرين سنة ولكنه صادف هوى في نفس البابا الذى كان يطمع في ضم الكنيسة الشرقية إلى الكنيسة الغربية فأثار تلك الضجة العالمية التى تعتبر من أهم أحداث التاريخ العالمى ·

وفي العام التالى لهذا الاستنجاد ألقى البابا خطبة في مدينة « كليرمنت » في الجنوب الشرقى لفرنسا حثّ فيها المؤمنين على أن « يسلكوا سبيلهم إلى القبر المقدس ويأخذوه عنوة من ذلك الشعب الملعون ويخضعوه لأنفسهم (٢) » ولقد أشعلت هذه الخطبة جذْوة الحماس في نفوس الجماهير المسيحية شريفهم ووضيعهم على السواء وبلغ عدد المتطوعين لهذه الحرب مائة وخمسين ألفا من النورمانديين والفرنج ·

ولم يكن الحماس الدينى وحده هو الذى دفع هذه الجماهير إلى شنّ الغارة على الشرق بل إن كثيرا من الأمراء - ومن بينهم « بوهيمند » - خرجوا استجابة لأطماعهم في تكوين إمارات لهم في الشرق الأوسط كما كانت المصالح الاقتصادية هدف تجار البندقية وبيزة وجنوة ·

وقد نجح الصليبيون في تكوين أربع إمارات لهم في الشرق وهى إمارة الرها وإمارة أنطاكيا وإمارة طرابلس وإمارة بيت المقدس وسميت هذه الأمارات مملكة بيت المقدس حيث كان أمير بيت المقدس يتوج ملكا لهذه المملكة وإن كان كل أمير مستقلا داخليا في إمارته ·

وكان الاعتداء الصليبى على الشرق سببا في ظهور قوى إسلامية فتية فقد تحمس الأبطال المسلمون لإسترداد بلادهم المغتصبة وتمكن البطل عماد الدين زنكى من استرداد إمارة الرها أول أمارة أنشأها الصليبيون في الشرق وأهم إماراتهم وقد تم له ذلك سنة ٥٣٩ هـ (٣) ·

ثم جاء بعده ابنه السلطان نور الدين محمود (٥٤١ - ٥٦٩ هـ) فوحّد بلاد الشام تحت حكمه وضم إليها مصر · ولم يتمكن الصليبيون في عهده من إضافة شبر واحد إلى ممتلكاتهم في الشرق بل انتزع السلطان من أيديهم كثيرا من البلاد التى كانوا قد احتلوها

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٤٤ ، ٤٥ ·

(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب جـ ٢ ص ٨٢٢ ·

(٣) إسحاق أرملة : الحروب الصليبية ص ١٠٦ ·

قبل أن يتنبه المسلمون لخطرهم وحمل لواء الجهاد في عهده ومن بعده السلطان صلاح الدين الأيوبى (٥٦٧ ـ ٥٨٩ هـ) فانتزع بيت المقدس من أيدى الصليبيين سنة ٥٨٣ هـ (١) ٠

ثم أخذ سلاطين الأيوبيين والمماليك من بعدهم ينتزعون المدن الإسلامية من أيدى هؤلاء المغتصبين مدينة بعد أخرى حتى انتزع السلطان المملوكى الأشرف خليل (٦٨٩ ـ ٦٩٣ هـ) مدينة عكا آخر معقل لهم في الشرق سنة ٦٩٢ هـ (٢) وبذلك قضى على مملكة الصليبيين القضاء الأخير ٠

وكان الأثر الحضارى لهذه الحروب فنيا وصناعيا وتجاريا أكثر منه علميا أو أدبيا فقد كان الأوروبيون الذين أقاموا في الشام في الامارات التى أنشؤوها يعيشون داخل حصون وثكنات عسكرية وكان اتصالهم بالزراع الوطنيين والصناع أكثر من اتصالهم بالطبقة المثقفة ٠ على أنهم مع ذلك استفادوا علميا وإن كانت استفادة محدودة فقد نقل أحد علماء مدينة بيزة الكتاب الطبى المشهور « كامل الصناعة الطبية » لعلى بن العباس المعروف بالمجوسى نسبة إلى أحد أجداده الذى كان يدين بالمجوسية قبل أن يعتنق الإسلام وترجم فيليب الطرابلسى مخطوطا عربيا في الفلسفة والأخلاق يسمى « سر الأسرار » يقال إن أرسطو ألفه لتلميذه الأسكندر المقدونى ٠

كما كان من أثر الحروب الصليبية العلمى إهتمام الأوروبيين بتعلم اللغة العربية لأنهم وقد فشلوا في نشر الديانة المسيحية بحدّ السيف رأوا أن تعلم اللغة العربية يمكنهم من التخاطب مع الشرقيين ونشر المسيحية بينهم باللين والإغراء (٣) ٠

على أن إنشاء المستشفيات ومعالجة المرضى فيها لم يعرف في أوروبا قبل الحروب الصليبية مما يرجح أن هذا النظام منقول عن الشرق الإسلامى بعد أن شاهد الأوروبيون المستشفيات فيه أثناء الحروب الصليبية كما يرجح أيضا أن نظام الحمامات العامة الذى انتقل إلى أوروبا بعد الحروب الصليبية منقول كذلك بواساطتها ٠

وقد كان أثر الحروب الصليبية في نقل الفنون الحربية إلى أوروبا واضحا فقد تعلم الصليبيون من المسلمين استخدام حمام الزاجل في نقل الأخبار الحربية (٤) كما اقتبسوا منهم الاحتفال بالانتصارات باشعال النيران ولعبة الفروسية المعروفة باسم « الجريد » وكذلك نقلوا

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٦ ، ٦٧ ٠

(٢) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر جـ ٤ ص ٢٤ ٠

(٣) فيليب حتى : تاريخ العرب جـ ٢ ص ٨٥٧ ، ٨٥٨ ٠

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٦٨ ٠

عنهم اتخاذ الشعارات ونقشها على الأسلحة والخوذات وكان اتخاذ الشعارات معروفا عند المسلمين فقد كان صلاح الدين يلبس خوذة عليها رسم النسر وكانت خوذة الظاهر بيبرس على شكل أسد كخوذة ابن طولون من قبل ولم يكن ذلك معروفا في أوروبا قبل الحروب الصليبية ·

وفي مجال الزراعة والصناعة والتجارة نقل الصليبيون العائدون إلى أوروبا كثيرا من النباتات وأشجار الفواكه مثل السمسم والبصل والأرز والبطيخ والبرقوق والليمون كما حملوا معهم حين عودتهم البسط والسجاجيد والمنسوجات وبدأت تظهر في أوروبا مصانع الآنية والبسط والأقمشة تقليدا للمنتجات الشرقية ووجدت سوق أوروبية جديدة للمنتجات الزراعية الشرقية والسلع الصناعية مما ساعد على نشاط التجارة الدولية التى كانت قد ركدت منذ سقوط الدولة الرومانية الغربية في القرن الخامس الميلادى (١) ·

السفارات بين دول أوروبا والدول الإســلامية

حدثت اتصالات بين دول أوروبا والدول الإسلامية في العصور الوسطى كان لها أثر - ولو ضئيل - في نقل حضارة المسلمين إلى أوروبا فيحدثنا التاريخ أنه عندما يئس الخليفة أبو جعفر المنصور ثانى خلفاء العباسيين من مدّ سلطانه إلى بلاد الأندلس التى أسس فيها الأمير الأموى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام إمارة أموية ·

عندما يئس أبو جعفر من التغلب على هذا الأمير بالقوة لجأ إلى سلاح سياسى يستعين به على الوصول إلى غرضه فأراد التحالف مع « ببن » ملك الفرنجة على طرد الأمويين من الأندلس ·

وقد مهد أبو جعفر لذلك بارسال سفارة إلى « ببن » وجرت مفاوضات بين رسل الخليفة وبين ملك الفرنجة حول الغرض الذى جاءوا من أجله ثم عادوا إلى بغداد يصحبهم سفراء من الفرنجة ليتفاوضوا مع أبى جعفر في التحالف مع دولة الفرنجة على سحق الدولة البيزنطية عدوتها وعادوا إلى بلادهم يحملون الهدايا النفيسة التى أرسلها الخليفة إلى ملكهم ·

ولم تؤد هذه المفاوضات إلى نتيجة إيجابية لكل من الطرفين أكثر من إزعاج عبد الرحمن الداخل وتخويفه من هجوم الفرنجة على بلاده وإزعاج البيزنطيين من هجوم العباسيين على بلادهم · ويؤخذ على حكام المسلمين الاستعانة بغير المسلمين للتغلب على إخوانهم في

---

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب جـ ٣ ص ٦٥ ·

الدين فالمسلمون إخوة ينصر بعضهم بعضا ويقفون صفا واحدا للدفاع عن عقيدتهم وصد أى عدوان يوجه إليها « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » .

وفي عهد الخليفة هارون الرشيد تحددت العلاقة بين دولة الفرنجة والدولة العباسية حيث خطب شارلمان ود الرشيد فأرسل إليه يطلب التحالف معه ضد البيزنطيين ويرجوه أن ييسر الحج إلى بيت المقدس للفرنجة وأن تتبادل دولة الفرنجة التجارة مع الدولة العباسية وأن يمده بالكتب العلمية كما أرسل الرشيد بعثة إلى بلاط شارلمان بغية التحالف معه ضد الأمبراطورية البيزنطية والأمويين بالأندلس .

وقد أسفرت هذه المفاوضات عن إرسال مفاتيح كنيسة القيامة إلى شارلمان وتبادل الهدايا بينه وبين الرشيد وكان من بين الهدايا التى أرسلها الرشيد الى شارلمان فيل وساعة مائية دقاقة وأقمشة فاخرة من الوشى المنسوج بالذهب وبسط ومواد عطرية (١) .

ولم تسفر هذه المفاوضات عن عمل إيجابى من جانب شارلمان ضد الأمويين في الأندلس لأنه لم يجازف بالدخول في حرب مع الأمويين لا يدرى مغبتها حيث أدرك استحالة القضاء على الامارة الأموية التى أصبحت ثابتة البنيان موطدة الدعائم واكتفى هو وأولاده من بعده بالدفاع عن أملاكهم ولم يفكروا في توجيه حملات هجومية ضد الأمويين .

وكما حاول الفرنجة والعباسيون أن يتحالفوا ضد البيزنطيين والأمويين كذلك حاول الأمويون والبيزنطيون أن يتحالفوا ضد العباسيين والفرنجة . وقد بدأت هذه المحاولة في عهد الامبراطور البيزنطى « تيوفيل » الذى اشتد العداء بينه وبين الخليفة العباسى المعتصم بالله فقد هاجم الامبراطور حصن زبطرة الإسلامى وضربه فرّد عليه الخليفة بالهجوم على عمورية وتخريبها سنة ٢٢٣ هـ كما خرّب كثيرا من المدن البيزنطية (٢) .

بعث الامبراطور « تيوفيل » سفيره « كريتوس » ومعه هدايا نفيسه ورسالة يطلب فيها صداقة عبد الرحمن الثانى (الأوسط) أمير الأندلس ويرجوه عقد معاهدة صداقة ويحرضه على استعادة مقر خلافة أجداده . وقد ردّ الأمير عبد الرحمن الأوسط على « تيوفيل » بخطاب عبّر فيه عن عداوته للعباسيين دون أن يرتبط معه بمعاهدة حربية ضدهم وهذا تصرف نبيل من الأمير المسلم يستحق الثناء عليه حيث لم يتفق مع المسيحيين على حرب المسلمين .

ومع أن هذه المراسلات لم تؤد إلى عقد تحالف فعلى فإنها لم تخل من فائدة حيث أوجدت حالة إستقرار في غرب أوروبا إذ أن الأمويين والفرنجة اقتنعوا بأنه من الخير لهم أن

---

(١) جميل نخلة : حضارة الاسلام ص ١٥١ .

(٢) ابراهيم العدوى : المسلمون والجرمان ص ٢٧٠ .

يتفاهموا وأن تكف كل من الدولتين عن حرب الأخرى وتنصرف كل منها إلى رعاية مصالحها وتعمل على تقدمها الحضارى ٠

وقد نشأت بين المدن الإيطالية وبين الدولة الفاطمية بمصر والشام علاقات تأرجحت بين الود والعداء فقد أرسلت مدينة بيزا سفيرا إلى بلاط الخليفة الفاطمى الظاهر (٤١١ ـ ٤١٧ هـ) لتسوية المشكلة التى تسببت عن اعتداء بعض تجار بيزا على جماعة من التجار المصريين في البحر الأبيض على مقربة من بيزا وسلب أموالهم وقتل بعضهم وقد انتقمت الحكومة الفاطمية لرعاياها وعاقبت التجار البيزيين المقيمين بمصر ٠

ونجح سفير بيزا في تسوية الخلاف بعد أن تعهد عن حكومته بالاقتصاص من المعتدين كما تعهد بالامتناع عن إمداد أعداء المسلمين بأى مساعدة وفي نظير ذلك تعهدت الحكومة الفاطمية باطلاق سراح التجار البيزيين المسجونين بمصر وحماية حجاج بيت المقدس القادمين من بيزا على سفن غير حربية ٠

وعندما تولى الصالح طلائع بن رزيك الوزارة المصرية سنة ٥٤٩ هـ بادرت حكومة بيزا بارسال وفد لتهنئته فرحب الوزير بهم وأكرمهم وأكد المعاهدات القديمة بينهما ٠

وقد قامت صلات ودية بين مدينة جنوة والدولة الفاطمية وازدادت هذه الصلات في النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى فقد بعثت جنوة سفراء معاهدة مع الحكومة الفاطمية وتمخضت المفاوضات بين الطرفين عن تعهد الحكومة الفاطمية بحماية رعايا جنوة في مصر وكان معظمهم يقيمون في مدينة الإسكندرية ٠

وكذلك قامت علاقات بين البندقية والدولة الفاطمية حيث تعهدت البندقية في القرن الرابع الهجرى بامداد الفاطميين بما يحتاجونه من الأخشاب التى تلزم لبناء الأسطول الفاطمى المرابط في سواحل مصر وسواحل الشام ولكن البندقية توقفت بعد فترة عن إرسال الأخشاب ـ تحت تهديد حكومة بيزنطة ـ فتعكر صفو العلاقات بينها وبين الفاطميين غير أن البندقية لم تلبث أن أدركت أن مصالحها التجارية تحتم عليها أن تعيد علاقاتها الطيبة بالقاهرة فعادت إلى ماكانت عليه من إمدادها بالأخشاب نظير حصولها على امتيازات خاصة لسفنها التى تمر بالمياه المصرية وتنقل حاصلات إفريقية وآسيا إلى أوروبا (١) ٠

ومما لاشك فيه أن هذه السفارات قامت بدور في توصيل حضارة المسلمين إلى دول الغرب لأن السفراء كانوا يطلعون على مظاهر الحضارة في العالم الإسلامى وينقلون فكرة عما

---

(١) جمال سرور : الدولة الفاطمية ص ١٧٥ ، ١٧٦ ٠

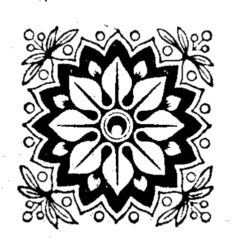
شاهدوه إلى بلادهم لكن عدد هؤلاء السفراء - بالطبع - كان محدودا وإقامتهم في البلاد الإسلامية لم تكن طويلة بل كانت مدتها تتوقف على انتهاء المهمة التى أرسلوا من أجلها ٠

ولذلك لم يكن دور هذه الاتصالات بارزا في نقل الحضارة الإسلامية بل كان نصيبه في نقلها محدودا يقتصر أغلبه على الجانب المادى للحضارة أما الجانب الثقافى منها فقد كان قليلا جدا كما اقتصر نقل التجار على الجانب المادى فقط لأن همتهم كانت متجهة أولاً وبالذات إلى الحصول على المال فكانوا ينقلون التحف بقصد الكسب من ورائها فحسب ولم تكن الثقافة والفن مما يحرص التجار على تداوله ٠

من كل ما تقدم نعلم أن ما تنعم الدول الغربية به من حضارة ليس من ابتكار عقول أهلها ولا من صنع أيديهم إنما هو فيض الحضارة الإسلامية وصل إليهم عن تلك المصادر التى تكلمنا عنها ٠

وقد اهتم الغربيون بالجانب المادى من الحضارة التى وصلت إليهم من الشرق وأغفلوا الجانب الروحى وهو المهم وليتهم وجهوا الجانب المادى وجهة صالحة تعمّر ولا تخرب وتبنى ولا تهدم ٠ بل تفننوا في نقل وسائل التخريب والتدمير حتى أصبح العالم يعيش اليوم في جو من القلق والرعب اللذين يجب أن يخلو منها المجتمع الحضارى ٠

ويوم يرجع المسلمون إلى التمسك بقواعد دينهم والسير على هداها فسوف يعيدون إلى المجتمع الانسانى نعمة الأمن ويخرجونه من جو القلق والرعب إلى جو الطمأنينة والسعادة والله سبحانه وتعالى يهدى إلى سواء السبيل نسأله جلت قدرته أن يعيد للمسلمين عزهم ومجدهم إنه سميع مجيب والحمد لله رب العالمين ٠



بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية

رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء
والدعوة والإرشاد
مكتب الرئيس

ترغب رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد بالرياض الحصول على مخطوطة كاملة من الكتب الآتية للعلامة ابن القيم - رحمه الله - بمكافأة ثلاثة آلاف ريال ٣٠٠٠ لأي كتاب منها :-

١ - شرح أسماء القرآن الكريم .
٢ - الفتح القدسي .
٣ - الرسالة الحلبية في الطريقة المحمدية .
٤ - المعالم .
٥ - بطلان الكيمياء .
٦ - الصراط المستقيم في أحكام أهل الجحيم .
٧ - الاجتهاد والتقليد .
٨ - المسائل الطرابلسية .
٩ - كتاب الروح الكبير .
١٠ - الجامع بين السنن والآثار .
١١ - التحفة المكية في بيان الملة الإبراهيمية .

كما ترجو الرئاسة ممن عنده إفادة عن مخطوطات غريبة التكرم بالإفادة عن وجودها ومكانها .

والله الموفق .

إحياء التراث الإسلامي



كتاب في

رؤية الله تبارك وتعالى

تأليف

أبي محمد عبد الرحمن بن عمر بن محمد، المعروف بابن النحاس

٣٢٣ - ٤١٦هـ

تحقيق وتخريج

الشيخ محفوظ الرحمن بن زين الله السلفي

المعيد في كلية الحديث بالجامعة

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله :

أما بعـــد فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

لاشك أن رؤية الله سبحانه وتعالى في الآخرة قد ثبتت في الآيات الكريمة نحو قوله تعالى (وجوهٌ يومئذٍ نَاضِرةٌ ، إلى رَبِّها ناظِرةٌ) (سورة القيامة الآية ٢٢ - ٢٣) وقوله تعالى (لِلَّذِينَ أحْسَنُوا الحُسْنى وزِيادَةٌ) (سورة يونس الآية ٢٦) والأحاديث الصحيحة المتواترة التى تدل دلالة ناصعة على وقوع رؤية الله تعالى ، وهى حقيقة لا ينكرها إلا من زاغ قلبه وعمى بصره .

فأنكر الخوارج والجهمية والمعتزلة وغيرها من الفرق الضالة وحملوا هذه النصوص الصحيحة الصريحة من الكتاب والسنة حسب هواهم على غير محملها ، وأولوها تأويلا لا يحتمله العقل السليم والفكر الصائب ، ولا توافقه اللغة العربية وأساليبها ، وذلك لإشباع غرائزهم الخبيثة ، وتأييد معتقداتهم الفاسدة التى ترفضها نصوص الكتاب والسنة رفضا باتاً .

لذلك فقد تناول علماء السلف هذا الموضوع - منذ قديم - بالبحث والدراسة والأخذ والرد ، فمنهم من استعرضه في كتبهم كباب من أبوابها ، وذلك في حقول مختلفة :

* كتب التفسير .
* كتب الصحاح والسنن .
* كتب المذاهب والفرق .
* كتب العقيدة .

وغيرهـــا .

ومنهم من أفرد في هذا الموضوع كتبا ورسائل مستقلة منها ما يلى :

١ - النظر إلى الله تعالى لابن وضاح : محمد بن وضاح بن بزيع أبو عبد الله (ت : ٢٨٦ هـ) مخطوط في مكتبة حسن حسنى التونسى (١)

٢ - جواز رؤية الله تعالى بالأبصار : لأبى الحسن الأشعرى ، على بن اسماعيل (ت : ٣٢٤ هـ) .

٣ - جواز كتاب العمد في رؤية البارى له ذكرهما البغدادى في هدية العارفين ٦٧٧/١ .

٤ - الرؤية لأبى أحمد العسال ، محمد بن أحمد (ت : ٣٤٩ هـ) كما ذكره البغدادى في هدية العارفين ٤٣/٢

٥ - التصديق بالنظر إلى الله تعالى في الآخرة للآجرى ، محمد بن الحسين بن عبد

---

(١) راجع الاعلام للزركلى ٣٥٨/٧ .

الله (ت : ٣٦٠) مخطوط ، توجد في مكتبة الجامعة الإسلامية نسختان مصورتان من دار الكتب الظاهرية بدمشق (١) ·

٦ ـ كتاب الرؤية للدارقطني ، علي بن عمر البغدادي (ت : ٣٨٥ هـ) مخطوط ، توجد في الجامعة الإسلامية صورة منه وهي مصورة من اسكوريال بأسبانيا (٢) ·

٧ ـ كتاب في رؤية الله لابن النحاس ، وهو هذا الكتاب الذي نتشرف بتقديمه للقراء ·

٨ ـ الضوء الساري إلى معرفة رؤية الباري لأبي شامة عبد الرحمن بن إسماعيل الدمشقي (ت : ٦٦٥ هـ) توجد في الجامعة الإسلامية نسخة مصورة من ريوان كشك بتركيا ·

٩ ـ رسالة في رؤية الله تعالى للنساء لابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم (ت : ٧٢٨ هـ) ذكرها ابن عراق في تنزيه الشريعة : ٣٨٤/٢ ·

١٠ ـ الغنية في مسئلة الرؤية لابن حجر العسقلاني (ت : ٨٥٢ هـ) مخطوط · وهي موجودة في معهد المخطوطات بالقاهرة ١٣٣/٨ ·

١١ ـ رسالة في مباحث الرؤية والكلام لخطيب زاده ، محمد ابراهيم مخطوط · توجد نسخة في الجامعة الاسلامية وهي مصورة من اسكوريال بأسبانيا ·

١٢ ـ اسبال الكساء في رؤية الله للنساء للسيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن (ت : ٩١١ هـ) مطبوع ·

١٣ ـ تحفة النساء في رؤية الله للنساء للسيوطي ، توجد منه نسخة خطية في الجامعة الإسلامية ·

١٤ ـ اللفظ الجوهري في رد خباط الجوجري للسيوطي ، مخطوط توجد في الجامعة الإسلامية وهي مصورة من دار الكتب الظاهرية بدمشق ·

١٥ ـ البغية في مسئلة الرؤية للشوكاني محمد بن علي (ت : ١٢٥٠ هـ) كما ذكرها البغدادي في هدية العارفين ٣٦٥/٢ · وتوجد منه نسخة في الجامعة مصورة من كلناؤ ·

١٦ ـ رؤية الله تبارك وتعالى ، رسالة قدمها الأستاذ أحمد الناصر الحمد لنيل درجة العالمية (ماجستير) ·

فمساهمة في الرد على زيغ الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم ، والدفاع عن العقيدة الصحيحة أقدم إلى القراء الكرام هذا الجزء الصغير محققا ، وأترك التفاصيل حول الرؤية واختلاف الفرق

---

(١) حققه الاستاذ شهاب الله جنغ بهادر البستوي وقدمه لنيل درجة العالية (الليسانس) في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ·
(٢) يحققه الاستاذ سليم الأحمدي في الجامعة الإسلامية بالمدينة ·

وأدلتهم العقلية والنقلية ، ومن يريد التفصيل فليراجع كتاب التوحيد لابن خزيمة ، وكتاب السنة لابن أبى عاصم ، وكتاب الرؤية للدارقطنى ، وشرح السنن لللالكائى ، وبيان تلبيس الجهمية لابن تيمية وحادى الأرواح لابن القيم ، والنهاية لابن كثير رحمهم الله تعالى ·

ترجمة ابن النحاس

اسمه ونسبه :

هو عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن سعيد ، أبو محمد التجيبى (١) المصرى المالكى ، البزار ، المعروف بابن النحاس (٢) ·

مولده :

ولد بمصر ليلة الأضحى سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة من الهجرة · (٣) ·

نشأته :

قد اعتنى ابن النحاس بالعلوم الإسلامية منذ طفولته ، وبدأ يتردد على مجالس العلماء ويتلقى الحديث والفقه وغيرهما ، فأول سماعه كان في سنة احدى وثلاثين وثلاثمائة حينما كان عمره ثمانى سنين فقط (٤) ·

وحج سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة وجاور بمكة وسمع من ابن الأعرابى شيخ الحرم في وقته فأكثر عنه (٥) حتى صار من أبرز تلامذته وقد روى عنه المعجم (٦) ·

وواظب ابن النحاس بالجد والاجتهاد على طلب علم الحديث والفقه وبرع حتى صار محدثاً وفقيهاً ومسند الديار المصرية في وقته ، فهو كما قال الامام الذهبى : « الشيخ الامام الفقيه المحدث الصدوق ، مسند الديار المصرية (٧) ·

وذاع صيته في العالم حتى عزم الخطيب على الرحلة اليه فلم يقض (٨) ·

---

(١) بمضمومة ويجوز فتحها وكسر جيم وسكون مثناة تحت فموحدة وبشدة الياء في آخر · المغنى للفتنى : ١٤ ·

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/٦٩/١١ . النجوم الزاهرة ٢٦٣/٤ ·

(٣) المصدران السابقان ·

(٤) سير أعلام النبلاء ٢/٦٩/١١ ز . العبر : ١٣٢/٣ . شذرات الذهب : ٢٠٤/٣ ·

(٥) سير أعلام النبلاء : ٢/٦٩/١١ ·

(٦) توجد صورة من المعجم في مكتبة الجامعة الإسلامية برقم ٣٢٩ ـ ٣٣٠ وهى مصورة من دار الكتب الظاهرية بدمشق ·

(٧) سير أعلام النبلاء ٢/٦٩/١١ ·

(٨) المصدر السابق ·

رحلاته :

لم تشر المصادر الى أنه ارتحل إلى خارج الديار المصرية غير أنه حج سنة تسع وثلاثين وجاور وسمع من ابن الاعرابى (١) .

مشايخه :

سمع بمكة وبمصر من خلق كثير لا يمكن حصرهم وأكتفى بذكر بعضهم مرتبا اياهم على حروف المعجم مع ذكر تاريخ وفياتهم - ان وجدته - .

١ ـ أحمد بن بهزاد السيرافى ، مسند مصر (ت : ٣٤٦ هـ) .

٢ ـ أحمد بن عبد الله بن الحسن ، أبو هريرة العدوى (ت : ٣٤٦ هـ) .

٣ ـ أحمد بن محمد بن زياد ، أبو سعيد ، ابن الأعرابى (ت : ٣٤٠ هـ) .

٤ ـ أحمد بن محمد الصابونى ، أبو الفوارس (ت : ٣٤٩ هـ) .

٥ ـ أحمد بن محمد بن عمرو ، ابو طاهر المدينى (ت : بمصر : ٣٤١ هـ) .

٦ ـ أحمد بن محمد بن فضالة الدمشقى (ت بمصر : ٣٣٩ هـ) .

٧ ـ الحسن بن مروان القيسرانى .

٨ ـ الحسن بن يوسف بن مليح الطرائفى (ت : ٣٤٠ هـ)

٩ ـ سليمان بن داود العسكرى (ت : ٣٣٨ هـ) .

١٠ ـ عبد الرحمن بن أحمد بن يونس ، أبو سعيد صاحب تاريخ مصر (ت : ٣٤٧ هـ) .

١١ ـ عبد الله بن جعفر بن الورد (ت : ٣٥١ هـ) .

١٢ ـ عبد الله بن محمد بن الخصيب .

١٣ ـ عثمان بن شعبان ، ابو عمرو القرظي الياسرى .

١٤ ـ عثمان بن محمد ، أبو عمرو المحدث السمرقندى (ت : ٣٤٥ هـ) .

١٥ ـ على بن عبد الله بن أبى مطر الإسكندرانى ، قاضى إسكندرية ومسندها (ت : ٣٣٩ هـ) .

١٦ ـ الفضل بن وهب .

١٧ ـ محمد بن إبراهيم بن حفص البصرى .

١٨ ـ محمد بن أيوب بن الصموت ، الرقى نزيل مصر (ت : ٣٤١ هـ) .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/٦٩/٨١ .

١٩ ـ محمد بن بشر ، أبو بكر العكرى الزنبرى ، مسند مصر (ت : ٣٣٢ هـ) ٠
٢٠ ـ محمد بن وردان العامرى ٠
وغيرهم (١) ٠

تلامذته :

قد سمع منه خلق أذكر بعضهم :
١ ـ إبراهيم بن سعيد بن عبد الله ، ابو اسحاق الحبال (ت : ٤٨٢ هـ) ٠
٢ ـ أحمد بن أبى نصر ٠
٣ ـ الحسين بن احمد العداس ٠
٤ ـ خلف بن أحمد ٠
٥ ـ عبد الرحيم بن احمد بن نصر البخارى (ت : ٤٦١ هـ) ٠
٦ ـ عبيد الله بن سعيد بن حاتم ، ابو نصر السجزى (ت : ٤٤٤ هـ) ٠
٧ ـ عثمان بن سعيد القرطبى ، أبو عمرو الدانى (ت : ٤٤٤ هـ) ٠
٨ ـ على بن الحسن ابو الحسن الخلعي صاحب الخلعيات (ت : ٤٩٢ هـ) ٠
٩ ـ محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى (ت : ٤٥٤ هـ) ٠
١٠ ـ محمد بن عبد الله بن على ابو عبد الله الصورى (ت : ٤٤١ هـ) ٠
وغيرهم (٢)

مؤلفاته :

١ ـ مشيخة وهى في جزئين كما ذكره الذهبى (٣) ٠
٢ ـ كتاب في رؤية الله تعالى وهو هذا الكتاب الذى نقدمه للقراء ٠

وفاته :

توفي ابن النحاس بمصر في ليلة الثلاثاء في العاشر أو الثالث عشر من صفر سنة ست عشرة واربعمائة (٤) ٠
وعاش اثنتين وتسعين وشهرين ٠

---

(١) راجع : سير أعلام النبلاء ٢/٦٩/١١ ، العبر : ١٢١/٣ ـ ١٢٢ ، شذرات الذهب ٢٠٤/٣ ٠
(٢) سير أعلام النبلاء ٢/٦٩/١١ ٠
(٣) المصدر السابق ٠
(٤) الوفيات للحبال ٢/٧٩ (مجموع) سير أعلام النبلاء ٢/٦٩/١١ العبر ١٢٢/٣ النجوم الزاهرة ٢٦٣/٤ ، شذرات الذهب ٢٠٤/٣ ٠

توثيق نسبـــة الكتـــاب :

إن المصادر القديمة لم تشر إلى هذا الكتاب ولا إلى مؤلفه ، وكذلك اسم المؤلف لم يذكر على طرة الكتاب ، ولكن الشيخ الألبانى حفظه الله ذكره في فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية من مؤلفات ابن الأعرابى (١) .

وتبعه فؤاد سزكين في تاريخ التراث العربى (٢) .

ولعل السبب أن الكتاب واقع بعد كتاب المعجم لابن الاعرابى برواية ابن النحاس ، والأحاديث في أول الكتاب وفي آخره قد رويت من طريق ابن الأعرابى .

ولكن بعد التدقيق ظهر لى أن الكتاب ليس لابن الأعرابى ، بل لتمليذه عبد الرحمن ابن عمر المعروف بابن النحاس ، لأن الكتاب يحتوى على ثمانية عشر حديثا من احدى وعشرين طريقا وهى مروية عن تسعة مشايخ غير ابن الأعرابى وهم :

١ ـ احمد بن عبد الله بن الحسن ، أبو هريرة العدوى فقد روى عنه حديثا واحدا (٣) .

٢ ـ الحسن بن يوسف بن مليح الطرائفى ، روى عنه حديثين (٤) .

٣ ـ سليمان بن داود ، أبو القاسم العسكرى ، روى عنه حديثا واحدا (٥) .

٤ ـ عبد الله بن جعفر بن محمد بن الورد أبو محمد ، روى عنه حديثين (٦) .

٥ ـ عثمان بن شعبان ، ابو عمرو القرظي روى عنه حديثا (٧) .

٦ ـ على بن أحمد بن على الحربى روى عنه حديثا واحدا (٨) .

٧ ـ محمد بن عبد الله بن محمد بن هاشم الازدى ، روى عنه حديثا واحدا (٩) .

٨ ـ محمد بن ملاق بن نصر بن سلام العثمانى ، روى عنه أربعة أحاديث (١٠) .

---

(١) ص : ٢٥ .
(٢) ٤٧٨/٢ .
(٣) الحديث رقم : ٥ .
(٤) الحديث رقم : ٥ ، ١٧ .
(٥) الحديث رقم : ١٢ .
(٦) الحديث رقم : ٤ ، ١٠ .
(٧) الحديث رقم : ١٤ .
(٨) الحديث رقم : ٨ .
(٩) الحديث رقم : ٥ .
(١٠) الحديث رقم : ٥ ، ٩ ، ١٣ ، ١٨ .

٩ ـ يحيى بن الربيع بن محمد بن الربيع ، أبو الفضل العبدى روى عنه حديثا واحدا (١) وأما ابن الأعرابى فقد روى عنه سبعة أحاديث فقط (٢) ٠

فعرف من هذا أن سبعة أحاديث فقط رويت عن طريق ابن الاعرابى والباقى عن طريق غيره ، وهذا يرجح أن الكتاب ليس لابن الاعرابى بل لتلميذه ابن النحاس ٠

ومن الجدير بالذكر أنه ورد في حديث رقم : ١٢ : « نا أبو القاسم سليمان بن داود ـ في مسجده بالعسكر سنة ثمان وثلاثمائة » ، وأضفت أنا كلمة (وثلاثين) بين القوسين تقويما للنص اعتمادا على بقية أسانيد الأحاديث ، لأن النسخة ـ فيما ترجح لدى من تأليف ابن النحاس لا لابن الاعرابى ، ويؤيد صنيعى هذا أن في الحديث رقم ١٤ « نا أبو عمرو عثمان ابن شعبان ـ سنة ثمان وثلاثمائة ـ وسقطت منه كلمة « وثلاثين » فأضافها كاتب النسخة في الحاشية (١/٢٥٤) ٠

وصف المخطوطـــــة :

لم أعثر إلا على هذه النسخة الفريدة فقط وهى مصورة من دار الكتب الظاهرية بدمشق ، مع كتاب المعجم لابن الاعرابى برواية ابن النحاس ٠

الخـــــط :

خطها مغربى جيد وكثير من الكلمات قد استدركت على الحاشية كما أن شرح بعض الكلمات ذكر على الهامش ٠

النـــــاسخ :

لم يعرف ٠

تاريخ النسخ :

سبع عشرة ليلة خلت من صفر من سنة سبع وأربعين وأربعمائة (٣) ٠

عـــدد الأوراق :

خمس ورقات جاءت بعد كتاب المعجم لابن الاعرابى (١/٢٥٠ ـ ٢/٢٥٥) ٠

---

(١) الحديث رقم : ٦ ٠

(٢) الحديث رقم : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٧ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ٠

(٣) راجع : الصفحة الأخيرة من المخطوطة ٠

عـــدد السطور :

١٨ سطرا في كـــل صفحـــة ٠

عـــدد الكلمات :

في كل سطر اثنتا عشرة كلمة الى ثمانى عشرة كلمة ٠

مقاسهـــــــا :

١٩ × ٢٥ سم ٠

عملى في الكتـــــاب :

١ ـ حاولت تقويم النصوص بالرجوع إلى مصادر الحديث ٠

٢ ـ وضعت ما أضفته مما تستلزمه سلامة النص بين قوسين هكذا : [ ]

٣ ـ بينت مواضع الآيات من السور واستعملت القوسين هكذا ( ) للآيـــات ٠

٤ ـ خرّجت الأحاديث ، وذكرت أولا اسم المؤلف ثم اسم الكتاب ثم الباب إذا كان مرتبا على الأبواب ، والترجمة إذا كان في كتب التراجم ، ثم ذكرت أقوالهم إذا وجدت في ذكرها فائدة ، ثم ذكرت الجزء والصفحة في المطبوعات والورقة واللوحة في المخطوطات ٠

وإذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما فلم أذكر مصادر أخرى إلا إذا كان لذكرها فائدة ٠

٥ ـ حكمت على الأحاديث ٠

٦ ـ ترجمت للرواة الواردين في الكتاب الا الصحابة والثقات الموجودين في تقريب التهذيب لابن حجر ـ ان وجدتها ـ وضبطت الأسماء والأنساب التى تحتاج إلى ضبط ٠

٧ ـ شرحت الكلمات الغريبة الواردة في الكتاب ٠

٨ ـ أشرت لبدء أوراق المخطوطة واللوحة ليسهل الرجوع إليها ووضعتها بين قوسين ورمزت لوجه اللوحة « ١ » ولظهرها « ٢ » فمثلا (١/٢٥٢ ، ٢/٢٥٢)

٩ ـ كتبت مقدمة وجيزة ذكرت فيها ترجمة المؤلف وتوثيق نسبة الكتاب اليه ٠

١٠ ـ أثبت المصادر والمراجع في آخر الكتاب مع ذكر المؤلفين ومكان طبعها إذا كانت مطبوعة ومكان وجودها إذا كانت مخطوطة ، وفهرست الأحاديث وتركت الفهارس الأخرى لأن المقام لا يتحملها ٠

الرمـــــــوز :

نــا = حدثنـــا
ثنــا = حدثنــا
انــا = اخبرنــا
ح = تحويل السنــد

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على محمد وآلــه

١ ـ أنا الشيخ أبو محمد عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن النحاس قراءة عليه ، أنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن الأعرابى (١) بمكة في شوال من سنة أربعين وثلاثمائة ، نا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفرانى ، نـا وكيع بن الجراح ، نـا إسماعيل ابن ابى خالد ، عن قيس بن ابى حازم ، عن جرير بن عبد الله قال : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر الى القمر ليلة البدر فقال : « أما إنكم ستعرضون على ربكم عز وجل فترونه كما ترون هذا القمر لا تضامون (٢) في رؤيته فان استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا (٣) ·

٢ ـ أنا أبو سعيد بن الأعرابى ، نا سعدان بن نصر المخرّمى (٤) نـا سفيان بن عيينة ، نـا إسماعيل بن ابى خالد ، عن قيس بن ابى حازم ، عن جرير بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم نحوه (٥) ·

---

(١) أحمد بن محمد بن زياد أبو سعيد المعروف بابن الاعرابي . البصري الصوفي . شيخ الحرم في وقته وكان ثقة . توفىسنة أربعين وثلاثمائة . وقيل احدى وأربعين · سير أعلام النبلاء : ٨٠/١٨٠٠ـ٢ . التذكرة : ٨٥٢/٣ـ٨٥٣ . تاريخ دمشق لا بن عساكر : ٨٦/٢/٢ ·

(٢) على الهامش : يروى تضامّون ــ بفتح التاء وتشديد الميم ــ ومعناه : لا ينضم بعضكم إلى بعض . ومن رواه بضم التاء وتخفيف الميم . ومعناه : لا يؤذى بعضكم بعضا فى رؤيته · راجع النهاية : ١٠١/٣ ·

(٣) أخرجه ابن خزيمة فى كتاب التوحيد . باب ذكر البيان أن الله عز وجل ينظر إليه جميع المؤمنين الخ عن الحسن بن محمد : ١٦٧ـ١٦٨ · والدارقطنى في كتاب الرؤية عن شيخين له عن الحسن بن محمد : ٧/٣ · وأخرجه أبو داود في سننه في كتاب السنة . باب الرؤية عن عثمان نا جرير ووكيع وأبو أسامة ثم ساق السند والمتن وفيه زيادة : ثم قرأ (فَسَبِّح بِحَمدِ رَبكَ) الآية ٣٧٤/٤ـ٣٧٥ · والترمذى في سننه في باب ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى عن هناد نا وكيع . مع الزيادة وقال : هذا حديث صحيح ٣٣٣/٣ · وابن ماجة في سننه في المقدمة . باب فيما أنكرت الجهمية بسنده الى وكيع . وفيه أيضا زيادة · ٦٣/٨ (١٧٧) · وأحمد في مسنده في مسند جرير عن وكيع وفيه أيضا زيادة · ٣٦٥/٤ـ٣٦٦ · وابن أبى عاصم في كتاب السنة بسنده إلى وكيع ثم ساق السند والمتن مختصرا : ١٩٤/١ـ١٩٥ الحديث صحيح ·

(٤) سعدان بن نصر بن منصور . أبو عثمان الثقفي المخرّمى ـ بكسر الراء المشددة . نسبة إلى المخرّم محلة ببغداد ـ قال ابو حاتم : صدوق . وقال الدارقطنى : ثقة مأمون . مات سنة خمس وستين ومائتين ·

الجرح والتعديل : ٢٩٠/١/٢ ـ ٢٩١ . تاريخ بغداد : ٢٠٥/٩ ـ ٢٠٦ · تبصير المنتبه : ١٣٤٧/٤ ·

(٥) أخرجه الدارقطنى في كتاب الرؤية عن شيخين له عن سعدان بن نصر · ١/٧٠/٨ـ٢ والطبرانى في الكبير بسنده إلى ابن عيينة ومروان : ٣٣٤/٢ (ح ٢٢٣٤) وأيضا رواه مختصرا ٣٣٣/٢ (ح ٢٢٣٢) · وابن ابى عاصم في السنة بسنده الى ابن عيينة مختصرا ١٩٥/١ ·

٣ ـ أنا أبو سعيد بن الاعرابى ، نـا أبو أمية بكر بن فرقد التميمى (١) نـا يحيى ابن سعيد (٢) نـا إسماعيل بن ابى خالد ، عن قيس بن ابى حازم عن جرير عن النبى صلى الله عليه وسلم نحوه (٣) ٠

٤ ـ أنا أبو محمد عبد الله بن جعفر بن محمد بن الورد (٤) حدثنى أبو عبد الله عبد ديزويه الرازى سنة ثلاث وثمانين ومأتين (٥) نـا أبو الحسن سرى بن مغلس السقطى البغدادى (٦) نـا مروان بن معاوية الفزارى عن إسماعيل بن ابى خالد عن قيس بن ابى حازم عن جرير بن عبد الله قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة البدر فقال لنا : « ترون هذا القمر ؟ ترون ربكم عز وجل كما ترون هذا القمر لا تضامون (١/٢٥١) في رؤيته (٧) ٠

٥ ـ أنا أبو على الحسن بن يوسف بن مليح الطرائفى (٨) سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة ، نـا ابراهيم بن مرزوق بن دينار البصرى (٩) نـا حماد بن سلمة ٠

ح / وأخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن هاشم الازدى ، نـا أبو غسان مالك بن يحيى بن مالك ، بن يزيد بن هارون ، أنا حماد بن سلمة ٠

---

(١) بكر بن محمد بن فرقد ، أبو أمية التميمى ، قال الدارقطنى : ليس بالقوى ، وذكره ابن حبان في الثقات ، وقال محمد بن مخلد : كان شيخا حافظا ، وقال مسلمة بن قاسم : ثقة ٠

تاريخ بغداد : ٩٤/٧ ، اللسان : ٥٨/٢ ٠

(٢) هو القطان ٠

(٣) في سنده بكر بن محمد بن فرقد ولكن أخرجه البخارى في جامعه الصحيح في كتاب مواقيت الصلاة ، باب فضل صلاة الفجر عن مسدد ثنا يحيى ٠ ٥٢/٢ (٥٧٣)

(٤) عبد الله بن جعفر بن محمد بن الورد ، أبو محمد ، سمع منه ابن النحاس السيرة ، توفي بمصر سنة احدى وخمسين وثلاثمائة ٠

التذكرة : ٨٨٢/٣ ، سير أعلام النبلاء : ٢/٦٩/١١ (ترجمة ابن النحاس) ٠

(٥) كلمة « ومأتين » غير واضحة في المخطوطة ٠

(٦) السرى بن مغلّس ـ بمعجمة ولام مشددة فمهملة ـ أبو الحسن السقطى ، البغدادى ، الزاهد المشهور ، صحب معروفا الكرخى ، اشتهر بالصلاح والزهد والورع ، مات سنة ثمان وخمسين ومائتين ٠

اللسان : ١٣/٣ ـ ١٤ ، المغنى للفتنى : ٧٤ ٠

(٧) لم أجد من أخرجه من طريق المؤلف ولكن أخرجه البخارى في جامعه الصحيح في كتاب مواقيت الصلاة ، باب فضل صلاة العصر عن الحميدى ثنا مروان ٠ وفيه زيادات ٠ ٣٣/٢ (ح٥٥٤) ٠

(٨) الحسن بن يوسف بن مليح ـ بضم الميم ـ ابن صالح الطرائفى ـ بفتح الطاء المهملة والراء والياء بعد الألف وفي آخرها الفاء ـ أورد له الدارقطنى في غرائب مالك وقال : هذا منكر بهذا الاسناد لا يصح ، وقال العراقى بعد ذكر قول الدارقطنى : هو المتهم اما عمدا أو وهما ، وقال الذهبى : السيد المسند ، توفي سنة أربعين وثلاثمائة ٠

الأنساب : ١/٣٦٩ ، سير أعلام النبلاء ١/١٠٣/٨٠ ، ذيل الميزان : ٢/٤٩ ، اللسان : ٢٦٠/٢ ٠

(٩) ابراهيم بن مرزوق بن دينار الأموى البصرى ، نزيل مصر ، ثقة ، عمى قبل موته ، وكان يخطىء ولا يرجع ، مات سنة خمس وسبعين ومائتين ـ التقريب : ٤٣/١ ٠

ح / وأنا أبو العباس محمد بن ملاق بن نصر بن سلام العثمانى ، نـا يوسف بن يزيد القراطيسى (١) نـا أسد بن موسى (٢) ، نـا حماد بن سلمة ·

ح / وحدثنا أبو هريرة أحمد بن عبد الله بن الحسن بن أبى العصام العدوى (٣) لفظا في المحرم سنة أربعين وثلاثمائة ، واللفظ له ، نـا أحمد بن محمد بن أبى موسى (٤) ، نـا عمر بن الحسن البصرى ، نـا حماد بن سلمة ، عن ثابت البنانى عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ناداهم مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله مواعد يريد أن ينجزها لكم ، فيقولون : يارب أليس قد بيضت وجوهنا وثقلت موازيننا وزحزحتنا عن النار وأدخلتنا الجنة ؟ فيأمر بالحجاب فيكشف ، فينظرون إلى وجه الله عز وجل ، فما هم لشيىء مما أعطوا أقرّ أعينهم من النظر إلى وجه الله عز وجل ، ثم قرأ (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنى وزيادة) (يونس آية ٢٦) الحسنى : الجنة ، والزيادة : النظر إلى وجه الله عز وجل · (٥) ·

---

(١) يوسف بن يزيد بن كامل ، أبو يزيد القراطيسى ـ بفتح القاف والراء المهملة وكسر الطاء المهملة وسكون الياء بعدها سين مهملة ـ المصرى ، صاحب أسد السنة من كبار شيوخ الطبرانى ، مات سنة تسع وثمانين ومائتين ·
الأنساب : ١/٤٤٥ ، شذرات الذهب : ٢/٢٠٢ ·

(٢) أسد بن موسى بن ابراهيم بن عبد الملك الأموى ، أسد السنة ، صدوق يغرب ، وفيه نصب ، مات سنة اثنتى عشرة ومائتين · التقريب : ١/٦٣ ·

(٣) أحمد بن عبد الله بن الحسن ، أبو هريرة العدوى كتب ببغداد عن أبى مسلم الكجى وغيره ، وبمصر عن أبى يزيد القراطيسى وكان يورق ويستملى على الشيوخ وكان ثقة ، مات سنة ست وأربعين وثلاثمائة · المنتظم : ٦/٣٨٤ ـ ٣٨٥ ·

(٤) أحمد بن محمد بن أبى موسى ، ابو بكر الانطاكى الفقيه ، ذكره ابن عساكر في تاريخه ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا · ٢/٨/١٠/٢ ـ ١/١١١ ·

(٥) لم أجد من أخرجه من طرق المؤلف · ولكن أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ، عن ابن أبى شيبة ثنا يزيد بن هارون ثم ساق السند والمتن مختصرا · ١/١٦٣ (ح٢٩٨) وأيضا بسنده إلى ابن مهدى عن حماد بن سلمة · ١/١٦٣ (ح ٢٩٧) ·

والترمذى في سننه في تفسيره سورة يونس عن محمد بن بشار عن ابن مهدى عن حماد ثم ساق السند والمتن نحوه ، وقال : هكذا رواه غير واحد عن حماد بن سلمة مرفوعا وروى سليمان بن المغيرة هذا الحديث عن ثابت عن عبد الرحمن بن ابى ليلى قوله ، ولم يذكر فيه عن صهيب عن النبى صلى الله عليه وسلم ٤/١٢٥ · وأيضا في باب ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى وقال : هذا حديث انما أسنده حماد ابن سلمة ، ورفعه وروى سليمان بن المغيرة هذا الحديث عن ثابت البنانى عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قوله ٣/٣٣٣ ـ ٣٣٤ ·

والدارقطنى في كتاب الرؤية بسنده الى هدبة بن خالد ثنا حماد بن سلمة ثم ساق السند والمتن ، وقال : حديث صحيح أخرجه مسلم عن القواريرى عن عبد الرحمن بن مهدى وعن أبى بكر ابن أبى شيبة عن يزيد بن هارون جميعا عن حماد بن سلمة بهذا الاسناد · ٢/٩٧ ·

لاشك أن الحديث صحيح مرفوعا وحماد بن سلمة أثبت الناس وأعلمهم في ثابت كما نقل الدارقطنى عن يحيى بن معين يقول : من خالف حماد بن سلمة في ثابت فالقول قول حماد بن سلمة ، قيل له سليمان بن المغيرة عن ثابت ؟ قال : سليمان ثبت وحماد بن سلمة أعلم الناس بثابت · كتاب الرؤية : ١/١٠٠ ·


لغة وأدب



أختي العزيزة هـل

رسائلى إليك ستكون كثيرة ، وحديثى إليك لن يكون قصيرا ، فاعقدي العزم على الصبر وطول السفر ، وسيرى معي على هينة وطول أناة . وما أظنني فاعلة غير هذا حين تكتبين إلىّ رسائلك الماتعة ، وتتحدثين بما أنعم الله عليك في كتابه المبين .

أختي العزيزة :

في رسائل أربع سلفت كتبت إليك سبع صيغ من هذه الصيغ التى أدخل فيها على لم النافية الجازمة للفعل المضارع ، وها أنا ذي محدثتك اليوم عن صيغ أخرى جديدة :

أما الصيغة الثامنة فهي : « ألم تعلم أنّ ... » ففي هذه الصيغة دخلت أختك همزة الاستفهام على لم النافية الجازمة لمضارع « علم » مسندا إلى ضمير المفرد المذكر يليه (أَنَّ) الناسخة للمبتدأ والخبر المؤكدة لمضمون جملتها ، وقد وردت هذه الصيغة في ست آيات :

الآية الأولى قوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » . الآية (١٠٦) من سورة البقرة .

الآية الثانية قوله تعالى : « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ومالكم من دون الله من ولىّ ولا نصير » . الآية (١٠٧) من سورة البقرة .

الآية الثالثة قوله تعالى : « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير » ٠ الآية (٤٠) من سورة المائدة ٠

الآية الرابعة قوله تعالى : « ألم تعلم أن الله يعلم ما في السموات والأرض إن ذلك على الله يسير » ٠ الآية (٧٠) من سورة الحج ٠

الآية الخامسة قوله تعالى : « أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » ٠ الآية (٧٨) من سورة القصص ٠

الآية السادسة قوله تعالى : « ألم يعلم بأن الله يرى » ٠ الآية (١٤) من سورة اقرأ ٠

وقد تضمنت هذه الآيات بيان قدرة الله تعالى على كل شيء ، وعلمه بكل شيء على وجه التوكيد في الآيات الست ٠

ومعنى همزة الإستفهام في هذه الصيغة الواردة في هذه الآيات كلها : التقرير ، أي قد علمت أيها المخاطب أنّ ... أو قد علم أنّ ...

وفي الآية الخامسة التى تتحدث عن قارون تدل الهمزة على التقرير والتوبيخ معاً ، تدل على التقرير بمعنى أن قارون قد علم إهلاك الله تعالى من عاشوا قبله ، وتدل على توبيخه أنْ لم يعظه علمه هذا ولم يمنعه من الاغترار بكثرة ماله وقوته ٠

وفي الآية السادسة تدل همزة الاستفهام على التقرير والتوبيخ والوعيد جميعا ، التقرير بمعنى أن أبا جهل قد علم أن الله تعالى يراه ، وعلى توبيخه أنْ لم يعمل بما يقتضيه علمه هذا وعلى الوعيد بالعقاب والعذاب من جرّاء أنه نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة وقال : « واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه في التراب » (١) ٠

وإعراب « ألم تعلم » ظاهر ، والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ولكل من يصلح للخطاب ، وأن وخبرها في تأويل مصدر سدّ مسدّ مفعولى (تعلم) ، وأكد متعلق العلم في الآيات الأربع الأولى اهتماما بشأن الخبر ومزيد عناية به ٠

أما في الآية الخامسة ففاعل (يعلم) ضمير مستتر يعود على قارون ، والواو الواقعة بين همزة الاستفهام و (لم) عاطفة على ما قبل الهمزة ، وقد أكد متعلق العلم في هذه الآية لتنزيل قارون منزلة المنكر لأنه لم يعمل بمقتضى علمه ٠

---

(١) الفتوحات الإلهية جـ ٤ ص ٥٦٣ ٠

وفاعل (يعلم) في الآية السادسة ضمير مستتر يعود على أبى جهل وأكد متعلق العلم في هذه الآية لتنزيل أبى جهل منزلة المنكر إذْ لم يعمل بمقتضى علمه أيضا ٠

أختى العزيزة هـل :

الصيغة التاسعة من الصيغ التى تدخل فيها أختك همزة الاستفهام على (لم) النافية الجازمة للفعل المضارع هى : « ألم يعلموا أن ... » ففى هذه الصيغة ترين همزة الاستفهام قد أتبعت بـ (لم) النافية الجازمة لمضارع (علم) مسندا الى واو الجماعة يليه أنّ الناسخة للمبتدأ والخبر المؤكدة لمضمون جملتها ٠

وقد وردت هذه الصيغة في خمس آيات من آيات القرآن الكريم :

الآية الأولى قوله تعالى : « ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزي العظيم » الآية (٦٣) من سورة التوبة ٠

ومعنى همزة الاستفهام في هذه الآية : الإنكار والتوبيخ : الإنكار بمعنى لا ينبغى لهؤلاء المنافقين المخالفة والمعاداة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وتوبيخهم على إقدامهم على هذه المخالفة والمعاداة مع علمهم بالعاقبة الوخيمة وهى أن لهم نار جهنم خالدين فيها ، وذلك العذاب هو الخزي العظيم ٠

و (يعلموا) فعل مضارع مجزوم بـ (لم) وعلامة جزمه حذف النون ، وواو الجماعة (وهم فريق من المنافقين) ضمير مبني على السكون في محل رفع فاعل ، و (أنّ) الأولى حرف توكيد ينصب المبتدأ ويرفع الخبر ، والهاء المتصلة بها ضمير الشأن والقصة مبني على الضم في محل نصب اسمها ٠ والجملة الشرطية كلها : « من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدا فيها » في محل رفع خبر أن ، والمصدر المؤول من أن وخبرها في محل نصب سدّ مسدّ مفعولى (يعلم) ، والتقدير ألم يعلموا وجوب نار جهنم لمن يحادد الله ورسوله ٠

الآية الثانيــة قوله تعالى : « ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب » ٠ الآية (٧٨) من سورة التوبة ٠

معنى الهمزة في هذه الآية الإنكار والتوبيخ ٠

ينكر الله سبحانه وتعالى على المنافقين كذبهم وبخلهم وإعراضهم وإخلافهم الوعد ، ويوبخهم على ذلك كله بعد أن عاهدوه سبحانه وتعالى أن يتصدقوا وأن يكونوا من الصالحين إن أعطاهم من فضله ، وقد أعطاهم

ويوبخهم أيضا على ما كانوا يخفونه من نفاق وما يتناجون به من طعن في الدين ، وتسمية الصدقة جزية ، وتنقيص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعييب المؤمنين ·

الآية الثالثة قوله تعالى : « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم » · الآية (١٠٤) من سورة التوبة ·

ومعنى الاستفهام بالهمزة في هذه الآية هو الأمر أي ليعلموا ، فإن كان الضمير (واو الجماعة) في يعلموا يعود على المتوب عليهم فالغرض حينئذ تأكيد قبول توبتهم والاعتداد بصدقاتهم ·

وإن كان المراد بواو الجماعة غير المتوب عليهم ممن لم يتوبوا كان الغرض حينئذ من هذا الأمر حثهم على التوبة والصدقة وتهييجهم إلى الإقدام عليها · وقد مضى إعراب هذه الصيغة ·

الآية الرابعة قوله تعالى : « فلما استيأسوا منه خلصوا نجيّا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل مافرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين » الآية (٨٠) من سورة يوسف ·

حين يئس إخوة يوسف من رد أخيهم إليهم اعتزلوا يتناجون ماذا يفعلون ، ويبدو من كلام كبيرهم أنهم اعتزموا العودة إلى أبيهم تاركين أخاهم عند يوسف عليه السلام فقال كبيرهم منكرا عليهم : ألم تعلموا أن ···· الآية · فمعنى الهمزة في هذا الاستفهام الإنكار ، ينكر كبير إخوة يوسف على إخوته أن يعودوا إلى أبيهم بدون أخيهم وهم يعلمون أن أباهم قد أخذ عليهم موثقا قال لهم « لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتُنَّنى به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل » (الآية (٦٦) من سورة يوسف) ·

ومن أجل هذا الموثق قال كبيرهم لن أبرح هذه الأرض أرض مصر التى أنا فيها الآن إلا بما يجعلنى في حلّ من موثق أبي أو يحكم الله لى - وهو خير الحاكمين - بحكْم لا يؤدى إلى نقض ذلك الموثق ·

الآية الخامسة قوله تعالى : « أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » · الآية (٥٢) من سورة الزمر ·

الاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ ، ينكر الله سبحانه وتعالى على أولئك الذين يعطيهم نعمة من عنده فيقولون إنما أوتيت ذلك على علم منى بوجوه المكاسب والمتاجر ، أو على علم منى بأنى سأعطاه لما فيَّ من فضل واستحقاق ، أو على علم من الله أني أستحق هذا وأني أهل

له · ينكر الله سبحانه وتعالى على أولئك هذا القول الدال على إعجاب بالنفس وتعاظم مفرط وجهل بعيد ، ويوبخهم على جهلهم أن الله سبحانه وتعالى يوسع الرزق لمن يشاء من عباده وإن لم يكونوا من ذوى الحيلة والقدرة على كسبه ، وأنه تعالى يضيق الرزق على من يشاء من عباده وإن كانوا من ذوى الخبرة في وجوه الكسب ، فالله سبحانه وتعالى يبسط الرزق ويقبضه لحكمة يعلمها وحده ، وليس السبب عقل عاقل ولا جهل جاهل ، يدل على ذلك أنا نرى كثيرا من العقلاء في ضيق وكثيرا من الجهلاء في سعة ·

أختى العزيزة هـل :

أما الصيغة العاشرة من هذه الصيغ التى تدخل فيها أختك همزة الاستفهام على لم النافية الجازمة للمضارع فهي : « ألم يسيروا ...... » · وقد وردت هذه الصيغ في سبع آيات من آيات القرآن الكريم :

الآية الأولى قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون » · الآية (١٠٩) من سورة يوسف ·

الآية الثانية قوله تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى في الصدور » · الآية (٤٦) من سورة الحج ·

الآية الثالثة قوله تعالى : « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » · الآية (٩) من سورة الروم ·

الآية الرابعة قوله تعالى : « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولافي الأرض إنه كان عليما قديرا » · الآية (٤٤) من سورة فاطر ·

الآية الخامسة قوله تعالى : « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا هم أشدّ منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق » الآية (٢١) من سورة غافر ·

الآية السادسة قوله تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين

من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشدّ قوة وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون (٨٢) من سورة غافر ·

الآية السابعة قوله تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها » الآية (١٠) من سورة محمد ·

وتتضمن هذه الآيات الكريمة حث كفار مكة الذين كذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم على السير في الأرض لينظروا عاقبة الذين كذبوا الرسل من قبلهم ، فقد دمّر الله عليهم بذنوبهم ، وكانوا أكثر منهم عددا وأشد قوة وأوفر عمرانا للأرض ، فليعتبروا بمن قبلهم قبل أن يصيبهم ما أصابهم ، فالله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء ، في السموات ولافي الأرض ·

ومعنى همزة الاستفهام في هذه الصيغة : « ألم يسيروا .... » الإنكار والتوبيخ : ينكر الله سبحانه وتعالى على هؤلاء الكفار الذين كذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم ألاّ يسيروا في الأرض سيراً يصحبه التدبر والاعتبار والتفكير في عاقبة الذين كذبوا الرسل من قبلهم ، ويوبخهمُ على ذلك ·

والفاء والواو اللتان جاءتا بعد همزة الاستفهام في هذه الصيغة هما حرفا عطف على ما قبل الهمزة ، فكان من حقهما أن يتقدما عليها ، ولكن همزة الاستفهام لها الصدارة في جملتها ، فتقدمت عليها وأخذت مكان الصدارة · والعطف على ماقبل الهمزة هو مذهب سيبويه والجمهور ·

ويرى فريق من النحويين على رأسهم الزمخشرى أن الفاء والواو في مثل هذا الموضع تعطفان على مقدر يقتضيه المقام ، وقد قدره أبو السعود في تفسيره فقال : « أغفلوا فلم يسيروا » (جـ٦ ص١١١) · « أقعدوا في أماكنهم ولم يسيروا » · (ج ٧ ص٥٢) وهو تقدير متكلف لا يحتاج اليه المعنى ، ولا يستدعيه الأسلوب ·

ويرى هذا الفريق أن كلّا من الهمزة والعاطف الذى بعدها قد جاء في مكانه الأصلى وليس هناك تقديم ولاتأخير · وقد تقدم الكلام مفصلا في ضعف هذا الرأى ·

أختى العزيزة : هـــل :

في ختام هذه الرسالة أحب أن أنبهك على أشياء :

من هذه الأشياء أن متعلق العلم في آيات الصيغة الثامنة : « ألم تعلم أن ..... » وفي آيات الصيغة التاسعة : « ألم يعلموا أن .... » قد جاء مؤكدا بأن ، ولاغرو في ذلك ، فهو يتضمن صفات الله سبحانه وتعالى : وأفعاله جل وعلا ، وقد جاء التوكيد اهتماماً بها ومزيد عناية ·

ولعلك تلاحظين أن الفعل المضارع (يعلم) جاء متعديا بالباء في قوله تعالى : « ألم يعلم بأن الله يرى » ، وقد جاء هذا التعدى بالباء في آية أخرى وهى : « يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين » (الآية (٢٦) من سورة يسن) ولا أعلم أن هذا الفعل قد تعدى بالباء في غير هاتين الآيتين من آيات القرآن الكريم · وقد تسألين : لماذا تعدى هذا الفعل بالباء في هاتين الآيتين وهو الفعل القوىّ الذى يتعدى إلى معموله مباشرة دون حاجة إلى هذه الباء ، من الحق أن يقال إنه من باب التفنن في التعبير ، ولكن نفسى غير مطمئنة إلى الاكتفاء بهذا وإن كان فيه الكفاية ·

أحس ـ والحس يخطىء ويصيب ـ أن هذه الباء قد جاءت لتقوية الصلة بين الفعل ومعموله وتوكيدها ، والمقام في هاتين الآيتين يستدعى ذلك : فالآية الأولى : « ألم يعلم بأن الله يرى » تتحدث عن أبى لهب الذى يعمل عمل من ينكر علم الله بأنه يراه ويرى ما يصنع ، والآية الثانية : « يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين » تحكى قول الذى آمن بالرسل حين قيل له ادخل الجنة ، فقد كان حريصا على أن يعلم قومه الذين كفروا بالرسل وعنفوه على إيمانه بهم ، أن يعلموا بما غفر الله له ، وبدخوله الجنة ، ليتبيّنوا أنه كان على حق وأنهم كانوا على باطل ، وليزدادوا حسرة على حسرة وندامة على ندامة ، ولشىء آخر غير ذلك هو ماركب في طباع البشر من أن من أصاب خيرا في غير وطنه ودّ أن يعلم بذلك جيرانه وأترابه الذين نشأ فيهم ·

هذا ، ولعلك قد لاحظت في قوله تعالى : « ألم يعلم بأن الله يرى » أن مفعول (يرى) قد حذف ، ولم يقل (يراه) · هذا الحذف يمكن أن يقال فيه بحق إنه للتناسب تناسب أواخر الآيات · وفي هذا التناسب خفة على اللسان وجرس جميل في الآذان · وما أكثر ما جاء هذا في القرآن الكريم ·

على أننى أريد أن أزيد على ما تقدم أن هذا الحذف كان أيضا للدلالة على شمول الرؤية وإطلاقها ، وأنها ليست مقصورة على رؤية أبى لهب وما يصنع ، فالله سبحانه وتعالى لاتخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ·

ومن الأشياء التى أحب أن أنبهك عليها هذا الضمير الذى جاء اسما لأن الواقعة بعد « يعلموا » في قوله تعالى « ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزى العظيم » ·

لقد اصطلح أهل النحو على أن يسمّوا هذا الضمير ضمير الشأن أو ضمير القصة وهو ضمير مبهم لا يتقدم عليه مرجع يزيل ابهامه ، فهو لهذا يثير النفس ويبعث فيها الرغبة

والتطلع إلى ما بعده ، فإذا جاء ما بعده يوضح معناه ويزيل إبهامه تلقته النفس في لهفة واستقبلته على شوق ، فتعيه على غير شرود ذهن وعلى حضور قلب ، ويستقر في أعماقها على مكنة وثبات .

ولذلك يؤتى بهذا الضمير بين يدي الجمل التى تشتمل على معان عظيمة ، أو أحكام جديرة بالتذكير والتحذير ، ومعاداة الله ورسوله ذنب ليس بعده ذنب ، وجزاؤهما عذاب جهنم الذى لا يزول ، ومثل هذا حقيق بأن يعلم ، خليق بأن يفهم ، قمين بأن يمهّد له بهذا الضمير ضمير الشأن الذى يدلّ على أن ما بعده مهم له شأن .

ومن هذه الأشياء هذا الضمير الذى جاء بعد اسم الجلالة وقبل الفعل المضارع (يقبل) في قوله تعالى : « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم » .

فأنا مع الذين يرون أن هذا الضمير هو ضمير الفصل وإن جاء بعده فعل مضارع ، وأنه يفيد التخصيص ، أي أن قبوله التوبة وأخذ الصدقات إنما هو لله لا لغيره ، ويؤيد ذلك ما جاء في ختام هذه الآية واصطلح علماء البلاغة على تسميته تذييلا وهو :
« وأن الله هو التواب الرحيم » فالضمير (هو) في هذا التذييل ضمير الفصل بلا منازع ، وإفادته التخصيص قائمة لاخلاف فيها ، والتذييل مؤكد لمضمون الجملة قبله ، وفي هذا التأكيد قرينة على أن ما قبله يفيد التخصيص .

أختى العزيزة : هــل :

يكفينى ما كتبت ، ويكفيك ما قرأت . وأسأله سبحانه وتعالى أن يعين على رسالة قادمة أكتبها إليك يكون فيها خير وإحسان .

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .
أختك
همزة الاستفهام

المراجـــــع

مراجع ذكرت معنى همزة الاستفهام الواردة في صيغ هذه الرسالة :

ا ـ مراجع صيغة « ألم تعلم أن .... » وهى الصيغة الثامنة

أ ـ تفسير البحر المحيط لأبى حيان الأندلسي ، الناشر : مكتبة ومطابع النصر الحديثة بالرياض ·

جـ١ ص٣٤٢/ جـ١ ص٣٤٥/ جـ٧ ص ١٣٣/ جـ٨ ص ٤٩٤

ب ـ تفسير النهر المار من البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى

جـ٣ ص٤٨٥ (هامش البحر المحيط المتقدم الذكر)

جـ ـ تفسير أبى السعود · الناشر : دار المصحف : شركة مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد / القاهرة ·

جـ١ ص١٤٣/ جـ٣٣ ص٣٥/ جـ٦ ص٨١٩/ جـ٧ ص٢٥ ·

د ـ الفتوحات الإلهية المشهورة بحاشية الجمل على الجلالين الناشر : عيسى البابى الحلبى بمصر ·

جـ١ ص ٤٩٠ / جـ٣ ص٣٦١ / جـ٤ ص٥٦٣ ·

هـ ـ تفسير الجلالين (هامش الفتوحات الإلهية السالفة الذكر) ·

جـ١ ص ٩٢ / جـ١ ص ٤٩٠ / جـ٣ ص١٧٩ ·

و ـ تفسير الكشاف للزمخشرى · الناشر شركة ومطبعة الحلبى بمصر ·

جـ٤ ص٢٧١ ·

٢ ـ مراجع صيغة « ألم يعلموا أن .... » وهى الصيغة التاسعة ·

أ ـ تفسير البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى الطبعة السالفة الذكر

جـ٥ ص٦٤ / جـ٥ ص ٧٥ / ·

ب ـ تفسير أبى السعود الطبعة السالفة الذكر

جـ٤ ص٦٤/ جـ٤ ص٨٦/ جـ٤ ص ٨٠/ جـ٤ ص ٢٩٩ ·

جـ ـ تفسير البيضاوى · الناشر مكتبة ومطبعة الحلبى بمصر (طبعة ثانية جمعت بين تفسير البيضاوى وتفسير الجلالين) جـ١ ص٤٣١ ·

٣ ـ مراجع صيغة « ألم يسيروا ... » وهي الصيغة العاشرة :

أ ـ تفسير البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى الطبعة السالفة الذكر

جـ٥ ص٣٥١/ جـ٦ ص٣٧٧/ جـ٧ ص١٦٤/ جـ٧ ص٣٢٠/ جـ٧ ص٤٥٧ .

ب ـ تفسير أبى السعود الطبعة السالفة الذكر

جـ٦ ص١١/ جـ٧ ص٥٢/ جـ٧ ص١٥٧ .

جـ الفتوحات الإلهية المشهورة بحاشية الجمل على الجلالين الطبعة السالفة الذكر .

جـ٣ ص١٧١/ جـ٤ ص٢٧ .

د ـ تفسير الزمخشرى الطبعة السالفة الذكر

جـ٣ ص٢١٩ .

البشرى

ذهبت لذاذات الحياة فلم يعد ... منهن إلا خدمة الإخوان

ولعمر ربك إنها لسعادة ... أن تحمل البشرى إلى إنسان

محمد المجذوب



تعقيب على بعض المواد :

هـــراق

قال ابن درستويه في كتابه تصحيح الفصيح (١) وقد غلط ثعلب في وضعه قولهم : هرقت الماء في هذا الباب (باب فعلت بغير ألف) لأنه ترجمه بباب فعلت بغير ألف ، وانما هرقت من باب أفعلت بالألف عند جميع النحويين (٢) وانما هذه الهاء التى في هرقت بدل من الألف التى تكون في أفعلت ، لأن أصل هرقت أرقت (٣) فعل معتل العين من الواو وأصله أروقت لأنه من قولنا راق (٤) الماء يروق ، وأروقته أنا ، ولكنه لما اعتلت الواو في (قولنا) راق يروق وجب أن يعتل في الرباعى أيضا فصارت ألفا وانتقلت فتحتها إلى الراء فصارت أراق ، فلما كانت هذه الكلمة مما يكثر استعماله في الكلام استثقلت الهمزة في أولها فأبدلت منها الهاء لأنها ألين كما قالوا : هياك في إياك ولهنك في (لأنك) (٥) وهذه الهمزة التى في أراق

---

(١) انظر تصحيح الفصيح جـ ١ ص١٦٣ ، ١٦٤ تحقيق عبد الله الجبورى طبع بغداد .

(٢) انظر كتاب ليس في كلام العرب ص٤٦ ، ص١٨٩ ، واللسان هرق وشرح المفصل جـ ١ ص٥ .

(٣) انظر شرح الشافية للجابرذى ص١٥٢ وسر الصناعة الورقة ص١٢٣ ب وتفسير غريب القرآن .

(٤) وراقنى الشىء يروقنى اللسان و روق وحكى الكسائى راق الماء يريق اذا انصب ص١٢ .

(٥) الهاء قوله : هياك على البدل مثل اراق وهراق . وعن الفراء انما يقولون : هياك في موضع زجر . انظر ابدال أبى الطيب جـ ٢ ص٥٦٩ . والمقتضب جـ ١ ص١٥٤ ، وليس ص١٨٩ والتصريف الملوكى ص٤٤ وتفسير غريب القرآن ص١٢ والكتاب جـ٢ ص٤٧٤ وشرح الرضى على الكافية جـ٢ ص٣٥٧ ، والاشباه والنظائر جـ ١ ص٦٩ .

تسقط في مضارعه لئلا تجتمع همزتان فيقول : أنا أريق وأصله أؤريق (١) ، فمن العرب من يزيد بين حرف المضارعة وبين الراء هاء ساكنة عوضا من الهمزة التى تسقط لأن الهاء ليست تستثقل مع الهمزة فيقولون أنا أهريق (٢) وزعم سيبويه أن هذه الهاء عوض من ذهاب حركة العين المعتله ، وإنما قال ذلك لأنهم زادوا الهاء في الماضى أيضا فقالوا : أهراق ولم تحذف من الماضى همزة فتكون عوضا منها فلما جرى ذلك في الماضى والمستقبل جعل علتهما واحدة وشبهها بالسين التى في اسطاع يسطيع (٣) انما هى من اطاع يطيع فمن العرب من يقول في المستقبل : يهريق فيفتح الهاء على فتحة الهمزة التى حذفها لأنها مفتوحة ومنهم من يقول : يهريق · فمن حركها فلاشك في أنه جعل لها الهاء عوضا من الهمزة ومن أسكنها فعلى ما قاله سيبويه ·

وأما الهاء التى في الفعل الماضى فلا يحركونها مع الهمزة في قولهم : أهراق لأنها ليست ببدل من الهمزة ، ومن جعل الهاء في هراق بدلا من الهمزة التى في أراق (٤) ··· أبدلها أيضا في الأمر منها فقال : هرق كما قال الراجز (رؤية) ·

يأيها الكاسر عين الأغضن والقائل الأقوال مالم يلقنى
هرق على خمرك أو تبين

فتوهم ثعلب أن هاء هرقت وهاء هرق في الأمر من نفس الكلمة ، فأدخل هرقت في باب فعلت بغير ألف وهو خطأ ·

وقف وأوقف

قال ابن درستويه (٥) وكذلك قوله : وقفت الدابة ، ووقفت وقفا للمساكين ، ووقفت أنا لا يجوز أن يكون الفعل اللازم من هذا النحو والمجاوز على لفظ واحد في النظر والقياس لما في ذلك من الالباس وليس ادخال الإلباس في الكلام من الحكمة والصواب وواضع اللغة عز وجل حكيم عليم وإنما اللغة موضوعة للإبانة عن المعانى فلو جاوز وضع لفظ واحد للدلالة على معنيين مختلفين أو أحدهما ضد الآخر لما كان في ذلك إبانة بل كان تعمية وتغطية ولكن قد يجىء الشىء النادر من هذا لعلل كما يجىء فعل وأفعل فيتوهم من لا يعرف العلل أنهما

---

(١) انظر ليس لابن خالوية ص٤٦ ·

(٢) انظر اللسان . وابدال ابن السكيت ص٢٥ ·

(٣) انظر اللسان ، وابن يعيش جـ١٠ ص٥ ·

(٤) انظر الجمهرة جـ٣ ص٤٣٨ ، والممتع لابن عصفور جـ١ ص٣٩٩ ، وما اختلفت الفاظه واتحدت معانيه ص٣٢ . والتصريف الملوكى ص٤٤ ·

(٥) انظر تصحيح الفصيح جـ١ ص١٦٦ تحقيق عبد الله الجبورى طبعة بغداد ·

لمعنيين مختلفين وإن إتفق اللفظان فالسماع في ذلك صحيح عن العرب والتأويل عليهم خطأ وإنما يجيء ذلك في لغتين متباينتين ، أو لحذف واختصار وقع في الكلام حتى اشتبه اللفظان وخفى سبب ذلك على السامع فتأول فيه الخطأ وذلك أن الفعل الذى لا يتعدى فاعله إذا أصبح إلى تعدية لم يجز تعديته على لفظه الذى هو عليه حتى يغير إلى لفظ آخر .

ومما يدل على أن الأصل في وقف ما ذكرنا أنهم يقولون : -

ما أوقفك هاهنا ؟ (١) بالالف ويجدونه أحسن وأفصح عندهم من قولهم : ما وقفك هاهنا وهو أكثر استعمالا منه فالأصل في وقفت أن يكون غير متعد بنفسه إلى مفعول مثل ثبت ولبثت ، وألا يتعدى إلا بزيادة قبله أو بعده أو غير ذلك فيقال أوقفته أو وقفت به أو وقفته بالتشديد ، ثم يجوز حذف الجار بعد ذلك لما ذكرنا من وجوب التخفيف وكثرة الاستعمال وطول معرفته واعتياده كما قال الله عز وجل : « ولو ترى إذ وقفوا على النار » : وقوله : « لو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم » لأنه بمعنى حبسوا أو محبوسون .

ثم استطرد يفسر هذه المادة فقال (٢) وأما قوله : (أى ثعلب) وقفت الدابة أقفها فمعناه حبست الدابة عن السير ، وكذلك وقفت وقفا للمساكين أى حبسته عليهم وكذلك وقفت أنا أى احتبست عن الشيء أو المضى وثبت مكانى قائما واسم فاعله واقف ومفعوله موقوف ومصدرها لا يتعدى منه الوقوف . ومصدر المتعدى الوقف .

غلقت وأغلقت

قال ثعلب في فصيحه تقول : أغلقت الباب فهو مغلق وأقفلته فهو مقفل فإن معناه شددته بالغلق وأوثقته وارتجته ، وأما أقفلت فمعناه أوثقته بالقفل .

والعامة تقولهما بغير ألف وهو خطأ .... ففى كتاب الأفعال لا بن القطاع (٣) « غلقت الباب غلقا لغة وصرح ا بن دريد بأن البصريين لا يقولون إلا أغلقت ونص على غلقت قال ولم يجيزوا غلقته البتة .....

وقد أثبت الشاعر أبو الأسود الدؤلى غلق الثلاثى في قوله :

ولا أقول لقدر القوم قد غليت ولا أقول لباب الدار مغلوق

وإنما كان على أفعل لأنه بمعنى أوثقت وأحكمت وأوصدت وأرتجت أى جعلت عليه الغلق أو القفل ومعناها راجع إلى قولهم : غلق الشيء يغلق غلقا وأغلقه غيره إغلاقا وإلى قولهم :

---

(١) حكاية عن الكسائى انظر اصلاح المنطق ص٢٢٦ ، وأفعال ا بن القطاع جـ٣ ص٢٨٩ واللسان وقف لغة رديئة .

(٢) انظر تصحيح الفصيح جـ١ ص١٨٢ تحقيق عبد الله الجبورى .

(٣) انظر جـ٢ ص٤١١ ، الجمهرة جـ٣ ص٤٣٩ ، وما تلحن فيه العامة ص٤٠ .

قفل الشيء يقفل قفولا وأقفله غيره إن شئت من الرجوع إلى القافلة ، وإن شئت من اليبس الذى ينال المسافر في جلده يقال قد قفل جلده أى يبس (١) ٠

عتق وأعتق (٢)

هذان من باب فعل وأفعل بمعنى فعتق الشيء أى صار حرا أى كريما ٠

ويقال لكل كريم من الخيل وغيره عتيق ولذلك سميت الجارية المخدرة عاتقا والخمر عتيق وسمى الماء العتيق والتمر العتيق وثوب عتيق ووجه عتيق أى كريم أو جميل وكل شيء قديم يسمى عتيقا أيضا ، ولذلك قيل للبيت الحرام العتيق قال الله عز وجل :

« ثم محلها إلى البيت العتيق » ، وقال أيضا : « وليطوفوا بالبيت العتيق » ، وامرأة عتيقة أى جميلة أو كريمة أو نجيبة ٠

وقال عنترة :

كذب العتيق وماء شن بارد إن كنت سائلتى غبوقا فاذهبى

وأما أعتق فاسم فاعله معتق ومفعوله معتق (بفتح التاء) ومصدره الاعتاق ····
والعامة تقول : عتقت الغلام بغير ألف وهو خطأ ٠

منى وأمنى

أمنى الرجل فهو يمنى من المنى فمعناه أنزل فهو ينزل وذلك إذا خرج منه الماء الدافق قال الله عز وجل : « من منيّ يمنى » والمنى مشدد الياء اسم على فعيل ، وقد أمنى الرجل يمنى إمناء وبعض أهل اللغة يجيز منى بغير ألف كأنه على لغتين وانظر اللسان فمعنى منى سال ومعنى أمنى أسال وقد روى أن منى التى بعرفات إنما سميت منى لأن الدماء تمنى بها أى تسال إذا ذبحت النسك ٠

أيديت ويديت

قولك : أيديت عند الرجل يدا فمعناه أسديت إليه معروفا (٣) وأنعمت عليه وهو فعل مشتق من اليد وهى جارحة من الجوارح فهو اشتقاق من الأعيان فليس اسمها بمصدر تتصرف منه الأفعال ولكن صرف منه ذلك على الاستعارة والتشبيه بالمصادر لأنه لما جعل اسما للإسداء

---

(١) انظر تصحيح الفصيح جـ١ ص٣١٨ لطبعة بغداد ٠

(٢) انظر تصحيح الفصيح جـ١ ص٣١٨ ، وأفعال ابن القطاع جـ٢ ص٣٧٧ وتثقيف اللسان ص٢٦٥ ٠

(٣) انظر ابن القوطية /١٦٩ ، وابن القطاع جـ٣ ص٣٧٤ والتصريف المكونى ص٦٦ وتصحيح الفصيح جـ١ ص٣٢٥ طبعة بغداد ٠

والإنعام على الاستعارة لإنهما لا يكونان إلا بهذه الجارحة فمعنى أيديت أى اتخذت عنده يدا .

والنعمة تسمى يدا وتجمع على الأيدى كما جمعت اليد نفسها وربما جمعوا الجمع فقالوا الأيادى ليفرقوا بين جمع الجارحة والنعمة .... وقد روى عن بعضهم : يديت إليه معروفا بغير ألف وحكى الخليل أنهم يقولون : (إن (١) فلانا لذو مال ييدى به ويبوع) .

وهو عند الزجاج كأفعلت وهو عند جماعة لغة .... وهو كما قال الخليل فهو يبسط به يديه وباعه فكان قولهم : يديت إنما هو من هذا لا من النعمة لأن اليد هى التى تبسط بالخير والشر وتصرف بها الأمور وكذا الباع .

غلى وأغلى

أغليت الماء فهو مغلى فمعناه كمعنى سخنت وطبخت وأحميت وتقول : قد غلى الماء نفسه بغير ألف فهو يغلى غليانا وغليا كما قال الله عز وجل « يغلى في البطون كغلى الحميم » وقد أغلاه غيره وهو يغليه إغلاء فهو مغلى كما تقول حمى يحمى وأحماه غيره يحميه إحماء فهو محمى فتنقله بالألف والعامة تقول : غليت الماء بغير ألف وهو مغلّى على مفعول وهو خطأ .... ويقولون : غليت القدر تغلى بكسر الثانى من الماضى والمستقبل وهو أيضا خطأ وفيه قال الشاعر أبو الأسود :

ولا أقول لقدر القوم قد غليت ولا أقول لباب الدار مغلوق

ولم يجىء فعل يفعل (بكسر العين في الماضى والمضارع) في الكلام إلا كلمات قليلة شاذة عن القياس مثل حسب يحسب وورم يرم كأنهم حملوا أغليت على حميت لما كان في معناه وهو غلط منهم .

غفيت وأغفيت

فان العامة تقول : غفيت بغير ألف وبالياء وتقول في المستقبل أغفو غفوة ومعناه الدخول فيما قل من النوم وهو اليسير الذى لا يكتفى به ولا ينتفع وهو مأخوذ من الغفا وهو ردىء التمر وهو داء يقع في البسر فيفسده وكأن العامة لم تدخل فيه الألف لأنها شبهته بقولهم : نعست ونمت وجاءوا بالمستقبل بالواو والماضى بالياء جهلًا وبالمصدر على فعلة واحدة والمصدر الإغفاء . والذى في اللسان : أن غفيت لغة ، وقال الأزهرى وكلام العرب : أغفى وقلما

---

(١) انظر التهذيب جـ١٤ ص٢٤١ والمقتضب جـ١ ص١٥٠ .

يقال غفا وفي الحديث « فغفوت غفوة » انظر النهاية جـ٣ ص٣٨٦ ، وهو لغة رديئة عند ابن القطاع (١) فهو مما جاء فيه فعلت وأفعلت واختير فيه أفعلت لأنه الفصيح وقل فعلت لانه ردىء ٠

أولعت بالشيء

قال ابن درستويه في تصحيح الفصيح (٢) : قولهم : أولعت بالشيء لأنه من باب أفعلت وليس من باب فعلت وقد حكى عن بعض العرب ولعت بغير ألف مكسورة العين من الفعل على معنى الانفعال والمطاوعة كأنه قال أولعنى الله فولعت وليس فعل متعد الا وله فعل مطاوعة غير متعد إما على انفعل وإما على افتعل أو تفعلّ أو فعّل وهو القياس وإن قل استعمال بعض ذلك أو لم يسمع ، وليس كل مستعمل مسموعا مرويا وانما قال أهل العربية لا يقال : ولعت وانما يقال : أولعت به من جهة الاستعمال ، وقد استعمل كثيرا غير قليل مصدر ولعت وهو الولع كأنهم قد أولعوا بمخالفة الفصحاء اما استثقالاً لكلامهم واما عجزا عن النطق به وجهلاً بتصريفه ٠ وعامة أهل اللغة يزعمون أن هذا الباب لا يكون الا مضموم الأول ولم يقولوا إنه اذا سمى فاعله جاز بغير ضم وهذا غلط منهم لأن الأفعال كلها مفتوحة الأوائل فإذا لم يسم فاعلها فهى كلها مضمومه الأوائل ولم يخص بذلك بعضها دون بعض وقد بينا ذلك بعلله وقياسه ليستغنى بمعرفة القياس عن تقليد ثعلب وغيره ٠

أُدِيربى

قال ابن درستويه في المرجع السالف الذكر ، وكذلك أدير بى وهو بمنزلة أولعت بالشيء وهو من باب أفعلت رباعى وليس من الثلاثى وإنما ذكره (أى ثعلب) لأنه مما لم يسم فاعله أيضا فماضيه بكسر العين من الفعل الثلاثى والرباعى ، وأهل اللغة أو عامتهم يزعمون أن فعل وأفعل بهمزة وبغير همزة قد يجيئان بمعنى واحد ، وأن قولهم ديربى وأدير بى من ذلك وهو قول فاسد في القياس والعقل مخالف للحكمة والصواب ولا يجوز أن يكون لفظان مختلفان لمعنى واحد إلا أن يجىء أحدهما في لغة قوم والآخر في لغة غيرهم ، كما يجىء في لغة العرب والعجم أو في لغة رومية أو هندية ٠

وقد ذكر ثعلب أن أدير بى لغة فأصاب بذلك وخالف من يزعم أن فعلت وأفعلت بمعنى واحد والأصل في هذا قد درت ودار رأسى وهو الفعل اللازم ثم ينقل إما بالياء وإما بالألف فيقال قد دير بى ، وأدرت فهذا القياس ٠

---

(١) انظر ابن القطاع جـ٢ ص٤٤٣ ٠

(٢) انظر تصحيح الفصيح جـ١ ص٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ تحقيق عبد الله الجبورى طبعة بغداد الباب الرابع فعلت بضم الفاء ٠ ٠

ثم جيء بالباء مع الألف فقيل قد أدير بى كما قيل قد أسرى بى على لغة من قال : أسرى في معنى سرى ، لأن إدخال الألف في أول الفعل والباء في آخره للنقل خطأ إلا أن يكون قد نقل مرتين إحداهما بالألف والأخرى بالباء انتهى ومن الملحوظ أن أسرى لغة أهل الحجاز وجاء بهما القرآن الكريم قال تعالى : سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ..... فهذا من الرباعى وقال تعالى : « والليل إذا يسر » فهذا من الثلاثى سرى .

غاظ وأغـــاظ (١)

تقول غاظنى بشىء يغيظنى ، وقد غظتنى ياهذا فهو من الغيظ الذي يجده الإنسان في قلبه من غضب أو موجدة أو نحو ذلك كما قال الله تعالى : « عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » « قل موتوا بغيظكم » وفعله المستقبل يغيظ بفتح أوله واسم فاعله غائظ واسم مفعوله مغيظ قال الله تعالى : « ليغيظ بهم الكفار » ، وقال تعالى : « ولا يطؤون موطئا يغيظ الكفار » وقال طرفه بن العبد :

يـداك يـدٌ خيرهـا مرتجى ... وأخرى لأعـدائها غائظـــة

والعامة تقوله : أغاظنى بألف وهو خطأ. ولكنى وجدت أغاظ في القاموس والمصباح .

صرف وأصرف (٢)

تقول : صرفت الصبيان معناه سرحتهم من الكتاب ، كذلك صرفت الرسول والشيخ إذا رددته إلى موضعه الذى جاء منه وكذلك قولك : صرف الله عنك الأذى والعامة تقول أصرفت الصبيان ، وأصرف الله عنك الأذى بالألف وهو خطأ ، ويدل على ذلك أن فاعله صارف ومفعوله مصروف ومصدره الصرف ومستقبله يصرف بفتح الياء وقال السيوطى في المزهر : ليس في كلامهم أصرفت إلا حرف واحد : أصرفت القافية إذا أقويتها (وهو أن يخالف الشاعر بين القافيتين) وأنشد (لجرير) :

قصائد غير مصرفه القوافى ... فلا عيا بهن ولا اجتلا با

فأما سائر الكلام فصرفت : صرف الله عنك الأذى ، وصرفت القوم ، صرف الله قلوبهم ، وصرف ناب البعير » انتهى .

---

(١) انظر الأفعال لا بن القطاع جـ٢ ص٤٤٢ ، وتثقيف اللسان ص١٥٢ وتصحيح الفصيح جـ١ ص١٩٥ .
(٢) انظر تصحيح الفصيح جـ١ ص١٨٠ وأفعال ابن القطاع جـ٢ ص٢٣٨ .



لابد أن نجاوز القرون التي تفصل بين العصر العباسي والعصر الحديث لنرتفع من جذور قضية الحداثة إلى ساقها ٠ ذلك أننا لانجد في تلك القرون جديداً في القضية ، وكأن النقاد قنعوا بالأحكام النظرية العادلة التي وضعها ابن قتيبة وأخذوا بها من بعده واستراحوا من الجدل في القديم والحديث ٠ ولا ننسى أن انشغالهم بالأبحاث البلاغية الصرفة ، وعدم ظهور سمات تجديدية في الشعر تشدهم إليها ، زاد من قناعتهم وصرفهم عن القضية ٠

فإذا عبرنا إلى شاطىء العصر الحديث ، فإن أول ما يستوقفنا هو أن العصر بأكمله قد وسم بالحداثة ، وأن النقاد ومؤرخى الأدب مجمعون على تسميته بالعصر الحديث في الأدب أيضاً ٠ وأنه يبدأ ـ في عرفهم ـ بمطلع القرن التاسع عشر الميلادى ٠ ولا بد ـ والأمر كذلك ـ من وقفة مستأنية ولتكن وقفة في أرض مصر ٠

ففى بداية هذا العصر بدت بوادر التغير في الحياة الراكدة ، ورحل جنود الحملة الفرنسية وعلماؤها من مصر بعد أن هزوا المجتمع المصري من أعماقه ٠ واستطاع محمد على باشا بعد سنوات قليلة أن يبدأ نهضة واسعة ظهرت آثارها في توسعه العسكري ، والحركة العمرانية ، والبعثات الدراسية ، وتشجيع الترجمة والطباعة ، ثم تابع النهضة ابنه اسماعيل ـ الذى خلف عباساً وسعيداً ـ وكان هذا الحاكم مفتوناً بمظاهر الحياة الأوربية ، فعمل على نقلها

إلى مصر ، وصرف في سبيل ذلك أموالاً طائلة ، وفي الوقت نفسه أخرجت المطابع عدداً من دواوين الشعراء الجاهليين والأمويين والعباسيين ، ، وأصبح في مقدور المثقفين أن يقفوا على عيون الشعر العربي ، كما نشرت أمهات كتب التراث ككتب الجاحظ وابن المقفع وابن العميد وابن خلدون وغيرهم · وبدأ النثر يتخلص من قيود السجع والتكلف في كتابات رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وغيرهم من كتاب العصر ، فكان أسبق من الشعر إلى التحرر ·

وأما الشعر فكان في حالة من السقم تقارب الموت · وكانت تمثله نماذج هزيلة ليس فيها إحساس صادق ولا تعبير فني ناضج ، وتغطى ركاكتها في كثير من الأحيان بألوان من البديع المصطنع تبدو مثل زركشة على كفن ، وتعبر بصدق عن الحياة الراكدة في أواخر العهد العثماني ·

وقد حاول بعض الشعراء - أمثال : محمود صفوت الساعاتى ، وعلى أبي النصر ، وعبد الله فكرى ، وعائشة التيمورية ، أن يتحرروا من الأسلوب المتخلف ، ولكنهم لم يبتعدوا عنه كثيراً ، وكان مقدورا للشعر أن ينتظر ظهور الشاعر العبقري ، الذي يتمثل ما تنتجه المطابع من الموروث الشعري الأصيل ، ويرتقي إلى درجة تقترب من فحوله · وكان الشاعر هو محمود سامي البارودي ·

ويعد النقاد ومؤرخو الأدب شعر البارودي بداية الشعر الحديث ويخصونه باصطلاح : شعر الإحياء ، لأنه باكورة الحداثة ·

فما الحداثة في هذا الشعر ؟ وما موقف النقاد من حداثته ؟

يذكر الذين كتبوا عن البارودى إنه انكب على دراسة التراث الشعري ، وأن شاعريته تفتحت بعيداً عن الشعر السقيم الذي كان يعاصره ، وأن قصائده الأولى كانت معارضات لقصائد أبي تمام والبحترى - والمتنبي وأبي فراس والشريف الرضي · فيكون بذلك أول شاعر في العصر الحديث يدخل ساحة الشعر بديباجة عربية أصيلة ·

ولو نظرنا في ديوان البارودي لوجدنا أنه لم يأت بجديد لا في موضوعات الشعر ولا في شكله · بل إنه لم يخرج عن موضوعات عصره التقليدية · وشعره موزع بين المديح والهجاء والفخر والغزل ورياضة القافية ، إضافة إلى لون وجداني ساقته أحداث حياته ·

ولكنه جاء بجديد إذا قسنا شعره بشعر معاصريه ، وجديده في الديباجة والأسلوب وترك التكلف والبهرجة ، فهو بهذا المقياس - « حديث » بين شعراء يعيشون على القيم الفنية

التي سادت في عصور الضعف والانحدار ، وشعراء يحاولون التخلص منها ولكنهم لا يحلقون ، وهو بذلك رائد الحداثة ، وريادته في العودة إلى التراث الشعري الأصيل ، ومخالفة الذوق الأدبي الشائع في عصره · وهى مخالفة تجاوز السقيم إلى السليم ·

إن الحداثة في شعر البارودي لاتحمل أي جديد بالمعنى اللغوى للجديد (أي الذي لم يكن موجوداً من قبل) ولكنها تحمل جديداً بالنسبة للعصر الذي كان فيه ، للبيئة الشعرية المحيطة به ، وجديده أسلوب عربي كان مدفوناً في الكتب بعيداً عن الواقع الشعري ، وليس فيه أي لقاء مع أية ثقافة غير عربية ، ولا ردة فعل لثقافة أجنبية وافدة ، فالثقافة الوافدة آنئذ قليلة الشأن · وقد كانت حداثته ـ أو عودته إلى التراث الشعري الناصع ـ أنقع للشعر العربي من أية صورة أخرى يمكن أن يأتي بها ·

ومن المفيد أن نذكر أن النقاد المعاصرين للبارودي لم يهتموا بجديده ، ولم يستخدموا اصطلاح « الحداثة » في وصف شعره ، ولكن بعضهم ـ وفي مقدمتهم الشيخ حسين المرصفي (١) ـ أعجبوا بقوة شعره وقارنوه بالشعر العباسي ، واستخدموا المقاييس البلاغية القديمة في إظهار حسنه · وكان أفضل نقد لشعره يقوم على الموازنة بين إحدى قصائده وإحدى قصائد أعلام الشعر العباسي · وطبيعى ألا نتوقع من هذا النقد أن يقدم أي مفهوم أو تطوير لمفهوم الحداثة ·

تحديث خلفاء البارودى « المحافظين »

لم يكن لاتجاه البارودي صدى واسع في عصره ، غير أنه آتى أكله في الجيل التالى ، عندما نهض به شوقي ومطران وحافظ ابراهيم واسماعيل صبرى وغيرهم · وقد عكف هؤلاء على قراءة شعره ، إضافة إلى الشعر العباسي الذى أصبح في متناول أيديهم ، وتأثروا بنماذجه المثلى ، ويدل على ذلك معارضاتهم الشعرية الكثيرة ـ وما زالوا يتزودون من عيون الشعر حتى استقامت لهم أساليبهم المتأثرة بها ، فاستطاعوا أن يقيموا نهضة شعرية حقيقية بعيدة كل البعد عن شعر التخلف والانحطاط ، واستطاعت نهضتهم أن تؤثر في شعراء الوطن العربي ، وأن تنهي آثار التكلف والانحطاط · وقد سماهم الجيل الذي خلفهم « المحافظين » لأنهم ترسموا خطا البارودي في المحافظة على جزالة الأسلوب العربي القديم ورصانته · وهم بلا شك محافظون في حدود هذا المعنى ، ومحافظون أيضاً لأنهم لم يتخطوا حدود الثقافة العربية والقيم الشعرية الأصيلة إلا خطوات قليلة ، وقد كانت الفترة التي عاشوها تتطلب ذلك ·

---

(١) انظر : حسين المرصفي : الوسيلة الأدبية ٢ : ٤٧٥ ومابعد · مطبعة المدارس الملكية القاهرة ١٢٩٢ هـ ·

وقد ناقش الدكتور شوقي ضيف محافظتهم ، وحررها من شبهة الجمود والتخلف فقال عنهم :

ولكنهم ليسوا محافظين بالمعنى السيء للمحافظة ، حيث يكون الشاعر نسخة مكررة لمن سبقه ، أو يكون طبق الأصول التي يطلع عليها دون حذف أو تغيير ، فتلك مرتبة عقيمة زهد فيها هؤلاء الشعراء وانصرفوا بقدر ماوسعتهم جهودهم ، وسعوا لتكوين شخصياتهم الشعرية المستقلة ، وفرضوا ثقافتهم وقضايا عصرهم على شعرهم ، ولاءموا ملائمة جيدة بين القديم والجديد ، بين الأسلوب العربي في جزالته ورصانته وروح العصر ، ووجهوا الأذواق الأدبية إلى الوضع الذي يمكن أن نتدرج إليه بعد البارودي (١) .

لقد كان شوقي وحافظ وصبري .. مجددين ، بالمعنى الضيق للتجديد ، وذلك في أول عهدهم ، وبالتحديد في العقد الأول من القرن العشرين ، إذ جاؤوا بصوت جديد في الشعر العربي موضوعاً وأسلوباً ، ولم تكن أصواتهم مجرد أصداء لصوت البارودي ، فإن أي قارىء لشعرهم يحس أثر البارودي فيه ، ويحس أيضاً أنهم أصوات متميزة تختلف عن البارودي في يسر الأسلوب وتخلصه من الاستعمالات القاموسية البعيدة عن العصر ، وتختلف في الموضوعات الحية التى تتصل بالحياة العامة في عصرهم ، وقد كانت لديهم طاقات شعرية ضخمة تملك ناصية اللغة وخصوبة البيان ، وأسرار النغم الموسيقى ، وعذوبة الأداء ، فترددت أنغامهم في أرجاء الوطن العربى كله .

على أن شوطهم في التجديد كان قصيرا ، إذ وقفوا عند الخطوات القليلة التى خطوها بعد البارودي ، وأخذ شعرهم يكرر نفسه ولا يأتى بجديد إلا في عناوين القصائد بينما الأفكار متقاربة ، ولا أكاد أستثني بهذا الحكم أحداً من المحافظين ، اللهم إلا نبضات التجديد في مسرحيات شوقي الشعرية وبعض جوانب الحداثة في شعر مطران . وهذا الأخير يطبّل له بعض الدارسين ويعده مظهرا للحداثة في القرن العشرين وإمام الحركات المجددة التالية ولا بأس من التريث عنده للتحقق من هذه الدعوى .

فالدكتور محمد مندور يرى أنه رائد الحداثة والتجديد في الشعر العربي ، ويقول عنه : « إن الإجماع يكاد ينعقد على أن خليل مطران يعتبر رائدا للمدرسة الجديدة في الشعر العربي المعاصر ، حتى ليكاد يختط طريقاً يشبه الطريق الذى اخطته في العصر العباسي بمدرسة البديع - وعلى رأسها أبو تمام - في مواجهة مدرسة عمود الشعر - وعلى رأسها أبو عبادة

(١) الدكتور شوقي ضيف : الأدب العربى المعاصر في مصر ٤٦ دار المعارف بمصر ١٩٦٦ .

البحتري - وذلك عندما يقارن النقاد بين مدرسة البارودي وأحمد شوقي وحافظ وغيرهم ممن ساروا على عمود الشعر العربي والمدرسة الحديثة التي تنتسب إلى مطران وتمتد في جماعة أبولو خلال أحمد زكى أبو شادي وابراهيم ناجي ومن ساروا على دربهما من الشعراء الناشئين في مصر وغيرها من البلاد العربية (١) » ٠

ويذهب أبعد من ذلك فيشبهه بالشاعر الفرنسي إندريه شينيه ، الذي قاد الحركة الكلاسيكية الجديدة قبل الثورة الفرنسية ، وهي الحركة التى جمعت بين الصياغة اللغوية الفصيحة والأفكار الجديدة المعاصرة ٠

وفي ظني أن مطران كان واحداً من المجددين : وليس « رائداً للمدرسة الجديدة في الشعر العربي المعاصر » وأنه دون مرتبة الريادة ، سواء في شعره ، أو في تأثيره فيمن بعده ٠

وعندما نرجع إلى ديوانه نحس أنه أكثر شعراء جيله تأثرا بالثقافة الافرنسية ، فقد ترجم قصائد كثيرة من شعرها ، وناقشها ، وعارضها وتأثر بها ، وتنبه إلى بعض القيم الفنية في الشعر الفرنسي ، ودعا الشعراء العرب إلى الأخذ بها ، واهتم بوحدة القصيدة ودعا إليها ، وإلى عدد من القيم الشعرية التى لم تكن سائدة بين معاصريه ، فقال في مقدمة ديوانه : « هذا شعر ناظمه لاتحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الصحيح ، ولا ينظر قائله إلى جمال البيت المفرد ولو أنكر جاره وشاتم أخاه ودابر المطلع وقاطع المقطع وخالف الختام ٠ بل ينظر إلى جمال البيت في ذاته وفي موضعه ، وإلى جمال القصيدة في تركيبها وفي ترتيبها وفي تناسق معانيها وتوافقها ، مع ندور التصور وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة وشفوفه عن الشعور الحر وتحري دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر » (٢) ٠

ويبدو في تقويمه هذا أن الشعر في مفهومه تعبير نفسي تتجلى فيه الوحدة الفنية الموضوعية ، وأن قواعد الوزن والقافية إنما هي لخدمة معاني الشاعر ٠ وإشارته هذه إلى وحدة القصيدة هى - فيما أعرف - أول إشارة إلى قضية وحدة القصيدة في العصر الحديث ، وقد طبقها في بعض قصائده الشعرية ، ولا سيما في القصائد القصصية ٠

على أنه لم يستطع أن يحقق - في معظم شعره - ما نادى به في مقدمة ديوانه فصياغته تكاد تداني الصياغة التقليدية - ولعل مقدمته النثرية للديوان كما يرى القارىء توحي بذلك

---

(١) الدكتور محمد مندور ٠ محاضرات عن خليل مطران ١١ مطبعة دار الهناء بمصر ١٩٥٤ ٠

(٢) خليل مطران : ديوان الخليل ٩ مطبعة الهلال بمصر ١٩٤٩ ٠

أيضاً ـ وهي متأثرة بالأساليب العربية القديمة إلى حد بعيد مع تفاوت ملحوظ في الجزالة ، كما أن موضوعات شعره تترواح بين بعض الموضوعات الوجدانية ـ كالتأمل والغزل والشكوى ... وبين الموضوعات التقليدية العتيقة كالمدائح والمراثي وشعر المناسبات .

وأما تأثيره فيمن بعده ، وخصوصاً شعراء أبولو الذين ذكرهم مندور ـ فهو ضئيل لا يرقى به إلى الريادة والإمامة ، ذلك أنه لم ينجح في إشاعة ما دعا إليه بين الشعراء ، ولم تتكون له مدرسة شعرية على نحو ما تكون للبارودي ولشوقي من بعده ، وشعراء أبولو كانوا في معظمهم على قدر وافر من الثقافة الانجليزية ، وقد تأثروا بمدارسها الشعرية مباشرة ، وتأثر بعضهم بالديوانيين الثلاثة ـ العقاد وشكري والمازنى ـ ولعل الديوانيين هم أقرب من قرأ شعر خليل مطران والتقوا معه في عدد من مفهومات الشعر . والمعروف أن مصادر مطران الفرنسية تلتقي مع الرومانسية الإنكليزية التى تأثر بها الديوانيون ـ وتوجه الشاعر نحو ذاتية التعبير والاهتمام بالخيال والتخلص من القيم الفنية الكلاسيكية .

تحديث الديوانيين :

يطلق الدارسون اصطلاح الديوانيين على الشعراء النقاد الثلاثة : عبد الرحمن شكرى وعباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازني ، وهؤلاء الثلاثة هم الذين تركوا بصمات عميقة في تطوير عدد من عناصر الشعر العربي الحديث ، وجاؤوا بخيوط كثيرة من الحداثة تنظيراً وتطبيقاً .

وكان أسبقهم إلى التحديث عبد الرحمن شكري ، الذي نشر دواوينه الشعرية قبل زميليه ، وضمنها عدداً من آرائه الجديدة ، ثم شاركها في إصدار بعض المقالات النقدية التى تدعو إلى التحديث وتنتقد معظم القيم الشعرية في شعر المحافظين ، ثم انفصل عنهما واقتصر على كتابة الشعر وعدد قليل من المقالات ، على حين أصدر العقاد والمازني كتاب « الديوان » الذي ضم خلاصة القيم الحديثة التى يدعون إليها ، وأحدث ضجة كبيرة . وبعد أقل من عقد من الزمن خفت قوة الاتجاه ، إذ هدأت حدة المازني في النقد ، وسكت صوته في الشعر ، وغاب عبد الرحمن شكرى عن الأنظار ، لا يظهر من شعره إلا قصائد قليلة تنشر على فترات متباعدة ، وظل العقاد وحده يصدر دواوينه ويتابع حملاته النقدية العنيفة .

وقد كان الأعلام الثلاثة على قدر كبير من الثقافة العربية ولاسيما الانكليزية ، تعمقوا في دراسة آدابها ، وأخذوا من شعرها ونقدها شيئا كثيراً ، فكانوا بحق مدرسة جديدة في الشعر العربي ونقده ، وصفها العقاد نفسه بقوله :

مدرسة لا شبه بينها وبين من سبقها في تاريخ الأدب العربي الحديث ، فهي مدرسة أو غلت في القراءة الانكليزية ، ولم تقتصر قراءاتها على أطراف من الأدب الفرنسي ـ كما كان يغلب على أدباء الشرق الناشئين في أواخر القرن الغابر ـ وهي على إيغالها في قراءة الأدباء والشعراء الانكليز لم تنس الألمان والطليان والروس والأسبان واليونان واللاتين الأقدمين ، ولعلها استفادت من النقد الانكليزى الحديث فوق فائدتها من الشعر وفنون الكتابة الأخرى ، ولا أخطىء إذا قلت إن (هازلت) هو إمام هذه المدرسة كلها في النقد ، لأنه هو الذي هداها إلى معاني الشعر والفنون وأغراض الكتابة ومواضع المقارنة والاستشهاد .

وقد استفاد الأعلام الثلاثة من ثقافاتهم الواسعة ، وثاروا بتأثيرها ـ على عدد من القيم السائدة ، في الشعر الذى يكتبه المحافظون ، وحاولوا زحزحة الأصول التقليدية التى يتبعونها ، ودعوا إلى مفهومات جديدة للشعر وعناصره ، وجعلوا دعوتهم معلم الحداثة ، والأخذ بها تحديثاً للشعر ويمكن إجمال أهم معالم الحداثة التي دعوا إليها فيما يلى :

أولاً تطوير مفهوم الشعر : كان الشعر في مفهوم المحافظين صناعة متقنة تقوم على مجموعة من القواعد والقوانين ، يحذقها أصحاب التراث الموضوعيون من نقاد ولغويين وبلاغيين ، والشاعر هو القائل الفصيح أولاً وقد رفض الديوانيون هذا المفهوم وقدموا مفهوماً جديداً ، يكون الشعر فيه إبداعا يعبر عن ذات الشاعر ويصور عالمه الداخلى بكافة مناحيه وطاقاته النفسية وملكاته الإنسانية ، ويصدر عن الشعور ويضطرب بالعاطفة يقول عبد الرحمن شكرى عن الشعر : « هو كلمات العواطف والخيال والذوق السليم ، فأصوله ثلاثة متزاوجة ، فمن كان ضئيل الخيال أتى شعره قليل الشأن ، ومن كان ضعيف العواطف أتى شعره ميتاً لاحياة فيه ، فإن حياة الشعر في الإبانة عن حركات تلك العواطف ، وقوته مستخرجة من قوتها ، وجلاله من جلالها ومن كان سقيم الذوق أتى شعره كالجنين ناقص الخلقة » (١) .

وهناك تعريفات مشابهة لتعريف عبد الرحمن شكري أوردها العقاد والمازني في ثنايا نقدهم ، تؤكد التفاف الأعلام الثلاثة حول المفهوم ذاته .

ثانياً : تطوير مضمون الشعر : اهتم الشعراء المحافظون بالقضايا العامة أكثر من اهتمامهم بالوجدان الفردي ، فلما جاء الديوانيون عملوا ـ بتأثير قوي من الرومانسية

---

(١) ديوان عبد الرحمن شكري ٤ : ٢٨٨ . دار المعارف بالاسكندرية ١٩٦٠ جمع وتحقيق نقولا يوسف .

الانكليزية التى تأثروا بها ـ على توجيه الشعر نحو الذات ، وطلبوا من الشاعر أن يهتم باستبطان وجدانه قبل كل شيء ، وأن يعبر عن إحساساته بحرية تامة ٠

وعلى الرغم من أن العقاد لم يمانع في أن يطرق الشاعر موضوعات الحياة اليومية في البيت أو الطريق أو الدكان ، فإنه اهتم اهتماماً عظيماً بالعالم الداخلى للشاعر ، وجعل التعبير الصادق عن هذا العالم الخاص مقياس الجودة المثلى للشعر فقال : « إن المحك الذى لا يخطىء في نقد الشعر هو إرجاعه إلى مصدره ، فإن كان لا يرجع إلى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء ٠ وإن كنت تلمح وراء الحواس شعوراً حياً ووجداناً تعود إليه المحسوسات كما تعود الأغذية إلى الدم ونفحات الزهر إلى عنصر العطر ، فذلك شعر الطبع القوي والحقيقة الجوهرية » ٠

وقرر المازنى أن الشعر مرآة لنفس الشاعر فيه روحه وإحساسه وخواطره ومظاهر نفسه سواء أكانت جليلة أم دقيقة ، شريفة أم وضيعة ٠

وذهب عبد الرحمن شكرى المذهب نفسه فجعل الشعر لغة العاطفة ومحركها وهكذا وجه الديوانيون الشعر وجهة وجدانية تهتم بالعاطفة قبل كل شيء وكان توجيههم هذا جديداً على الشعر العربي ونقده ٠

ثالثاً : تطوير في الشكل :

أ ــ الدعوة إلى وحدة عضوية للقصيدة ، بحيث تصبح ـ كما يقول العقاد ـ عملاً فنياً تاماً يكمل فيه تصور خاطر أو خواطر متجانسة ، بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها ، فالقصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ، ولا يغنى عنه غيره في موضعه » ٠

غير أن النقاد أخذوا على العقاد أنه لم يجاوز ـ في دعوته للوحدة العضوية ـ وحدة الموضوع ، وأنه لم يحقق في شعره أكثر من ذلك ٠

ب ــ الدعوة إلى تطوير الصورة الشعرية : استفاد الديوانيون من التطوير الكبير الذى أحدثه الرومانسيون الغربيون في مفهوم الصورة الشعرية واستعمالاتها ، فاهتموا بها اهتماماً كبيراً ، وعدوها عنصراً أصيلاً في البناء الشعري ، تنقل الأحاسيس وتهتم باللباب والجوهر ... في العلاقة بين الأشياء ، لا بالتشابه الخارجى ، وهاجموا الصورة التقليدية التى يعتمد عليها الشعراء المحافظون واتهموها بالافتعال والمبالغة ، والنمطية والتصميم ، والحسية الحرفية الشكلية ، يقول العقاد في هجومه العنيف على شوقي وأسلوبه في التصوير : إذا كان

كذلك من التشبيه أن تذكر شيئاً أحمر ، ثم تذكر شيئين أو أشياء مثله في الاحمرار فما زدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة أشياء حمراء بدل شيء واحد ، ولكن التشبيه أن تطبع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع في ذات نفسك ، وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان ، فإن الناس جميعاً يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها ، وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس » (١) ٠

جـ ـ الدعوة إلى التحرر من القافية : كان عبد الرحمن شكري من أوائل الشعراء الذين حاولوا التخلص من القافية الموحدة ، وقد كتب عدة قصائد لم يراع فيها وحدة الروي ، كما أن العقاد تبنى الدعوة لترك القافية ، وعدها إحدى معوقات الشعر العربي عن التطور ، قال : ليس بين الشعر العربي وبين التفرع والنماء إلا هذا الحائل ، فإذا اتسعت القوافى لشتى المعانى والمقاصد ، وانفرج مجال القول ، بزغت المواهب الشعرية على اختلافها ، ورأينا بيننا شعراء الرواية وشعراء الوصف وشعراء التمثيل ، ولا تطول نقرة الأذن من هذه القوافى ، ولاسيما في الشعر الذي يناجي الروح والخيال أكثر مما يخاطب الحس والآذان » (٢) ٠

ولكن العقاد تراجع عن رأيه هذا بعد ثلاثين سنة ، وقرر ان انتظام القافية متعة موسيقية تخف لها الآذان، وانقطاع القافية بين بيت وبيت شذوذ يحيد بالسمع عن طريقه الذى اطرد عليه ، ودعا إلى حل وسط يسمح بتنويع القافية في القصيدة دون أن يلغيها (٣) ٠

تلك هي أهم معالم الحداثة في حركة الديوانيين ، وقد عزا النقاد هذه المعالم إلى القيم الرومانسية الغربية ، والانجليزية بالذات ـ التى أثرت في الديوانيين ، فيرى الدكتور محمد مندور (أن المنهج الشعري الذى اختارته هذه المدرسة ودعت إليه هو نفس المنهج الذى صدر عنه جامع « الكنز الذهبي » في اختيار ما اختار من الشعر الغنائى الانكليزى) (٤) ٠ ويذهب الدكتور محمود الربيعي إلى أنهم نقلوا المبادىء التى دعوا إليها بدقة عن النقد الانكليزى في حين قام دارس آخر بالبحث عن مصادر آراء العقاد في كتابات الشعراء والنقاد الرومانسيين في أوربا وأمريكا وعقد مقارنات طريفة وقيمة تؤكد هذا النقل (٥) ٠

---

(١) الديوان ١ : ٢٠ ٠

(٢) مطالعات في الكتب والحياة ٢٨٠ القاهرة ١٩٢٤ ٠

(٣) انظر فصول من النقد عند العقاد ٣٠٦ ٠

(٤) الشعر المصرى بعد شوقي ١ : ٥٤ مكتبة الانجلو بلا تاريخ ٠

(٥) انظر : محمد عبد الهادي محمود : مقدمة لدراسة العقاد ٠ القاهرة ١٩٧٥ ٠ والكتاب بأكمله يبحث في مصادر آراء العقاد في الكتابات الرومانسية الانكليزية ٠

ولم ينكر الديوانيون تأثرهم بالرومانسيين الغربيين شعراءً ونقاداً ـ بل أعلنوا على الأشهاد أنهم تأثروا بهم واستفادوا منهم وأخذوا أفضل ما عندهم دون أن يحصروا أنفسهم في آثارهم ، وقد مر بنا قبل قليل تصريح العقاد عن تأثره وزميليه بالشعر الانجليزى وغيره ، ولكنه دفع بقوة شبهة التقليد وقرر أنهم كانوا في موقع الاختيار لا التبعية ·

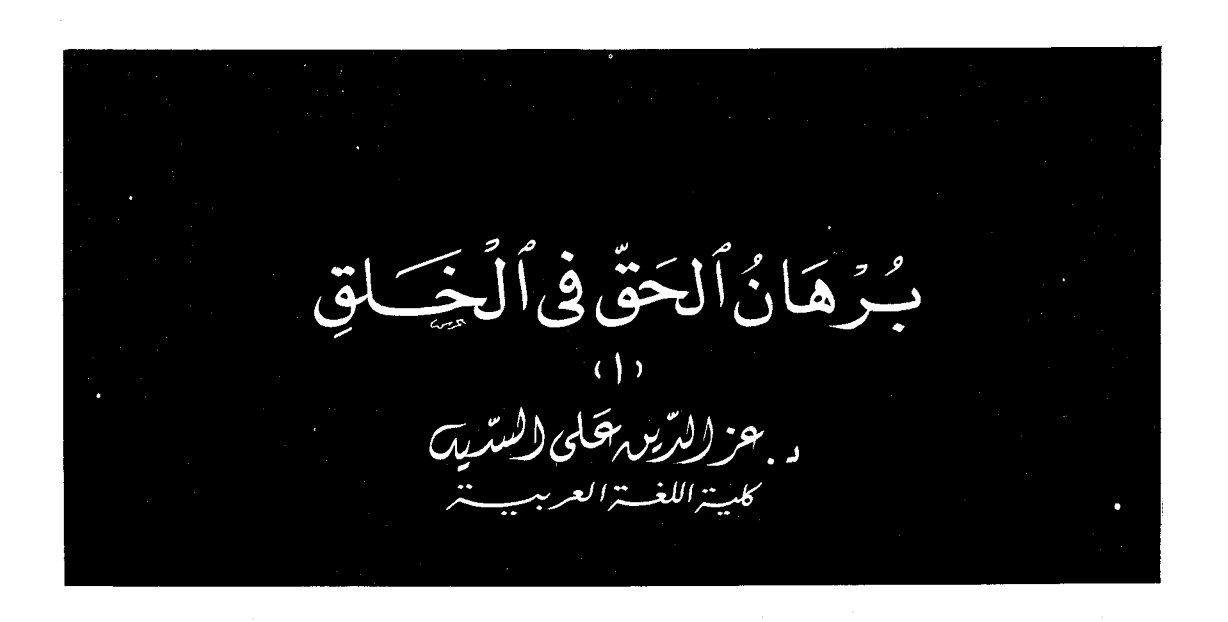
ولا شك أن الديوانيين جاؤوا الشعر العربي بعدد من القيم الفنية الأصيلة ، استمدوا معظمها من الشعر والنقد الغربى بعامة ، والانكليزى بل والرومانسي الانكليزى بخاصة ، وأفادوه في عدة جوانب ، منها إعادته إلى التعبير عن الوجدان الفردي في إخلاص وصدق ، وقد عاش الشعر العربي من قبل فترات على هذه الشاكلة ، في شعر بعض الشعراء الجاهليين وفي قصائد الغزليين والصوفيين وعدد من الشعراء أصحاب الاتجاهات الفردية كابن الرومي وأبي العلاء وأبي فراس والمتنبى في غير مدائحه ، ولا يكاد عصر من العصور يخلو من هذا الشعر · لذلك فإن دعوة الديوانيين إلى هذا اللون من الشعر ليست جديدة على الشعر العربي في تاريخه الطويل ، ولكنها ليست دعوة نابعة من صور الشعر الوجدانى في تاريخ الشعر العربي ··· ولا يمكن إلا أن تكون متأثرة إلى حد كبير بالاتجاه الرومانسي الغربي ، كما أنها تحمل عناصر مغايرة لما كان سائداً في شعر المحافظين ····

ولعلنا بهذا التفسير نجد إجابة مقنعة للتساؤل الذي يثور في ذهن من يقرأ آثار الديوانيين : لماذا تفوقت دعوتهم النظرية على تطبيقهم العملى ؟ ·

ولا يخفى على القارىء أن شعر الديوانيين ـ ولاسيما العقاد ثم المازني ـ لا يحقق أحياناً المبادىء التى دعوا إليها ولا يخلو من المعانى والموضوعات والمشكلات التي هاجموها بشدة · والطريف أن العقاد نفسه وقع مرة في الفخ الذى أوقع فيه أمير الشعراء أحمد شوقى من قبل ، وأن الدكتور محمد مندور كال له بالمكيال نفسه الذي استخدمه في نقد شوقي ، فأخذه بجريرة تفكك القصيدة وضياع وحدتها العضوية ·

ولعل عبد الرحمن شكرى أكثر زملائه تطبيقا للمبادىء الجديدة ·

لقد سعى الديوانيون إلى تحديث الشعر العربي بالدعوة إلى التعبير عن الوجدان الفردي بقوة ، وبالسعى إلى تأصيل مفهوم جديد للشعر العربي متأثر بالمفهوم الرومانسي الغربي ، وبتطوير عدد من الأدوات الشعرية تطويراً محدوداً ، وبإثارة مناقشات نقدية مثمرة في وقت لم يكن فيه الشعراء والنقاد الآخرون يهتمون بشىء من هذا القبيل ·



« قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغنى الآيات
والنذر عن قوم لا يؤمنون . » قرآن كريم

شهدْتُ أنك يا الله ديانُ ... والعجزُ عن كنْهِ ما أبدعْتَ برهانُ
خليفةَ الله ياإنسان ، هل نظَرتْ ... عيناك للْكَوْن لم يصْرفْك شيطانُ ؟
انظر إلى الكون بالعينين ملْؤُهما ... صُنْعُ الحكيم ولا يغررْك بهتانُ
في كل شيء تجلّى صوْتُ مبْدِعِهِ ... له على العقل بالإحكام سلطانُ
ما سدَّ عنه لسوء الجد مسْمعهم ... إلا عكوف على الأهواء مُجَّانُ
فناج بالفكر في الأكوان مبدعَها ... فإنها لأولى الألباب قرآنُ
تلك السمواتُ سقْف فوق أرؤسنا ... يحيط بالأرض لم تحمله أركان
فيه المجرَّاتُ والأفلاكُ .. تذْرعها ... فوق الرءوس لبذل الخير أعوان
فاسأل بها البدْرَ في وُسّطى منازله ... بين الهلالين يسعى وهو سهرانُ
مازاد في طرَفٍ خلاه في طرفٍ ... كأنه في طباق العمر إنسانُ !
واسأل خُطَى الشمس في الأعوام واحدة ... كأنها من رشيق الشعر أوزانُ
لمستقر لها تجرى بلا ضجرٍ ... وما تناءتْ بها في الغيب شطآن
كالفلك في البحر رَهْوًا .. لا تعوّقها ... ريحٌ .. ولا يترك السكان رُبّانُ

أم رءوم .. بــضوء الــفــجر توقــظــنــا ... ليقنص الرزق في الأرجاء يقظان
فإن أحسَّتْ بما نلناه من لغَبٍ ... خلَّتْ عن الليل يأتى وهو جذلان
يُرْخى عــلــيــنا ســكوناً في ســتائره ... لــلــنــفــس مــن لذة الأحلام إحــسان
مَنْ كان يأتى بليل غير خالقها ... بــه لما انــهدَّ بالإجــهاد بــنــيان ؟
مَنْ كان يُبْدِى نهار الكون يعمرُهُ ... منا الكفاحُ ويصحو فيه وسنان ؟
بين الجديدين والشمس ارتقى سببٌ ... لــلــحــق .. والــفــهــمُ للأســباب عرفان !
واسأل بها الغرْسَ مِنْ زهر ومن ثمرٍ ... تُزْهَى به في الروابى الغُرِّ أفنانُ
أكان لولا السَّنَى والدفْءُ تحملهُ ... يهتز من حسنه الخلاب وجدان ؟
لله في الــشــمــس آياتٌ مــبــيــنــةٌ ... لا يجتليها كليلُ الطرْف كسلان
لــها الــبروجُ قــصورٌ عَــبْرَ رحــلــتــها ... بها الفصولُ لأهل الأرض وديان

لــكــل وادٍ رداءٌ مِــنْ خــصائــصــه ... فلا يُرَى الكونُ يوماً وهو عريان
بــيــنا تراه عروساً لــيــلَ جــلْوتــهــا ... لــهـا مــن الــحــسْــن هالاتٌ وندمان
وكلُّ ما حولها في عطرها أرجٌ ... وكلُّ ما مسَّها بالسحر هيمان !
إذا بــه أيِّــمٌ قد لــفــهــا شــجَــنٌ ... عنها تولى الصبا .. فالجسْم وهنانُ
إصْفَرَّ مــنــهــا المحــيا واخــتــفى وهَــجٌ ... لــلــحــســن عــشــاقــه عــن دربــه بانوا
هذا ربــيــعٌ على الأرجاء مــنــتــشرٌ ... ضافى الذيول .. نشيط الخطو فينان
وذا خريفٌ .. فما في الزهر باسمةٌ ... ولا على الغصن غنَّى الأذْنَ حُسّانُ
الروضُ ذاوٍ .. وأوراقُ المنى انتثرتْ ... مــبــعــثراتٍ ومؤْتي الــلــحــن جرْذانُ
والصيفُ فيه لمن شاء الهدى نُذُرٌ ... من اللهيب .. رماها وهو غضبان !
وفي الــشــتــاء على الآفاق تُــفْزعــنــا ... فوق الرءوس بــحــيرات وغدران
يزمــجر الرعدُ . يــحْدوها لمــنزلــهــا ... والــكونُ في بُرْده المــثــلوج لــهْــفانُ
لــعــل لــلــشــمــس دفئا في أشــعــتــهــا ... يفيضُ منه على كشحيه أردانُ !

... ...

شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن

للشيخ يوسف الهراني الشافعي
المدرس بالمعهد الثانوي

نور على الأفق إيذانا بمَقْدَمِه ... أهَـلَّ يـعـلـن عـن نور وعرفان

نور تلألأ آفاق الـسـماء لـه ... ويغمر الأرض من قاص ومن دان

وَتَعْكِسُ النورَ أنى سرت كوكبةٌ ... من القناديل زُهْرٌ ذاتُ ألوان

فالأرض تـشرق والأكوان قاطـبةً ... فقد أهل عليها شهر فرقان !

الـنور موعده والـنور مولده ... والـنور أُنْزل فـيـه آى قرآن

هَشَّت إليه نفوس الناس صادقةً ... مالـم تَـهَـشَّ لأهـل أو لأوطان

كأنها غربة طالت وقد وجدت ... بعد افتقاد حياة الفضل والشان

أيامُـه الـغُرُّ أعـيادٌ يُـضِيءُ لـها ... مثل القناديل بشرا كل إنسان

هذى القلوب تلاقت بهجةً ورضى ... كما تلاقت على جوع وحرمان

الصدقُ في السعيِ للرحمن جَمَّعَهم ... هم رُفْقَةٌ في جهاد خير إخوان

كم بين صومهم والصبر من رحـم ... فما يبالون من ضيق ونقصان

زال التحاسد والشحناء بينهمو ... فـلـم يـبـيـتوا على غـل وأضـغان

وأصـبـحوا بـقـلوب الودِّ عامرةً ... حل الصفاء وعاشوا أىَّ خلان

فـكـم تَـنَـافَرَ في الدنـيا أحِـبَّـتُـها ... لكنْ من التقيا في الله إلفان

الحق في كل قلب واحدٌ ولنا ... فيما لدى الله ما يغنى عن الفانى

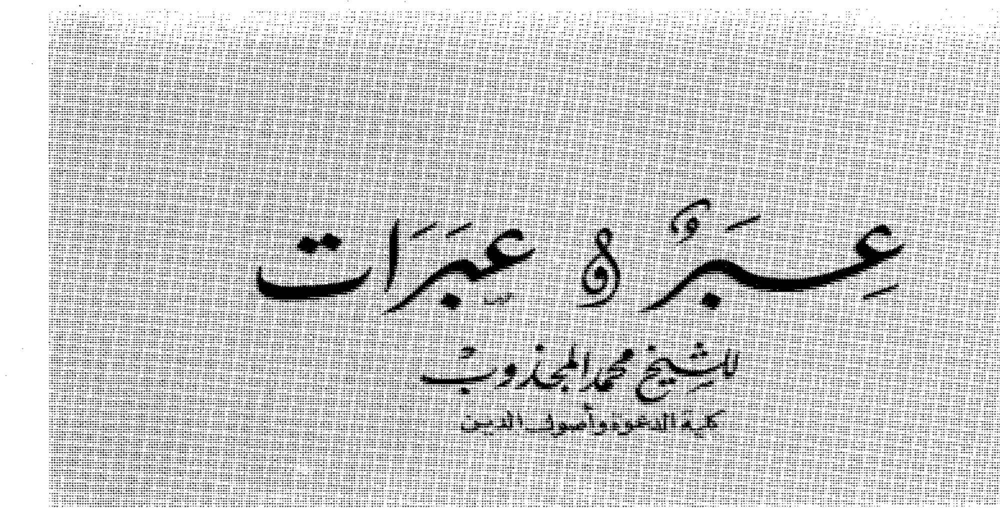
قد ألَّفَ الله ما بين القلوب به ... فلا ترى غـيـر إيـثار وإحـسـان

إذا انقضى في جهاد الصوم يومهمو ... فالـلـيـل لـيـل تراويـح وقرآن

وإن أهاب بهم داع وجدتهمو ... إلى الجهاد سراعا خير فرسان

حتى ترى القوم قد صاروا ملائكة ... فلا مـكان لِـلَـغْوِ أو لـبُـطلان

هذى هى الغاية الكبرى نُعَدُ لها ... ولـيـس مـن دونـها هـمٌّ لإنـسـان



ألا مَن لِقلبٍ واهنِ الخفقاتِ ... تلاشى سوى رَجْعٌ من النفثاتِ
عييتُ به حتى وددتُ فراقَه ... ومِن قبلُ قد أعيا ضناه أُساتي
وما فيه من سُقمٍ .. بلى إن داءَه ... صروف ملأنَ الأرضَ بالنكبات
طلاسمُ لا أدري لها من حقيقةٍ ... سوى أنها من مُعضلاتِ حياتي
يَضِلُّ أولو الألباب في حلكاتها ... ويَحسبُها الجهالُ في الهفوات
فمن لى بمعوان على أحْجياتها ... فقد فُلَّ عزمي دونَها وأناتي

*

أرى الناس مخدوعاً وراء مدلِّسٍ ... يَسير به عمداً الى الهلكات
وتُجّارَ أقلامٍ أباحوا وجوهَهم ... لكل دعيٍّ في الرجال وعاني
تعبدَهم وهم المنافع فارتموا ... سجوداً على الأعتاب والحضرات
فكم خائنٍ باع البلاد سَمَوا به ... الى الأوج فهو الفارج الكُربُات !
وكم ملحدٍ مسْتهتر العِرضِ قد غدا ... بسحرهم يُدْعى أبا البركات !
وكم سارقٍ قُوتَ المساكين صوَّروا ... على الطِّرسِ منه مبدعَ الحسنات !
أراقوا على أقدامه المَدح خشَّعاً ... كما عكف الغاوون حولَ « مَناة »
وكم « باقر » صدر الحنيفةِ باسمها ... أباح حمى الاسلام للشُبُهات
أخو عِمةٍ كالقبرِ أرخى سدولَها ... على جِيَفٍ من صدره نَتِنات
تَعَرَّى من الايمان والخُلق مؤثراً ... زيوف « معالٍ » في ظلالِ بغاة

يحوك الفتاوى للطواغيت مُهدِراً ... بـــهـــن دمَ الإخوانِ والأخوات ..
أضاليـل أملاها الـنـفاقُ وحـطَّـمـتْ ... بـقـية ما لِـلديـنِ مـن حُرمُات
وفي كل قُطرٍ من بلاديَ « باقر » ... شرى بكتابِ اللهِ بعض فُتات
فما ذنب « إلياسٍ » ومن لفَّ لفَّه ... بما اختلفوا من كاذب « النظرات »
وفي « الأنور » المرموقِ ، والشرقِ كلِّه ... معاول شـقـت هذه الـثُّـغُرات
ومَنْ لا يَصُنْ في زَحمةِ الغيِّ عِرضَه ... فويلٌ له من أذْؤُب الشهوات !
فواهاً على الاسلامِ تَهوي صروحُه ... بأيدي جـناةٍ مـن بـنـيـه عُـماة
ويا لـهـفةَ الدنـيا لديـنِ مـحـمدٍ ... وقد بات مـكـشوفاً لِـكـل أذاة
تَـخـطـفـتِ الأزراءُ أنـصارَهُ الأُلى ... أضاء بـهـم مُـحْـلَولـكَ الـظـلـمات
مَضَوافي شعابِ الأرض بينَ مشرَّدٍ ... تَـقاذفُـه الأقدارُ دونَ رَجاة
ومستشهَدٍ أودى به البغيُ شاكياً ... الى أعدلِ الـقاضـيـن شَرَّ قـضاة
ومحتجَزٍ في غيهبِ السجنِ شَوَّهتْ ... مـعالـمَـه الـمُـثلى يدُ الـمَـثُلات
تفنن جلادوه في العسف والأذى ... ولم يَحنِ رأسا أو يَفُهْ بِشَكاة
تراه على الأغلال شِلواً ممزَّعاً ... يُـخـيَّـلُ لـلرائـيـنَ بـعـض رفُات
بنفسي وجوهٌ أطفأ الجورُ بِشرَها ... وإن هي لم تَبرحْ وجوهَ هُداة
تـنازعَـها لـفـحُ الـعذابِ فأصبحـت ... ولـيـس بـهـا الا ذَماءُ حـياة
لئن سُلِبَتْ نورَ الحياة فلم تزل ... تـنـير سواد الـلـيـل بالـصـلوات
فيا عِبَرَ الأيامِ جُرتِ على النُّهى ... وفَـجَّرتِ مـن آماقـنا الـعـبراتِ
« بناتُ زيادٍ في القصورِ مصونةٌ ... وآلُ رسولِ اللهِ في الفلوات »
وفي زفراتِ القلبِ عذرٌ لِواجدٍ ... اذا هو لم يملك سوى الزفراتِ

*

*

فواجعُ لولا حرمةُ الحق لم تَذَر   بـنا أثراً مـن عِزةٍ وثـبات

رضينا بها زاداً الى الله يومَ لا   سبيلَ الى رُحماه بعد فوات

ويوم يعض الظالمون أكفهم   وقد وجدوا أعمالهم حسرات

ويوم يَوَدُّ المجرمون لَوَنّهم   على دَرْبِنا ضَرْبٌ من الحشرات

ترى قَتراتِ الذلِ فوق وجوهِهِمْ   وقد طُبِعتْ من عارها بِسمات

كوالحَ من هولِ القوارعِ خُشّعاً   نواظرُها تستقبلُ اللعنات

على حينَ ترنو هانئاتٍ وجوهُنا   الى ربِّها في مَشرقِ النفحات

ترفُّ من الفردوس في ظل نَضرةٍ   وتسبحُ في فيضٍ من الرحمات

وما انفكّ رضوانُ المهيمن غايةً   يخوضُ اليها المؤمنُ الغمرات

وهيهات يَثني عزمَنا الروعُ بعدما   جرت لذةُ التوحيدِ في اللَّهَوات

*

ليَغْلُ طغاةُ الارضِ في الكيد ما غَلَوا   فلابد دونَ الحقِ من عقبات

ولا ضير أن يُغروا بنا كلَّ فاجرٍ   فَيَمْطُرَنا سيلًا من الوَصَمات

تمرَّسَ في شتم الكرام فما يَني   يُسَوِّدُ في تجريحِنا الصفحات

ونَعْذُرُه أنْ لم يجدْ غيرَ سبِّنا   سبيلًا لما يرجو من الصفقات

وفي الأفكِ أسرارٌ، وفيها فضائح   تلوح مخازيها على الكلمات

صبرنا على لذع الحراب نفوسَنا   فليس بمؤذينا نباحُ غُواة

وأهونُ ما يلقى الكريم من الأذى   سفاهةُ مأجورٍ ولَغْوُ شَمات

وما نحن إلا عصبةُ الرسلِ حُمِّلَتْ   كواهلُنا مستثقلَ التَّبِعات

تخيرنَا الباري لبثِّ هدايةٍ   وبعثِ إخاء، وافتكاكِ عُناة

فَمَن لِبناءِ الحقِ يرفع سَمْكَه   إذا لم نكن في أُسِّهِ لَبِنات!

ومَن يَلفتُ الدنيا الى نورِ ربِّها   اذا لم نكن في ليلِها جَمرات!

ومن يقفُ آثار النبيين لم يَسَلْ   على الشوكِ يمشي أم على الشفرات

ولن تستقرَّ الأرضُ يوماً بمؤمنٍ   وفوق ثراها موطىءٌ لـــطـــغاة

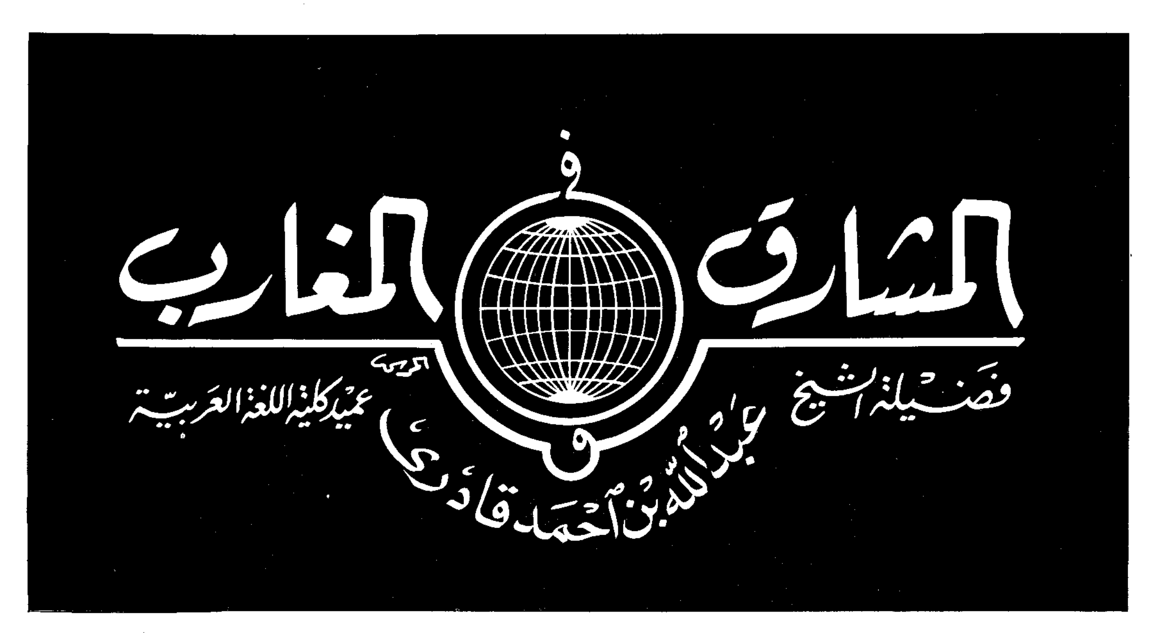
*

لنستسهلنَّ الصعبَ حتى نردَّها   الى كَنَفِ الرحمنِ بعد شَتات
ونبعثُها في مَعْقلِ الظلم ثورةً   تسد عليه وجهَ كلِّ نجاةِ
وقد يتأبى النصرُ حيناً على المُنى   ولكنه رغم التأخر آتي
ومهما يطل ضغطُ الظلام فخلفَه   بوارقُ فجرٍ مشرقِ القسمات
ومَن يعتصمْ بالله لم يُغضِ جفنُه   على الذل أو يُلقِ القيادَ لعاتي

ياخليليَّ .. خليّاني واشجا   ني أناجي أطيافهنَّ وحيدا
قد عصتْني الدموعُ لكن قلبي   في جحيم الأسى يذوب وئيدا
وجراح الإسلام من كل صوب   قاتلاتي وإن بدوتُ جليدا

"أبوغسان"


تحولات عالمية



*** مقابـــلة صحفيـــة :**

وكان في انتظارنا أحد الصحفيين الباكستانيين لاجراء مقابلة معنا حول رحلتنا في بريطانيا وأمريكا واليابان وهنغ كنغ ، وذكر الأخ خليل الحامدى ، أن عددا من الصحفيين تسابقوا للقائنا ولكن صاحب هذه الصحيفة (وأظن أن اسمها : الحياة) هو الذى أعطى حق المقابلة من قبل الجماعة ، والظاهر أن ذلك بسبب التزام الجريدة بالخط الاسلامي أكثر من غيرها ٠

كانت الأسئلة تدور حول أمرين : الأمر الأول ـ عن انطباعاتنا بالنسبة للمسلمين في الدول التى زرناها ، والأمر الثانى ـ حول ما تقوم به كلية اللغة العربية في الجامعة الاسلامية في الأدب العربى ، وأدب الدعوة الاسلامية ، وموقفها من الاتجاهات الأدبية المعاصرة ٠

ثم واصلنا الحديث مع الأخ خليل الحامدى فذكر أنه لا بد من التعاون بين الجامعة الاسلامية في المدينة المنورة والجماعة الاسلامية في باكستان ، وضرب لذلك مثالا : قال : لقد كان للجماعة الاسلامية مدارس منتشرة في كل أنحاء باكستان ، ولكن الحكومات المعادية لحركة الجماعة أممت تلك المدارس والآن يوجد للجماعة طلاب في كل المناطق وفي كل المراحل والجماعة تود لو أن الجامعة الاسلامية تنشىء لها فرعا تحت اسم كلية العلوم الاسلامية أو الدراسات الاسلامية التى ربما تتطور الى جامعة في المستقبل حتى تضم طلبة الجماعة المؤهلين ٠

وذكر مجالا آخر هو تخصيص منح دراسية في الجامعة الاسلامية في كل كلية من كليات الجامعة حتى يكون عند الجماعة علماء ـ متخصصون في فروع الشريعة الاسلامية المختلفة .

كما أنه يمكن أن تبعث الجامعة عددا من طلبتها للقيام بالدعوة في الباكستان ليتدربوا على الدعوة وأساليبها ، ويمكن أن يستفيدوا من تجارب الجماعة في ذلك .

وقد سبقت الى ذلك جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية حيث بعثت أربعين طالبا من طلابها فاقاموا في مدينة المنصورة ، ووضعت لهم برامج كان فيها فائدة لمدة أسبوعين ، كما أن جامعة الرياض قد حذت حذو جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية .

*** جولة في مدينة لاهور :**

وبعد صلاة العصر من يوم الخميس قمنا بجولة في مدينة لاهور وفي طريقنا رأينا حالة البؤس ، وعلامة الفقر المدقع ، ورأينا حالة وسائل النقل السيئة ، اذ يتراكم الناس في عربة خشبية تجرها الخيل أو الحمير يختلط فيها الرجال والنساء .

كان يرافقنا في هذه الجولة الأخ فيض الرحمن الذى لم يفارقنا مدة بقائنا في لاهور الا في أوقات الراحة أو النوم ، وهناك أرانا المكان الذى اعتدى فيه على المودودى وهو يخطب في جماهير المسلمين في أول قيامه بالدعوة في باكستان ، حيث أطلق عليه الرصاص ، وقد طلب منه أن يجلس خشية تكرر ذلك فرفض وبقى واقفا ، وقال لهم : اذا لم أثبت أنا فكيف تثبتون أنتم ؟

كما أن أعداء الدعوة قطعوا التيار الكهربائى فكان يقول الاستاذ المودودى الجملة فينقلها القريب منه الى من يليه ، ثم يبلغها هذا الى الآخرين حتى انتهى من خطابه .

*** شاهي مسجد الذى يرقد بجانبه محمد اقبال :**

ثم ذهبنا الى قصور بعض الحكام السابقين ، وهى أثرية ، ذات بناء قوى ، لازالت أسوارها قائمة ، وكان وقت السماح بدخولها قد انتهى فذهبنا لمسجد قريب منها يقع بقربه قبر الشاعر المسلم محمد اقبال الذى يقف في كل ركن من أركان ساحته جندى مسلح ، وعندما سألنا فيض الرحمن عن السبب قال : لم يكن هذا موجودا من قبل والظاهر أن الجنرال ضياء الحق أراد منع الناس من التبرك به ، لانهم كانوا يأتون الى قبره ويتبركون به ويسمى الجامع

الذى بجانبه : شاهي مسجد ، ويقدر أساس المسجد بأربعة عشر قدما وله منارة عالية تشرف على مدينة لاهور كلها ، فقال الأخ فيض الرحمن : هل تريدون أن نصعد الى أعلى هذه المنارة والناس يصعدون فعلا - فقلت له : نحن في هذه الليلة سوف لانرتاح لانا سنسافر الى كراتشى ، ثم نبقى في المطار الى أن نسافر الى المملكة في الصباح ، فاذا صعدنا فان ذلك سيزيدنا ارهاقا فألح علينا ، فوافقت ، وأخذنا نصعد وكان فيض الرحمن أمامي وأردت أن أكافئه على الحاحه بإتعابه فكنت أقول له : أصعد ، كلما أراد أن يقف وهكذا صعدنا الى أعلى المنارة دون أن نقف ، وعندما وصلنا هناك كان الأمر بالعكس ففيض الرحمن تعب ولكنه لم يصب بما أصبت به أنا فقد أصبت بدوار شديد وهبوط في الجسم وتصبب العرق حتى كنت أظن اننى ساطلب الاسعاف في ذلك الوقت قلت لقد أدبنى ربى فأحسن تأديبى ، أردت أن أوقع صاحبى في شيء وقعت فيه أنا ، لذلك قعدت قليلا حتى عاد الىّ نفسى وارتحت ·

أما زميلى الدكتور فقد نفعته هنا أناته السودانية التى يحبها الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان كلما قطع مجموعة من الدرجات وقف على الشرفة المقابلة لها في المنارة يشم الهواء ويستجم ثم يصعد هكذا فوصل الى القمة دون أن يتعب · واذ ذاك تذكرت قول الرسول صلى الله عليه وسلم : إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ، ولكنها دروس لعلى أستفيد منها وعندما نزلنا عددنا الدرجات فكان عددها مائتين وعشر درجات ·

*** تقليـــــد أعمى :**

وفي الطريق رأينا جنود المرور يوقفون سائقى الدراجات النارية ويلزمونهم بدفع غرامة فظننت أن ذلك بسبب عدم حمل الرخصة أو الاستمارة ولكن رأينا أن من يلبس المغفر على رأسه لا يوقف فسألت الأخ فيض الرحمن · فقال : انهم يلزمون السائقين بوضع المغفر على رؤسهم ، وهو في الغرب كذلك - قلت : مع حالة الباكستانيين هذه وحاجتهم الى المال ينفقون على أنفسهم يلزمونهم بشراء المغفر البريطانى ؟ ثم قلت : الظاهر أن الشركة التى تصنع هذه المغافر لها يد في هذا الالزام فقال الزميل بيلو : لعل بعض ضباط المرور زار بعض البلدان الأوربية فرجع بالفكرة ، ولكن أخانا فيض الرحمن أراد أن يسلينا بقصة وقعت لبعض أعضاء الجماعة الاسلامية فقد أوقفه جندى المرور وطلب منه دفع الغرامة ، فقال له أتريد أن تأخذ منى مالا وأنا من الجماعة الاسلامية ؟ أن المال الذى تأخذه الجماعة أحق به فكيف تطيب نفسك بأخذه ؟ فتركه الجندى فذهب دون أن يدفع شيئا ·

عدنا بعد ذلك الى المنصورة لنأخذ حقائبنا اليدوية ونذهب الى مطار لاهور ، وهناك وجدنا الأخ خليل الحامدى الذى ودعنا هو وبعض أعضاء الجماعة ، ونحن ودعناهم وشكرناهم

على كرم الضيافة وشكوت فيض الرحمن الذى أتعبنى بصعود درج منارة المسجد الى الأخ خليل فابتسم وقال لعلك تعود وقد ركب في المنارة مصعد كهربائى فلا تتعب مرة أخرى ان شاء الله ٠

*** نبـذة عن الجماعة الاسلامية :**

وفي ختام الكلام عن الجماعة الاسلامية أحب أن أعطى القارىء بعض المعلومات عن الجماعة من الرسالة المنشورة باسم : الجماعة الاسلامية ٠

ـ تأسست الجماعة عام ١٩٤١ م ومرت بالمراحل الآتية : ـ

١ ـ مرحلة النقد والتبليغ ٠
٢ ـ مرحلة التربية والاعداد ٠
٣ ـ مرحلة الكفاح والنضال ٠
ولكل مرحلة وسائلها ومنهاجها وكتبها التى ألفها الاستاذ المودودى ٠

*** غايـة الجمـاعة :**

إن الغاية الوحيدة التى لأجلها قامت الجماعة الاسلامية انما هى اقامة النظام الاسلامي ابتغاء لوجه الله تعالى وحده ٠

*** الوسيـلة :**

ولتحقيق هذه الغاية اتخذت الجماعة برنامجا شاملا يتضمن أربعة أجزاء ٠

الجزء الأول : هو تطهير الأفكار وتعهدها بالغرس والتنمية ٠

الجزء الثانى : هو استخلاص الأفراد الصالحين وجمعهم في نظام واحد وتربيتهم ٠

الجزء الثالث : هو السعى في الاصلاح الاجتماعى ، وهو يشمل اصلاح كل طبقة في المجتمع حسب أحوالها ٠

الجزء الرابع : هو اصلاح الحكم والادارة ٠

ويكفى أن أنقل تفصيلا لهذا الجزء الأخير : قال :
(ذلك بأنه من عقيدتنا أنه لا يمكن أن ينجح تدبير من التدابير في اصلاح مفاسد الحياة الحاضرة مادامت لاتبذل المساعي لاصلاح نظام الحكم والادارة مع المساعى الاصلاحية

الأخرى على قوة الثقافة والقانون والادارة وتوزيع الرزق لا يمكن أن تجدى شيئا في درئه تلك المساعى التى تبذل للاصلاح والبناء بوسائل الوعظ والتلقين والدعوة والارشاد فقط ، فان كنا نريد اليوم أن نصرف نظام الحياة في بلادنا عن طريق الضلال والفساد والفسق والعصيان الى طريق الاسلام المستقيم فلا مندوحة لنا من أن نبذل سعينا بطريق مباشر في ازاحة الفساد عن منصة القيادة والسلطة واحلال الصلاح مكانه . والظاهر أنه اذا كان زمام الأمر والسلطة بأيدى الصالحين المؤمنين فانهم يحدثون في أعوام قلائل من التغييرات الهامة في نظم التعليم والقانون والادارة مالا يمكن أن تأتى به الجهود غير السياسية في مدة قرن كامل فان الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن .

أما كيف يتأتى هذا التغيير فليس له من سبيل في نظام ديمقراطى إلا السعى في الانتخابات وذلك أن نربى الرأى العام في البلاد وننشر الوعى السياسى الصحيح فيها ونغير مقياس الناس في انتخابهم لمثليهم في المجالس النيابية ونصلح طرق الانتخاب ونطهرها من اللصوصية والغش والتزوير ثم نسلم مقاليد الحكم والسلطة الى رجال صالحين يحبون ويقدرون أن ينهضوا بصرح نظام البلاد على أسس الاسلام وهدى الكتاب والسنة ....) اهـ .

شعب الجماعة التى يقومون بنشاطهم من خلالها :

ـ شعبة التنظيم والادارة ، للاشراف على فروع الجماعة وتنظيمها في باكستان كلها .

ـ شعبة بيت المال ، لتنظيم ميزانية الجماعة ، والاشراف على بيوت المال الفرعية في أنحاء البلاد ومحاسبتها .

ـ شعبة الخدمات الاجتماعية ، لجمع أموال الصدقات والتبرعات من الأغنياء ومساعدة الفقراء .

ـ شعبة النشر والاعلام ، لنشر أخبار الجماعة واعلاناتها في مختلف الصحف والمجلات في داخل البلاد وخارجها ، والاشراف على مجلات الجماعة وجرائدها .

ـ شعبة الشئون العمالية ، لتنظيم العمال والفلاحين والموظفين القليلى الدخل في مصالح الحكومة .... ومساعدتهم في مشاكلهم .

ـ شعبة التربية ، لتربية أعضاء الجماعة وأنصارها تربية علمية وعملية ، واعداد رجال صالحين للقيام بمهمة الدعوة الاسلامية حسب مقتضى العصر الحاضر .

ـ شعبة المدارس والمعاهد ومكافحة الأمية .

ـ دار الترجمة الانجليزية لنقل كتب الجماعة ، والمؤلفات الاسلامية الأخرى الى الانجليزية .

ـ دار الترجمة البنغالية لنقل كتب الجماعة الى اللغة البنغالية ...

ـ المجتمع الاسلامى ، الذى أنشىء تحت اشراف الاستاذ المودودى ـ لمجابهة تحدى الحضارة الغربية المادية ....

ـ شعبة الشئون البرلمانية ، للاتصال بنواب المجالس البرلمانية ـ والبرلمانات عامة ، ونواب الجماعة في هذه المجالس خاصة لاشعارهم بوجهة نظر الشريعة الاسلامية في كل تشريع يناقش في المجالس .

ـ شعبة الانتخابات (وللجماعة نظام خاص ومنهاج يختلف عن منهاج الأحزاب الأخرى) .

ـ قسم الاخوات المسلمات لنشر الدعوة في المحيط النسائى .

هذا وقد سمعت نقدا شديدا يوجهه بعض علماء الباكستان الى الأستاذ المودودى ، وسمعت نقدا منهم ومن غيرهم يوجه الى الجماعة نفسها والنقد لايسلم منه أحد ، لاسيما اذا كان من يوجه اليه النقد عاملا متحركا فان الانسان ليس بمعصوم ، قد يحصل منه الخطأ كما يحصل منه الصواب والذى يكون خطؤه أكثر من صوابه يعتبر ناجحا في عمله ، واذا كان مجتهدا فله أجران فيما أصاب وأجر فيما أخطأ .

وقد يسلم من النقد الشخص الخامل الذى لايعمل ولايدرى عنه الناس أين يقع ؟ وهذا ذكرنى ببعض طلبة الجامعة الاسلامية عندما كنت مسئولا عن شئون الطلاب وكنا نقوم برحلات يخدم فيها الطلبة أنفسهم بل ويتحملون هم نفقاتها ، فكان بعضهم نشيطا في العمل فانتُقد النشطون وفي مرحلة أخرى تواطأ هؤلاء النشطون ألا يعملوا فلم يوجه اليهم نقد وانما وجه الى غيرهم ممن قام بالعمل ، **والمثل يقول : وويل للشجى من الخلى .**

* من لاهور الى كراتشى :

أقلعت بنا الطائرة من مطار لاهور في الساعة الحادية عشرة وخمس عشرة دقيقة من مساء يوم الخميس الموافق ١٣٩٨/٨/٢٩ هـ .

وهبطت في مطار كراتشى في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخمسين ، وفور نزولنا وجدنا الأخ خليق أحمد ومعه صديق له ينتظراننا ومعهما حقائبنا التى كنا تركناها عند الأخ خليق عندما سافرنا الى لاهور ، فشكرناهما على ذلك ، وكنا نفكر فيما نفعل : أنذهب الى أحد الفنادق لننام الى الوقت المقرر في حضوره في آخر الليل أم نبقى في المطار الى الصباح ؟

وكان الأخ خليق يفضل الأولى · أما زميلى الدكتور فانه فضل الثانية ، وعلل ذلك بأن الوقت ضيق وأعصابنا مشدودة للسفر فأما أن نبقى في الفندق بدون نوم ، أو ننام ويخشى أن تفوتنا الرحلة ونحن متعبون ، فوافقت الزميل حتى لانختلف ، وللقناعة بتعليله وطلبنا من الأخ خليق أن يعود الى بيته لينام ، لأنه مقيم ونحن مسافرون ففعل بعد تردد لأنه يريد أن يبقى معنا الى أن نغادر المطار ·

ويسر الله لنا مقعدين فارغين في لحظة من اللحظات ، وهذه اللحظة أندر من الكبريت الأحمر ، لقلة المقاعد وكثرة من يريد القعود ·

وجاء الزميل بعربة نقل الاثاث ، فرصصنا حقائبنا عليها ، وقربناها منا وقعدنا متلذذين بالقعود ، لأن الناس واقفون ، ومنهم القاعد في الأرض بل ومنهم النائم ·

وكان بعض النائمين على المقاعد المجاورة لنا ينام فيشخر حتى يكاد يقفز فيقع رأسه علّى ثم يقوم قليلا ثم يعود ، وكان زميلى يقوم ليستفسر عن وقت وزن العفش والاجراءات اللازمة ثم يعود ·

*** الكرتون أم الحقائب :**

ورأيت أربعة من الشباب يقف كل منهم وراء الآخر والخامس ، جلس بجانبى وأخذ يكلمنى بلغته ، وكنت قد سمعت من الهنود والباكستانيين كلمة نفعتنى مع هذا الشاب ، قلت له : معلوم نى ، أى لاأفهم ماتقول ، ولكنه كان مصمما على مخاطبتى ، وكانه عين للجلوس معى لكونه يتكلف النطق ببعض الكلمات العربية يلهينى بها وجماعته يفعلون ما يريدون فقال : أنا شوية كلام عربى : قلت له كيف تعلمت ذلك ؟ وأنا أنظر الى زملائه وهم يقتربون الواحد تلو الآخر ، فاذا رأونى التفت نحوهم وقفوا ·

قال : أنا في الرياض كنت هناك ·

قلت : ماذا تعمل ؟ قال : كنت بقالة هناك أحمل كرتون ثم سكت عنه ولم أتكلم معه ، ولم ألتفت اليه ، لأنى خشيت أن يحمل زملاؤه حقائب بدل الكرتون !

وعندما يئسوا منى قام هو اليهم وأخذوا يتهامسون وهم منصرفون عنى ، وجاء الزميل وأخبرته بالأمر ، وكان هناك أيضا غير هؤلاء يحاول الاقتراب بحجة أنه يريد العربة ولكنى صرفته بقوة ·

وهكذا بتنا في مطار كراتشى الى الساعة الخامسة والنصف صباحا وبدأ الناس يتحركون لاجراء اللازم من وزن العفش وختم الجوازات فدخلنا الى القاعة التى فيها اجراء تلك

المعاملات ، ووزن العفش ولأول مرة في رحلتنا يوزن العفش ، لأن الشركات الأخرى تقرر للراكب ثلاث حقائب ، فاذا زادت عن الثلاث بعد ذلك تزن عفشه · وقال الموظف لزميلى زاد عن الوزن المقرر خمسة كيلو فقال الزميل مشيها فمشاها ، وكانت مخالفة للنظام ولكنها مشت !

*** موظف ثقيـــــــل :**

وبدا طابور المسافرين يتزاحم كل واحد يريد أن يسبق من قبله والعدد كبير ، والاجراءات يقوم بها اثنان فقط ، وكان أحدهما ثقيلا في اجراءاته فوضيا في تنظيمه ، فكان من مدّ له جوازه أخذه ويتأمل الجواز ثم البطاقة المرفقة سطرا سطرا واذا ختم الجواز سمعت صوت الختم كانه مطرقة نجار يدق بها وتدا ، فتزاحم الناس عنده ، وكان زميلى في الصف المتجه اليه ، فنصحته أن يخرج من هذا الصف القصير الذى سيكون أقصر منه الصف الطويل الآخر ، فخرج الزميل ودخل في الصف الآخر وكان فعلا هذا الصف أسرع من ذاك على رغم طوله ·

يوم الجمعة ٣٠ / ٨ وبعد انتهاء الاجراءات دخلنا الى قاعة الانتظار وهناك صلينا الفجر ، وفي الساعة السابعة والدقيقة الثلاثين أقلعت بنا الطائرة من مطار كراتشى الى مطار الظهران فوق المحيط الهندى ثم الخليج العربى وكانت مدة الطيران ساعتين ·

*** في مطار الظهران :**

ونزلنا في مطار الظهران ، ودخلنا الى قاعة الاجراءات ، وكنت متعبا أكاد أسقط من شدة التعب والاعياء ، وتزاحم الناس فلم نزاحمهم فكنا في آخر الناس ، وعند الدخول كان مندوب الصحة واقفا يفتش البطاقات الصحية ، وكانت بطاقتى معى ، وبطاقة زميلى نسيها في حقيبته التى حملت في الطائرة · وكان قبلى ، قال له المندوب : أين البطاقة ؟ فأجابه : نسيتها في الحقيبة التى في الطائرة ، فقال له ادخل فدخل ، أما أنا فكانت بطاقتى واضحة مع الجواز ولكنه نظر الى فوجدنى انفخ من شدة التعب فقال : كانك مريض ، قلت : متعب ولست مريضا خشيت أن يؤخرنى للكشف على اشتباها في حالتى ·

واختلط الناس وصار المتأخر يتقدم والمتقدم يتأخر والموظف واحد فقط فجلست أنا وزميلى ننتظر انتهاء الناس ، ولكن بعد فترة جاء ركاب رحلة أخرى واختلطوا بركابنا حتى لم يجد الواقف مكانا لرجليه في الأرض الا أن يدوس على أقدام غيره ويدوس غيره على أقدامه ·

وهنا وثب زميلى وأخذ جوازى وجوازه وأراد أن يفعل مايفعل الناس والا فسوف تقلع الطائرة قبل أن ننتهى ، وفعلا كان بعض أمواج الناس تقدمه وبعضها تؤخره حتى يسر الله له الأمر فانطلقنا الى الطائرة التى لم تقلع الا بعد ساعتين من هبوطها ٠

ان النظام في الغرب يجبر صاحب الفوضى أن يحترمه ، والفوضى في بلاد الشرق تجبر المتمسك بالنظام أن يتلبس بالفوضى اضطرارا كأكل الميتة ومن أولى بالنظام المسلم الذى نظم له الاسلام كل حياته أم الكافر الذى كفره كله فوضى ؟

وفي تمام الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة ، نزلنا في مطار جدة ودخلنا في قاعة الجمرك فانتظرنا أثاثنا الذى تأخر ما يقارب ساعتين أو أكثر واتصلنا بالخطوط السعودية إن كان قد تم الحجز لنا عن طريق مكتب السعودية في كراتشي الذى وعدنا موظفوه بالحجز على الرحلة ٩١٢ التى غير موعدها في جدة الى ٩١٤ فلم نجد أسماءنا عندهم ٠ واتصلنا ببعض اخواننا في جدة فجاء الينا ونقلنا الى بيته لنستريح قليلا ، ثم ذهبنا الى المطار ويسر الله لنا السفر وقد كدنا نيأس ٠

وكان موعد اقلاع الطائرة الساعة الثالثة والنصف مساء ولكنه غير كما غير رقمها فأقلعت في الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والأربعين ٠

وكان هبوطها في الساعة السادسة والدقيقة العشرين ، وكانت آخر محطة لسفرنا ، كما كانت أول محطة لسفرنا قبل أربعين يوما والحمـــد لله رب العالمين ٠

* نتـــــــائج الرحـــــلة :

لقد استغرقت رحلتنا أربعين يوما زرنا خلالها لندن ونيويورك وانديانا وديترويت وشيكاغو وطوكيو وهنغ كنغ وكراتشى ولاهور وخرجنا بالنتائج الآتية : ـ

١ ـ عامة العالم الغربى لا يعرف عن الاسلام شيئا ، اللهم الا تشويهه من قبل أعدائه من اليهود وأتباعهم من أهل المذاهب الهدامة وسوء سلوك المنتسبين اليه الذين يرى فيهم أهل الغرب أحط الأخلاق ويفسرون الاسلام بسلوكهم وذلك دون شك ينفر الناس منه ٠

٢ ـ المسلمون في الغرب أصناف : صنف يفهم الاسلام فهما جيدا ويحاول تطبيقه في نفسه والدعوة اليه ولكنهم قليلو الامكانات وهؤلاء يجب دعمهم بكل ما هو متاح من مال ومرشدين وأساتذة ومدارس ومساجد وكتب وغير ذلك ٠

صنف متحمس للاسلام ويود تطبيقه بكل ما أوتى من قوة ولكنه يجهل الاسلام جهلا فاحشا ويطبقه تطبيقا مبنيا على هذا الجهل ، وهذا الصنف يجب أن يمد بالدعاة العلماء الحكماء والكتاب السليم والمنح الدراسية ·

صنف يظهر تحمسا للإسلام والدعوة اليه في نطاق خاص من البشر ويظهر قبول تصحيح مفاهيمه ولكنه لازالت أفكاره الخاطئة تنشر في كتب ومجلات ولهم اتصال ببعض أعداء الاسلام كاليهود والقاديانية وهذا الصنف كسابقه ينبغى أن يمد بالدعاة والمنح الدراسية والكتاب ·

صنف واضح الخطورة وهم الذين ينضمون الى الماسونية أو غيرها من الأحزاب الهدامة وهذا الصنف الأخير يجب التحذير منه وعدم مد يد العون له مطلقا ·

٣ ـ جامعات الغرب مفتوحة للنشاط الاسلامي وكثير منها بها أقسام عربية وأديان مقارنة بما فيها الدين الاسلامي وفيها من الحرية ما يسمح بالنقاش والمناظرة حتى من قبل الطلبة المسلمين فلو كان طلبتها على مستوى جيد من الثقافة الاسلامية لكان لهم تأثير عظيم في شباب الجامعات الغربية بل في أساتذتها الذين يعطون الطالب الحرية الكاملة في النقاش والأخذ والرد ولكن المؤسف أن أغلب الطلبة على العكس من ذلك يقبلون ما يقال عن دينهم من تشويه لعدم ثبات عقيدتهم وقلة ثقافتهم الاسلامية ان لم يكن انعدامها وبعض الجامعات يود لو كان بها أساتذة مسلمون حقا في الشريعة الاسلامية يبثون حقائق الدين الاسلامى بأساليب علمية وان كان في نفس تلك الجامعات من لا يرضى بذلك ولا يطيقه ·

وقد أخبرنا بعض أعضاء المركز الاسلامي في طوكيو أنه قد تمت الموافقة في جامعة تشوا على انشاء كرسى للدراسات الاسلامية وأنهم طلبوا ـ لعله من الرابطة ومن بعض الجامعات العربية ـ أساتذة مسلمين ينتدبون لتدريس أساتذة الجامعة المذكورة الشريعة الاسلامية في السنة الأولى وفي السنة الثانية يشترك الأساتذة المسلمون واليابانيون في تدريس الطلبة وفي السنة الثالثة يفتح قسم لتدريس الشريعة الاسلامية · والجامعة المذكورة مختصة بتدريس القانون المقارن وأهلها راغبون في دراسة الشريعة الاسلامية فأين المؤسسات الاسلامية التى تغزو هذه الجامعة وأمثالها ؟

٤ ـ أحسن عمل نافع للدعوة الاسلامية : هى المنح الدراسية وفتح المدارس والكليات في العالم على أن تكون مدارس عملية يلحق بها مسجد وقاعة محاضرات وقسم داخلى ومستوصف صغير ، وهذا ما تفعله الكنائس في العالم ولا نجاح لها الا بذلك أما الكنائس التى تخصص

للعبادة فقط بدون خدمات فانها أخفقت والناس يريدون عملا قبل الكلام والمدارس أثبت وأنجح من مرشدين يمرون كسحابة صيف تنقشع بسرعة وان كان هذا أمرا لا بد منه لاقامة الحجة ٠

وفتح المدارس في العالم ليس متعذرا فبعض الدول فيها من الحرية ما يسمح بذلك مثل أمريكا ومنها ما يمكن فيه مساعدة الأهالى المسلمين وهم الذين يفتحون المدارس ويعانون بالمال والمدرس والكتاب ٠

٥ ـ نرى أن من أنفع الأمور للدعوة ونشرها أن يكون للجامعة ادارة مختصة بترجمة الكتب القديمة والحديثة باللغات المختلفة لنشرها في البلدان الأجنبية ٠

وفي امكان الجامعة أن تختار من طلبتها المتخرجين من يجيدون تلك اللغات مثل الانجليزية والفرنسية والسواحلية والأردية واليابانية والتركية والصينية واذا لم يوجد بعض الطلبة في بعض اللغات فيمكن التماس من يجيدون ذلك من خارج الجامعة فكتاب صحيح البخارى المترجم نفع نفعا عظيما في الغرب والناس يطلبونه بالحاح ويشترونه بأموالهم ٠ وبالمناسبة فان أحد الباكستانيين طبع الكتاب المذكور بأذن من مترجمه وحقوق الطبع أصبحت له والناس يشكون منه بأنه استغله استغلالا فاحشا فيجب تنبيه المترجم كما أن الناس في الغرب يعتمدون على أى كتاب تقع عليه أيديهم يترجم معانى القرآن الكريم وأكثر الترجمات غير سليمة لذلك نوصى بطبع كميات ضخمة من ترجمة الدكتور محمد محسن خان لتوزيعها في العالم ٠

٦ ـ لقد لمسنا نفع المتخرجين من الجامعة الاسلامية اينما حللنا لما يتمتعون به من فهم مباشر لكتاب الله وسنة رسوله عن طريق اللغة الأصلية لهما ولكونهم أحسن سلوكا من غيرهم في الغالب ولكن وجدنا أنهم في حاجة ماسة الى التدريب العملى على أساليب الدعوة وعلى الانفتاح على الثقافات العالمية والشبهات التى تثار سواء كانت في العقيدة أم في العبادة أم في الشريعة وقد سبق أن قدمت بعض الاقتراحات لمجلس شئون الدعوة وصورة لفضيلة نائب رئيس الجامعة تتضمن ما قد يساعد في هذا الباب ٠

فان طلبة الجامعة يبقون عندنا على الأقل أربع سنوات وتنفق على تعليمهم الأموال الطائلة فيجب أن نكمل المشوار بتدريبهم عمليا على الدعوة وإن حرص الجامعة على السلوك الحسن لطالب الجامعة من أعظم ما يميز طالب الجامعة عن غيرها ولكن يجب أن يكون ذلك عن طريق الاقناع والتربية العملية أولا ومن لم ينفع معه الاقناع والتربية فليجبر على

السلوك الحسن تنفيذا لقاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر · ولقد رأينا فرقا واضحا بين النوعين في بلاد المغربيات ·

ولقد لمسنا ضرورة عقد مؤتمر لخريجى الجامعة الذين انتشروا في أنحاء الدنيا وأصبح كثير منهم لاتعلم عنهم الجامعة شيئا فإن ذلك من أنجح وسائل التوجيه المستمر للدعاة الى الله لذلك نرى متابعة طلب الموافقة على عقد هذا المؤتمر ·

المتخرجون الذين يعملون مع الرابطة أو ادارة الدعوة لاتكفيهم رواتبهم في الغرب لأن الراتب ثمانمائة دولار تقريبا والأسعار هناك مرتفعة جدا وأجور المنازل كذلك وما من أحد منهم وجدناه الا وهو يشكو من الدين وقلة ذات اليد والمفروض أن الداعية يزود بما يكفيه فانفاق المال على الدعاة الى الله وكفايتهم أمر لا بد منه ولا يليق بالمسلمين أن يسبقهم الى البذل أعداء الاسلام ـ كالمسيحيين وأشباههم لذلك نرى ضرورة تنبيه الجهات المختصة الى ذلك ·

٧ ـ العالم الغربى لا يعرف عن العالم الاسلامى ومنه العالم العربى ومشاكله الا ما ينشره أعداء الاسلام في الغرب ، لأن أجهزة الاعلام كلها في أيدى شركات وأغلب الشركات يسيطر عليها اليهود · ومن السهل على المسلمين أن تكون لهم هناك أجهزة أعلام : محطات اذاعية قنوات تليفزيونية جرائد ومجلات تبين فيها للغربيين محاسن الاسلام وترد على خصومه وتشرح كذلك للناس مشاكل المسلمين السياسية والاجتماعية فان شركات صغيرة لها ذلك في الغرب بل أفراد فكيف بمؤسسات اسلامية ودول · ألا ليت قومى يعلمون فيعملون ·

ويمكن أن تساعد الجمعيات والاتحادات الاسلامية الصالحة لتقوم بالمهمة هناك ·

واذا كان الاسلام دين البشرية كلها ولها حق على المسلمين أن يبلغوها ذلك الدين وطرق التبليغ ميسرة والامكانات المادية موجودة والمتعاونون من المسلمين في تلك البلاد موجودون ويمكن أن يتعاقد مع الصالحين من المسلمين من جميع البلدان الاسلامية باللغات المختلفة للقيام بنشر الدعوة عن طريق أجهزة الاعلام والمدارس فهل بقى عذر للمسلمين القادرين ؟ ·

ولقد تجسمت لى عاطفة الاستاذ الندوى في عنوان كتابه المشهور ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين في هذه الرحلة أكثر من أى وقت مضى على الرغم من أنى قرأت الكتاب مرات ولكنى تخيلت الاستاذ الندوى تدمع عيناه مع قلمه وهو يكتب العنوان وحقا لقد كانت خسارة العالم فادحة : **فان الغرب قطع أشواطا بعيدة في الصناعة والتجارة والادارة**

وغيرها من النظم التى تحقق له الرفاهية المادية في ظاهر الأمر ولكنه يلهث لما يحقق له الراحة الحقيقية راحة القلب وطمأنينته وهذه لاتوجد الا عند المسلمين : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) والمسلمون يأكلون ويشربون وينامون متناسين أن لهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة والله تعالى قد قال لنبيه (يأأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر) ، ومتناسين أنهم خير أمة أخرجت للناس يجب عليهم أن يقودوا البشرية الضائعة الى الله مع وجود الامكانات الهائلة في جميع المجالات وعلى الجامعة الاسلامية بالذات أن تحمل عبئها وأن تنفذ كل ما تقدر عليه من توصيات مؤتمر الدعوة وتوجيه الدعاة الذى دعت

اليه وعلى مجلس شئون الدعوة أن يصل ليله بنهاره لدراسة شئون الدعوة فعلا والتخطيط لمستقبلها في الدنيا دون نظر لشىء غير الواجب الملقى على عاتقه ولا يكون كبقية المجالس التى تجتمع وتنفض بالتألم والتأوه دون نتائج تذكر **ولقد بدا لي أن كثيرا من المراكز الاسلامية الرسمية في العالم ماهى الا فقاقيع تحب أن تحمد بما لا تفعل** فلا يجوز الركون اليها ولا الثقة بتقاريرها ٠

وأين نحن من مراكز الصليبية التى غزت كل العالم بكل ما عندها من قوة مادية ومعنوية ؟ ووالله لو كان دين الصليبية المحرف فيه شىء يوافق الفطرة ويقربه الى العقل لكان الناس قد دخلوا في الدين المذكور ولكنه يخالف الفطرة والعقل ولذلك تذهب جهودهم سدى اذا استثنينا اخراج المسلمين الجهال بدينهم من اسلامهم ٠

ولقد رأيت بأم عينى في لندن مجموعة من البشر أرخت شعورها وأطلقت لحاها وشواربها ومعها أدوات الموسيقى ومعهم بعض النساء وهم يضربون الدفوف ويرقصون ويغنون فسألت ماذا يقول هؤلاء : فقالوا يقولون أين الطريق أو كيف السبيل الى البيت من جديد وذكروا أن هؤلاء من أغنياء الناس خرجوا من منازلهم المترفه وتركوا أموال آبائهم الطائلة وسياراتهم الفخمة يبحثون عن راحة القلب وطمأنينته فلم يجدوها ويريدون أن يعودوا الى البيت فعلا ولكنهم لا يطيقون أيضاً لأنهم قد جربوه فقلت لزميلى يطلب منهم أن يتفاهموا معى فان عندى ما يريحهم وحقا كنت في غاية الحسرة عليهم ولقد دمعت عيناى وان كان الحاضرون يضحكون منهم فقال أحد المرافقين لنا إنهم لا يثقون في أحد يدلهم على سبيل الراحة ولا يتفاهمون بل ربما يضربون الذى يقول لهم ان عنده سبيلا الى راحة قلوبهم لأنهم قد يئسوا من المجتمع وقد كنت أظن أن ما يسمونه بالهيبز أمثال هؤلاء فقراء لم يحصلوا على من

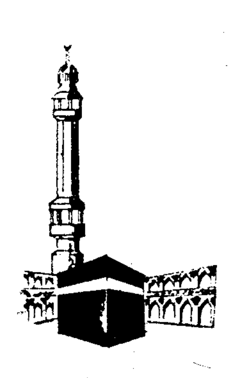
يعينهم أو على أعمال تدر عليهم الرزق ففعلوا ما فعلوا ولكن الأمر انعكس فأين المسلمون الذين يدلون هؤلاء على راحة القلب واستقرار الضمير و (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ....

٨ ـ هذا . وقد حاولت جهدى أن يكون وصفي لأخلاق الغربيين وعاداتهم عادلاً غير جائر ، وقد يغضب غاضبون لذكرى بعض أوصافهم المحمودة ، كالتقيد ببعض الأنظمة المفيدة ، والنظافة والجد في الأعمال المادية النافعة ، غير أنى انطلق في تحليلى لتلك الأخلاق الايجابية ، وغيرها من أخلاقهم الذميمة السلبية من منطلقى العقدى الذى أدين الله تعالى به ، وهو الاسلام فأزنها كلها بميزانه ، وأشير الى أن أخلاقهم المحمودة مبنية على غير أساس ، ولذلك شبهت حضارتهم المادية ببالون الأطفال الذى يعجبهم منظره ولكنه سرعان ما ينفجر فيصبح مزقا ترمى في القمامة ، وقد يغضب أيضا لهذا غاضبون ، وليس غضب هؤلاء ولا أولئك بضائر ، لأن الله قد أمرنا بالعدل في كتابه ولو كان الذى يستحقه مبغوضا عندنا شرعا ، كما قال تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

واذا وجدت في الانسان صفتان : احداهما محمودة ، والأخرى مذمومة ، فالحق ان يحمد على ما يحسن ، ويذم على ما يقبح ولا يجوز الثناء عليه مطلقا ، ولا ذمه مطلقا ولقد أحسن الشاعر اذ قال :

الشيب كره ، وكره ان افارقه ... فاعجب لشيء على البغضاء محمود

وصلى الله وسلم على سيدنا وحبيبنا ونبينا ورسولنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .



ردود ومناقشات



يوم عاشوراء

نشر فى جريدة « عكاظ » مقال بعنوان : (اليهودية وصوم عاشوراء) للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار يشكك فى تحديد يوم عاشوراء . فتصدى للرد عليه الدكتور نايف الدعيس بما يجلى الحق بأدلته . وفيما يلى نص المقال المذكور والرد عليه .

نص المقـــال :

كانت ديانة موسى عليه السلام تحوى أركانها الصوم. لأنه ركن في ديانات التوحيد ، وديانة موسى توحيد خالص . فلما حرفها اليهود وقلبوها ديانة وثنية غيروا صيام التوحيد . وإن كانت أسفار اليهود المقدسة خالية من نص على الصوم في وقت معين إلا صيام الكفارة الذى لم ينص عليه بلفظ الصوم أو الصيام وانما فسره الشراح به .

والنص الذى ورد هو ما جاء في سفر اللاويين ـ وهو أحد خمسة الأسفار التى تعرف بالتوراة ـ ١٩/١٦ : « ويكون لكم فريضة دهرية أنكم في الشهر السابع عاشر الشهر تذللون نفوسكم .. لأن في هذا اليوم يكفر عنكم لتطهيركم . الخ » .

وتكرر هذا المعنى في سفر العدد ـ دهر من أسفار التوراة ـ ٧/٢٩ :

« وفي عاشر هذا الشهر السابع يكون لكم محفل مقدس وتذللون أنفسكم » .

ولا يصرح السفران المقدسان لدى اليهود بلفظ الصوم . وإنما فسر الشراح تذليل النفوس بالصوم فصام اليهود هذا اليوم الذى هو اليوم العاشر من الشهر السابع في السنة العبرية .

ويعرف هذا اليوم الذى يصومه اليهود بيوم الكفارة وهو ـ حسب تعريفهم ـ يوم صوم وتكفير عن خطايا شعب اسرائيل ويقوم رئيس الكهنة في هذا اليوم بتقديم ذبائح التكفير .

ويمتنع اليهود في هذا اليوم عن العمل ويجتمعون في احتفال مقدس يصومون في اثنائه تكفيرا من الشعب كله عن خطاياه .

وهذا هو الصوم الوحيد المطلوب منهم حسب الناموس (١) ٠

ويصف « قاموس الكتاب المقدس » ذلك الاحتفال بقوله : « كان رئيس الكهنة ينزع في ذلك اليوم زينته الرسمية ، وبعد أن يستحم ويرتدى ثيابا بسيطة مقدسة مصنوعة من كتان أبيض .. الخ » ٠

ثم يصف تقدمة الذبائح ومراسيم الاحتفال الذى ينتهى بخلع رئيس الكهنة ثيابه الكتان ويعود إلى زينته الرسمية ٠

ويبدأ الصوم من غروب الشمس إلى غروبها من اليوم التالى ، وكانوا خلال هذه الفترة يمتنعون عن الطعام فاذا انتهت افطروا ٠

ويعرف هذا اليوم عند المسلمين بيوم عاشوراء وفي صحيح البخارى (٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال « قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال « ما هذا » ؟ قالوا :

هذا يوم صالح ، هذا يوم نجى الله بنى اسرائيل من عدوهم فصامه موسى ، قال : « فأنا أحق بموسى منكم ، فصامه وأمر بصيامه » ٠

وفي صحيح الإمام مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فوجد اليهود يصومون عاشوراء فسئلوا عن ذلك فقالوا : هذا اليوم الذى أظهر الله فيه موسى وبنى إسرائيل على فرعون فنحن نصومه تعظيما له ٠ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « نحن أولى بموسى منكم ، فأمر بصومه » ٠

وفي مسلم أيضا : عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما هذا اليوم الذى تصومونه ؟ « فقالوا : هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه ، وأغرق فرعون وقومه ، فصامه موسى شكرا فنحن نصومه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فنحن أحق وأولى بموسى منكم » فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه ٠

وفي « النهاية » لابن الأثير مادة عشرة (عاشوراء) ، هو اليوم العاشر من المحرم وهو اسم إسلامى وليس في كلامهم فاعولاء بالمد (٣) ٠

(١) قاموس الكتاب المقدس ٠

(٢) طبعة بولاق الجزء الثالث صفحة ٤٤ ٠

(٣) يقصد أنه ليس في كلام العرب كلمة على هذا الوزن غير عاشوراء وعن ابن دريد أنه اسم اسلامى وأنه لا يعرف في الجاهلية ورد ذلك عليه ابن دجه بأن ابن الأعرابى حكى أنه سمع في كلامهم خابوراء ويقول ابن حجر : وهذا الأخير لا دلالة فيه على رد ما قال ابن دريد وذكر الجواليقى : ضاروراء وساروراء ودالولاء من الضار والسار والدال (فتح البارى ٢٤٥/٤ المطبعة السلفية) ٠

ومعروف على التحقيق أن هجرة النبى صلى الله عليه وسلم كانت في شهر ربيع الأول وفي « فتح البارى » : « ولاشك أن قدومه كان في ربيع الأول فحينئذ كان الأمر بذلك في أول السنة الثانية وفي السنة الثانية فرض شهر رمضان فعلى هذا لم يقع الأمر بصيام عاشوراء إلا في سنة واحدة ثم فوض الأمر في صومه إلى رأى المتطوع » .

ويظن كثير من الناس أن صيام اليهود يوافق يوم العاشر من المحرم وهو وَهْم . فما كان اليهود يصومون عاشوراء : العاشر من المحرم ، بل هو يوم عاشوراء آخر . ولا يسمونه عاشوراء . ولكنه يقع في اليوم العاشر من الشهر السابع من السنة العبرية ، ولذلك التبس الأمر على شراح الحديث فظنوا أن صيام اليهود وقع يوم العاشوراء ولم يقع ذلك .

ومعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم وصل المدينة ودخلها يوم الاثنين المصادف يوم صيام اليهود وهذا اليوم العاشر من شهر تشرين الذى قابل - في تلك السنة - يوم العشرين من سبتمبر سنة ٦٢٢ م وهو اليوم العاشر من شهر تشرين سنة ٤٣٨٣ عبرية (١) .

وقد جاء في مؤلفنا « حجة النبى صلى الله عليه وسلم » (٢) صفحة ٤٥٢ أن العلامة الكبير محمود حمدى باشا الفلكى قد حقق يوم مغادرة الرسول صلى الله عليه وسلم مكة مهاجرا إلى المدينة وبصحبته أبو بكر الصديق وقال : إنه يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول الموافق ١٣ سبتمبر سنة ٦٢٢ م . ودخل قباء يوم الاثنين الثامن من شهر ربيع الأول الموافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ ميلادية .

وإذا كان شراح الحديث وقعوا في وهم حملهم على اضطراب أقوالهم في تحديد يوم عاشوراء يوم صيام اليهود فإن محمود باشا الفلكى قد انتهى إلى وضع حد لما كان قد نجم من الوهم والاضطراب وقد أزالهما بتحقيقه الذى ذكرناه ، وكان قوله فيصل الأقوال فيما شجر من خلاف في هذا السبيل .

وإذا كان موسى قد صام يوم عاشوراء حسب تقويمهم شكرا لله سبحانه وتعالى لإنجائه فقد جاء في الآثار أن نوحاً عليه السلام قد سَبَقَ إلى صيامه ، لأنه كان يوم رسو سفينته على الجودى ، فصامه محمد صلى الله عليه وسلم شكرا لأنه أحق وأولى بنوح وموسى .

---

(١) هذا حساب العلامة المصرى الكبير محمود باشا الفلكى (راجع كتاب الاسلام دعوة عالمية للأستاذ العقاد في البحث الذى عنوانه « الوان من الصيام ») .

(٢) الطبعة الثانية سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م) .

الرد على المقال المذكور :

كان بعنوان (عاشوراء صحيحة صريحة وصيام اليوم العاشر مشروع)
وكان نص هذا الرد ما يأتى :

تحدث الأستاذ (أحمد عبد الغفور عطار) فى أحد أعداد عكاظ عن صيام يوم عاشوراء ، وكان له رأى فى تحديد ذلك اليوم ، ولم يوفق للصواب فيما ذهب إليه ، وانتظرت طويلا لأرى من ينبهه على مسلكه من العلماء أو المفتين فى هذه البلاد أو غيرها ، فلم أر ، فأردت أن أدلى بما أراه الحق والصواب ، لاسيما وأن ما ذهب إليه الأستاذ فيه مخالفة واضحة وجرأة عظيمة على ما كان عليه السلف والخلف اجمع فى معتقدهم حول صيام هذا اليوم الذى لم يختلف اثنان فى تحديده وانه العاشر من شهر المحرم .

وانما وقع الخلاف فى صيامه أو صيام اليوم التاسع من الشهر المذكور . والذى عليه جماهير العلماء من المحدثين والفقهاء هو صيام اليوم العاشر وهو اليوم الذى صامه النبى صلى الله عليه وسلم وعزم إن عاش الى عامه المقبل أن يصوم اليوم التاسع قبل صيام اليوم العاشر امعانا فى مخالفة اليهود ، عليهم لعنة الله .

وعاشوراء عربية فصحى على وزن فاعولاء نطق بها النبى العربى عليه الصلاة والسلام فقال : (هذا يوم عاشوراء ولم يكتب الله عليكم صيامه) .

وكانوا فى الجاهلية يصومون هذا اليوم دون منازع ، بل صامه الرسول محمد عليه الصلاة والسلام فى الجاهلية قبل البعثة .

وكلمة عاشوراء اشتقاقها يدل على فصاحتها كما يدل على معناها وتحديد اليوم الذى رغب فى صيامه .

ومثالها فى الوزن . خابوراء ، ساوراء ، ضاروراء ، دالولاء .

وليعلم الأستاذ (العطار) أن أحدا من السلف أو الخلف من العلماء أو العامة لم يقل بمشروعية صيام اليوم الذى قدم فيه النبى صلى الله عليه وسلم المدينة اصلا حتى يقول بأن النبى عليه الصلاة والسلام قد صامه وأمر بصيامه .

ولا أعرف كيف راق له أن يخالف جماعة المسلمين بإبداء رأيه حول تحديد ذلك

اليوم زاعما أن المحدثين اختلفوا فى تحديده ، وليس كذلك بل يجزم خلافهم على النحو الذى ذكره وإنما الخلاف وقع بينهم فى صيامه أو صيام اليوم التاسع من شهر محرم ·

واللغة لا تساعد على ما ذهب اليه الأستاذ الباحث ولا العقل لمخالفة ذلك ما عليه المسلمون جميعا دون استثناء ·

وأحسب أن ما وقع فيه كان بسبب الفاء فى حديث (قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء ·· فصامه وأمر بصيامه) وأمثاله من الأحاديث ، وباعتماده على ما حققه الفلكى المصرى بتحديد اليوم الذى نجى الله فيه بنى اسرائيل من عدوهم فصامه موسى عليه السلام ·

فالأمر فى ذلك واضح ، فأما أن يكون الصحابى راوى الحديث حكى حال اليهود وفعلهم فى ذلك اليوم عند مقدمه عليه الصلاة والسلام ، وأما أن يحمل التعقيب الذى أفادته الفاء على التعقيب النسبى ، كقولهم بعث الله موسى فعيسى فمحمد عليهم السلام ، وشتان ما بينهم من الزمن ·

ولعل صيام اليهود تلك السنة وافق يوم عاشوراء من أول السنة التى تلت مقدم النبى عليه الصلاة والسلام المدينة ، وهو ما يؤيد الاحتمال الأول ، ولذلك قال الحافظ ابن حجر رحمه الله (فحينئذ كان الأمر بذلك ـ يعنى صيام عاشوراء ـ فى أول السنة الثانية) يعنى من الهجرة ، ولا يخفى على الأستاذ أن الله تعالى قد تعبدنا ـ معشر المسلمين ـ بالأشهر القمرية وليس لحساب الأيام أى اعتبار عندنا ، اللهم إلا إذا خفى الهلال فعدة الشهر ثلاثون يوما ·

وعلى هذا فإننا نصوم ونفطر ونقوم بمناسك الحج فى الأيام التى كتب الله علينا فعل تلك المناسك فيها ، وكذلك الأمر فى صيام يوم عاشوراء الذى هو العاشر من شهر الله المحرم ، فان من أراد صيامه فليصمه فى هذا اليوم الذى أطبق المسلمون على تحديده جملة وليتبعه بصيام يوم أو يسبقه به ·

وليعلم الأستاذ العطار وغيره أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يصم هذا اليوم مجاراة لليهود بل إنه قال : (أنا أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه) متابعة لصيامه له فى الجاهلية ، وصيامه له قبل فرض صوم رمضان ·

ومعروف أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان فى آخر حياته يتعمد مخالفة اليهود والنصارى ويأمر المسلمين بذلك وشواهده كثيرة · والله الهادى إلى سواء الصراط ··

بقلم : الدكتور نايف الدعيس

• عَن ابن عَبَّاسٍ رَضِىَ آللهُ عَنهما أنّ رَسُول آللهِ صَلى آللهُ عَليه وسَلم صَامَ عاشُوراء وَأمَرَ بصِيَامِه

(متفق عليه)

• وَعَنهُ أنّهُ قال :

قَال رَسُول آللهِ صَلى آللهُ عَليهِ وَسَلم: " لئن بقِيتُ إلى قابلٍ لأَصُومَنَّ التَّاسِعَ "

(رواه مسلم)

بَابُ الفتاوى

مِنْ فَتَاوَى اللجنة الدائمة للبُحُوثِ العِلْمِيَّةِ وَالإفتاءِ

أولا :

حكم الإسهام في الشركات التجارية

الحمد لله وبعـــــد :

فقد اطلعت لجنة البحوث العلمية والإفتاء على ما ورد من المستفتى (هيف بن مبارك) وقد سأل مسألتين نذكرهما ونذكر جواب كل واحدة بعدها :

الأولى : أنا من سكان الكويت ، وعندنا شركات مساهمة خاصة بالأعمال التجارية والزراعية والبنوك وشركات التأمين والبترول ، ويحق للمواطن المساهمة هو وأفراد عائلته فيها ، فنرجو إفادتنا عن حكم الشرع في مثل هذه الشركات ..

الجواب : يجوز للإنسان أن يساهم في هذه الشركات إذا كانت لا تتعامل بالربا ، فإن كان تعاملها بالربا فلا يجوز ، وذلك لثبوت تحريم التعامل بالربا في الكتاب والسنة والإجماع ، وكذلك لا يجوز للإنسان أن يسساهم في شركات التأمين التجارى ، لأن عقود التأمين مشتملة على الغرر والجهالة والربا ، والعقود المشتملة على الغرر والجهالة والربا : محرمة في الشريعة الاسلامية .

الثانية : بالنسبة للشركات المذكوره أعلاه عندنا بالكويت إذا أحببت أن تساهم بالشركات المذكورة تبيع شهادات الميلاد الخاصة بأفراد عائلتك بالإضافة إلى شهادة الجنسية بمبالغ كبيرة ، فما حكم الشرع في حلالها وحرامها .

الجواب : لا يجوز للإنسان أن يبيع شهادات الميلاد الخاصة بعائلته على شخص آخر

من أجل أن يساهم في هذه الشركات بأسماء أصحاب هذه الشهادات ، بناء على أنهم أولاده وهم في الواقع ليسوا بأولاده ، وكذلك شهادة الجنسية فإن منح الجنسية من الدولة للشخص ، وصفة تمتع الشخص بهذه الجنسية له أنظمة ، وقد تختلف هذه الأنظمة باختلاف الدول ، فعلى من يتعامل بما ذكر أن يتقيد بأنظمة الدولة بالنسبة لشهادات الميلاد وبالنسبة للجنسية إذا كانت هذه الأنظمة لا تتعارض مع الشرع الاسلامي ، فإن هذا من التعاون على البر والتقوى ، وقد أمر الله به في قوله تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى » ، والخروج من أنظمتها ، بما يعود على الفرد والمجتمع والدولة بالفساد ، من التعاون على الإثم والعدوان ، وقد حرمه الله لقوله « ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ، ولأن هذا كذب حرام ، ولأنه من أكل أموال الناس بالباطل من الجانبين ، لأن كل واحد منهما أخذ المال بطريق محرم ، وهو الكذب والغش والخيانة للدولة ، وبالله التوفيق ،،،،

ثانيـــا : ما حكم اللحم المذبوح في الخارج ؟

إن كان مذكى الأنعام أو الطيور غير كتابى (ككفار روسيا وبلغاريا وما شابههما) في الإلحاد ونبذ الديانات ، فلا تؤكل ذبيحته سواء ذكر اسم الله عليها أم لا ۰ لأن الأصل حل ذبائح المسلمين فقط (واستثنيت ذبائح أهل الكتاب بالنص) ، وإن كان من ذكاها من أهل الكتاب اليهود والنصارى ، فان كانت تذكيته إياها بذبح رقبتها أو نحر في لبتها وهى حية وذكر اسم الله عليها أكلت اتفاقا ، لقوله تعالى : (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) وإن لم يذكر اسم الله عليها عمدا ولا اسم غيره ففى جواز أكلها خلاف ، وان ذكر اسم غير الله عليها لم تؤكل ، وهى ميتة لقوله تعالى : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) ، وان ضربها في رأسها بمسدس أو سلط عليها تيارا كهربائيا مثلا فماتت من ذلك فهى موقوذة ولو قطع رقبتها بعد ذلك ، وقد حرمها الله في قوله : (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة) إلا إذا أدركت حية بعد ضرب رأسها قبلا وذكيت فتؤكل لقوله تعالى في آخر هذه الآية : (والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم) فاستثنى سبحانه من المحرمات ما ذكى منها إذا أدرك حيا ، لأن التذكية لا تأثير لها في الميتة ۰ وبالله التوفيق وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ۰


من أعماق
الكتاب

القلب

انفذ من ساحة الصدر إلى مشاهدة القلب ، تجد ملكا عظيما جالسا على سرير مملكته ، يأمر ، وينهى ، ويولى ، ويعزل ، وقد حف به الأمراء والوزراء والجند ، كلهم في خدمته ، إن استقام استقاموا ، وإن زاغ زاغوا ، وإن صح صحوا ، وإن فسد فسدوا ۰ فعليه المعول ، وهو محل نظر الرب تعالى : ومحل معرفته ، ومحبته ، وخشيته ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والرضى به وعنه ، والعبودية عليه أولا ، وعلى رعيته وجنده تبعاً ۰

فأشرف مافي الإنسان قلبه ، فهو العالم بالله ، الساعى إليه ، المحب له ، وهو محل الإيمان والعرفان ، وهو المخاطب المبعوث إليه الرسل ، المخصوص بأشرف العطايا من الإيمان والعقل ۰ وإنما الجوارح أتباع للقلب يستخدمها استخدام الملوك للعبيد ، والراعى للرعية ، والذى يسرى إلى الجوارح من الطاعات والمعاصى إنما هى آثاره ، فإن أظلم أظلمت الجوارح ، وإن استنار استنارت ، ومع هذا فهو بين أصبعين من أصابع الرحمن عز وجل ۰

فسبحان مقلب القلوب ومودعها ما يشاء من أسرار الغيوب ، الذى يحول بين المرء وقلبه ، ويعلم ما ينطوى عليه من طاعته ودينه ، مصرف القلوب كيف أراد وحيث أراد ۰ أوحى إلى قلوب الأولياء أن أقبلى إلّى فبادرت ، وقامت بين يدى رب العالمين ، وكره عز وجل انبعاث آخرين فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ۰

كانت أكثر يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا ومقلب القلوب) ، وكان من دعائه : (اللهم يامقلب القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك) ۰ قال بعض السلف : (القلب أشد تقلبا من القِدْر إذا استجمعت غليانها) ۰ وقال آخر : (القلب أشد تقلبا من الريشة بأرض فلاة في يوم ريح عاصف) ۰ ويطلق القلب على معنيين : أحدهما : أمر حسىّ ، وهو العضو اللحمى الصنوبرى الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر ، وفي باطنه تجويف ، وفي التجويف دم أسود ، وهو منبع الروح ۰ والثانى : أمر معنوى : وهو لطيفة ربانية رحمانية روحانية لها بهذا العضو تعلق واختصاص ۰ وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسان ۰

وإذا تأملت حال القلب مع الملك والشيطان ، رأيت أعجب العجائب ، فهذا يلمّ به مرة ، وهذا يلمّ به مرة ، فإذا ألمّ به الملك ، حدثت من لمّته الانفساح ، والانشراح ، والنور ، والرحمة ، والإخلاص ، والإنابة ، ومحبة الله ، وإيثار محبته على ما سواه ، وقصر الأمل ،

والتجافي عن دار البلاء والامتحان والغرور ، فلو دامت له تلك الحالة لكان في أهنأ عيش وألذه وأطيبه ، ولكن تأتيه لمة الشيطان ، فتحدث له من الضيق ، والظلمة ، والهم ، والغم ، والخوف ، والسخط على المقدور ، والشك في الحق ، والحرص على الدنيا وعاجلها ، والغفلة عن الله ، ما هو من أعظم عذاب القلب ۰

ثم للناس في هذه المحنة مراتب لا يحصيها إلا الله ، فمنهم من تكون لمَّة الملك أغلب من لمَّة الشيطان وأقوى ، فإذا ألمَّ به الشيطان وجد من الألم ، والضيق . والحصر ، وسوء الحال بحسب ما عنده من حياة القلب ، فيبادر إلى طرد تلك اللمَّة ولا يدعها تستحكم فيصعب تداركها ، فهو دائما في حرب بين اللَّمتين ، يُدَالُ له مرةً ، ويُدالُ عليه مرة أخرى ، والعاقبة للتقوى ۰

ومنهم من تكون لمَّة الشيطان أغلب عليه وأقوى ، فلا تزال تغلب لمَّة الملك حتى تستحكم ويصير الحكم لها ، فيموت القلب ، ولا يحس ما ناله الشيطان به ، مع أنه في غاية العذاب ، والضيق ، والحصر ، ولكن سكر الشهوة والغفلة حجب عنه الإحساس بذلك الألم ۰ فإن كشف أمكنه تداركه بالدواء وحسمه ، وإن عاد الغطاء عاد الأمر كما كان ، حتى ينكشف عنه وقت المفارقة للدنيا ، فتظهر حينئذ تلك الآلام ، والهموم ، والغموم ، والأحزان ، وهى لم تتجدد له ، وإنما كانت كامنة تواريها الشواغل ، فلما زالت الشواغل ظهر ما كان كامناً وتجدد له أضعافه ۰

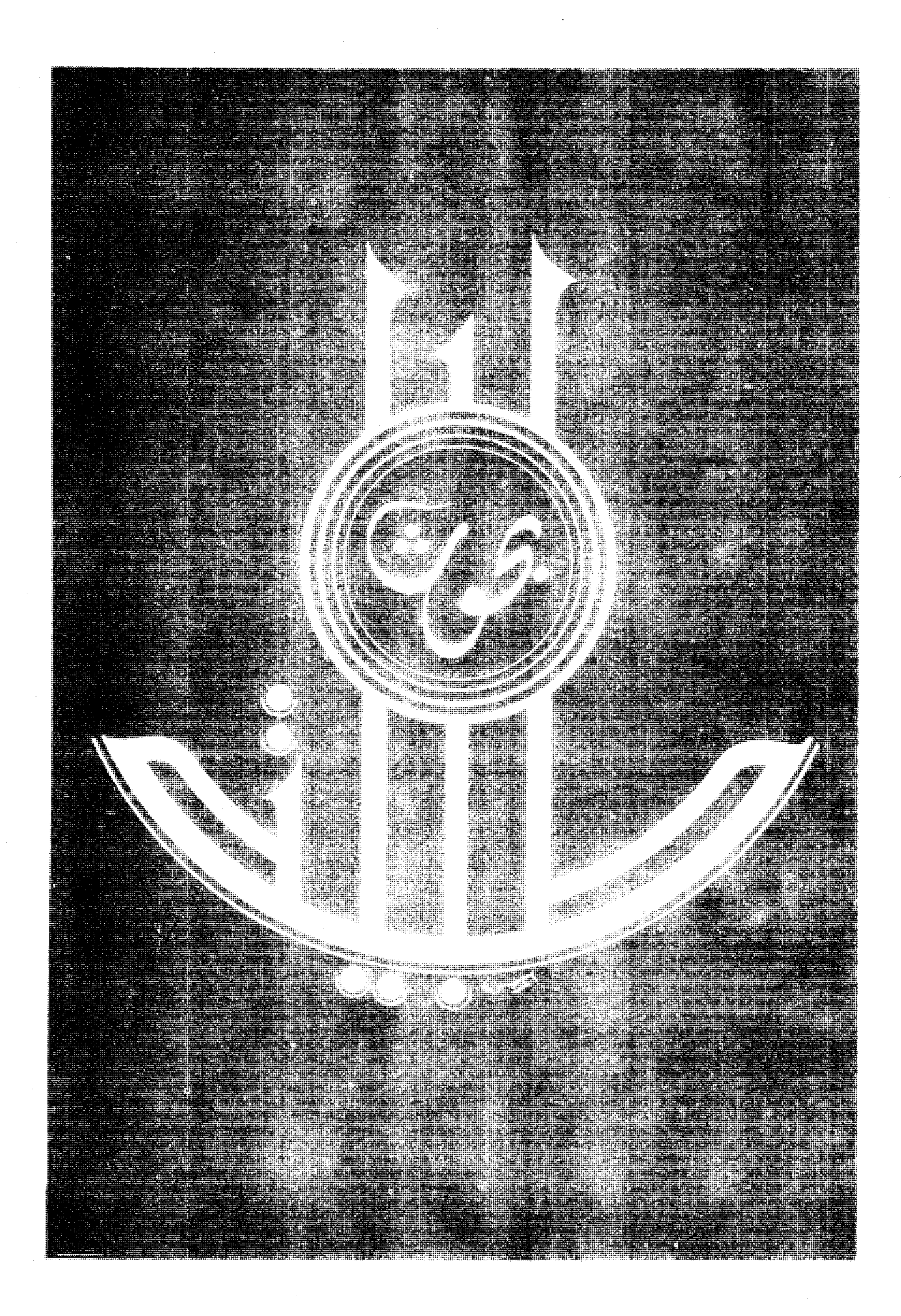
هذا بعض ماكتبه الإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبى بكر (المعروف با بن قيم الجوزية) غفر الله له ، عن قلب الإنسان في كتا به (التبيان في أقسام القرآن) وهو إن دل على شىء فإنما يدل على علم ، وفقه خلفه ، ودقة تحليل ، وغوص إلى معانٍ دقيقة لا يبلغ التعرف عليها كل أحد ، إلا من آتاه الله عز وجل البصيرة ، والحكمة ، ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ۰

والإمام ا بن القيم إمام جليل له من الكتب النفيسة ـ غير كتاب التبيان الآنف ذكره ـ كتب كثيرة ، لا ينبغى أن تخلو مكتبة المسلم منها جميعا إن لم يكن أغلبها ۰

ومن هذه الكتب : أعلام الموقعين ، والطرق الحكيمة في السياسة الشرعية ، ومدارج السالكين ، وعدة الصا برين وذخيرة الشاكرين ، وزاد المعاد ، والجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، وروضة المحبين ونزهة المشتاقين ، وشفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ۰۰۰۰ وغير ذلك من الكتب الرائعة ۰

رحمه الله رحمة واسعة ، وأفسح له الدرجات العالية في جنات النعيم ۰۰۰۰۰

سعد ندا





خلق الله سبحانه وتعالى العباد ومنحهم من رعايته وفضله وأفاض عليهم من رحمته ، واستخلفهم في الأرض وزودهم بكل أدوات الخلافة من تركيب خاص وتكوين لائق بذلك وتسخير للطاقات الكونية .. ولذلك كان على البشرية جميعها أن تتفكر في آيات الله وبدائع خلقه ، وآثار صنعه ، وتدركه بآثار قدرته وتستشعر عظمته برؤية حقيقة إبداعه ومن ثم يخشاه الناس حقا ويعبدونه حقا بالمعرفة الدقيقة والعلم المباشر حتى لا يركبهم الغرور ويعرفوا أنهم هم الفقراء إلى الله وأن الله هو الغنى الحميد ....

ومن بين هذه النعم التى تفضل الله بها على عباده نعمة السمع .... وسنحاول أن نبين بعض أسرارها ونقف على جزء بسيط من هذه النعمة الغالية لنصل في النهاية إلى أن العلم الحديث ما زال يجهل الكثير عنها ، ولم يعرف بعد من أسرارها إلا القليل وصدق الله العليم إذ يقول (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ...

ظاهرة انتقال الصوت :

ينتقل الصوت نتيجة اهتزازات جزيئات المادة ... وكلما تكاثفت جزيئات المادة كلما كان الصوت أكثر سرعة ، فمثلا نجد أن سرعة انتقال الصوت في الهواء (٣٤٠ متر في الثانية) وهى أقل سرعة عنها في الماء (حيث يصل إلى ١٤٣٥ متر في الثانية) بينما تزداد السرعة أكثر من ذلك في المعادن بحيث يصبح في الإمكان أن تضع الأذن على شريط القطار وتسمع صوت مجيئه من بعد عدة كيلو مترات ... !! .

هل في مقدور الإنسان أن يسمع كل الأصوات التى من حوله ؟

إن قوة سمع الإنسان لها طاقة محدودة فهو يسمع الأصوات التى تتراوح ذبذباتها بين

١٦ إلى ٢٠ ألف هزة في الثانية الواحدة ··· وإذا زاد الصوت عن هذا المقدار فإنه لا يسمع شيئا ولكن يحدث لـه شعور مزعج غير واضح قد يصل إلى درجة إيذاء الأذن ····

وهناك حيوانات تكون قوة سمعها أكثر حدة من الإنسان ، فمثلا القطط تسمع الأصوات التى تصل ذبذباتها إلى ٥٠ ألف هزة في الثانية ····· بينما نجد أن أعجب الحيوانات في هذا المجال هو **الخفاش** ، وهو حيوان ليلى يعيش في الكهوف وينشط أثناء الظلام ولذلك فإن الرؤيا عنده لاقيمة لها ، فحاسة السمع عنده عالية جدا حيث يسمع التوترات العالية التى تصل إلى ١٢٠ ألف هزة في الثانية ، فيقوم الخفاش بإرسال صرخات مافوق الصوت ثم تنعكس إليه ثانية فيسمعها بأذنيه الكبيرتين ، ويقرر بكل دقة بُعد الأشياء والفريسة تماما ٠ وكذلك يحدد بشكل رائع اتجاهها ····· وقد قلده البشر ···· وقلده العلماء ودرسوا هذه الظاهرة ، وكانت هى القاعدة الأساسية التى قامت عليها فكرة **الرادار** في اكتشاف الطائرات ····· فسبحان ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ······

(وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ····) الأنعام ٣٨ ٠

مصير الأصوات التى نسمعها :

في بساطة شديدة يصل الصوت إلى الأذن الخارجية التى تجمعه لكى يصل إلى غشاء الطبلة حيث يحدث اهتزازات على عظيمات السمع الموجودة في الأذن الوسطى التى تقوم بنقله إلى الأذن الداخلية التى تتولى تفسيره ونقله بشكل سيالة عصبية إلى العصب السمعى ثم إلى المركز السمعى العام في الدماغ أى في الفص الصدغى ٠

تكوين الأذن :

يقول العلم الحديث إن الجهاز السمعى يبدأ تخلقه منذ بداية الأسبوع الثانى للجنين وهو في رحم أمه ويكون ذلك على هيئة حفرة على جانبى الرأس ، ثم تصبح حويصلة ثم تستطيل ثم تتكون الأذن الداخلية وبعد ذلك يتكون الدهليز السمعى ثم تتصل بالعصب السمعى ···· وبتقدم وسائل العلم ثبت أنه في إمكان الجنين أن يسمع الأصوات منذ الشهر الرابع ، إنه عالم آخر تكفل به العليم الخبير ٠

وتتركب الأذن من ثلاثة أجزاء :

أولا : الأذن الخارجية : هى صيوان الأذن الذى يؤدى إلى قناة سمعية خارجية تنتهى بطبلة الأذن وتقوم الأذن الخارجية بعملية تجميع الأصوات ٠

ـ والقناة السمعية الخارجية يبلغ طولها ٢٫٥ سم تقريبا ، وتحتوى على الشعر في القسم

الأمامى وتحتوى أيضا على غدد صملاخية تفرز مادة الصملاخ لاصطياد (الغبار) وهى منحنية للأسفل حتى تخفف من وقوع الإصابة الخارجية بعكس ما لو كانت مستقيمة حتى لا يكون الأذى مباشرة على طبلة الأذن ٠

ثانيا : الأذن الوسطى : وهى قناة عظمية غضروفية بها غشاء الطبل ، وتحتوى على ثلاث عظيمات : واحدة تتصل بغشاء الطبلة (تسمى المطرقة) ، وأخرى تتصل بالأذن الداخلية (تسمى الركابة) ، وثالثة بينهما (تسمى السندان) ٠ وكل واحدة متعلقة بالأخرى ومتمفصلة معها ٠

وعندما تصل ذبذبات الصوت من الخارج ، يهتز غشاء الطبل ، وبالتالى تهتز هذه العظيمات فتقوم بتسريع وتوصيل الصوت إلى الأذن الداخلية ٠٠٠٠ وهنا تحس بأن يدا خفية تتحكم في كل هذه الأعمال ، وتخضع لسنن معينة محكمة دقيقة إلى أبعد حدود الدقة ٠ فلو كان الصوت القادم شديدا ، فإنه يحدث تكييف غريب ، ذلك أن هذه العظيمات تغير اتجاه تمفصلها بحيث يقى الأذن الداخلية من الأذى إلى حد ما بمساعدة تقلص العضلتين الموجودتين في الأذن الداخلية ٠٠٠٠ فمن الذى ألهم هذه العظيمات الصماء ـ التى لا يزيد وزنها عن ٥٥ ملجم أن تقوم بذلك ؟ ٠٠٠٠ إنه الخبير العليم ٠

ـ وهناك نوع آخر تتجلى فيه عظمة الله وهو الجزء الصغير من الأذن الذى يربط ما بين الأذن الوسطى وما بين البلعوم وذلك عن طريق قناة تسمى قناة « أوستاش » فلماذا وجدت هذه القناة ؟

تحدث ظروف طارئة ، ولولا وجود تلك القناة لتمزق غشاء الطبلة ٠٠٠٠ وهذا ما نلاحظه في حالات الرشح والتعرض للنزلات البردية ، أو قيادة السيارة لفترة طويلة ، أو ركوب الطائرة ، حيث نشعر بأن السمع يتناقص تدريجيا مع شىء من الألم الخفيف ولكن عندما نقوم بعملية البلع أو التثاؤب نشعر في الحال كأن الأذن قد فتحت وبدأنا نسمع بشكل طبيعى ٠٠٠٠ فما الذى حدث ؟

إن عملية البلع هذه تؤدى إلى تقلص عضلة خاصة تفتح فوهة هذه القناة فيدخل منها الهواء فيتعادل الضغط داخل الأذن وخارجها وبذلك يرجع كل شىء إلى حالته الأصلية ، ولعل هذا هو السر في أن الذين يرمون بالمدافع يبقون أفواههم مفتوحة أثناء انطلاق القذيفة وحدوث الصوت المرتفع حيث يتم تأمين اتزان الضغط إلى حد ما بين خارج الأذن وداخلها ٠

ـ كذلك تقوم تلك القناة بفوائد أخرى ، منها تصريف المخاط والسوائل التى قد

تتجمع في الأذن الوسطى إلى البلعوم ، فضلا عن أنها تمثل فتحة جيدة لإتقان السمع فيجود الصوت ويصفى بواسطتها ...

فقناة أوستاش تقوم بوقاية وحماية غشاء الطبلة ، وتنظيف الأذن الوسطى ، وتحسين وتجميل وإتقان جهاز السمع .....

ثالثا : الأذن الداخلية :

ـ وهى التى يوجد بها الجهاز الخاص باستقبال الأصوات .
ـ وتركيبها معقد فهى تحتوى على دهاليز وممرات معقدة حتى أن العلماء لم يجدوا لها اسما يطلق عليها إلا كلمة « التيه » .
ـ كذلك يوجد بها ما يثير دهشة الإنسان وتعجبه ، ذلك أن بها جهازا خاصا ذا تركيب معين فائدته القيام بدور هام جدا في حفظ توازن الإنسان ...

ـ أما الجهاز الخاص باستقبال كافة أنواع الأصوات فهو يسمى « عضو كورتى » حيث يحتوى على أكثر من ثلاثين ألف خلية سمعية وتعتبر كل خلية سمعية محطة كاملة لاستقبال جميع أنواع الاهتزازات الصوتية .... ومن هذا العضو تتصل الخلايا وتتكون الألياف العصبية في منتهى الدقة وتجتمع لتشكل العصب السمعى الذى يصعد إلى المخ لينتقل كل ما حدث في سيولة عصبية إلى المركز السمعى العام في الدماغ .....

ولنا أن نتسائل ؟

ـ أين تقع مراكز وخزائن الذاكرة للمسموعات ؟
ـ كيف تدرك الخلية العصبية الأمر وتفهمه ؟
ـ كيف يحدث تمييز الأصوات العديدة جدا عن بعضها البعض حيث تبلغ حساسية الأذن لسمع الأصوات درجة كبيرة فيمكن للأذن أن تميز ما بين ٣٤ ألف لحن مختلف في الشدة والتواتر .....
ـ كيف ... ؟ وكيف ... ؟ .. لانجد جوابا .

كل الذى توصلوا إليه هو كيفية انتقال الصوت إلى مركزه في الدماغ .
وصدق الله العليم إذ يقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

أيهما أفضل السمع أم البصر ؟

ـ قال الأكثرون إن السمع أشرف من البصر وكانت حجتهم : أن الله تعالى ذكر السمع في القرآن قبل البصر .. وأن السعادة كلها تكون باتباع الرسل والإيمان بما جاءوا به وهذا

لا يدرك إلا بالسمع · وأن العلوم الحاصلة بالسمع أضعاف أضعاف العلوم الحاصلة من البصر كذلك فإن فقد السمع يوجب ثلم القلب واللسان ، ولهذا كان الأطرش خلقة لا ينطق في الغالب … وأما فقد البصر فربما كان مفيدا من ناحية قوة إدراك البصيرة وشدة ذكائها ، ولهذا نجد كثيراً من العميان عندهم من الذكاء والفطنة مالا تجده عند البصير حيث أن تقلب البصر في الجهات ومباشرته للمبصرات على اختلافها يؤدى إلى تفريق القلب وتشتيته ولذلك كان الليل أجمع للقلب ، والخلوة أعون على إصابة الفكرة … ولهذا كان كثير من العلماء والفضلاء وأئمة الإسلام مكفوف البصر لكن لا أعرف أن فيهم الأطرش ….

ـ واحتج عليهم فريق آخر بأن أفضل نعيم أهل الجنة هو النظر إلى وجه الله تعالى في الدار الآخرة وهذا لا يدرك إلا بالبصر ، ولا توجد حاسة في العبد أكمل من حاسة تراه بها … ثم قالوا إن كل ما ينال بواسطة السمع إنما هو وسيلة لهذا المطلوب الأعظم فتفضل السمع على البصر كفضيلة الغايات على وسائلها ….

وهنا يحسم المشكلة شيخ الاسلام ابن القيم بقوله (إن إدراك السمع أعم وأشمل وإدراك البصر أتم وأكمل فهذا له التمام والكمال وذاك له العموم والشمول ، فقد ترجح كل منهما على الآخر بما اختص به) … ثم استطرد قائلا (إن تقديم السمع على البصر له سببان :

أولا : أن يكون السياق يقتضيه بحيث يكون ذكرها بين الصفتين متضمنا للتهديد والوعيد أى أنى أسمع ما يردون به عليك وما يقابلون به رسالاتى وأبصر ما يفعلون ·

ثانيا : أن إنكار الأوهام الفاسدة لسمع الكلام مع غاية البعد بين السامع والمسموع أشد من إنكارها لرؤيته مع بعده … وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال اجتمع عند البيت ثلاثة نفر ثقفيان وقرشى أو قرشيان وثقفى فقال أحدهم **أترون الله يسمع ما نقول** فقال الآخر يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا فقال الثالث إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا · ولم يقولوا أترون الله يرانا · فكأن تقديم السمع أهم والحاجة إلى العلم به أمسّ · كذلك فإن حركة اللسان بالكلام أعظم حركات الجوارح وأشدها تأثيرا في الخير والشر والصلاح والفساد بل عامة ما يترتب في الوجود من الأفعال إنما ينشأ بعد حركة اللسان ، فكان تقديم الصفة المتعلقة به أهم وأولى وبهذا يعلم تقديم السميع على العليم فقال تعالى : (سميع عليم) ·

وإنَّ الأذن خير شاهد على عمل الإنسان :

يقول تعالى في سورة فصلت ١٩ ـ ٢٤ : (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ·

حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون · وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؛ قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون · وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين · فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فماهم من المعتبين) ·

نسأل الله العليم المنان أن يعيننا على أداء ما وهبنا من نعم « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ·· » وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ··· اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا وأجعله الوارث منا ··· آمين وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ·

قال الله تعالى :

وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾

وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾

(الذاريات آية ٢٠ ، ٢١)


مختارات من
الصحف

مائة مليون ريال لتسويق الكتاب الإسلامى

تنفيذا لتوصيات (المؤتمر العالمى الأول للاعلام الإسلامى) الذى انعقد في جاكرتا عاصمة اندونيسيا : تقرر رصد (مائة مليون ريال سعودى) لانشاء مؤسسة إسلامية لتوزيع الكتاب الإسلامى فى كل انحاء العالم الإسلامى ، وفى اجتماع تم انعقاده برابطة العالم الإسلامى تحت رئاسة معالى الشيخ (محمد على الحركان) الأمين العام للرابطة : تم بحث الأسس التى سيقوم عليها المشروع ، ووافق المجتمعون على ان يكون رأسمال المؤسسة الإسلامية للتوزيع مطروحا فى الأسواق على شكل أسهم ، لكى تتعاون رءوس الأموال الإسلامية فى ابراز هذا المشروع الى حيز الوجود ، كما استقر الرأى على الأسس التالية لتنفيذ فكرة المؤسسة :

(١) ان تشترك الكفاءات الإسلامية فى وضع التصور النهائى لمشروع الشركة ٠

(٢) ان يكون النظام المعمول به فى الشركة متفقا مع نظام الشركات السعودية ٠

(٣) ان يكون المقر الدائم للشركة هو العاصمة المقدسة (مكة المكرمة) ٠

« المـــدينة »

المستقبل للإسلام في الاتحاد السوفياتي

قالت الصحف السوفياتية الناطقة باسم الحزب الشيوعي في جمهورية اوزبكستان المجاورة لايران انه لا يزال من الأمور المألوفة رؤية الأهالي المتوجهين الى « الأراضي المقدسة » لأداء فريضة الحج ويقيمون علاقات مع رجال الدين والمبشرين « المتعصبين » وقالت ان هؤلاء يلتزمون بدقة بتقاليد « لا علاقة لها باسلوب الحياة السوفياتية » ٠

وقالت وكالة الصحافة الفرنسية ان الالتزام ببعض الممارسات الدينية الاساسية ينتشر في كثير من المناطق الى حد أن المسافر العابر يمكن ان يلاحظها بسهولة ٠

ويوصى الزعيم الديني للمسلمين رجال الدين والوعاظ الذين لا تعترف بهم الدولة وان كان المؤمنون ينتخبونهم مباشرة لسدالعجز في عدد رجال الدين في الريف ، المؤمنين بأداء فريضة الحج بصفة أساسية ٠

وتعد حصيلة ستين عاما من محاولات تصفية الإسلام كبيرة الى حد ما فقد

أغلقت غالبية المساجد وتحول بعضها الى متاحف مناهضة للدين في حين أصبحت المدن الرئيسية للاسلام مثل سمرقند ، وبخاري من مدن المتاحف ولم يبق في جميع انحاء الاتحاد السوفياتي الا مدرستان لتعليم القرآن في بخاري وطشقند ·

وعلى الرغم من ذلك فان نتيجة الحملة المناهضة للدين خلال السنوات المقبلة مشكوك فيها · وقد اعترف السكرتير الأول للحزب الشيوعي في توركمانيا بأن الدين الإسلامى يعتمد على جذور متينة في الاتحاد السوفياتي حتى بين الشباب ·

وهكذا وفي عام ألفين سوف يصل تعداد المسلمين الى ٧٠ مليونا أي بما معدله ربع السكان وقد ينمو ثقل جمهوريات آسيا الوسطى وفي مناطق استراتيجية مثل حدود ايران وأفغانستان والصين ·

(الوطن الكويتية)

كيف يحارب الاسلام

ـ الموضة في لندن الآن ·· هي جماعات التبشير الديني ·· أسماء مختلفة ·· مألوفة وغريبة ·· لجمعيات ظاهرها يعمل فى العلن ·· وحقيقتها جمعيات سرية ·· تدعو لأديان نعرفها ·· كالمسيحية والبوذية والهندوكية ·· أو لا نعرفها كابناء القمر وملكوت يهوه ·· والحب للجميع ·· والله الواحد ·· وعشرات من الأسماء الأخرى ··

ـ كل جمعية لها ناد وأعضاء واجتماعات وكتيبات ورحلات وحفلات يلعب الجنس الناعم فيها دورا لا بأس به في اغراء وضم صغار السن ·

ـ الخطورة أن هذه الجماعات تعمل بدأب بين صفوف المسلمين ·· خاصة الشباب ··

ـ بل إنها نجحت بالفعل في اجتذاب عدد غير قليل منهم ·· انضموا إلى صفوفها وبدأوا في تجنيد زملاء لهم ··

ـ جماعة الأب ديفيد مثلا ·· والذي يسمي نفسه رسول الحب الجديد ·· والتي ينتشر أفرادها انتشارا كبيرا في أحياء العرب في لندن ·· تدعو للجنس الجماعي ·· فتيات على درجة كبيرة من الجمال والذكاء ·· تقوم بتوزيع دعوات ومنشورات مزينة بالرسوم التوضيحية ·· تدعو فيها الشباب الذي يعاني الوحدة إلى توديع وحدته ومشاكله ·· ومشاركة الجماعة في نشاطها ·· وتؤكد بوضوح أنه عند التحاق الشاب بالجماعة سيجد متعة كاملة ·· ولا مانع بالطبع من ذكر بعض العبارات عن المسيح الذي أمرهم بالحب !!

ـ فهل يدرك المسلمون هذا الخطر الداهم فيحصنوا شبابهم الذين يبعثون بهم إلى الغرب قبل أن يَضِيعُوا منهم إلى الأبد ؟ !

الأخبـــار

أحداث
العالم الإسلامي



اندونيسية : الاسلام فى خطر كبير ..

فى اجتماع المجلس العالمى للكنائس الذى عقد فى صيف عام ١٩٧٨ م لرسم سياسة منظمة لنشر المسيحية فى اندونيسية ، وقف أحد الجنرالات وهو « سيماتيو بانغ » يقول : (١) يجب الانتفاع من وجود ضباط نصارى فى الجيش والحكومة لتعيين « قادة نصارى » فى القوات المسلحة لكى يمكن توجيهها فى الدفاع عن النصرانية . (٢) يجب تسخير وسائل الاعلام لاشعار العالم بقوة النفوذ النصراني فى اندونيسية . (٣) كل المؤسسات التجارية والصناعية والاجتماعية المتعصبة للاسلام يجب محاربتها واضعافها . (٤) يجب كسب تأييد الحزب الشيوعى الأندونيسي كى ينحاز الى الجانب النصرانى . (٥) يجب زيادة المساعدة التى يقدمها مجلس الكنائس العالمى للمستشفيات والمدارس الأندونيسية . (٦) يجب أن تمارس العبادة المسيحية بمصاحبة الانغام الموسيقية وباللهجات المحلية . (٧) يجب اظهار الاسلام والعبادات الاسلامية بمظهر التخلف والعبث ، والحاق الأذى والضرر ، فيقال مثلا : ان الصوم يضعف الا بدان . وان مياه الوضوء فى الصباح تسبب مرض الروماتزم .. وهكذا .

الشركة الاسلامية للاستثمار

اعلن متحدث باسم الشركة الاسلامية للاستثمار أن الشركة قامت خلال السنوات الثلاث الماضية باصدار صكوك مضاربات للمسلمين على أسس الشريعة الإسلامية وقد نجحت هذه المضاربات فى اجتذاب وتجميع ملايين الدولارات من آلاف المشاركين فى جميع انحاء العالم الإسلامى ، وقد اصدرت الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء التابعة لرئاسة ادارة البحوث العلمية والافتاء بالمملكة السعودية فتوى تؤيد وتشيد بهذه المضاربات وتوصي بتشجيعها . وقد قامت هذه الشركة بتأسيس شركة قابضة تسمى (دار المال الإسلامي) وسوف يتم طرح أسهم رأس مالها الذي تبلغ قيمته ألف مليون دولار على مراحل وستطرح الشركة فى المرحلة الأولى اكتتاباً بمقدار (٢٥٠) مليون دولار . وسوف تزاول (دار المال الاسلامي) اعمالها من خلال فروع لها فى تسعة وأربعين بلداً إسلامياً ، بالاضافة إلى الشركات الفرعية فى اوربا والولايات المتحدة والشرق الأقصى .

الأمة القطرية

مأساة الإسلام في مدغشقر

اتصل بنا بعض المسلمين الذين نثق بأخبارهم وحدثونا عن الحوادث المؤلمة التى وقعت فى ماجنقا قبل عام وكيف **استغل الملاقاشيون الحاقدون حادثة فردية فى قتل الآلاف من المسلمين القمريين بحيث انقلب الأمر إلى مذبحة حقيقية مارسها الملاقاشيون الكفار وبعضهم من الرعاع والسوقة** . وأيدهم فى ذلك من جاء من رجال الجيش لحل الاشكال وفض النزاع وحفظ الأمن . فكانوا الخوف للمسلمين القمريين والأمن للكفار الملاقاشيين .

وقد قيل إنه اشترك فى ذلك بعض المسؤلين وانهم حرضوا الجنود بعد أن بدأت المذابح وقالوا : الى النهاية حتى يكون ذلك درساً للقمريين . وحدثنى احد المسلمين الملاقاشيين انه اضطر ان يسافر الى ماجنقا فى وقت الحادثة . وهو مسلم وزوجته مسلمة ، فغير كل واحد منهما اسمه ، وكان للرجل صديق من الملاقاشيين نصحه بان يحمل غصنا من الأشجار ويسير به فى الشارع فلا يؤذيه احد لأن هذا هو علامة الملاقاشيين من غير المسلمين .

وقالت زوجته : ان الكفار كانوا يفتخرون امامها بأنهم قتلوا القمريين وانه لم يضرهم احد ظنا منهم انها غير مسلمة .

وهناك حوادث فردية فظيعة منها : انهم دخلوا بيتا لأحد المسلمين فوجدوا شيخاً يصلى فقتلوه ثم عمدوا الى فراش هناك فوضعوه داخله واحرقوه .

ومنها ان اعداداً من المسلمين القمريين كانوا يتجمعون فى بيت يظنونه محصنا أو صاحبه ذا قدر من المسلمين فيدخل عليهم أولئك ويقتلونهم .

وعلى أية حال فان **الحقد الذى يكنه الكفار للمسلمين القمريين فى ماجنقا** الذين هم كانوا عماد الحركة الاسلامية فى مدغشقر ، وكان لهم نفوذ تجارى ومالى وثقافى قد انفجر وأيده بعض المسئولين بصفة شخصية ووصلت نار الحقد الى حد ان أصيب بعض المساجد بالضرر **ونهبت متاجر وهتكت أعراض** . وعاد الآلاف من المسلمين القمريين الى بلادهم (جزر القمر) فراراً من القتل أو الاضطهاد .

عن كتاب
مدغشقر
بلاد المسلمين الضائعين

أخبار الجامعة

انعقاد المجلس الأعلى للجامعة الاسلامية في دورته الثانية عشرة

عقد المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة دورته الثانية عشرة تحت رعاية صاحب السمو الملكى الأمير فهد بن عبد العزيز ولى العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء والرئيس الأعلى للجامعة الاسلامية وقد أناب سموه صاحب السمو الملكى الأمير عبد المحسن بن عبد العزيز أمير منطقة المدينة المنورة في افتتاح هذه الدورة. وذلك في تمام الساعة الخامسة من مساء يوم الثلاثاء العاشر من ذى القعدة ١٤٠١ هـ.

وقد بدأت الجلسة الافتتاحية بتلاوة آيات من القرآن الكريم أعقبها كلمة الأمين العام للجامعة فضيلة الشيخ عمر محمد فلاته جاء فيها :

(ان من توفيق الله تعالى لهذه الحكومة السنية انشاء هذه الجامعة لتكون منارا علميا في مركز الاشراق الأول وفي دار الهجرة والايمان واستهدفت من تأسيسها ايقاظ ابناء العالم الاسلامى الوافدين اليها ، وارشادهم الى طريق ربهم وسبل نجاتهم وسعادتهم ودعوة أممهم الى دين الله الحق الذى ارتضاه لهم) وأبرز فضيلته صورا من رعاية المملكة العربية السعودية لهذه الجامعة وذلك بتولى جلالة الملك المعظم رئاستها الفخرية وسمو ولى العهد الأمين ونائب رئيس مجلس الوزراء رئاسة مجلسها الأعلى » كما ذكر فضيلته ثمارها الطيبة بقوله « فما من قطر من

أقطار العالم الاسلامى الا وفي الجامعة الاسلامية طالب دارس ، ومتخرج عامل في حقل اسلامى » ثم اختتم فضيلته كلمته بالدعاء لهذه البلاد وأن يحفظ الله لها حماتها ورعاتها وينفع بهم دينه ، ويعلى بهم كلمته ودعا لأعضاء المجلس بالتوفيق في أداء الأمانة التى حملوها ·

ثم وجه صاحب السمو الملكى الأمير عبد المحسن بن عبد العزيز أمير منطقة المدينة المنورة الكلمة الآتية :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعـــد : أيها الأخوة : فانه من دواعى سرورى واغتباطى أن شرفنى صاحب السمو الملكى ولى العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء والرئيس الأعلى للجامعة أن أتشرف بالنيابة عنه في افتتاح دورتكم الثانية عشرة ، واننى اذ أحضر معكم هذه الجلسة فإنه لمن دواعى سرورى ان اجتمع بكم بعد أن اجتمعت بكم عدة مرات · وإننى لواثق أن قراراتكم التى ستتخذونها ستكون إيجابية بحيث تكون الحاجز القوى المنيع أمام التيارات الملحدة الكافرة التى تريد القضاء على الإسلام والمسلمين في شتى أنحاء الأرض ·

إخوانى : أوصيكم وأوصى نفسى بأن يتخذ كتاب الله وسنة رسول الله نبراسا لجميع العالم · وإن عليكم مسئولية كبرى هى أن ترشدوا أبناء الإسلام وغيرهم الى أنه لا خلاص للبشرية مما هى فيه من شرور كثيرة إلا بالإسلام وباتباع ما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم · وانى لأرجو الله أن يوفقنا وإياكم إلى مافيه الخير والسداد وأن يأخذ بأيدينا إلى ما يرضيه إنه على كل شيء قدير ·

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،،

ثم ألقى فضيلة الدكتور عبد الله الزايد نائب رئيس الجامعة كلمة الجامعة وهى :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ومن نزغات الشياطين ···· من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد ألا اله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وعلى أتباعهم بإحسان إلى يوم الدين :

أمـــا بعـــــــد :

فان من نعم الله على عباده ان يهديهم أولا إلى الإسلام ثم يوفقهم ثانيا إلى صدق

الدعوة اليه ويثبتهم ثالثا على تينك الهدايتين حتى يلقوه على ذلك وتعظم نعمة الله على العباد بذلك كلما كان للانحراف عن الصراط المستقيم سوق رائجة ودعاة نشطون ناهيكم عن الضغوط المتلاحقة المتباينة التى تمارس ضد المخلصين إذا سلموا أن يكونوا فريسة اختيارية أو جبرية لدعاة الانحراف ودهاقنته من الشياطين المتلونين .

ونحن في الجامعة الاسلامية مع أولئك المسلمين المتعطشين للعلم والمعرفة ندرك الدور الذى تقوم به قيادة هذا البلد الأمين تجاه العالم الاسلامى بسخاء في ميادين كثيرة أهمها ما يتصل بنشر العلم وتصحيح العقيدة حتى تكون على المنهج الإلهى المنزل في القرآن العظيم والموروث من صحيح السنة النبوية المطهرة متمثلا ذلك في تأسيس الجامعة الاسلامية التى خصصت لأبناء الأمة الاسلامية .

هذه الجامعة التى جاء تأسيسها استجابة لسد حاجة المسلمين في مجال العلم الشرعى والعقدى الصحيح بعد أن كادت الأمة تصاب بيأس وهى تتلفت يمنة ويسرة ومن كل جهة لتسمع صوتا مغيثا لها على أيدى من يختارهم الله لذلك . واذا كانت الجامعة الاسلامية استجابة حقيقية لحاجة الأمة الاسلامية فانها كذلك تأتى تصحيحا للممارسات السلوكية في شتى النشاطات والحاجات البشرية والنفسية وهى بذلك تكون أيضا إسهاما صحيحا لتعديل مسار البشرية الى الحياة الحرة الكريمة التى تتعاون مع التصور الفطرى السليم في أعماق النفس السليمة من التلوث في بناء حضارة انسانية تخدم الانسان ولا تستخدمه وتحقق له مستوى من العدل والطمأنينة في كل حياته ونشاطاته سواء منها ما كان يتصل به أو يتصل بغيره من الأفراد والجماعات (من عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤّمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) بدلا من أن يكون مطية للشر والأطماع ونهبا للقلق والفتن يثيرها أو تثار ضده وهي بذلك التصوير الحق ليست تحقيقا لأطماع أو مكاسب شخصية كما أنها ليست مؤسسة ضد أحد ولكنها لخير الجميع وأنها كذلك تختلف كلية عن المؤسسات الإلحادية أو التنصيرية أو ماشاكلها فإن مقاصد دعاتها صراحة أو مضمونا صرف الناس عن منهج الله الحق وتحقيق مكاسب شخصية ومادية مع ما فيها من مكابرة العقل والفطرة .

وقد عانت البشرية في القرون التى تلت انحسار الاسلام عن أكثر البقاع التى كانت معمورة به حين ضعف سلطان الإسلام على تلك المجتمعات وانتشر الجهل والظلم فيها بفعل دعاة الشر والفساد .

واليوم ونحن نشاهد في كل جهة في العالم آثار الصحوة الاسلامية وخيوط فجر الأمل

المرتقب في عودة هذا الدين إلى تلك الربوع نشعر بثقل المسئولية الواجب أداؤها علينا في هذه البلاد التى أفاء الله عليها من فضله نعما لاتحصى أعظمها نعمة الاسلام والدعوة اليه وتحمل مسئولية إبلاغه إلى جانب النعم الكثيرة ونسأل الله من فضله أن يرزقنا شكرها على الوجه الذي يرضيه ٠

وإن هذه الجامعة المباركة التى أثمرت خيرا كثيرا للمسلمين في أماكن كثيرة لسوف تعطى ثمرات لاتقف عند حد باذن الله وسنشاهدها عما قريب ان شاء الله ٠

إن هذه الجامعة بفضل الله ثم بفضل قادة هذه الدولة المسلمة وفي طليعتهم جلالة الملك خالد وولى عهده حفظهما الله قد تحسست آلام الأمة الاسلامية التى تعيش بين الشعوب الأخرى فجسدت شعورها بهذا الإحساس بالألم الى أمل يؤاسى الجرح ويستجيب لنداء الملهوف والمظلوم بتخريج أفواج مؤمنة بالله حاملة مشعل الهداية الى جانب إتقان المعارف التطبيقية والتقنية التى تخدم العلم الشرعى بل التى يصحح العلم الشرعى مسارها لتكون لصالح الإنسان لأنه إنسان لا لأنه مشتر منفعة أو طالب خدمة عليه أن يقدرها ويتحقق بذلك أيضا منهج سلفنا الصالح الذى كان به العالم المفتى في قضايا الدين مرجعا للناس في قضايا الفلك والطب والرياضيات ، وانما كان الفصل بين العلوم الكونية والتطبيقية والعلوم الشرعية حين كان السلطان لغير الدين وفي عهود الاستعمار التى أعادت استعباد الانسان لغير الله كما في العهود الجاهلية الأولى أو أشد ٠

أسأل الله أن يبارك للمسلمين في جامعتهم وأن يجزى قادة هذه البلاد على ما بذلوه ويبذلونه لصالح الأمة الاسلامية خير الجزاء ٠

كما أسأله أن تكون جامعتكم عند حسن ظنكم وظن المسلمين جميعا ، واسمحوا لى في ختام هذه الكلمة أن نرفع باسم مجلسكم الموقر برقية شكر وعرفان بالجميل لمقام حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم الرئيس الفخرى لهذه الجامعة ولصاحب السمو الملكى الأمير فهد ابن عبد العزيز ولى العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء والرئيس الأعلى للجامعة ، كما نشكر لصاحب السمو الملكى الأمير عبد المحسن بن عبد العزيز أمير منطقة المدينة على رعايته حفل افتتاح مجلسكم الموقر نيابة عن حضرة صاحب السمو الملكى الأمير فهد الرئيس الأعلى للجامعة وعلى كل ما يبديه من تعاون بناء وتوجيه كريم لصالح هذه الجامعة ٠

وأشكر لكم ما أبديتموه من تعاون مبرور في سائر الدورات وعلى ما ستبدونه من تعاون مقبل ٠

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

***

ثم ألقى سماحة الشيخ يوسف الحجى كلمة الأعضاء حيا فيها قادة المملكة العربية وأشاد بالدعم المستمر منهم لهذه الجامعة لكى تؤدى الأعمال الجليلة الصالحة وأشاد بالنتائج الملموسة لهذه الجامعة والتى يشاهدها من يزور البلدان الاسلامية وغير الاسلامية فيرى آثار خريجيها في نشر الدعوة الاسلامية ٠

وقد استمرت أعمال هذه الدورة في جلسـات مغلقـة بعد الجلسة الافتتاحية مسـاء يوم الثلاثاء ومساء الأربعـاء وصباح يوم الخميس ومساءه برئاسة سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ٠ وناقش المجلس جدول أعماله وفي الجلسة الختامية مساء يوم الخميس ألقى سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز كلمة توجيهية جامعة شكر فيها الله على ما وفق اليه من انهاء الأعمال وشكر فيها الأعضاء على ما قاموا به من جهود مشكورة وشكر فيها قادة المملكة على ما يولونه هذه الجامعة من رعاية ودعم خدمة لقضايا الاسلام والمسلمين ٠ وحث فيها عامة المسلمين وخاصتهم على التمسك بحبل الله المتين والعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ٠

ثم ألقى فضيلة الدكتور عبد الله الزايد كلمة الجامعة تناول فيها أهم ما انتهى اليه المجلس من قرارات في هذه الدورة وهى : -

١ ـ الموافقة من حيث المبدأ على اقتراح بانشاء كليات تطبيقية ككلية الطب والهندسة والزراعة خدمة لا بناء العالم الاسلامى الذين تشتد حاجتهم الى مثل هذه الكليات على أن تقدم رئاسة الجامعة الدراسات اللازمة لانشاء مثل هذه الكليات العملية في الدورة القادمة ٠

٢ ـ الموافقة على اقتراح مقدم من رئاسة الجامعة بانشاء كلية للغات الأجنبية والدراسات الإسلامية ٠

٣ ـ الموافقة على إنشاء دراسة تكميلية لطلاب الجامعة الوافدين الذين يقل مستواهم العلمى في الدراسات الاسلامية واللغة العربية عن مستوى ثانوية الجامعة ٠

٤ ـ الموافقة على الحساب الختامى للجامعة للعام ١٤٠٠ / ١٤٠١ هـ

ـ ثم ألقى كلمة الأعضاء سماحة الشيخ أبو الحسن الندوى أشاد فيها بالدور العظيم

الذى تقوم به المملكة العربية السعودية في دعم هذه الجامعة الاسلامية التى تتميز عن غيرها من الجامعات الاسلامية في مختلف القارات بتخصصها في الدعوة الاسلامية ودعا الى أن تكرس جميع المواهب والطاقات البشرية الى خدمة الدعوة الى الله ٠

* وقد أقامت الجامعة حفل غداء في فندق شيراتون المدينة ظهر يوم الخميس ١٤٠١/١١/١٢ تكريما لأعضاء المجلس الأعلى على شرف صاحب السمو الملكى الأمير عبد المحسن ابن عبد العزيز أمير منطقة المدينة ٠ حضره وكيل منطقة المدينة سعادة الشيخ سعد ناصر السديرى وجمع غفير من أعيان المدينة وعلمائها وعمداء كليات الجامعة وعدد كبير من الأساتذة والموظفين في الجامعة ٠

« نشاطات الجامعة فى الصيف »

الجامعة الاسلامية مع المسلمين فى أنحاء العالم

انطلاقا من مسئولية الجامعة الاسلامية عن نشر الدعوة الاسلامية وأداء لواجبها الأسمى نحو المسلمين فى كل مكان تتحرك الجامعة بأجهزتها المختلفة فى الإجازة الصيفية لتلتقى بالمسلمين فى أوطانهم لتتعرف حاجاتهم ، وتطلع على أحوالهم ·· وتسهم مع قادتهم فى حل قضاياهم وتقديم ما يحتاجون اليه من دعم مادى أو معنوى فى سخاء من غير من ولا أذى ، وانما تقدم جهودها وفاء بحق المسلم على المسلم ٠

وعلى جبهات كثيرة فى العالم حيث يكون المسلمون فى الشرق أو الغرب تجد الجامعة الإسلامية ، رئاسة وأساتذة وطلابا تشارك التجمعات الاسلامية فى مؤتمراتهم وندواتهم وفى جامعاتهم ومعاهدهم ومدارسهم ، تقدم العون خالصا ، والنصيحة مجردة من النفع أو الهوى ٠

ونأخذ من حركة الجامعة فى صيف هذا العام (١٤٠١ هـ) اللقطات التالية :

(١)
« رحلة نائب رئيس الجامعة الاسلامية فضيلة الدكتور عبد الله الزايد »
فى صيف هذا العام

قام فضيلة الدكتور عبد الله بن عبد الله الزايد برحلة عمل فى صيف هذا العام استغرقت ثلاثة أسابيع من شهر شوال ١٤٠١ هـ التقى فيها بكثير من المسلمين فى المؤتمرات واللقاءات الإسلامية المختلفة ٠

وقد بدأت هذه الرحلة بزيارة مدينة ميونخ فى جنوب ألمانيا الاتحادية · وكانت هذه الزيارة بمناسبة إقامة المؤتمر الأول للمراكز الاسلامية وقد وافق صاحب السمو الملكى الأمير فهد بن عبد العزيز ولى العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء والرئيس الأعلى للجامعة على حضور ذلك المؤتمر ·

ثم زار فضيلته تنزانيا تلبية لدعوة موجهة من دولة نائب رئيس جمهورية تنزانيا الشيخ عبود جمبى ، وتمت هذه الزيارة بموافقة من صاحب السمو الملكى الرئيس الأعلى على إجابة الدعوة ·

وبين هاتين المناسبتين بين ألمانيا فى الغرب وتنزانيا فى الشرق قام فضيلته بزيارة للمسلمين فى كل من أسبانيا ، وفيينا ، وميلانو فى إيطاليا ·

وأجاب فضيلته عن سؤال حول نتائج هذه الزيارات وعما قدمته الجامعة من خدمات فى هذه البلاد التى زارها بقوله : « قد وقفنا على حال المسلمين فى تلك الجهات ولمسنا مدى تطلعهم الى المملكة العربية السعودية باعتبارها الرائد الحقيقى للمسلمين ·

وأضاف فضيلته : لقد زودنا كثيرا من الجهات التى زرناها ببعض النسخ من القرآن الكريم ، والكتب والمقررات الأخرى كما قررنا زيادة عدد المنح الدراسية وتخصيص عدد أكبر منها للبلدان التى تشتد حاجة أهلها الى التعليم لعدم توافره فى بلادهم أو لأسباب أخرى ·

(٢)
الجامعة فى الدورات التدريبية لمعلمى اللغة العربية والثقافة الإسلامية

(أ)
دورة نيجـــيريا

بالتنسيق والتعاون مع الاتحاد العالمى للمدارس العربية الإسلامية الدولية منذ صيف العام الماضى ترسل الجامعة الإسلامية عددا من الأساتذة وهيئات التدريس بها لتدريب معلمى اللغة العربية والثقافة الإسلامية الذين يقومون بتدريس العربية والإسلام لغير العرب ·

وفى العام الماضى عقدت دورتان إحداهما فى الفلبين والثانية فى نيجيريا ·

أما فى صيف هذا العام فقد أرسلت مجموعة من الأساتذة إلى نيجيريا وأخرى الى كل من باكستان ثم بنجلاديش ·

وتأتى هذه الدورات فى نطاق ما تضطلع به الجامعة الإسلامية من مسئولية الدعوة الإسلامية حسب ما ينص عليه نظامها ·

وقد أقيمت دورة تدريب المعلمين فى جامعة بايرو بمدينة « كانو » وكان مجلس الجامعة قد أصدر قرارا بإقامة هذه الدورة برئاسة الدكتور على بن محمد بن ناصر فقيهى عميد شئون المكتبات ، وقررت انتداب خمسة عشر عضوا من هيئة التدريس ، وقد أعد المسئولون عن الدورة من الجامعة والاتحاد العالمى للمدارس العربية برنامجا للتدريس لمدة شهرين وقد اشترك فى هذه الدورة التدريبية أكثر من ثلثمائة معلم نيجيرى ممن يقومون بتدريس العربية والدين لأهل بلادهم من غير العرب ، وكانوا جميعا من الولايات الشمالية بنيجيريا ·

وقد أثمرت هذه الدورة التدريبية ثمارها فى المعلمين إذ تقدم للامتحان فى نهاية الدورة ٢٣٠ معلما منحوا شهادة إتمام هذه الدورة فى اللغة العربية والثقافة الإسلامية من قبل الاتحاد العالمى للمدارس العربية ·

ولم يقتصر أثر أساتذة الجامعة الإسلامية على قاعات الدرس بل تجاوز ذلك الى آفاق أوسع وأرحب فى المجتمع المسلم من نيجيريا ، فقد اشترك الأساتذة فى إلقاء محاضرات دينية وتوجيهية فى قاعة مدرسة العلوم العربية طوال شهر رمضان ، كما كان بعضهم يلقى دروسا دينية فى الوعظ والفقه والارشاد فى مسجد جامعة بايرو ، وتولى أحدهم إلقاء خطبة الجمعة خلال فترة التدريب كل ذلك كان يتم بناء على رغبة المسئولين الرسميين فى نيجيريا ·

وكان التعاون تاما والحمد لله بين المسئولين فى الجامعة ، ومسئولى الاتحاد العالمى للمدارس العربية إيمانا من المسئولين بأن تدريس اللغة العربية لغير العرب هو أسهل الطرق لدعوة المسلمين وغيرهم من أهل البلاد إلى الاسلام بلغة يفهمونها من بنى وطنهم ·

(ب)
الدورة التدريبية فى باكستان وبنجلاديش لمعلمى اللغة العربية والثقافة الاسلامية

وامتدادا للأهداف والغايات فى دورة تدريب معلمى اللغة العربية لغير العرب التى أقيمت فى نيجيريا أقيمت دورتان أحداهما فى مدينة بيشاور فى باكستان وثانيتهما فى « دكا » عاصمة بنجلاديش ، وقد قرر مجلس الجامعة اقامة دورتى « دكا وبيشاور » برئاسة الدكتور محمد السيد الوكيل ومعهم مشرف ادارى هو الشيخ عبد الكريم صلاح المطبقانى وقد

أقيمت دورة بيشاور بكلية التدريب لتطوير القرى واشترك فيها من معلمى اللغة العربية مائة معلم واستمرت الدورة ثمانية عشر يوما ٠

وقد قام أعضاء وفد الجامعة بكثير من النشاطات خارج قاعات الدرس حيث زار الوفد ممر خيبر على حدود أفغانستان وزار معسكر الجمعية الإسلامية الأفغانية والكلية العسكرية وأقام الحزب الاسلامى برئاسة المهندس حكمت يار حفل عشاء تكريما للوفد ... كما أقام كل من معالى وزير الأوقاف باقليم مسرمد ، ونائب رئيس جامعة بيشاور وضابط الاتصال المسئول عن مخيمات المجاهدين حفلات غداء وعشاء تكريما لوفد الجامعة الاسلامية ٠

أما دورة دكا فى بنجلاديش فقد استغرقت ٣٥ يوما واشترك فيها ١٧٤ وكان مقر اقامتها كلية تدريب المعلمين بمدينة دكا ٠

وقد نشط وفد الجامعة الإسلامية فى نشر الدعوة الإسلامية من خلال المنابر التى أعطيت لرئيس الدورة أو أعضاء هذا الوفد فقد عقدت ثلاث ندوات موسعة فى القاعة الكبرى للكلية وألقيت محاضرات ودروس فى مساجد دكا بعد صلاة الجمع بالتنسيق مع المسئولين فى السفارة السعودية وبعض رؤساء الجماعات الاسلامية ٠

وقد أقيم للوفد حفلات تكريم متعددة منها على سبيل المثال حفل أقيم فى المركز الاسلامى وآخر فى الجامعة القرآنية ، ومن جمعية أهل الحديث ، ومن اتحاد الطلاب بجامعة دكا ٠ وفى حفل توزيع الشهادات أقام الاتحاد العالمى للمدارس العربية حفلا كبيرا لتوزيع الشهادات دعى اليه رئيس الوزراء الذى أناب عنه وزير المواصلات ، ووزير التعليم وكبار الشخصيات ورؤساء الجماعات والجامعة الاسلامية ٠

وقد حققت هذه الدورات آثارها الحسنة والحمد لله ـ وذلك كما ذكر أحد مرافقى الدورة تمثل فى التحسن الذى طرأ على نطق معلمى اللغة العربية وكتاباتهم وفى فهمهم لطريقة الأسئلة والإجابة ، كما أسهمت الدورة فى توعية المسلمين من أهل البلاد عن طريق المحاضرات والندوات فى المساجد ودور العلم وتم ذلك بالتنسيق مع رجال سفارة المملكة العربية السعودية ٠

(٣)
المعسكر الصيفى للطلاب المقيمين فى المملكة خلال عطلة الصيف

تمنح الجامعة طلابها من مختلف أنحاء العالم تذكرة سفر جوية ذهابا إلى أوطانهم فى نهاية العام الدراسى وإيابا فى بداية العام الجديد ٠ وبالرغم من هذه التسهيلات التى تمنحها

الجامعة لطلابها فان بعضهم يرغب فى قضاء العطلة الصيفية فى المملكة لأسباب مختلفة ، منهم من تحول الظروف السياسية فى أوطانهم دون العودة اليها ، ومنهم من يرغب فى التزود بزاد روحى فى قربه من بيت الله الحرام فى مكة ، ومن المسجد النبوى فى المدينة .

وفى صيف هذا العام أقامت الجامعة الاسلامية مركزا صيفيا فى مكة المكرمة ليتحقق الهدف الروحى المنشود عند هؤلاء الطلاب الذين يفضلون البقاء بجوار بيت الله الحرام يتزودون بزاد من الإيمان والتقوى .. وقد اختيرت دار الحديث بمكة مقرا لهذا المركز ومقرا لإسكان هؤلاء الطلاب واستمر هذا المعسكر أغلب أيام شهر رمضان .

وقد وضع لهؤلاء الطلاب برنامج تربوى فيه العديد من الأنشطة الدينية والفكرية والرياضية . وكان الطلاب يحرصون على أداء الصلوات الخمس يوميا فى المسجد الحرام ويصلون صلاة التراويح وقد قسم الطلاب الى أربع أسر: أسرة أحمد بن حنبل وأسرة ابن تيمية وأسرة ابن القيم ، وأسرة محمد بن عبد الوهاب ويشرف على كل منها أحد المدرسين ورائد من الطلاب وقد تنافست الأسر فى مجالات النشاط المختلفة من صحافة ولافتات وملصقات وإلقاء كلمات وأناشيد وتمثيليات - وقد حفل المعسكر بالمحاضرات الدينية القيمة التى كان لها تأثيرها فى الطلاب ، وقد قضى طلاب المركز الصيفى يوم عيد الفطر فى زيارة الطائف والتقوا بسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز الذى ألقى فيهم كلمة إرشادية حثهم فيها على طاعة الله والإقبال على طلب العلم .

(٤)
وفد نيجيرى فى زيارة الجامعة

حضر الى الجامعة الاسلامية وفد من جامعة عبد الله بايرو بمدينة « كانو » بنيجيريا يتكون من ٢٠ طالبا بالسنة النهائية بقسم الدراسات الاسلامية والعربية . وكانت جامعة بايرو قد طلبت من فضيلة الدكتور عبد الله الزايد نائب رئيس الجامعة الاسلامية اشتراك هؤلاء الطلاب فى المعسكرات التى تقيمها الجامعة ، ولتعذر الحجز فى شركات الطيران وصلوا متأخرين بعد انتهاء المعسكر الصيفى الذى أقامته الجامعة لطلابها فى مكة ، ولكن نائب رئيس الجامعة أمر بان تعد لهم عمادة شئون الطلاب برنامجا تربويا حافلا بألوان النشاط الثقافى والرياضى .

وقسم هذا الوفد الطلابى النيجيرى الى أسر أسند أمر الاشراف عليها الى طالب من الدراسات العليا ، وقد أقام هذا الوفد على ضيافة الجامعة حتى أدوا فريضة الحج .

(٥)

الجامعة الاسلامية ومخيم جامعات الخليج فى الحج

اشتركت الجامعة الاسلامية وجامعات المملكة مع جميع جامعات دول الخليج فى إقامة مخيم يبلغ عدد طلابه من مختلف الجامعات المشتركة فيه ١٥٠٠ ألف وخمسمائة طالب منهم ١٠٠ طالب من الجامعة الاسلامية اختيروا من أحسن الطلاب خلقا وسلوكا ونشاطا ومن طلبة الدراسات العليا والسنوات النهائية فى كليات الجامعة ٠

وقد التزمت الجامعة الاسلامية بتقديم كثير من الخدمات لهذا المخيم الاسلامى الكبير ومن ذلك تأمين وسائل الانتقال من مكة والمدينة لضيوف الرحمن فى هذا المخيم من خارج المملكة بعدد ١٥ حافلة كبيرة (اتوبيس) وتأمين وايت ماء وسيارة جيمس وأربع سيارات وانيت واستضافة عدد ٥٠٠ طالب و٢٠ مشرفا أثناء زيارتهم المدينة المنورة بعد الحج وتحمل نفقات ١٠٠ طالب من خارج المملكة تبلغ نفقاتهم خمسين ألف ريال ٠

(٦)

مساهمة الجامعة مع الأمانة العامة للتوعية فى الحج

تم ترشيح ٢٠ طالبا للقيام بواجب الترجمة لدى الأمانة العامة للتوعية الاسلامية فى الحج بمكة المكرمة من ١٥ / ١١ الى ٢٠ / ١٢ / ١٤٠١ هـ وروعى فى اختيارهم تمثيلهم لكافة لغات العالم الإسلامى مثل الأردية والفارسية والهوسا واليورا والسواحلية الى جانب اللغات الأوربية ٠

(٧)

الاعداد لمؤتمر الدعوة والدعاة فى الجامعة الاسلامية

وافق صاحب السمو الملكى الأمير فهد بن عبد العزيز ولى العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء والرئيس الأعلى للجامعة على اقامة مؤتمر الدعوة وإعداد الدعاة فى مقر الجامعة فى طيبة الطيبة ٠

وقد صرح فضيلة الدكتور عبد الله الزايد نائب رئيس الجامعة بأن الجامعة الآن تتخذ الاجراءات لاقامة هذا المؤتمر إذا توفرت البحوث العلمية الكافية ان شاء الله ولذا تكونت لجنة لمتابعة البحوث التى ترد من علماء المسلمين فى كل مكان وكذا لوضع الخطط اللازمة علميا لإنجاح هذا المؤتمر حتى يؤتى ثماره المرجوة خدمة للإسلام ونفعا للمسلمين ٠

مجلة الجامعة الإسلامية

لا تلتزم برد البحوث والمقالات التي لم تنشر إلى كتابها ولا بإبداء أسباب عدم نشرها.

خطوط: محمد المرسي السيد

محتويـــــات العـــــدد

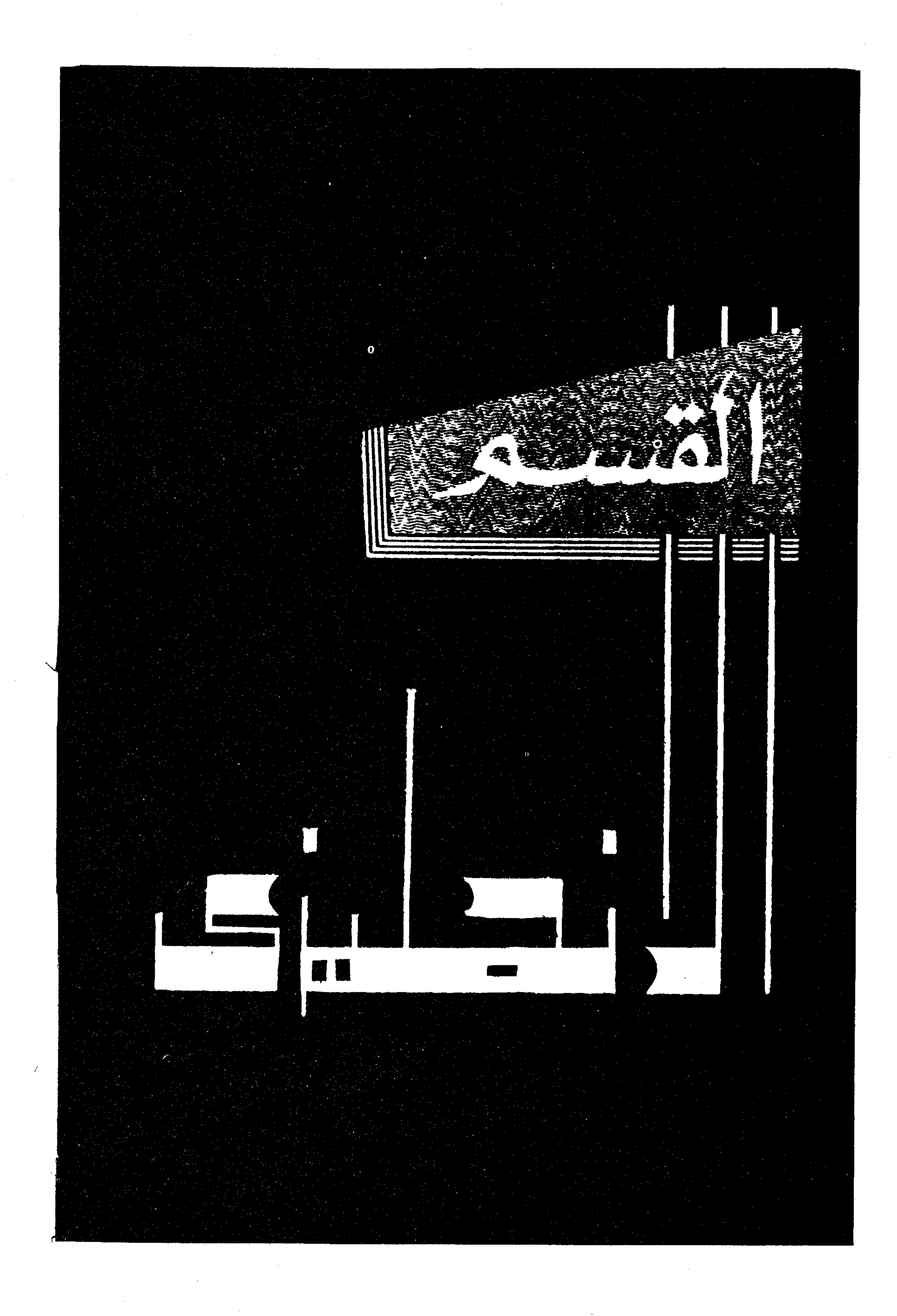
الموضـــــــــــوع		الصفحة

- الثقافة الإسـلامية :

* سـيرة وتـاريخ

* إحياء التراث الإسلامى

* لغـة وأدب


القسم

The first thing to be done in pilgrimage is the entry into the state of pilgrimage by " Ihram ". Ihram has two aspects : the first is to declare the intention to perform pilgrimage for the sake of Allah. The intention is combined with casting off all seamed and sewn clothes and shunning all kinds of luxury, ornamentation, obscene talk and offences. As regards women pilgrims they are clad in a long garment reaching from head to foot and revealing only the face and palm of the hands. The second aspect of Ihram is the call of ' Talbia '. Entering the state of Ihram the pilgrim shall raise his voice and say :

« لَبَّيكَ اللهُمَّ لَبَّيكَ » . (Here I am, O my Lord at Your Presence). This is the sign of obedience to show himself completely to the Ordinance of Allah.

The other important requirement is making circuits round the Ka'ba, called ' Tawaf '. When the pilgrim reaches Makkah, he goes round the Ka'ba seven times beginning from the side of the Black Stone. The next step is running between ' Safa and Marwa '. Then the pilgrim starts for going to Arafat provided he reaches his destination on the 9th day of the month of Dhul Hijja. The devotion of standing at Arafat is the most important of all pilgrimage actions, so that the Prophet said : " pilgrimage is standing at Arafat ".

When the pilgrim leaves Arafat he passes by the place known as ' ALmuzdalifa ' where he has to spend the night. The pilgrim reaches the area of ' Mina ' on the morning of the 10th day of the month of Dhul Hijja, in which the pilgrim casts seven stones known as ' Jamaratul Aqaba '.

Then the pilgrim performs the sacrifice of a sheep, a goat, a caw, or even a camel according to his means. This ceremony concludes the pilgrimage and the pilgrim now is allowed to shave or cut-short his hair and to replace pilgrim's clothes by the usual dress. Then he has to perform the ' Tawaf al-Ifada '.

Before leaving Makkah he has to perform the circuits round the Ka'ba as farewell salute to the sacred House. It is called the ' farewell circuits '. It is regarded highly meritorious act to drink of the water of the famous well near the Ka'ba known as Zum-Zum well, and go to Madina to visit the mosque of the Prophet and pray there and say Salam to the Prophet. Then the pilgrim returns back with heart-felt pleasure and satisfaction.

The Prophet's Mosque of Madina, Al–Aqsa Mosque of Jerusalem, Umayyad Mosque of Damascuss, Al–Azhar Mosque of Cairo and all the mosques of the world are connected with the Sacred House of Makkah, as it is the direction of all mosques of the world, and the central point of the Muslims. The significance of this land and its connection with the Father of the prophets, Abraham, the ancestor of the Arabs, Ismail and the last of the prophets Muhammad (peace be on them) find clear mentions in the following verses; The Holy Quran referred to the prayers offered by Abraham and Ismail after the completion of the re–building of Ka'ba at Makkah:

« ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم = البقرة ١٢٨ ، ١٢٩ .

It means : " Our Lord ! And make us submissive unto Thee and of our seed a nation submissive unto Thee, and show us our ways of worship, and relent toward us. Lo ! Thou art the Relenting, the Merciful. Our Lord ! And raise up in their midst a messenger from among them who shall recite unto them Thy revelations, and shall instruct them in the Scripture and wisdom and shall make them grow. Lo ! Thou, only Thou, art the Mighty, Wise ".

The pilgrimage was enjoined in the 9th. year after Hijra. This is to be performed in the first nine days of the month of Dhulhijja.

The Holy Quran honors the months of pilgrimage and calls them the sacred months because fighting, war and aggression were prohibited in those months since the building of the sacred House. The Holy Quran declares :

« إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيمْ ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم » . التوبة ٣٦ .

" Lo ! The number of the months with Allah is twelve months by Allah's ordinance in the day that He created the heavens and the earth. Four of them are sacred : that is the right religion, so wrong not yourselves in them ".

The months of pilgrimage are Shawwal, Dhul Qa'da, Dhul Hijja and Muharram. This tradition was meant to give security to the pilgrims and the visitors to Makkah.

In another verse of the Quran Abraham is spoken of: " And when We assigned to Abraham the place of the House saying, Do not set up aught with Me and purify My House for those who bow and prostrate themselves ". Then addressing Abraham, the revelation continues: And proclaim unto mankind the pilgrimage. They will come unto thee on feet and on every lean camel ; they will come from every deep ravine. That they may witness things that are of benefit to them, and mention the name of Allah on appointed days over the best of cattle that He hath bestowed upon them. Then eat thereof and feed therewith the poor unfortunate. Then let them make an end of their unkemptness and pay their vows and go around the ancient House ".

As a historical evidence of antiquity of Ka'ba the Holy Quran proclaims the Ka'ba as the first House of Divine worship on earth. In one place it is called ' Al–Bait al–Atiq ' or the Ancient House. It is also called as ' Bait al–Haram ' which carries the meaning of ' forbidden '; in other words, a place whereof the sanctity must not be violated. There is nothing in the Holy Quran to show when and by whom the Ka'ba was first built. The Quran makes it clear that the Ka'ba was already there when Abraham left Ismail in the wilderness of Arabia as the Quran said : " I have settled some of my offspring in a valley unproductive near Thy Sacred House... ".

It also appears from this verse : " ... And when Abraham and Ismail raised the foundations of the House... ". that the Ka'ba was rebuilt by Abraham and Ismail. It appears from this that Ismail and his mother had been purposely left near the Sacred House. WhenAbraham left them in the wilderness of Arabia the Ka'ba was in a demolition. After that the father and the son re–built the House.

As the city of Ka'ba which is the first sanctuary to be erected for mankind on earth, Makkah is called in the Quran " Mother of villages ". The eyes of the whole Muslim world are fixed on that central spot which saw the first rays of the Divine guidance. The Sacred House of Makkah is called Ka'ba on account of its glory and exaltation, for the root word Ka'ba means : to become prominent, high or exalted.

All mosques of the world are built facing it. It should be born in mind that the clear object of Qibla is to bring about a unity of purpose. So as Muslims have all one centre to turn to, they must set one goal before themselves. The city of Makkah is situated in the centre of all great Sacred places of the Muslim world.

« وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنيّ أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم · ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ،ربنا ليقيموا الصلاة فأجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلّهم يشكرون » · إبراهيم ٣٥ ـ ٣٧ ·

It means : " When Abraham said : My Lord ! Make safe this territory and preserve me and my sons form serving idols. My Lord ! Lo ! they have led many of mankind astray. But whoso followeth me, he verily is of me. And whoso disobeyeth me still Thou art Forgiving, Merciful. Our Lord ! Lo ! I have settled some of my posterity in an uncultivable valley near unto Thy Holy House, Our Lord ! that they may establish proper worship; so incline some hearts of men that they may yearn towards them; and provide Thou them with fruits in order that they may be thankful ".

In the conference of Pilgrimage Muslims meet in the Service of Allah exchanging ideas, investigating their problems and strengthening the bonds of fraternity and unity. The pilgrimage also adds to man's knowledge and experience. Differences of color, race and nationality are levelled off and the real bond among them is sincere brotherhood.

Why Is Makkah Chosen For Hajj ?

The sacredness of Makkah is spoken of in still clear words in the following verses of the Quran :

« إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة التى حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين » · النمل ٩١ ·

It means : " I am commanded only that I shall serve the Lord of this city, Who has made it sacred, and His are all things. And I am commanded to be of those who surrender (unto Him) ".

In one of the earliest revelations of the Quran Makkah is described as " the Land made safe ". In another revelation it is referred to as follows :

« لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وما ولد .... » · البلد ١ ـ ٣ ·

It means : " Nay I swear by this City. And thou art an indweller of this City. And the begetter and whom he begot ".

it was this man and his son who rebuilt the first sanctuary on earth, the Ka'ba at Makkah. It is to this holy place that all Muslims turn at the time of prayers and make pilgrimage. It is something wonderful and unforgettable to gaze upon the Ka'ba, for there is concentrated the adoration of millions. The Ka'ba is an inescapable part of the Islamic religion. Islam rejects all forms of idolatrous worship and the Ka'ba is but a holy place where man has worshipped Allah since the time of Adam, no more, no less.

There are many traditions and legends surrounding the Ka'ba and Black Stone but it is accepted by all Muslims that the Ka'ba is the first sanctuary to be erected on earth and was rebuilt by Ibrahim and his son Ismail. The Black Stone is the Only original stone left after many centuries and many reconstructions. Historical references to the Ka'ba is very limited before Islam, and only begins at the time of Muhammad (peace be on him), when the Ka'ba was destroyed by fire and was rebuilt of stone and wood.

It is reported that when the time came to replace the Black Stone, the people of Makkah quarelled for the honour and so Muhammad, placing the stone on his cloak, ordered the chiefs to take each end and carry it, and he himself placed it in its position. Thanks to his wisdom, every one was pleased and no one was offended. At that time Ka'ba became a place of heathen worship and when the Prophet conquered Makkah there were found nearly 400 idols around the Ka'ba. All these were destroyed and the building was then purified to become once again a place of true worship, and all idolators were forbidden to enter Makkah. In the 10th year A. H. the Prophet led the first pilgrimage in which no idolator was present. At this time, the guardianship of the Ka'ba was entrusted to Uthman, and Banu Shaiba have retained this title until the present day.

The Ka'ba is a simple stone structure about fifty feet square which stands on a marble base in the middle of the great mosque of Makkah. In the eastern corner of the room is the Black Stone ((الحجر الأسود)). The four corners of the Ka'ba indicate the cardinal points of the compass. There is a very interesting view in Islamic cosmology which states that before the world was created the Ka'ba was a focus in the flux of pre–existence and that the world was formed from this particular point.

Thus it becomes the navel of earth. Also in cosmography, the Ka'ba corresponds with the pole star and as the latter is the highest point in the heavens, so the former is the highest point in the earth. The following is the prayers of Ibrahim from the Holy Quran :

Once, while he was walking to his father's house the day gradually faded, night came and a star appeared, when he saw this star he said : " That is my Lord ". But when it set he said : " o I do not love things that set " Then he saw the moon appear and said : " That is my Lord ". When this also set he said : " Surely if my Lord does not guide me I shall go astray and become one of the lost ". Then the sun rose and he said : " That is my Lord who is the greatest of all "

But this also set and when it did so he said : " O my people : I am free from your idolatry. See, I turn my face to the Greator of heaven and earth ". After this, there came a time when the people left the town and Ibrahim remainded behind. While they were gone, he took an axe and went to the temple where the idols stood. Then he broke them into pieces and scattered them all exept one large idol into whose hand he put the axe. When the people returned and saw what had happened in their temple they accused Ibrahim of the deed and questioned him saying : " Are you the man who did this to our gods ? " Ibrahim answered them : " Surely the largest of them has done this thing. Ask them, if they are able to speak ". The people were confused and said : " You know well that they cannot speak ". Then Ibrahim replied : " Do you then, disregarding Allah, the Lord of the Universe, worship those things that cannot help or harm you ? Shame on you and your worship of idols ". The people could not answer and were furious with him. As punishment they threw him into a furnace, but Allah protected him and he left the fire completely unharmed.

Then the prophet Ibrahim had to make a supreme sacrifice. He was going to sacrifice his only son Ismail to his Lord who had put him to such a hard and severe test. In a dream he was commanded by Allah to sacrifice his son. When he told his son of his dream, he understood and told his father that he must do what he thought he had to do. Together they went to a certain place in the valley of Mina and there prepared a place for sacrifice. When it was ready Ismail laid himself down on the alter and exposed his throat to his father's knife.

Ibrahim stood over his son, knife in hand, about to take the life of his beloved son. What courage and faith this father and son had, for this was no easy thing to do for either of them, for the one to take the life of his son and for the other to submit himself to his father's wish : both of them submitting to the Will of Allah. Just as Ibrahim's knife was about to descend to his son's throat he heard the bleating of a ram and suddenly saw the animal, an, Divine voice commanded him : " This animal will be sacrificed and not your son ". Then taking the ram which had miraculously appeared he obediently made a sacrifice to his Lord Who put him to this particular sacrifice.

One of the major significances of the pilgrimage is that it reminds us of the fine example of the great prophet Ibrahim. There is much to know about this wonderful man called ' Khalil Allah ' (خليل الله) ' the friend of Allah '. His life was very long and spent in the service of his Lord. The faith which Ibrahim taught, the faith that all the prophets taught, the faith that Muhammad, the last of all prophets taught is the faith of the One God, Allah. Ibrahim was the father of the upright religion. As the Holy Quran says :

« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » .
آل عمران ٦٧ .

It means : " Abraham was not a Jew, nor yet a Christian; but he was an upright man who had surrendered to (Allah), and he was not of the idolaters ".

To understand the true significance of the pilgrimage and the Eid al–Adha ' (the sacrificial feast which takes place on the 10th of Dhul Hijja), we must recall Ibrahim's life and his sacrifices. He showed us that we must submit to the Will of Allah, no matter what it may cost, and often this submission is a form of testing for us that we may prove ourselves in the process of strengthening our faith and character. From the very beginning, Ibrahim's life was separated from others by the hand of Allah. At his birth his mother had to hide in a cave to escape the soldiers of king Nimrood, who, because of a certain dream, had ordered the killing of all new–born children who were male. When still a youth he had a great spiritual experience which gave an indication of his future life.

He taught his people that there is a supreme Being, infinite and transcendent, above and beyond limited, human comprehension. He is the All Kind, All Knowing, nobody is asked for help or mercy save Him. He is the Creator of this Universe, and there is no creator but He, no partner to Him. He is the Only one who is distinguished by worship and He is the Sole cherisher of human kind. If one follows the logical and simple proofs set out by the prophet Ibrahim to his people then one comes up to the ultimate conclusion that from him spread out the eternally vibrant rays of Islam. No wonder that Ibrahim is linked to the Muslim nation with strong bond. The Quran tells of many happenings in Ibrahim's life. One day Ibrahim asked his people : " What are these idols you worship ? You are wrong in doing so ". They replied. " Our fathers did so, so do we ".

HAJJ – The Pilgrimage In Islam

By

Dr. Mohiaddin Alwaye

Islamic University

Madina

Pilgrimage is a spiritual provision for the Muslim. It fills his soul with obedience, fear of Allah, repentance from sins, love for the memory of the struggle between right and wrong; and it reminds him of the overthrow of the idols and establishment of the worship of the One God. The pilgrimage fills his heart with the brotherly feelings because it bids him remember that all his brother Muslims are facing towards the same sacred spot; that he is one of a great company of believers; united by one Faith filled with the same hopes reverencing the same things worshipping the same God. It moreover may be considered a world conference for all Muslims; a conference that is called for by Allah for the noble purposes. There around and inside the sacred House of " the land made safe " (البلد الأمين) the Muslim meets his brothers in religion from all parts of the world.

The eyes of the whole Muslim World fixed on that central spot, keep alive in the bossom of each some spark of the Divine fire which lighted up the earth in that age of darkness. The Holy Quran says :

« إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » آل عمران ٩٦ ، ٩٧ .

It means : " Lo ! the first Sanctuary appointed for mankind was that at Becca, a blessed place, a guidance to the peoples; wherein are plain memorials (of Allah's guidance); the place where Abraham stood up to pray; and whosoever enterth it is safe. And pilgrimage to the house is a duty unto Allah for mankind, for him who can find a way thither ".

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى
لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى
وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا

الكهف ١٠٩

IN THE NAME OF GOD, THE COMPASSIONATE, THE MERCIFUL

Say, "If the ocean were an ink-well for the words of my Lord, the ocean would run out before the words of my Lord run out, even if twice as much ink were provided."

(Qur'an 18:109)

Journal of

THE ISLAMIC UNIVERSITY

OF

MADINAH MONAWWARAH

RABI'-UL-AKHAR – RAMADAN
1401 A. H.

[QUARTERLY]

50 & 51 13 th YEAR

